دين الفطرة

كما بينته سورة البقرة
عقيدة وعبادة ومعاملة

تأليف
عبد العظيم بن بدوي الخلفي

الجزء الثاني

دار الكتاب المنير
للطبع والنشر والتوزيع

دين الفطرة

كما بينته سورة البقرة

عقيدة وعبادة ومعاملة

تأليف

عبد العظيم بن بدوى الخلفى

الجزء الثانى

دار الكتاب المنير

المركز الرئيسى : ٤٩ ش الحجاز- أمام دار المناسبات – مصر الجديدة
ت/ف: ٢٤٠٥٣٣٠ - ٦٣٩١٢٩٥ - ٦٣٩٠٦٣٣
مدينة نصر : ١ ش عبد الحكيم الرفاعى من عباس العقاد (أمام الحديقة الدولية)
ت/ف : ٦٧٠٢٢٦٣-٢٨٧٤٧١١
E-mail:info@compuscience.com.eg
www.compuscience.com.eg

الطبعة الأولى

٢٠٠٣م - ١٤٢٣ هـ

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٥١٦٢

I. S. B. N : 977-5735-82-3

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٠٢)﴾ [آل عمران] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا(٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(٧١) ﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإنَّ أصدقَ الحديث كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

وبعد: فهذه هي " الأربعون المنبرية (السابعة)و(الثامنة) " تخرج في ثوب واحد سمَّيتُه :

ديـــن الفطـــرة

كما بيّنتـــه سورة البقرة

عقيـــدة، وعبـــادة، ومعـــاملة

وقد بدأت الخطابة بها في مسجدنا العامر مسجد النـــور بالشـــين مركـــز قطور، في يوم الجمعة (١٤٢١/١/٢هـ الموافق ٢٠٠٠/٤/٧م) وانتهيت منهـــا في يوم الجمعة (١٤٢٣/١/٨هـ الموافق ٢٠٠٢/٣/٢٢م).

ومن المعلوم أَنَّ سورة البقرة قد طال فيها حديث رب العالمين عن بنـــي إسرائيل حتى استغرق نحوًا من ثلثها، فأفردت هذا الحديث بخطبه فـــي كتـــاب مستقل، سوف أُعدّه للطباعة عقب هذه الأربعين إن شاء الله.

وأسأل الله سبحانه وتعالى أَنْ ينفع بكل كلمة قُلتُها أو كتبتها، وأَنْ ينفعنـــي بها في الدنيا والآخرة، إِنَّه وليّ ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أَنْ الحمد لله رب العالمين

وكتبـــه

عبد العظيم بن بدوي الخلفيّ (لقباً)

بعد العصر من يوم الثلاثاء

١٤٢٣/١٠/١٣هـ

٢٠٠٢/١٢/١٧م

خلـــق ادم عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠)وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٣١)قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣)وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٣٤)وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٣٦)فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٣٧)قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٨)وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٣٩)﴾[البقرة].

لمَّا ذكر اللهُ تعالى دلائلَ التوحيد وما أنعمَ به على العباد مما لا يستطيعه غيرُه سبحانه، وكان مما ذكَره من ذلك خَلْقُهم وآبائهم الأولين، وخَلْقُ ما في السموات والأرض ممَّا فيه منافعُهم " أتبع ذلك ببدء خَلْقهم وامتنَّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه وجَعْلِه خليفةً وإسكانِه دارَ كرامتــه وإسـجادِ الملائكـة تعظيمـاً لشأنه وتنبيهاً على مكانه واختصاصه بالعلم الذي به كمالُ الذَّات وتمامُ الصفات، ولا شكَّ أَنَّ الإحسانَ إلى الأصل إحسانٌ إلى الفرع، وشَرفُ الفرعِ بشرفِ

الأصل»(١)، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً(٣٠)﴾ [البقرة]، وتقديرُ الكلام: "اذكروا نعمتي إذ فعلتُ بكم وفعلت، واذكروا فعْلي بأبيكم آدمَ إذْ قلتُ للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ »(٢)، "وإسنادُ القولِ إلى الربِّ في غايةٍ من المناسبة والبيان، لأنَّه لمَّا ذكر أنَّه خلق لهم ما في الأرض كان في ذلك صلاحٌ لأحوالهم ومعاشِهم فناسبَ ذِكْرَ الربِّ وإضافتَه إلى رسول الله ﷺ تنبيها على شرفِه واختصاصِه بخطابه، وهَزٌّ لاستماع ما يذكر بعد ذلك من غريب افتتاح هذا الجنس الإنساني وابتداء أمره ومآله، وهذا تنوُّعٌ في الخطاب، وخروجٌ من الخطاب العام إلى الخطاب الخاص، وفي ذلك أيضاً إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ المُقبلَ عليه بالخطاب له الحظُّ الأعظمُ والقِسْمُ الأوفرُ من الجملة المخبَر بها، إذ هو في الحقيقة أعظمُ خلفائه، ألا ترى إلى عموم رسالته ودُعائه وجعله إماماً للأنبياء ليلةَ إسرائه، وجَعْلِ آدمَ فمن دُونَه يومَ القيامة تحتَ لوائه، فهو المقدَّم في أرضه وسمائه، وفي دَارَيْ تكليفه وجزائه»(٣).

وقد تضمَّنت هذه الآياتُ ذِكْرَ أُصول العوالِم الثَّلاثة: عالَمِ الملائكة، وعالَمِ الإنس، وعالَمِ الجنّ، وكلٌّ منها مُخَالفٌ لغيره في صفاته مُباينٌ له في أصل ذاته، وفي ذلك يقولُ النبيُّ ﷺ: «**خُلِقَت الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»(٤).

وقد تحدَّثنا عن الملائكةِ ووجُوبِ الإيمان بهم في الحديث عن أركان الإيمان، وأمَّا عالم الإنس والجنّ فقد جمع اللهُ تعالى بينهما في الذِّكْر لبيان أصل خَلْقِهم في أكثرَ من آيةٍ منها قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ

(١) البحر المحيط(١/١٣٩).
(٢) الطبري (١/١٩٧).
(٣) البحر المحيط (١/١٣٩).
(٤) م (٤/٢٢٩٤/٢٩٩٦).

كالفخار(١٤)خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ(١٥)﴾ [الرحمن]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(٢٦)وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ(٢٧)﴾ [الحجر]، وقد تكرَّر في القرآن الكريم حكايةُ قول إبليس لعنه الله ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(١٢)﴾ [الأعراف] فليس إبليسُ إذَنْ من الملائكة ولا مْن الإنس وإنَّما هو عالَمٌ ثالثٌ هو عالَم الجِنّ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ(٥٠)﴾ [الكهف].

ولقد سبق خلقُ الملائكة والجنّ خَلْقَ الإنس وكانوا جميعاً في السماء، فلمَّا أراد الله تعالى خَلْقَ آدم عليه السلام قال ﴿لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً(٣٠)﴾ [البقرة] " أي قوماً يخلُف بعضُهم بعضاً، قَرْناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ(٣٩)﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ(٦٢)﴾ [النمل] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ(٦٠)﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ(٥٩)﴾ [مريم]"(١)، ولا يصح أن يُقال عن الإنسان خليفةُ الله، لأنَّ الخليفة إنَّما يخلُف الغائب، واللهُ سبحانه وتعالى خليفةُ الغائب في أهله، ووكيلُ عَبده المؤمن، ولذلك كان النبيُّ ﷺ يقول في السفر: "**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**"(٢)، وقال ﷺ في المسيح الدجال: "**إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**"(٣) "(٤)

---

(١) تفسير القرآن العظيم(١/٦٩).

(٢) م(٢/٩٧٨/١٣٤٢)، د(٧/٢٥٨/٢٥٨١)، ت(٥/١٦٥/٣٥١٢).

(٣) م(٤/٢٢٥٠/٢٩٣٧)، د(١١/٤٤٥/٤٢٩٩)، ت(٣/٤٣٦/٢٣٤١).

(٤) زاد المعاد (٤٧٤و٣/٤٧٥).

وقول الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ(٣٠)﴾ [البقرة]، لم يكن هذا القول "على وجْهِ الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسدِ لبني آدم، وإنَّما هو سؤالُ استعلامٍ واستكشافٍ، عن الحكمة في ذلك، يقولون يا ربَّنا: ما الحكمةُ في خَلْق هؤلاء مع أنَّ منهم من يُفسِدُ في الأرض ويَسفِكُ الدِّماء، فإنْ كان المرادُ عبادتَك فنحن نُسبِّح بحمدك ونُقدِّس لك ولا يصدُر منا شيءٌ من ذلك فهلاَّ وقع الاقتصارُ علينا"(١)، وكان هذا السؤالُ من الملائكة مأذوناً لهم فيه ولذلك أعلمهم اللهُ وكشفَ لهم عن الحكمةِ في خَلْق هذا الإنسان، ولو لم يكن مأذوناً لهم فيه ما سألوه لأنَّ الله قال فيهم: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ(٢٧)﴾ [الأنبياء] أي لا يسألون شيئاً لم يأذن لهم الله فيه، ولو سألوه ما لم يأذن لهم فيه لأنكر عليهم كما أنكر بعد ذلك على أوّل رُسله إلى الأَرض نوحٍ عليه السلام حين راجَعه في ابنه الذي كان من المُغرَقين ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٤٦)﴾ [هود] فلمَّا لم يُنْكِرْ على الملائكة سؤالَهم بل أجابهم دلَّ على أنَّه قد أَذِنَ لهم.

فإن قيل: ومِنْ أين عَلِمَت الملائكةُ أَنَّ مِنْ ذُرِيَّة هذا الإنسان مَنْ يُفْسِدُ في الأَرض ويسفك الدِّماء؟

فالجواب أَنَّ هذا صدرَ منهم عن عِلْم أطلَعهم اللهُ عليه كما ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا(٣٢)﴾ [البقرة]، أو يكونُ ظَنًّا ظنُّوه فصدَق ظنُّهم، كما قال إبليسُ لعنه اللهُ بعد أَنْ لعنَه وطردَه من جنَّته : ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(١٧)﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿قَالَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم(١/٦٩).

أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً(٦٢)﴾ [الإسراء]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٠)﴾ [سبأ] "وأمَّا ما يُقال مِنْ أنَّه كان قبلَ آدمَ عليه السلام في الأرض خَلْقٌ يَعْصُون قاسَ عليهم الملائكةُ حالَ آدمَ عليه السلام فكلامٌ لا أصلَ له، بل آدمُ أوَّلُ ساكنيها بنفسه"(١)، فلمَّا سألت الملائكةُ هذا السؤالَ أجابَهم اللهُ بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠)﴾ [البقرة]، "أيّ أعلم من المَصلحةِ الرَّاجحةِ في خَلْقِ هذا الصنفِ على المفاسد التي ذَكَرْتُموها ما لا تعلَمون أنتم، فإنِّي سأجعل فيهم الأنبياءَ والرُّسل، ويُوجد منهم الصدِّيقون والشُهداءُ والصَّالحون والعُبَّاد والزُّهاد والأولياءُ والأبرارُ والمقرَّبون والعُلماء العاملونَ والخَاشِعُونَ والمحبُّون له تبارك وتعالى المتَّبِعُون رُسلَه، ولذلك يكلِّف اللهُ الملائكةَ بحضُور مجالسِ العبادةِ والطَّاعة ليرَوْا ما لم يكونُوا يعلَمون من الحكمةِ في خَلْقِ هذا الإنسان كما قال ﷺ : "**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**"(٢)، وهو من تفسيرِ قولِ الله لهم: ﴿**قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**(٣٠)﴾ [البقرة]"(٣).

"ولمَّا كان قولُ الملائكةِ فيه إشارةٌ إلى فَضْلِهم على هذا الخليفةِ الذي يجعلُه اللهُ في الأرض أراد اللهُ تعالى أَن يبيِّن لهم من فَضْلِ آدمَ ما يعرفون به فَضْلَه وكمالَ حكمةِ الله وعلمِه فقال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**(٣١)﴾ [البقرة]

---

(١) محاسن التأويل(٢/٦٩).

(٢) متفق عليه : خ(٢/٣٣/٥٥٥)، م(١/٤٣٩/٦٣٢)، ن(٢٤٠و١/٢٤١).

(٣) تفسير القرآن العظيم(١/٦٩).

أيَ أسماءَ الأشياء كلِّها وما هو مُسَمًّى لها، فعلَّمه الاسْمَ والمُسَــمَّى، أي الألفــاظَ والمعاني، حتى المصغَّر من الأسماء والمكبَّــر كالقَصْــعَة والقُصَــيْعَة، ﴿ثُــمَّ عَرَضَهُمْ(٣١)﴾ [البقرة] أي المسمَّيات ﴿عَلَى الْمَلائِكَةِ(٣١)﴾ [البقرة] امتحاناً لهم هــل يعرفون أم لا؟ ﴿ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٣١)﴾ [البقرة] في قولكم وظنِّكم أنكم أفضلُ من هذا الخليفة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ(٣٢)﴾ [البقرة] أي نُنَزِهُك من الاعتراض منَّا عليك ومُخَالَفةِ أمرك ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا (٣٢)﴾ [البقرة]بوجــهٍ مــن الوجوه ﴿إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا(٣٢)﴾ [البقرة] إياه فضلاً منك وجُوداً كما قلتَ وقولُك الحق: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ(٢٥٤)﴾ [البقرة] ﴿إِنَّكَ أَنْــتَ الْعَلِــيمُ﴾ الذي أحاط بكل شيءٍ علماً ﴿الْحَكِيمُ(٣٢) ﴾ [البقرة] الذي له الحِكْمةُ التَّامة، فما خَلَق شيئاً إلاَّ لحكمةٍ ولا أمر بشيءٍ إلاَّ لحكمة»[١].

"فانظر إلى حُسْنِ هذا الجوابِ كيفَ قدَّموا بين يدَيْه تنزيهَ اللهِ تعــالى ثــم اعترَفُوا بالجهل ثم أثْبَتُوا لله العلمَ والحِكْمَة، وناسبَ تقديمُ الوصفِ بــالعلمِ علــى الوصفِ بالحكمةِ لأنَّه المتصل به في قوله ﴿وَعَلَّمَ ﴾ ﴿أَنبِئُونِي﴾ ﴿لاَ عِلْمَ لَنَــا﴾ فالذي ظهرت به المزيَّةُ لآدمَ والفضيلةُ هو العلمُ فناسبَ ذِكْرُه متصلاً بــه، ولأَنَّ الحكمة إنَّما هي آثارُ العلم وناشئةٌ عنه ولذلك أكثرُ ما جاء في القــرآن الكــريم بتقديم الوصفِ بالعلم على الوصف بالحكمة، ولأَنْ يكونَ أخرُ مقــالهم مُخالفــاً لأوله حتى يُبيِّن رجوعَهم عن قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ »[٢].

فلمَّا اعترفوا بعجزهم عن معرفة الأسماء التي سُئلوا عنها وأقرُّوا بجهلهم بها ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ(٣٣)﴾ [البقرة] فأنبأهم بها ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ(٣٣)﴾ [البقرة] "والمرادُ من هذا

---

(١) السعدي (٧١و٧٢/١).

(٢) البحر المحيط (١٤٨/١).

الغيبِ أنَّه تعالى كان عالماً بأحوال آدمَ عليه السلام قبل أن يخلُقَه، مما يدلُّ على أنَّه سبحانه يعلُم الأشياءَ قبل حُدوثها، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ(٣٣)﴾ [البقرة] ففيه وجوه:

أحدها: ما روى الشَّعبي عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ أنَّ قولَه ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ(٣٣)﴾ [البقرة] أراد به قولَهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا(٣١)﴾ وقولَه: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣)﴾ [البقرة] أراد به ما أسرَّه إبليسُ في نفسه من الكِبْر وأن لا يسجد.

وثانيها: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠)﴾ [البقرة] من المصلحة في خَلْقِها.

وثالثها: أنَّه تعالى لمَّا خَلَقَ آدمَ رأت الملائكةُ خلقاً عجيباً فقالوا ليكنْ ما شاءَ فلن يخلُقَ ربُّنا خلْقاً إلاَّ كنَّا أكرمَ عليه منه، فهذا الذي كتَمُوه، ويجوز أن يكونَ هذا القولُ سرّاً أسرُّوه بينَهم فأبداه بعضُهم لبعضٍ وأسرُّوه عن غيرهم فكان في هذا الفعلِ الواحدِ إبداءٌ وكِتْمان،.

ورابعها: أنَّ الأقسامَ خمسةٌ لأنَّ الشيءَ إمَّا أن يكون خيراً محْضاً، وإمَّا أن يكون شراً محضاً، أو مُمتَزِجاً، وعلى تقدير الامتزاج فإمَّا أن يعتدلَ الأمران، أو يكون الخيرُ غالباً، أو يكونَ الشرُّ غالباً، أمَّا الخيرُ المحضُ فالحكمةُ تقتضي إيجادَه، وأمَّا الذي يكون الخيرُ فيه غالباً فالحكمةُ تقتضي إيجادَه لأنَّ ترك الخيرِ الكثيرِ لأجل الشرِّ القليل شرٌّ كبير، فالملائكةُ ذكروا الفسادَ والقتْلَ وهو شرٌّ قليلٌ بالنسبة إلى ما يحصل منهم من الخيرات، فقولُه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ خيرَهم غالبٌ على هذه الشُّرور فاقتضت الحكمةُ إيجادَهم وتكوينَهم»[١].

ومن تكريم اللهِ لآدمَ أنَّه أمر الملائكةَ بالسُّجود له: وقد تقدَّم إليهم الأمرُ قبلَ الخَلْق كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ

---

(١) الرازي (٢٢٨و٢٢٩/٢).

حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٢٩)﴾ [الحجر]، وقال تعالى: **﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢)﴾** [ص]،

قال ابنُ كثير: "أَعْلَم اللهُ سبحانه وتعالى الملائكةَ قبلَ خَلْق آدمَ عليه السلام أَنَّه سيخلُق بشراً من صلصالٍ من حمإٍ مسنون، وتقدَّم إليهم بالأمر متى فرغَ من خَلقِه وتسويَتِه فَلْيَسجُدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامتثالاً لأمر اللهِ عزَّ وجلَّ فامتثل الملائكةُ كلُّهم ذلك سوى إبليسَ، ولم يكن منهم جنساً كان من الجنِّ فخانه طبعُه وجبلَّتُه أحوجَ إليه فاستنكفَ عن السجودِ لآدمَ، وخاصم ربَّه عزَّ وجلَّ فيه وادَّعى أَنَّه خيرٌ من آدم، لأَنَّه مخلوقٌ من نار وآدمُ خُلِقَ من طين، والنارُ خيرٌ من الطين في زعمه، وقد أخطأ في ذلك،وخالف أمرَ الله تعالى وكفر بذلك فأبعده اللهُ عزَّ وجل، ورغم أنفَه، وطرده عن بابه ومحلِّ أُنسه وحَضْرة قُدْسه، وسمَّاه إبليسَ إعلاماً له بأَنَّه قد أَبْلَس من الرحمة، وأنزله من السماء مَذْموماً مَدْحُوراً إلى الأرض، فسأل اللهَ النَّظرَ إلى يوم البعث فأنظره الحليمُ الذي لا يُعَجِّل على من عصاه، فلمَّا أَمِنَ الهلاكَ إلى القيامة تمرَّد وطغى قال تعالى: **﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(٨٣)﴾** [ص]، وقال اللهُ تعالى له: **﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا(٦٥)﴾** [الإسراء]"[١]،

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ"[٢]، "يعني أَنَّ الله تعالى لمَّا صوَّر طينةَ آدم وشكلَّها

---

(١)ابن كثير (٤٣و٤٤/٤).

(٢)م(٢٦١١/١٠١٦/٤) .

بشَكْلِه على ما سبقَ في علمِه، فلمَّا رآها إبليسُ أطافَ بها أي دار حولَها وجعل ينظرُ في كَيْفِيَتها وأَمْرِها، فلمَّا رآها ذاتَ جَوْفٍ وقع له أَنَّها مفتقرةٌ إلى ما يسدُّ جوفَها، وأنَّه لا يتمالك عن تحصيل ما يحتاج إليه من أعراضها وشهواتها، فكان الأمر على ما وقع»(١).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ فَجَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ»(٢).

وَعَنْ أنس قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : « لَمَّا نُفِخَ فِي آدمَ الرُّوحُ، فَصَارَتْ فِي رَأسِهِ، فَعَطَسَ، فَقَالَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين، فَقَالَ اللهُ: يَرحمُك الله»(٣)،وكان ذلك في آخرِ ساعةٍ من ساعات الجمُعة فيما بينَ العَصْرِ والليل، كما صحَّ بذلك الحديثُ عن رسول الله ﷺ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: « خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَم بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ»(٤).

ولعلَّ هذا هو السرَّ في كونِها ساعةَ الإجابة كما جاء في الحديث:

---

(١) المفهم (٥٩٦و٥٩٧/٦).

(٢) صحيح : [ص.ت:٢٩٥٥]، ت(٤٠٣١/٢٧٣/٤)، د(٤٦٦٨/٤٥٥/١٢).

(٣) صحيح : ص.ج:٥٠٩٢]، حب (٢٠٨١/٥٠٨) ، ك(٢٦٣/٤) .

(٤) م(٢٧٨٩/٢١٤٩و٢١٥٠/٤).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: " يَوْمُ الْجُمُعَةِ ثِنْتَا عَشْرَةَ يُرِيدُ سَاعَةً لاَ يُوجَدُ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا إِلاَّ أَتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ "(١)،

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا "(٢)، "وَفِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ"(٣)

وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ"(٤)،

فلمَّا نفخ اللهُ الرُّوحَ في آدمَ بادرتِ الملائكةُ كلُّهم بالسجود له تنفيذاً لأمر الله ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(٣١)﴾ [الحجر] فطرده اللهُ من الجنَّة، ثُمَّ خلق اللهُ لآدمَ زَوْجًا يسكن إليها ويأنَسُ بها، خلقها من ضِلْعٍ من أضلاع آدم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا(١٨٩)﴾ [الأعراف]، وقال ﷺ : "إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا"(٥)،

---

(١) صحيح : [ص.د : ٩٢٦] ، د(١٠٣٥/٣٧٢و٣٧٣/٣)، ن(٩٩و١٠٠/٣) .

(٢) م(٨٥٤-١٨-/٥٨٥/٢)، ت(٤٨٦/٣٠٥/١)، ن(٨٩و٩٠/٣).

(٣) متفق عليه:خ(٩٣٥/٤١٥/٢)،م(٨٥٢/٥٨٣/٢)، ن(١١٥و١١٦/٣)،جه(١١٣٧/٣٦٠/١).

(٤) متفق عليه : خ(٣٣٢٦/٣٦٢/٦)، م(٢٨٤١/٢١٨٣/٤).

(٥) م(١٤٦٨/١٠٩١/٢).

وخاطبه قُبُلاً بقوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ(٣٥)﴾ [البقرة]، ولذلك لمَّا سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن آدم أنبيًّا كان؟ قال نعم»(١).

وامتن اللهُ على آدمَ فأباح له الأكلَ مما شاء هو وزوجُه إلاَّ شجرةً واحدةً حظَرها عليهما ليس في تعيينها أدنى فائدة ولذلك سكت اللهُ عنها، وقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى(١١٩)﴾ [طه]، وأفرده بالخطاب لأَنَّ زوجَه تَبعٌ له، وهو الذي يحملُ همَّ إطعامها وسَقْيها، مما يدلُّ على أَنَّ حواءَ مكانُها البيت من ساعة خُلِقَت، ثم حذَّر اللهُ آدمَ وحواءَ من إبليسَ ونهاهُما عن طاعته ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى(١١٧)﴾ [طه]، ولكنَّ إبليسَ وهو الذي حسدَ آدمَ على سُجود الملائكةِ له أصرَّ على إزالة النِّعمة عنه، فما زال يُوسْوِسُ له ويُغويه ويزيّنُ له الأكلَ من الشجرةِ المحظورةِ ويُطَمِّعه في أن فى الأكل منها دوامَ ما هو فيه وخلودَه ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ(٢١)﴾ [الأعراف]، فخُدِعَ آدمُ وزوجُه بقَسَمه وظنَّا أن لا يحلف بالله كاذبًا ﴿فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى(١٢٢)﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٢٣)﴾ [الأعراف]، وهذه هي الكَلماتُ التي تلقَّاها من ربِّه كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٣٧)﴾ [البقرة]، ثُمَّ أمرهم اللهُ تعالى بالنُّزول إلى الأرض حالةَ كَوْن الأَبويْن مَرْحُومَيْن، وإبليسَ مطرودًا من الرحمة يائسًا منها وقال اللهُ لهم: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٣٦)﴾ [البقرة] وأنَّه سبحانه سيُرسِلُ رُسُلَه بالبيِّنات والهُدى فمن آمن بهم واتَّبع هداهم دخل الجنَّة،

- (١) صحيح : [س.ص : ٢٦٦٨] ، حب(٢٠٨٥/٥٠٩) .

ومن كذَّبهم وأعرض عن هُداهم دخل النَّار، قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة].

* * *

الدروس المستفادة من خلق آدم عليه السلام

في الآيات المباركات التي قصَّ اللهُ تعالى علينا فيها قِصَّةَ آدمَ عليه السلام من حيثُ خَلْقُه وإسجادُ الملائكةِ له، وإسكانُه الجنَّة، وإهباطُه منها بعد توبةِ الله عليه، فوائدُ كثيرة:

منها: « إثباتُ صِفَةِ الكلامِ للهِ عزَّ وجلَّ، وأَنَّه تعالى لم يَزَلْ متكلِّماً، يقول ما شاء، ويتكلَّم بما شاء، وأَنَّه عليمٌ حكيم»[١]،

ومنها: «أَنَّ اللهَ تعالى في عَظَمته وجلالِه يرضى لعبيدِه أَنْ يسألوه عن حِكْمَتِه في صُنْعِه، وما يَخْفَى عليهم من أسرارِه في خَلْقِه، لا سِّيما عند الحَيْرة»[٢]، كما أَذِنَ للملائكةِ أَن تسأَلَه عن حِكْمَةِ خَلْقِ الإنسانِ مع أنّ من ذُرِّيته مَنْ يُفْسِدُ في الأرضِ ويَسْفِكُ الدِّماء.

ومنها: « أَنَّ العبدَ إذا خَفِيَتْ عليه حِكْمَةُ اللهِ في بعض المخلُوقاتِ والمأموراتِ فالواجبُ عليه التسليمُ واتِّهامُ عَقْلِه والإقرارُ للهِ بالحكمة »[٣]، ولذلك قال عمرُ وقد أراد أن يُقَبِّلَ الحجرَ الأسْوَد: «**إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لاَ تَضُرٌّ وَلاَ تَنْفَعُ وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ** »[٤]،

وعَنْ سَهْلِ بْنَ حُنَيْفٍ قَالَ:« أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا رَأْيكُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي

---

(١) السعدي (١/٧٣).

(٢) القاسمي(٢/٩٧).

(٣) السعدي(١/٧٣).

(٤) متفق عليه:خ(٣/٤٦٢/١٥٩٧)،م(٢/٩٢٥/١٢٧٠)،د(٥/٣٢٥/١٨٥٦)، ت(٨٦٢/٢/١٧٥)، جه(٢/٩٨١/٢٩٤٣)، ن(٥/٢٢٧).

يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَرَدَدْتُهُ وَاللَّهِ مَا وَضَعْنَا سُيُوفَنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا إِلَى أَمْرٍ قَطُّ إِلاَّ أَسْهَلْنَ بِنَا إِلَى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ إِلاَّ أَمْرَكُمْ هَذَا»(١)

ومنها: « أنَّه إذَا كان من أسرار اللهِ تعالى ما يخفىَ على الملائكةِ فنحنُ أوْلَى بأن يَخْفَى علينا، فلا مطمعَ للإنسانِ في معرفةِ جميعِ أسرارِ الخليقةِ وحِكَمَها لأنَّه لم يؤتَ من العلم إلاَّ قليلاً»(٢).

ومنها: « اعْتِناءُ اللهِ بشأنِ الملائكةِ وإحسانُه بهم، بتَعْليمِهم ما جَهِلُوا، وتنبيهُهم على ما لم يعلموا .

ومنها: « أَنَّ العِلمَ أشرفُ ما يُوصَفُ به الممدُوح، وذَلِكَ لأَنَّ اللهَ تعالى تعرَّف لملائكتِه بعلْمِه وحِكْمَته، وعرَّفهم فضلَ آدمَ بالعلم، وأمرَهم بالسُّجودِ له إكراماً وتعظيماً لما له من فَضْلِ عِلْمه»(٣)،

ومن ذلك اليومِ والملائكةُ تُجِلُّ أهلَ العلم من بني آدمَ وتُبجِّلُهم وتَخْفِضُ لهم أجْنِحَتها إجلالاً وتواضُعاً كما قال النَّبيُّ ﷺ : **وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ**»(٤)،قال القُرطُبِيُّ: « أي تخضَعُ وتتواضَعُ وإنَّما تفعل ذلك لأَهْل العلم خاصةً من بَيْن سائرِ الخلق،لأن الله تعالى ألْزَمها ذلكَ في آدمَ عليه السلام فتأدبَّت بذلكَ الأدبَ، فكُلَّما ظهرَ لها عِلْمٌ في بشرٍ خضَعتْ له وتَواضَعتْ وتذلَّلت إعظاماً للعِلْم وأَهْلِه، ورضىً بالطَّلبِ له والشُّغل به، وهذا في الطُّلاب مِنْهم فكيفَ بالأحبار فيهم والرَّبانيِّين منهم، جعلنا اللهُ منهم وفيهم إنَّه ذُو فَضْلٍ عظيم»(٥).

---

(١) متفق عليه :خ(٦/٢٨١/٣١٨١)، م(٣/١٤١٣/-٩٦-١٧٨٥).

(٢) القاسمي(٢/٩٧).

(٣) السعدي(٧٣و١/٧٤).

(٤) صحيح:[ص.د:٣٠٩٦]،د(١٠/٧٤-٧٢/٣٦٢٤)، ت(٤/١٥٣/٢٨٢٣)، جه(١/٨١/٢٢٣).

(٥) القرطبي(٢٨٨و١/٢٨٩).

ومنها: «أنَّ الواجب على من سئل عما لا يعلم أن يقول لا أدري، الله أعلم، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء، فقد قال الله للملائكة: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢)﴾ [البقرة]، **وَسَأَلَ جِبريلُ النبيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ قَالَ: « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»**[1]،

وجاءت الجَدَّةُ إلى أبي بكرٍ تسألُه حقَّها في الميراث، فقال لها ارجعي حتَّى أسأل النَّاس.

وكان عليٌّ رضِيَ الله عنه يقول: وابْرِدَها على الكبد، ثلاثَ مرات، قالوا وما ذلك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: أَنْ يُسْأَل الرَّجلُ عمَّا لا يعلم فيقولَ اللهُ أعلم.

وسأل رجلٌ ابنَ عمرَ عن مسألةٍ فقال لا عِلْم لي بها، فلما أدبر الرَّجُل، قال: ابنُ عمر: نعم ما قال ابنُ عمر، سُئِلَ عمَّا لا يعلم فقال: لا عِلْم لي به. ونُقِلَ ذلك عن كثيرٍ من الصحابة والتابعين وفُقهاءِ المسلمين»[2]، لأنَّهم قرءوا فيما قرءوا في سورة البقرة ﴿**إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(١٦٩)**﴾ فمَنْ قال ما لا يَعْلَمُ فقد أطاعَ الشَّيطانَ وعَصَى الرَّحمن، ولم يكنْ شيءٌ أبغضَ إليهم من طاعةِ الشَّيطان.

ومنها: «أنَّه لا سبيلَ إلى مَعرفَةِ المُغيَّبات إلاَّ بتعليمِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يُمْكِنُ التوَصُّل إليها بعلمِ النُّجومِ والكَهانَةِ والعرَافة، كما قال تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ(٥٩)**﴾[الأنعام]، وقال تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ(٢٧)**﴾ [الجن]، وإذا كانت الملائكة

---

(١) م(١/٣٦/٨)، ت(٢٧٣٨/١١٩-٤/١٢١)، د(٤٦٧٠/٤٥٩-١٢/٤٦٤)، جه(٦٣/١/٢٤).
(٢) القرطبي(٢٨٥و١/٢٨٦).

عجَزتْ عن معرفةِ الغَيْب فَلأنْ يعجزَ عنه غيرُهم أولى»(١)، فلا يعلم الغيبَ مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ولا وَلِيٌّ صَالِحٌ، ولا يعلم الغيبَ إِنْسٌ ولا جِنٌّ، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**(٦٥)﴾ [النمل]،

وهاهمُ الملائكةُ لمَّا قال الله لهم: ﴿**أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**(٣١) **قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**(٣٢)﴾ [البقرة]،

وهاهو إبراهيمُ الخليلُ يدخل عليه الملائكةُ متشكِّلينَ بأشْكَالِ البَشَرِ فلا يَعرفُ أنَّهم ملائكةٌ ويُبادرُ بتقديم الطَّعام لهم ويُنْكِرُ عليهم عَدمَ الأكل، ولو عَلِمَ أنَّهم ملائكةٌ ما تكلَّف لهم أصلاً، ولمَّا خرج هؤلاء الأملاكُ من عند الخليلِ متوجِّهينَ إلى لوطٍ عليه السلام لإهلاكِ قومِهِ لم يَعْرِفْ أنَّهم ملائكةٌ وخافَ عليهم مِنْ قومه ﴿**سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ**(٧٧)﴾ [هود]؛

ولمَّا جاء القومُ يُريدون أنْ يعتدُوا على ضُيُوف لوطٍ ازداد قَلَقُه وعَظُم كَرْبُه حتى : ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**(٨٠)﴾ [هود]، وهناك فقط قال الضُّيوفُ: ﴿**قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ**(٨١)﴾ [هود] فعرَفهم، ولو عَرَفَهم من ساعةِ وُصُولهم لم يَضِقْ بهم ذرعاً.ويوسفُ عليه السلام كانِ بمصرَ ممكَّناً له فيها، ويعقوبُ لا يعلم عنه شيئاً بل ويبكي عليه حُزْناً حتى عَمِيَ، ولو كان يعقوبُ يعلم الغَيْبَ لَعَلِمَ بحال ابنه. ونبيُّنا ﷺ لَمَّا سأله جبريلُ متى الساعة؟ وهي من الغَيْب قال: "**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»(٢).

---

(١) الرازي(٢/٢٢٨) وهذا لفظه، القرطبي(١/٢٩٠)، الطبري (١/٢٢٠).

(٢) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

فهؤلاء خيرةُ الخَلْق من أهل السماءِ والأرضِ لا يعلمُون الغَيْبَ، حتى الجنّ الذين يتعاملُ معهم الكهَنةُ والعرّافون والمُنَجِّمونَ والدَّجالون والمُشَعْوِذُون ويزعمون أنَّهم يعلمون الغَيْبَ عن طريقهم، أولئك الجِنُّ أنفسُهم لا يعلمون الغيب، فلقد مات سُلَيمانُ عليه السلام وهو قاعدٌ على كرسيِّه مُتَّكِئٌ على عصاه والجنُّ يجيئونَ ويروحونَ في أعمالهم المسخَّرون فيها لا يفْتُرون عنها ولا يُقَصِّرون خوفًا من المَلك وهو ميِّتٌ وهم لا يعلمون مع أنَّه أمامهم، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ**(١٤)﴾ [سبأ].

فاحذر أيها المسلمُ الدَّجالين والكهنةَ والعرّافين، لا تأتهم ولا تُصَدِّقْهم فقد قال ﷺ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**»[١]،

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»[٢].

فإنْ قيل: لكنَّ الكهنةَ يُحدِّثُون بالشيءِ أحيْاناً فيقعُ كما حدَّثوا به، فالجواب:

عَنْ عَائِشَةَ سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ يَكُونُ حَقًّا قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْجِنِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ»[٣].

---

(١) م(٤/١٧٥١/٢٢٣٠).

(٢) صحيح: [ص.د:٣٣٠٤]،د(٣٩٨/٣٨٨٦و٣٩٩/١٠)،ت(١/٩٠/١٣٥)،جه(١/٢٠٩/٦٣٩)

(٣) متفق عليه : خ (١٠/٢١٦/٥٧٦٢) م(٢٢٢٩-١٢٣-/٤/١٧٥٠).

ومنها: إيجابُ مُراقبةِ اللهِ عزَّ وجلَّ والخوفِ منه، والاجتهادُ في تصفيةِ الباطن بحيثُ يتركُ الفواحِشَ ما ظهر منها وما بطن، لأنَّ اللهَ يعلَمُ السِّرَّ وأخفى، فإذا ترك الإنسانُ ظاهرَ الإثم لاطِّلاع الخَلْقِ عليه وجَبَ أَنْ يتركَ باطنَ الإثمِ لاطِّلاع الخَالِق سُبحانه عليه، وإلاَّ كان من الخاسرين.

ولذلك "قال سُليمَانُ بنُ عليٍّ لحُمَيْدٍ الطويل عِظْني فقال: "إنْ كُنْتَ إذا عصيتَ اللهَ خالياً ظننتَ أَنَّه يراك فلقد اجترأْتَ على أمرٍ عظيمٍ، وإنْ كنتَ ظننتَ أَنَّه لا يراك فلقد كَفَرْت.

وقال حاتمُ الأصمُّ: طَهِّرْ نَفْسكَ في ثلاثة أحوال: إذا كنتَ عاملاً بالجوارح فاذْكُر نظَرَ الله إليك. وإذا كنتَ قائلاً فاذْكُر سَمْعَ الله إليك، وإذا كُنتَ ساكتاً عاملاً بالضمير فاذْكُر عِلْمَ الله بك إذ هو يقول:﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦)﴾[طه]»[1].

ومنها: أنَّ سجودَ الملائكةِ لآدم كان طاعةً لله وعبادةً له بامتثالِ أمرِه، وكان إكراماً وإجلالاً لآدم، ومازال هذا السُّجودُ سُجُودُ التَّحيَّة والإكرام مَشْرُوعاً في شرائع مَنْ قبلنا ثم نُسِخَ في شريعتنا إكراماً لنا وإعزازاً أن نَحْنِيَ جِباهَنا لغير خالقنا كما قال الشاعرُ المُسْلِم:

نحنُ لا نَحْنِي الجباه . . . قط إلاَّ في الصلاة

قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(٤)**﴾ [يوسف]، وفي نهاية القصة ﴿**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا(١٠٠)**﴾ [يوسف]، وظلَّ هذا السُّجودُ إلى بِعثَةِ النبيِّ ﷺ **عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّهُ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الْيَمَنِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!**

---

(١) الرازي(٢/٢٢٩).

رَأَيْتُ رِجَالاً بِالْيَمَنِ يَسْجُدُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِهِمْ أَفَلاَ نَسْجُدُ لَكَ قَالَ: " لَوْ كُنْتُ آمِرًا بَشَرًا يَسْجُدُ لِبَشَرٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا"(١)، فلا يجوزُ لمسلمٍ أَن يَسْجُدَ لغير الله.

ومنها: التَّحذيرُ من الحَسدِ والكِبْرِ، فإنَّهما أوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ به، حَسَدَ إبليسُ آدمَ فاستكبرَ أَنْ يسجدَ له كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٧٤)﴾ [ص] " والاستِكْبَارُ: الاستِعْظَام، فكأَنَّه كَرِهَ السُّجودَ في حَقِّهِ واستَعْظَمَهُ في حَقِّ آدم، فكان تَرْكُ السُّجودِ لآدمَ تَسْفيهًا لأمرِ اللهِ وحِكْمَتِه، وعنْ هذا الكبرِ عبَّر النبي ﷺ بقوله: " **لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ: رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ"**(٢)، ومَعْنَى بَطَرُ الحَقِّ تسفيهُه وإبْطَالُه، وغَمْطُ النَّاسِ الاحتقارُ لهم والازدراءُ بهم.

وقد صرَّح اللعينُ بهذا المعنى فقال: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(٧٦)**﴾ [ص]، وقال: ﴿**ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا(٦١)**﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿**قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(٣٣)**﴾ [الحجر]، فكفَّره اللهُ بذلك، فَكُلُّ من سفّه شيئاً من أوامرِ اللهِ تعالى أو أوامرِ رسُولِه ﷺ كان حَكْمُهُ حُكْمَهُ، وهذا ما لا خلاف فيه" (٣).

ومنها: التَّحذيرُ من استعمالِ القياسِ مع النَّص: فإنَّ أوَّل من قاس إبليسُ لعنَه الله، فقاس أصلَ آدمَ على أصلِه فرأى أصلَه خيراً، فأبى أن يسجدَ لآدمَ واستكبرَ عن أمرِ الله وكان من الكافرين.

---

(١) صحيح : [ص.ج : ٧٦٠٢] ، حم(١٦/٢٢٧/٢٤٧)

(٢) م(١/٩٣/٩١)، ت(٣/٢٤٣/٢٠٦٧).

(٣) القرطبي(١/٢٩٦).

قال ابن كثير: "فنظرَ اللَّعينُ إلى أصل العُنصُرِ ولم ينظرْ إلى التَّشـــريف العظيم وهو أَنَّ اللهَ تعالى خلَق آدمَ بيده ونفخَ فيه من رُوحه، وقاس قياساً فاســداً في مُقَابلة نَصٍّ قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٢٩)﴾ [الحجر] فشــذَّ مِــنْ بَــيْنِ الملائكةِ بترك السُّجودِ فلهذا أُبْلِسَ من الرحمة، وقد أخطأ قبَّحه اللهُ فــي قياســه ودَعْواهُ أَنَّ النَّار أشرفُ من الطين، فإِنَّ الطِّينَ من شأْنه الرَّزانةُ والحِلْمُ والأَنَــاةُ والتَّثبُّت، والطينُ مَحلُّ الثَّبات والنُّموِّ والزيادةِ والإصلاح، والنَّــارُ مِــنْ شَــأْنها الإحْراقُ والطَّيشُ والسُّرعةُ، ولهذا خان إبلــيسَ عُنْصُــرُه ونفَــع آدمَ عُنْصُــرُه بالرُّجوعِ والإنابةِ والاستكانةِ والانقيادِ والاستسلامِ لأمرِ اللهِ والاعترافِ وطلــبِ التَّوبة والمغفرة.

عن الحسن في قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(١٢)﴾ [الأعــراف] قال: قاسَ إبليسُ وهو أوَّل مَنْ قاس. وعن ابنِ سيرين قال: أوَّلُ مَنْ قاسَ إبليسُ، وما عُبِدَتِ الشَّمْسُ والقمرُ إلاَّ بالمقاييس"(١) فوطِّنْ نفسك أيُّها المسلمُ على التَّسليمِ للنَّصِّ والانقيادِ له، ولا تُقَدِّم على النَّصِّ زُبَالة آراءِ الرِّجال، فإِنَّ اللهَ نهــى عــن ذلك فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّــهِ وَرَسُــولِهِ(١)﴾ [الحجرات]، وما أحسنَ قولَ القائل:

ودَعْ عنك آراءَ الرِّجالَ وقَوْلَهم　　　فقَوْلُ رَسُولِ اللهِ أَزْكى وأَطْيَبُ

ومنها: التَّحذيرُ من سُوءِ الخاتمة فإِنَّما الأعمالُ بالخواتيم، والبدايةُ لا يُفرَحُ بها، فهاهو إبليسُ لعنهُ الله كانَ أوَّلَ عَهْدِهِ من العابدين، وكان في آخرِ عَهْدِهِ من الكافرين، فعلى العبدِ أَنْ يكونَ من سُوءِ الخاتمةِ على حذرٍ، وأَنْ يعملَ بطاعةِ الله على نُورٍ من الله يرجُو رحمةَ الله، وأَنْ يَتْرُكَ معصيةَ الله علــى نــورٍ مِــن الله يخشى عقابَ الله، وأَنْ يُكْثِرَ من سُؤَالِ اللهِ الثَّباتَ حتَّى الممات، فقد كــان أكثــرُ

---

(١) ابن كثير(٢/٢٠٣).

دُعاءِ النبيِّ ﷺ أَنْ يَقُول: " **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوب ثَبِّتْ قَلْبي عَلَى دِينكَ**"(١)، وقد مـدَح اللهُ الرَّاسخين في العلم على قولهم: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ(٨)﴾[آل عمران].

ومنها: التَّحذيرُ من الحِرْصَ: فإنَّ آدمَ حَرَصَ على الخُلـودِ فـي الجنَّـة فأُخْرِجَ منها، لأَنَّ الحِرْصَ حَمَلهُ على المعصية فاستجاب لإبليسَ حـين أغـراه بالأكلِ من الشجرة ليكون من الخالدين فَنَسِيَ قولَ الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْرَبَـا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(١٩)**﴾[الأعراف]، ﴿**فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَـوْآتُهما وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)ثُمَّ اجْتَبَـاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى(١٢٢)**﴾[طه]،

فلا يجوزُ للمُسْلِم أَنْ يحرِصَ على الغِنَى حِرْصاً يحملُـه علـى الْكَسْـبِ الحَرام، ولا يجوزُ للمسلمِ أَنْ يحرِصَ على الغِنَى حِرْصاً يحملُه على الكدِّ والكَدْح ليلَ نهار، فيغفلُ عن ذكْرِ الله وإقامِ الصلاة وإيتْاء الزكاة، فـإنَّ هـذا الحـرْصَ مَذْمُومٌ لأَنَّه يُفْسدُ الدِّين كما قال النبيُّ ﷺ: "**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِـلاَ فـي غَـنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَف لِدِينِه**"(٢)، ولذلك أعلَم النبيُّ ﷺ النَّاسَ أَنَّ الرِّزقْ مكفولٌ ولن يَمُوتُوا حتى يَسْتَوْفُوا نصيبَهم غيرَ منقوص، ونَهاهُم عن طلبِ الرِّزق بالمعصيةِ فقال ﷺ : " **إِنَّ رُوحَ القُدسِ نَفَثَ فـي رُوعِـي، أَنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَى تَستَكْمِل أَجَلَها، وتَستوْعِبَ رِزقَها، فَاتقُوا اللهَ، وأَجْمِلُوا فِي الطَّلَب، ولاَ يَحملَنَّ أَحَدَكمُ اسْتبطاءُ الرِّزقِ أَنْ يَطلُبَه بِمَعْصيةِ اللهِ، فإِنَّ اللهَ تعالى لا يُنَالُ ما عِندَه إِلاَّ بِطَاعَتِه**"(٣).

---

(١) صحيح[ص.ت:٢١٤٠]، ت(٢٢٢٦/٣٠٤/٣)، جه(٣٨٣٤/١٢٦٠/٢).

(٢) صحيح[ص.ت:٢٣٧٦]، ت(٢٤٨٢/١٦/٥).

(٣) صحيح[ص.ج:٢٠٨١].

ومنها: "التَّحذيرُ من كُلِّ المعاصي، فإنَّ مَنْ تصوَّر ما جرى على آدمَ بسببِ إقْدامِه على هذه الزلَّةِ الصَّغيرةِ كان على وَجَلٍ شديدٍ من المعاصي، كما قال الشاعر:

يا ناظــرًا يرنــو بعينَيْ راقـــدِ ومشاهِدًا للأمرِ غيرُ مشاهدِ
تصلُ الذُّنوبَ إلى الذنوبِ وترْتَجي دَرْكَ الجِنَانِ ونَيْلَ فَوْزِ العابدِ
أَنسيتَ أَنَّ اللهَ أخـــرجَ آدمًـــا منْها إلى الدُّنيا بذنبٍ واحدِ"[١]

ومنها: "أَنَّ آدم لمَّا لم يستَغْنِ عن التَّوبةِ مع عُلُوِّ شأنه فالوَاحدُ منَّا أَولى"[٢]، "فلابُدَّ أَنْ يكونَ العبدُ مُشْتغلاً بالتَّوبةِ في كلِّ حينٍ وأوان"[٣]، لأَنَّ الله أمرَ بالتَّوبةِ فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا(٨)﴾ [التحريم]، وعلّق عليها الفلاحَ فقال تعالى:﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣١)﴾ [النور]، وحذَّر من إهمالها فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١)﴾ [الحجرات]،

وَعَنْ الأَغَرِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ"[٤]،

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ: " رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ مِائَةَ مَرَّةٍ"[٥].

---

(١) الرازي (٣/١٩).
(٢) الرازي (٣/٢٧).
(٣) المصدر السابق(٣/٢٤).
(٤) م(٤/٢٠٧٥/٢٧٠٢).
(٥) صحيح:[ص.جه:٣٠٧٥]،جه(٢/١٢٥٣/٣٨١٤)،ت(٥/١٥٨/٣٤٩٥)،د(٤/٣٧٩/١٥٠٢).

ومنها: التّحذيرُ من الشّيطانِ الرَّجيم فإنَّه عدُوٌّ لِبَني آدمَ كما عادَى أباهم من قبلهم وقد قال اللهُ لهم حين أمرَهم بالهُبوط إلى الأرض ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ(٣٦)﴾ [البقرة]، وكَثُر في القرآنِ الكريم التَّحذيرُ منْه وبيانُ ما يريدُه من الإنسان ليحذَره، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥)إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(٦)﴾ [فاطر].

ومنها: التَّحذيرُ من الرُّكونِ إلى الدُّنيا والخُلُود إلى الأرض، فإنَّها مَمَرٌّ لا مُسْتَقرٌّ، كما قال اللهُ لهم من حين نزلوا: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٣٦)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا(٥)﴾ [فاطر]، فاعبرُوها ولا تعمرُوها كما قال المسيحُ ابنُ مريم، وكونُوا فيها غُرَباء كما وصَّى رسولُ الله ﷺ ابنَ عمر فقال: "**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**"(١)، **وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب: " ارْتَحَلَت الدُّنْيَا مُدْبِرَةً وَارْتَحَلَت الآخِرَةُ مُقْبِلَةً وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ وَلاَ عَمَلٌ ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ بِمُبَاعِدِهِ**"(٢).

ومنها: بيانُ فَضْلِ اللهِ تعالى على التَّائبينَ بقبولِ توبتهم، وإحسانه إليهم بعد القبول بإدخالِهم في رحمتِه ولذلك قال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٣٧)﴾ [البقرة]، قال الرَّازي: " المُرادُ من وَصْفِ اللهِ تعالى بالتَّوابِ المُبالَغةُ في قَبُولِ التَّوبة وذلك من وَجْهيْن:

الأوَّل أَنَّ واحداً من ملُوك الدُّنيا متى جنَى عليه إنسانٌ ثمَّ اعتَذر إليه فإنَّه يقبلُ الاعتذار، ثمَّ إذا عادَ إلى الجِنَاية وإلى الاعتذارِ مرَّةً أخرى فإنَّه لا يقبلُه لأَنَّ

---

(١) خ (١١/٢٣٣/٦٤١٦) ، ت (٣/٣٨٨/٢٤٣٥) .

(٢) خ تعليقا (١١/٢٣٥) .

طَبْعَه يمنعُه من قَبولِ العُذْر، أَمَّا اللهُ سُبحانه وتعالى فإنَّه بخلافِ ذلك لأَنَّه إنَّما يقبلُ التَّوبةَ لا لأمرٍ يرجعُ إلى رِقَّةٍ في طَبْعٍ أو جَلْبِ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ، بل إنَّما يقبلُها لمَحْضِ الإحسانِ والتفضُّل، فلو عصى المكلَّفُ كلَّ ساعةٍ ثم تاب وبَقِيَ على هذه الحالةِ العُمُرَ الطَّويلَ لكان اللهُ يغفر له ما قد سلَف ويقبلُ توبتَه، فصار تعالى مُستَحقًّا للمُبَالَغةِ في قَبول التَّوبة، فَوُصِفَ بأَنَّه توَّاب.

الثاني: أَنَّ الذين يتوبُون إلى الله تعالى يكثُر عددُهم فإذا قَبِلَ توبةَ الجميع استحقَّ المُبالغَة في ذلك، ولمَّا كان قُبولُ التَّوبة مع إزالةِ العقابِ يقتضي حصولَ الثَّواب وكان من جِهَتِه سبحانه نعمةً ورحمةً وصَفَ نفسَه مع كونه توَّابًا بأَنَّه رحيم»[1].

ومنها: أَنَّ سعادةَ الدُّنيا والآخرةِ متوقِّفةٌ على اتِّباعِ الرُّسلِ على ما جاءوا به من الهُدى، فمن اتَّبع الهُدى عاشَ في الدُّنيا في نعيم وانتقل إلى نعيم الآخرة، ومن خالَف الرُّسلَ وعانَدهم ولم يتَّبعْ هُداهم عاشَ في الدُّنيا في شقاء ﴿وَلَعَذَابُ الآَخِرَةِ أَشَقُّ (٣٤)﴾ [الرعد]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٦)﴾ [طه].

---

(١) التفسير الكبير (٢٣ و ٣/٢٤).

ومنها: الاسْتِشْهادُ بهذه القِصَّةِ على نُبُوَّةِ محمدٍ ﷺ "فإنَّ الله جلَّ ثناؤه احتجَّ فيها لنبيِّه ﷺ على مَنْ كان بيْن ظهرانيْه من يهودِ بني إسرائيلَ بإطْلاعِه إيَّاه من علومِ الغيْبِ التي لم يكنْ جَلَّ ثناؤه أطْلَع عليها مِنْ خَلْقه إلاَّ خاصًّا، ولم يكن مُدْرِكاً عِلْمُه إلاَّ بالإتيانِ والإخْبار، لتتقرَّر عندهم حُجَّةٌ نبوَّته، ويَعْلَمُون أنَّ ما أتاهم به فمن عنده"[1]، وفي ذلك يقولُ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧)أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(٧٠)﴾ [ص].

ومنها: "تسليةُ النبيِّ ﷺ عن تكذيبِ النَّاس ومُحَاجَّتِهم في النبوَّة بغيرِ برهان، على إنكارِ ما أنكروا، وبُطْلانِ ما جَحَدوا، فإذا كانَ الملأُ الأعلى قد مُثِّلُوا على أنهم يختَصِمُون ويطلُبونَ البيان والبرهان فيما لا يعلمون، فأجدرُ بالنَّاس أن يكونُوا معذورين. وبالأنبياءِ أن يُعامِلُوهم كما عاملَ اللهُ الملائكةَ المقرَّبين، فعليك يا نبيَّنا أَن تصبرَ على هؤلاء المكذِّبين وتُرْشِدَ المسترْشدِين، وتَأْتِي أهلَ الدَّعوةِ بسُلْطانٍ مبين"[2]

وأخيراً "لقد كانت هذه القِصَّةُ كالتَّجرُبَةِ الأُولى لتعليمِ الإنسانِ العَلاقَة بيْنَ الخَطيئَةِ والتَّوبة، لقد كانتْ تربيةً لهذا الخليفة وإعداداً، كانت إيقاظاً للقُوى المذْخُورَة في كِيانِه، كانتْ تدريباً له على تلقيِّ الغِوَاية، وتَذوُّق العافِيَة، وتجرّع الندامة، ومعرفةِ العدوّ، والالتجاءِ بعد ذلك إلى الملاذ الأمين، إنَّ قصَّةَ الشَّجرةِ المحرَّمةِ وَوَسْوَسَةَ الشَّيطانِ باللَّذة، ونسيانَ العهدِ والمعصية، والصَّحوة من بعد السَّكرة، والنَّدَم وطلبَ المغفرة إنَّها هي هي تجرُبةُ البَشريَّة المتجِّددة المكرَّرة"[3]

---

(١) الطبري(١/٢٢٠).

(٢) القاسمي(٢/٩٧).

(٣) في ظلال القرآن(١/٧٠).

فَمَنْ أذنبَ ثمَّ تابَ فقد شابَه أباه، ومَنْ شابَه أباهَ فما ظلَم، ومَنْ أذنَب ثمَّ أصرَّ واستَكبَر فقد أَسَره الشيطانُ وسبَاه، «عن فتح المُوصِلِيّ أَنَّه قال: كنَّا قومًا من أهل الجَنَّة فسبَانا إبليسُ إلى الدُّنيا فليسَ لنا إلاَّ الهمُّ والحزَنُ، حتى نُرَدَّ إلى الدَّارِ التي أُخرِجْنا منها»(١)، ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣)سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ(٢٤)﴾ [الرعد]

فَحَيِّ عَلى جنَّاتِ عَدْنٍ فإنَّها ... منازِلُك الأُولى وفيهَا المخيَّمُ
ولكنَّنا سَبْيُ العَدوِّ فهلْ ترَى ... نَعُودُ إلى أوطانِنَا ونَسْلَمُ

* * *

---

(١) الرازي(٣/١٩).

أحكام الخِطبة

قال تعالى: ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لاَ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(٢٣٥)﴾ [البقرة].

إنَّ الزَّوجيّةَ سُنَّةُ من سُنَنِ اللهِ تعالى الكونيَّةِ التي لا يشذُّ عنها شيءٌ من عالمَ النبات ولا الإنسان ولا الحيوان، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ(٣٦)﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٤٩)﴾ [الذاريات].

وقد خلَق اللهُ تعالى الإنسانَ الأوّلَ آدمَ عليه السَّلامُ من طين، ثمَّ خلَق له من نفسه زوجاً يسكن إليها، ثمَّ قدَّر اللهُ تعالى أَنْ يكون الخَلْقُ والنَّسْلُ من هَذَيْنِ الزَّوْجَين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً(١)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا(١٣)﴾ [الحجرات]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ(٨)﴾ [السجدة].

والنَّكاحُ سُنَّةٌ من آكد سُنَنِ الأنبياء والمرسلين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً(٣٨)﴾ [الرعد]، وقد عدَّه النبيُّ ﷺ نصفَ الدِّين فقال: "**إذَا تزوَّجَ العَبدُ فقد استَكمَلَ نِصفَ دِينِهِ فَلْيَتَّقِ اللهَ فِي النِّصْفِ الْبَاقِي**"(١)، ولذلك يُكرَه تَركُه لغَيْر عُذْرٍ.

---

(١) حسن : [ص.ج:٤٣٣] ، طس (٧/٣٨٢/٧٦٤٧) .

عَنْ أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١).

ويجبُ على القادرِ عليه إذا خَشِيَ العَنَتَ «لأَنَّ الزِّنا حرَام، وكذلك ما يُؤَدِّي إليه، وما هو مُقدِّمةٌ له، فمن خَشِيَ على نَفْسِه الوُقُوعَ في هذا وجبَ عليه دَفْعُه عن نفسِه، فإنْ كان لا يندفعُ إلاَّ بالنِّكاح وجبَ عليه ذلك»(٢)،

ومن عجزَ عن النِّكاح وهو راغبٌ فيه فعلَيْه بالصَّوم.

عَنْ عَبْدُ اللَّهِ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»(٣)، وقال الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... (٣٣)﴾ [النور].

وإنْ كان الشَّرْعُ لا يمنعُ من تَزْوِيج الفقيرِ الذي لا يملك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)﴾ [النور]، وقد زوَّج النبيُّ ﷺ رجالاً

---

(١) متفق عليه: خ(٥٠٦٣/١٠٤/٩) وهذا لفظه، م(١٤٠١/١٠٢٠/٢)، ن(٦/٦٠).
(٢) السيل الجرار (٢/٢٤٣).
(٣) متفق عليه خ(٥٠٦٦/١١٢/٩)، م(١٤٠٠/١٠١٨/٢)، د(٢٠٣١/٣٩/٦)، ن(٥٦/٦)، ت(١٠٨٧/٢٧٢/٢)، جه(١٨٤٥/٥٩٢/١).

من أصحابه لا مال لهم :

عَنْ سَهْل بنِ سَعْد للسَّاعدىِّ قَالَ : « إنِّى لَفِى الْقَوْمِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إذْ قَامَتِ امْرأَةٌ فَقَالَتْ : يَارَسُولَ اللهِ إنَّها قَدْ وَهَبتْ نَفْسَها لك ، فَرَ فيها رأْيكَ . فَلَمْ يُجِبْها شيْئًا (حتَّى فعلَتْ ذلكَ ثلاثًا) فقامَ رَجُلٌ فقَالَ : يَارَسُولَ الله ، أَنْكِحْنِيهَا . قَالَ : هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَىْءٍ ؟ قَالَ : لاَ . قال : اذْهَبْ فَاطْلُبْ وَلَوْ خَاتمًا مِنْ حَدِيد. فَذَهَبَ وطَلَب ، ثُمَّ جَاءَ فقَالَ : مَاوَجَدْتُ شَيْئًا ، وَلا خَاتمًا مِنْ حَدِيد . قَالَ : هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَىْءٌ ؟ قال : مَعِى سُورَةُ كَذا وسُورَةَ كَذا . قال : اذْهَبْ فقَدْ أَنْكَحْتُكها بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآن »(١)

ومَنْ رَغِبَ في الزَّوَاج فعليه أَنْ يبحثَ عن ذاتِ الدِّين فبذلك وصَّى النبيَّ ﷺ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»(٢)**،

وعَلى وليِّ المرأةِ أَنْ يبحثَ لها عن ذِي الدِّين فقد قال ﷺ : « **إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**»(٣)، فإنَّ الأرضَ إذا صلَحتْ والبذْرَة إذا طابَتْ طابَ الزَّرْعُ والنَّباتُ، وإذا خَبُثَت الأرضْ وخَبُثَت البذْرةُ خَبُثَ النَّتاج، قال تعالى: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا(٥٨)**﴾ [الأعراف].

وإذا دُلَّ الرَّجلَ على ذاتِ الدِّين وأُرْشِدَ إليها استُحِبَّ له أَنْ ينظرَ إليها قبلَ أَنْ يتقدَّم لخِطْبتِها .

---

(١)متفق عليه : خ (٩/٢٠٥/٥١٤٩) ، م(٢/١٠٤٠/١٤٢٥) ، د(٦/١٤٣/٢٠٩٧) ، ت(١١٢١/٢٩٠/٢٩١و٢/٢٩١)، ن(٦/١١٣).

(٢)متفق عليه : خ(٩/١٣٢/٥٠٩٠)، م(٢/١٠٨٦/١٤٦٦)، د(٦/٤٢/٢٠٣٢)، ن(٦/٦٨)، جه(١/٥٩٧/١٨٥٨).

(٣)صحيح : [ص.ت:١٠٨٥]، ت(٢/٢٧٤/١٠٩١).

فعَنِ الْمُغيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بيْنَكُمَا "[١]،

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ قَالَ: خَطَبْتُ امْرَأَةً فَجَعَلْتُ أَتخَبَّأُ لَهَا حتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهَا فِي نَخْلٍ لَهَا فَقِيلَ لَهُ أَتَفْعَلُ هَذَا وَأَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِذَا أَلْقَى اللَّهُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ خِطْبَةَ امْرَأَةٍ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا"[٢]،

فإذا أَعْجَبَتْه فَلْيَستَخِرْ ربَّه قبلَ أَنْ يخطُبَها لقوله ﷺ : " إِذَا هَمَّ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلاَمُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ"[٣].

فإِنَّ شرحَ اللهُ صَدْرَه لها ووجدَ في قلبِه رَغبةً فيها فليتقدَّمِ لخِطْبَتَها.

والخِطْبَةُ لغةً –بكسر الخاء-: "طلبُ النِّكاح"، وبالضَمِّ الموعظةُ كخُطْبَةِ الجُمعة .

واصطلاحاً: هي طلبُ الزَّواجِ من المرأةِ بالوسيلة المعروفة بين الناس"[٤]

.

(١) صحيح: [ص.ت:٨٦٨]، ت(١٠٩٣/٢٧٥/٢)، ن(٦/٦٩) ولفظه «فإنه أجدر » .

(٢) صحيح: [ص.جه:١٥١٠]، جه(١٨٦٤/٥٩٩/١).

(٣) خ(٦٣٨٢/١٨٣/١١)، د(١٥٢٤/٣٩٦/٤)، ت(٤٧٨/٢٩٨/١)، جه(١٣٨٣/٤٤٠/١).

(٤) فقه السنة (٢/٢٠).

والنِّساءُ في حُكْمِ الخطبة على ثلاثةِ أقسام:

أحدها: التي تجوزُ خِطْبتُها تعريضاً وتصريحاً وهي التي تكون خاليةً من الأزواج والعِدَّة، ويُستَثْنى من ذلك من تقدَّم لخِطْبَتِها أحدٌ، فإنْ كان قد أُجيبَ فلا يجوزُ لغيرِه أَنْ يخطُب على خِطْبَته:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهما كَانَ يَقُولُ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ "أَنْ يَبِيعَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَلاَ يَخْطُبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَتْرُكَ الْخَاطِبُ قَبْلَهُ أَوْ يَأْذَنَ لَهُ الْخَاطِبُ"(١).

وإِنْ كان قد رُفِضَ فلا مانَع من تَقُّدم غيرِه، وإِنْ كان لم يوجدْ صريحُ الإجابة ولا صريحُ الرِّد فقال الشافعيُّ يجوز للغير خِطْبتُها، لأَنَّ السُّكوتَ لا يدل على الرفض، وله في القديم وهو قول مالك أيضاً لا يجوز خطبتها لأَنَّ السُّكوتَ وإِن لم يدلُّ على الرِّضا لكنَّه لا يدلُّ على الكراهة، فربُّما كانت حاصلةً من بعض الوُجوه فتصيرُ هذه الخِطْبَةُ الثَّانيةُ مزيلةً لذلك القدْرِ من الرَّغبة.

قلت: ويقوي هذا القولَ الثانيَ أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: "**لاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ**"(٢) **وقال: "لاَ يَسُمِ الْمُسْلِمُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ**"(٣) فكما لا يجوز أَنْ يبيعَ الرَّجلُ على بيْعْ أخيه بعد إتمام البيع كذلك لا يجوز أَنْ يَدْخُلَ بين متساومَيْن حتى يتفرَّقا، وكذلك الأمرُ في الخِطْبة إذا تمَّتِ لا يجوزُ أَنْ يخطُبَ الرَّجلُ على خِطْبةِ أخيه، وقبلَ إبداءِ الرِّفض أيْ في حالة التَّشاوُرِ والبَحْثِ لا يجوزُ دُخولُ الغيرِ مع عِلْمه بأَنَّ فلاناً سبَقه حتى يتمَّ الرَّفضُ ويُعْلَن، ومن الخطأ الذي يقعُ فيه الكثيرُونَ

---

(١) خ(٥١٤٢/١٩٨/٩)، ن(٦/٧٣).

(٢) متفق عليه: خ(٢١٦٥/٣٧٣/٤)، م(١٤١٢/١١٥٤/٣)، جه(١٢٧١/٣٣٣/٢).

(٣) م(١٥١٥/١١٥٤/٣).

دخولُ ابن العمِّ والخالِ ونحوِهما من الأقارب للخِطْبَةِ بعد مُوَاعَدةِ الأجْنَبِيِّ وفَسْخُ خِطْبَةَ الأجْنَبِيِّ من أجلهم.

والقسم الثاني: التي لا يجوز خِطْبَتُها لا تصريحاً ولا تعريضاً، وهي زوجةُ الغَيْر، لأَنَّ خِطْبَتَها إفسادٌ لها على زوجِها وهو حَرَام، وقد قال ﷺ: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا"(١).

القسم الثالث: التي يجوز التعريضُ بخِطْبَتِها دُونَ التَّصريح ، وهي على ثلاثة أقسام:

١- المُعتدَّةُ من وفاةٍ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ(٢٣٥)﴾ [البقرة] عقِبَ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٣٤)﴾ [البقرة]، قال الشافعي: لما خصّص التعريض بعدم الجناح وجب أن يكون التصريحُ بخلافه.

٢- المُعتدَّة من الطَّلْقةِ الثَّالثة فإِنَّها قد بانت من زَوْجِها فأُشْبِهت المُعتدَّةَ من وفاة

٣- البائنُ التي يحلُّ لزوجها نكاحُها في عِدَّتها وهي المُخْتَلِعةُ، فلزَوْجِها التَّعريضُ والتَّصريح، وأَمَّا غيرُه فلا شَكَّ أَنَّ التصريحَ لا يحلُّ له، وفي التعريضِ قولان الأصحُّ أَنَّه لا يحلُّ التَّعريضُ بخِطْبَتِها في العِدَّة كالمُطَلَّقةِ طلاقاً رَجْعِيًّا فهي زوجةٌ لم تنفصم علاقتُها بزوجها.

"والتَّعريضُ في اللغة: ضِدُّ التَّصريح، ومعناه أَن يُضَمِّن كلامَه ما يَصْلُحُ للدِلاَلَةِ على مقصودِه وعلى غيرِ مقصودِه، إلاَّ أَنَّ إشعارَه بالمقصودِ أَتمُّ وأَرْجح،

---

(١) صحيح : [ص.د:١٩٠٦]، د(٢١٦١/٢٢٤/٦).

كأَنَّ يقولَ مُحْتاجٌ للمُحتَاجِ إليه: جئتُ لأُسلِّمَ عليك ونحوه »[١].

ومن التَّعريضِ بالخِطبة أَن يُرسِلَ الخاطِبُ إلى المرأة أو وليِّها مَنْ يذكُره بالخَيْرِ عِندَهما وأَنَّه رجلٌ صالحٌ يرغبُ في زَوجةٍ صالحة، ويتمنَّى مِثْلَ فلانةٍ ونحو ذلك .

وإنَّما أَذِنَ اللهُ تعالى فى التعريض لتمكين الرجال من تذكير المرأة برغبتهم فيها، وإعلامها بمن يرغب فيها لتتمكن بعد انقضاءِ العِدَّة من اختيار أفضلهم.

وكما عفا اللهُ تعالى لعباده عن التَّعريض فقد عفا لهم عمَّا يُسرُّون في الضَّمير فقال تعالى:﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ(٢٣٥)﴾ [البقرة]، لأَنَّ وُقوعَ الرَّغبة في المرأةِ مما يشقُّ دَفْعُه عن النفس فلذلك رفعَ اللهُ عن عبادِه الجُناحَ فيه وأباحَه فقال تعالى:﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ(٢٣٥)﴾ [البقرة] أي فَأَذِنَ لكم في التَّعريض باللَّفظ وإكْنَانِ التَّصريح وإخفائه مع العَزْمَ عَلَيْه بعد انقضاءِ العِدَّة، وذلك كما قال تعالى في إباحَةِ المُبَاشَرةِ في لَيْلِ الصِّيام:﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ(١٨٧)﴾ [البقرة]، فإذا خفَّفَ اللهَ عن عباده وأَذِنَ لهم في التَّعبير عمَّا في أنفُسهم في وقتِ العِدَّة بالتَّعريض فلا يجوزُ لأحدٍ أَن يتجاوَزَ إلى التَّصريح في السِّرِّ والخفاء، أو الزِّواج سِرًّا وتأخير إظْهارِ البِنَاء، ونحوِ ذلك، لقولِه تعالى:﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا(٢٣٥)﴾ [البقرة] وهو ما أَذِنَ فيه من التَّعريض.

وإذا كان التَّصريح بخِطْبَةِ المُعْتَدَّة محظُورًا كان العقدُ أَوْلى، ومعَ ذلك نهَى اللهُ تعالى عنه أشدَّ النَّهي فقال تعالى:﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ

---

(١) الرازي (٦/١٤٠).

الْكِتَابُ أَجَلَهُ(٢٣٥)﴾ [البقرة]، والمرادُ ببلُوغِ الكتابِ أجلَه انقضاءُ العِـدَّة لأنَّ ذلـك شيءٌ كتبَه اللهُ وفرَضه أن لا تُنكحَ امرأةٌ بَانَتْ من زَوْجِها إلاَّ بعد انقِضَاء عِدَّتِها، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يَقُلْ ولا تَعْقِدُوا، وإنَّما قال: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا﴾ ممـا يُفيـدُ أَنَّ مُجرَّدَ العَزْمِ على عقدِ النِّكاح في العِدَّة خطيئةٌ فكيف بالعَقْد نَفْسِه، وذلك كقولـه تعالى في حقِّ الحَرَم: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَـذَابٍ أَلِـيمٍ(٢٥)﴾ [الحج] "قال القاضي أبو محمد بنُ عطيّة: أجْمَعتِ الأُمَّةُ على كراهةِ المُواعدةِ في العِدَّةِ للمرأةِ في نفسِها وللأَبِ في ابنتِه»(١)، فإن خالفا وتواعَدا فقد أثِمَا، واستحبَّ مالكٌ لِمن واعَد في العِدَّة ثم تزوَّج بعدَها أن يُفارِقَها بطَلْقةٍ دخلَ بها أم لم يَدْخُل، فإذا حلَّت خَطبها مع الخطابِ»(٢)، وليس ذلك بلازم.

وإذا عقدَ عليها في العِدَّة ولم يدخُلْ بها فالعقدُ فاسدٌ يجبُ فَسْخُه، ولا يجوزُ الدُّخول عليها به بعد انقضاء العِدَّة بل هو خاطبٌ من الخطاب، وإذا عقد عليهـا ودخل بها في العـدة ﴿فَقَـدِ احْتَمَلُـوا بُهْتَانًـا وَإِثْمًـا مُبِينًـا(٥٨)﴾ [الأحـزاب] ووجب التَّفريقُ بينهما، وللحاكم تعزيرُهما، ووجب عليها قضـاءُ عِـدَّة الأوَّل، واستئنافُ عِدَّة الثاني، وهل للثَّاني خِطْبَتُها بعد ذلك؟ منع من ذلك بعضُ الفقهـاء معاملة له بنقيض قصده وقالوا لا يجتمعان أبداً. ورخَّص له بعضُهم في نكاحهـا إن رغبت فيه»(٣) .

ثم ختم اللهُ تعالى الآيةَ بما يقوم مقامَ التَّرغيب في الالتزام بما شرَع لهـم والتَّرهيبِ من مخالفته : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْـذَرُوهُ(٢٣٥)﴾ [البقرة]، والهاءُ في قوله ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ صالحةٌ للعـود علـى اللهِ عـزَّ وجـلَّ أي

---

(١) القرطبي (٣/١٩١).

(٢) القرطبي (١٩١- ٣/١٩٥).

(٣) المصدر نفسه .

فاحذروا أن تُخفُوا شيئاً نهاكم عنه فيعاقبَكم اللهُ عليه، لأنَّه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ويصلح للعودِ على ما في أنفسكم أي فاحذَرُوا ما نهاكم عن إخفائه ولا تَعْزِمُوا عليه.

ولمَّا هددَّهم بأنَّه مطَّلِعٌ على ما في أنفسهم وحذَّرهم منه أردف ذلك بالصِّفَتيْنِ الجليلَتْين فقال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**(٢٣٥)﴾ [البقرة] ليُزِيلَ عنهمَ بعضَ رَوْعِ التَّهديد والوعيد والتَّحذير من عقابه ليعتدل قلبُ المؤمنِ في الرَّجاء والخوف، وختم بهاتيْن الصِّفتيْن المُقتضِيَتيْن بالمُبالغة في الغُفران والحِلْمِ لِيقْوَى رجاءُ المؤمن في إحسانِ اللهِ تعالى وَطمعُه في غُفرانه وحِلْمه إنْ زَلَّ وهفا، وأبرز كُلَّ معنًى من التَّحذيرِ والإطماع في جملةٍ مستقلَّةٍ وكرَّر اسمَ اللهِ تعالى للتَّفخيم بمن يُسَنَدُ إليه الحكمِ، وجاء خبرُ "إِنَّ" الأولى بالمضارع لأَنَّ ما يهجسُ في النُّفوس يتكرَّر فيتعلَّق العِلْمُ به فكان العِلْمُ يتكرَّر بمتعلِّقه، وجاء خبرُ" **إِنَّ**" الثانية بالاسم ليدلَّ على ثُبوتِ الوَصْفِ وأَنَّه قد صار كأَنَّه من صفاتِ الذَّات وإِنْ كان من صِفَات الفعل»(١).

هذا ، وإِنَّ الخِطْبَةَ مجرَّدُ وعْدٍ بالنِّكاح لا تُستَحلُّ بها المحرَّمات ولا يترتَّب عليها واجب، ومع ذلك تهاوَن الآباءُ مع بناتِهم وخُطَّابِهنَّ فما أَنْ يتَّفِقَ الطَّرفانِ على الخِطْبَةِ حتى يُصبْحَ الخَاطِبُ واحداً من أهل البيت له الحَقُّ في الدُّخولِ متى شاء والاطِّلاعِ على نساءِ البَيْتِ وبناتِه من غير المخطُوبة، والخَلْوة بالمخطوبة والسَّهرِ معها إلى وقتٍ متأخِّرٍ، وربَّما بات معها، والنبيُّ ﷺ يقول: "**لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ**"(٢)، وللخاطِبِ حقُّ الخُروج بالمخطوبةِ في أيِّ وقتٍ شاء وإلى أين شاء، فهو اليومَ يخرُج بها للنُّزهة والفُسْحة، وغداً يخرج

---

(١) البحر المحيط (٢/٢٣٠).

(٢) صحيح: [غاية المرام : ١٨٠] ، حم (١٦/٧٦/٢٠٤) .

بها لزيارةِ أقاربه، وبعد غدٍ يخرُج بها لزيارة صديقه، ثم يَعْرِضُ عَارِضٌ فتُفسخ الخطْبة، وقد استحلَّ ذلك الشَّابُّ من تلك الفتاة كُلَّ شيء، وربَّما استحلَّ ما يستَحِلُّه الزَّوجُ من زَوْجِه، فإذا فُسِخَتِ الخِطْبةُ ذهبَ لحالِ سَبيله وترك الفتاةَ بعد أن ضيَّع شَرفها وأهدَر كرامَتها وأفسدَ عِفَّتها، فبالله أين الحِرْصُ على الشَّرف، وبالله أين الحِرْصُ على العِفَّة، وبالله أين الحرصُ على الكرامة؟ إن لم تكن هذه الدَّياثة التي تحرِّم على الدَّيُوثِ الجنَّة فماذا تكون؟ ثم يأتي بعد ذلك الخلافُ على الشَّبكةِ والهدايا، مِنْ حَقِّ مَنْ تكون؟ والجواب: الشَّبْكَةُ والهَدايا التي تُشْتَرى خصِّيصاً ليوم الزَّواج مِنْ حَقِّ الرَّجلِ سواءٌ كان الفَسْخُ منه أو من الفتاة، ولا يُقَالُ إنَّه دخلَ وخرَج، وأكلَ وشَرِب، وقام ونام، فإنَّ الحرامَ لا مَهْرَ له. لكن إن طالتْ مُدَّة الخُطوبة سنةً فأكثر ثمّ ترك الرَّجلُ نفسَه فإنَّه يُعَوِّضُ الفتَاة عما لَحِقَها من الضَرَرِ بحَبْسِها هذه المدَّةَ ومَنْعِ الخُطَّابِ عنها ﴿**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**(٩٥)﴾ [المائدة]، وأمَّا إذا رفضت البنتُ نفسُها فلا حَقَّ لها في شيءٍ طالتِ المُدَّةُ أو قَصُرَت.

فيا عبادَ الله اتَّقوا الله ولا تتساهلوا مع الشَّباب الذين يخطُبونَ بناتِكم وتُمَكِّنوهم منهنَّ يأخذون منهن ما شاءوا بلا حرج، وخُذُوا على أيدي بناتِكم وامنعوهُنَّ من الخروج مع الشباب ومن الخَلْوة بهم، ﴿**وَلاَ تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**(٢٣١)﴾ [البقرة].

المحرمات من النساء

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١)﴾ [البقرة].

" إنَّ الزَّوجةَ سكنٌ للزوج وحرثٌ له، وهي شريكةَ حياته وربَّة بيته،وأمُّ أولاده ومَهْوى فُؤادِه، وموضعُ سرِّه ونجواه، وهي أهمُّ أركان الأُسرة، إذ هي المُنْجِبَةُ للأولاد، والمربِّيةُ لهم والمعلِّمة، وعنها يَرِثُون كثيراً من المزايا والصِّفات وفي أحضانها تتكوَّن عواطفُ الطفل وتتربَّى ملَكاتُه ويتلقى لُغتَه، ويكتَسِبُ كثيراً من العلم والمبادئ والأخلاق، ويتعلَّم أصُولَ دينه من العقائد والعبادات، مِنْ أجْلِ هذا عُنى الإسلامُ باختيار الزَّوجة الصَّالحة، وجعلَها خيْرَ متاعٍ ينبغى التَطلُّع إليه والحِرْصُ عليه، وليس الصَّلاح إلاَّ المحافظةَ على الدِّين والتمسُّكَ بالفضائل ورِعايةَ حقِّ الزَّوج وحمايةَ الأبناء، وما عدا ذلكَ من مظاهرِ الدُنيا فهو مما حظره الإسلام ونهى عنه إذا كان مجرَّداً من معاني الخير والفضل والصلاح"(١).

عَنْ سعدِ بنِ أَبي وَقّاص قَالَ ﷺ : " أَربعٌ منَ السَعادةِ، المَرأةُ الصّالحةُ، والمسكنُ الواسعُ، والجارُ الصالحُ، والمركبُ الهنيء"(٢)،

---

(١) فقه السنة(٢/١٦) بتصرف يسير.

(٢)صحيح : [ص.ج:٩٠٠]

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ"(١).

وَعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ فِي الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ مَا نَزَلَ قَالُوا فَأَيَّ الْمَالِ نَتَّخِذُ قَالَ عُمَرُ: فَأَنَا أَعْلَمُ لَكُمْ ذَلِكَ فَأَوْضَعَ عَلَى بَعِيرِهِ فَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا فِي أَثَرِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيَّ الْمَالِ نَتَّخِذُ فَقَالَ: " لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْبًا شَاكِرًا وَلِسَانًا ذَاكِرًا وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى أَمْرِ الآخِرَةِ"(٢).

وفي هذه الآية ينهى اللهُ تعالى المؤمنين عن نكاح المشْركات وإنْكاحِ المشركينَ المؤمناتِ فيقول تعالى: ﴿**وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ**(٢٢١)﴾ [البقرة]، أي لا تتزوَّجوا المشركاتِ الوثنيَّاتِ المُلْحِداتِ الَّلادينيَّاتِ حتى يُؤْمِنَّ بالله تعالى ولا تَحْمِلْكُمُ الرَّغبةُ فيهنَّ لجمالِهنَّ وحُسنهنَّ ونَسبهنَّ وكثرةِ أموالهنَّ على الرَّغبة عن المؤمناتِ وإنْ كُنَّ دميماتٍ فقيراتٍ، فوالله إنَّ الأَمةَ المؤمنةَ بالله ورسولِه على خسَاسةِ الرِّق وقلَّةِ المال والجمال خيرٌ من حُرَّةٍ مشركةٍ ذاتِ مالٍ وجمال، فإنَّ النَّقصَ الموجودَ في الأَمةِ المُؤمنةِ يجبُره الإيمانُ الذي هو أجلُّ كمالاتِ الإنسان، وأمَّا النَّقصُ الموجودُ في المُشركةِ بسبب شِرْكها فلا يجبرُه مالٌ ولا حسبٌ ولا جمال.

﴿**وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا**(٢٢١)﴾ أي لا تُزوِّجوهم من المؤمناتِ حتى يُؤْمِنوا ﴿**وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**(٢٢١)﴾ [البقرة]،

عَنْ سَهْلٍ قَالَ مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: " مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا قَالُوا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ قَالَ: ثُمَّ

---

(١) م(١٤٦٧/١٠٩٠/٢)، جه(١٨٥٥/٥٩٦/١).

(٢) صحيح: [ص.جه:١٥٠٥]، جه(١٨٥٦/٥٩٦/١).

سكَتَ فَمرَّ رَجُلٌ منْ فُقرَاءِ الْمُسْلمينَ فقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا قَالُوا حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ وَإنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ وَإنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْتَمَعَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ هَذَا خَيْرٌ منْ ملْءِ الأَرْضِ مثْلَ هَذَا»(١).

« ثم أشار الرَّبُ تبارك وتعالى إلى سببِ الحَظْرِ والمَنْعِ من نكاح المشركاتِ وإنْكاحِ المشركينَ المؤمناتِ فقال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ**﴾ أي المشركون والمشركات ﴿**يَدْعُونَ**﴾ مَنْ يُقارنُهم ويُعاشرُهم ﴿ **إِلَى النَّارِ**﴾ أي إلى ما يُؤدِّي إليها من الكُفْرِ والفُسوقِ والعِصْيان، والزَّوجيَّةُ مظنَّةُ الأُلفةِ والمحبَّةِ والمودَّة، وكُلُّ ذلكَ يُوجِبُ الموافقةَ في المَطالب والأَغْراض، فَحَقُّهم أن لا يُوالُوا ولا يُصَاهَرُوا، ﴿**وَاللَّهُ يَدْعُو**﴾ بما يأمرُ به على لسانِ رُسُله ﴿ **إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ**﴾ أي العمل المؤدِّي إليه ﴿ **بِإِذْنِهِ**﴾ أي بأمره ﴿ **وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ**﴾ يعني أوامرَه في التَّزويج ﴿**لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**(٢٢١)﴾ [البقرة] لكي يتَّعظُوا وينْتَهُوا عن تزويج الحرام ويوالوا أولياءَ الله وهم المؤمنون بالمُعاشرة والمُصاهرة فيفوزُوا بما دُعُوا إليه من الجنَّة والمغفرة»(٢).

وقد اختلف العلماءُ في الكتابيَّاتِ من اليهودِ والنَّصارى هل هنَّ داخلاتٌ في هذا النَّهي أم لا؟

فذهب بعضُهم إلى عدَم دُخولهنَّ لأَنَّ اللهَ تعالى فرّق بين كفَّار أهلِ الكتاب والمشركين فقال تعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**(١٠٥)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ**(١)﴾ [البينة] فعطف المشركينَ على أهلِ الكتاب بواوِ العطف التي تقتضي المغايرةَ فلسْنَ داخلاتٍ في عموم هذه الآية.

---

(١) خ(٥٠٩١/١٣٢/٩)، جه(٤١٢٠/١٣٧٩/٢).

(٢) القاسمي(٢١٩/٣).

وذهب بعضُهم إلى أنَّهنَّ داخلاتٌ لكنَّ اللهَ أحلَّهنَّ بعد ذلك في آية المائدة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ(٥)﴾ ولا قيمةَ لهذا الخلاف لاتفاق الجميع على حلِّ المحصناتِ من أهل الكتاب، والمُراد بالإحصانِ هنا العفَّة، وأمَّا غيرُ العفيفةِ فلا يجوزُ نِكاحُها حتى لا يجمعَ بين فَسادِ الدِّين وفساد العِرْض، لأنَّ غيرَ العفيفة من المسلمات لا تَحِلُّ لقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣)﴾ [النور] فغيرُ المسلمةِ أولى، ولذلك كان عمرُ يكره الزواجَ من الكتابيَّات:

"عن شقيق قال: تزوّج حذيفةُ يهوديةً فكتب إليه عمرُ: خلِّ سبيلَها . فكتب إليه أتزْعُمُ أنَّها حرام فأُخلِّي سبيلَها؟ فقال: لا أَزْعُم أنَّها حرام، ولكن أخافُ أن تَعاطُوا المُومِسَاتِ منهنَّ"[1].

وسببُ التَّفريق بين الكتابيَّة والمشركةِ " أنَّه ليس المرادُ بالزوجيَّة قضاءَ الشَّهوة الحسيَّة فقط وإنَّما المرادُ بها تعاقدُ الزَّوجيْن على المشاركةِ في شئُون الحياة و الاتِّحادِ في كل شيء، وإنَّما يكونُ ذلك بكوْنِ المرأةِ محلَّ ثقةِ الرَّجل، ويأمنُها على نفسهِ وولدهِ ومتاعه، عالمًا أنَّ حِرْصَها على ذلك كحِرْصه، والمشركةُ ليس لها دينٌ يُحرِّم الخيانة ويوجب عليها الأمانة، ويأمرُها بالخير، وينهاها عن الشرِّ، فهي موكولةٌ إلى طبيعتها وما تربَّتْ عليه في عشيرتها وهو خُرافاتُ الوثنيَّةِ وأوهامُها، فقد تخونُ زوجَها وتُفْسِدُ عقيدةَ ولدها.

(١) الطبري(٢/٣٧٨).

وأَمَّا الكتابيَّةُ فإِنَّها تَدينُ بوجودِ الخير وتحريم الشرِّ ويوشك أَنْ يظهرَ لها من مُعاشرَةِ الرَّجل حقيقةُ دينه وحُسْنُ شريعتِه والوقوفُ على سيرة مَنْ جاء بها وما أيدَّه اللهُ تعالى من الآيات البيّنات فتؤْمِنَ وتُؤْتَي أجرَها مرَّتَيْن إِنْ كانت من المُحْسِناتِ في الحالتيْن»(١).

أَمَّا المُشْرِك فإِنَّه لا يتزوَّجُ مسلمةً أبداً « لأَنَّه يختلفُ في واقعه عن زواج المسلمِ بالكتابيَّة ومن هنا يختلفُ في حُكْمه.. إِنَّ الأطفالَ يُدْعَوْنَ لآبائهم بحُكمِ الشريعة الإِسلامية، كما أَنَّ الزَّوجةَ هي التي تُنْقَل إلى أُسرَة الزَّوج وقَوْمِه بحُكمِ الواقع، وإذا تزوَّج المسلمُ من الكتابيَّة انتقلتْ هي إلى قومِه ودُعِيَ أبناؤه منها باسمه، فكان الإِسلامُ هو الذي يُهيمن ويُظلِّل جوَّ المحصنْ، ويقع العكسُ حين تتزوَّج المسلمةُ من كتابيٍّ فتعيش بعيداً عن قومها، وقد يَفْتِنُها ضَعْفُها ووَحْدَتُها هنالك عن إسلامها، كما أَنَّ أبناءَها يُدْعَوْن إلى زَوْجِها ويدينون بدينٍ غير دينها»(٢).

ومن هذا يتبيَّن أَنَّ زواج الشباب في الخارج من نساءِ أهل الكتابِ بعلَّةِ الحاجة إلى الحُصول على إذن إقامةٍ وغيرِ ذلك من الأسباب: هذا الزَّواجُ غيرُ جائز، لأَنَّهم لا يضمنُون العِفَّة، هذا شيءٌ، وشيءٌ آخر هو أشدُّ خطراً من الأول وهو أَنَّ هذا الشَّابَّ لا يستطيعُ أَنْ يمنَع تلك المرأةَ من اصطحابِ أبنائِها إلى معابِدها، ولا يستطيعُ عند العودة إلى بلده أَنْ يعود بأبنائه، فيكون قد عرَّض أبناءه المسلمينَ لخطر الرِّدة والإلحاد من حيثُ يدري ومن حيثُ لا يدري، والحاملُ على ذلك حُبُّ الدُّنيا والحِرْصُ على كثرةِ المال الذي يجعلُه يهجُر بلدَ الإسلام إلى دارِ الكفر ويُقيمُ فيها بين ظهراني المشركين:

---

(١) المنار(١/٢٠٠).

(٢) الظلال(١/٣٥١).

عن **جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ"**(١).

وَعَنْ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ"(٢).

هذا وقد ذكر الله تعالى المحرَّماتِ من المسلماتِ في سُورة النِّساء فقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (٢٤)**﴾.

وقد قسَّم العلماءُ أسبابَ التَّحريم إلى ثلاثة أقسامٍ: النَّسبُ والرِّضاعُ والمُصاهرة، أمَّا المحرَّماتُ بالنَّسبِ فهنَّ: الأمُّ وإنْ علت، والبنْتُ وإنْ نزلت، والأُختُ وبناتُها وبناتُ الأخِ وإنْ نزلْنَ، والعمَّةُ والخَالةُ وإنْ علَونْ، والنبيُّ ﷺ يقول: "**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**"(٣):

---

(١) صحيح : [ص.ت:١٦٠٤]، ت(١٦٥٤/٨٠/٣)، د(٢٦٢٨/٣٠٣/٧)، ن(٨/٣٦).

(٢) صحيح : [ص.ت:٢٣٧٦]، ت(٢٤٨٢/١٦/٥).

(٣) متفق عليه : خ (٢٦٤٥/٢٥٣/٥)، م(١٤٤٧/١٠٧١/٢)، ن(٦/١٠٠) .

فتحرم الأمُّ من الرَّضاعة وأُمهاتُها وأَخَواتُها وخالاتُها وعماتها والأختُ وبناتُها وبناتُ الأخ من الرَّضاع، وأُختُ زَوْج المرْضِعَة لكونِها خالةً للرضيع، ويُشترط لثُبوت الحُرْمة بالرضاع أَنْ يكون في الحَوْلَين، وأَنْ يكون خمسَ رَضْعاتٍ مُشْبِعات.

وأَمَّا المحرَّماتُ بالمُصاهَرة فهنَّ: زَوْجةُ الأبِ، وتحرُم على الابن بمجرَّد العَقْدِ وإنْ لم يدخُلْ بها الأبُ، وزَوْجَةُ الابن وإن لم يَدخُل بها، وأُمُّ الزَّوجة وإن لم يدخُل بها، والرَّبيبةُ إذا دخل بأمِّها، ومَنْ فارقَها زَوْجُها بلِعانٍ فقد حَرُمَتْ عليه أبداً ولا يحلُّ لهما أَنْ يتراجعا.

والمحرَّماتُ مؤقَّتًا: المُشْركةُ حتى تُؤْمِنَ، والزَّانيةُ حتى تتُوب، وأُخْتُ الزَّوجةِ وعَمَّتُها وخَالتُها، وذاتُ الزَّوجِ حتى يُفارِقَها زَوْجُها.

والفرْقُ بين التَّحريمِ المؤبَّد والمؤقَت أَنَّ المحرَّمة أبداً يجوزُ للرَّجُلِ الظُهورُ على زينتها والخَلْوةُ بها ومُصافحتُها، والسَّفرُ بها ونحو ذلك، والمحرّمةُ مؤقَّتًا لا يستحلُّ الرَّجلُ الذي تحرُم عليه شيئًا من ذلك لأَنَّه أجنبيٌّ عنها، فلا يجوزُ لزَوْجِ الأُخت أَنْ ينظرَ إلى أُختها ولا يرى من زينتِها فضلاً عن أَنْ يخلوَ بها ويسافرَ معها ونحو ذلك، وكذلك سائر المحرَّمات مؤقتاً.

"وفي قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**(٢٢١)﴾ [البقرة]، أي لا تُزَوِّجُوا المسلمةَ من المشْرِك، فخاطبَ اللهُ الرِّجالَ فنهاهم عن أَنْ يتزوَّجوا المشْركاتِ أو يُزَوِّجُوا المشركينَ فدلَّ ذلك على أنَ " **لاَ نِكَاحَ إِلاَّ بِوَلِيٍّ**"[1]، ولو كان للمرأةِ أَنْ تُزَوِّج نفسَها

---

(١) صحيح: [ص.ت: ١١٠١]، ت(١١٠٧/٢٨٠/٢)، د(٢٠٧١/١٠١/٦)، جه(١٨٨١/٦٠٥/١).

لخاطب المسلمات كما خاطب المسلمين فقال: **ولا تنكحن المشركين**، ولكنه خاطب الرِّجال وتكرَّر هذا الخطابُ في القرآن الكريم في مواضع منها: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ(٣٢)﴾ [النور]،

ومنها: ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ(٢٥)﴾ [النساء]، ومنها: ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ(٢٣٢)﴾ [البقرة].

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ قَالَ: " زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا فَقُلْتُ: لَهُ زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا لاَ وَاللَّهِ لاَ تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا وَكَانَ رَجُلاً لاَ بَأْسَ بِهِ وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ فَقُلْتُ: الآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ"(١)، ولولا أنَّ له حقاً في الإنكاح ما نُهِيَ عن العَضْل، وقال تعالى في قِصَّةِ موسى وصِهْره: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ(٢٧)﴾ [القصص]،

وقال ﷺ : **" لاَ نِكَاحَ إِلاَّ بِوَلِيٍّ وَشَاهِدَيْ عَدْلٍ"**(٢)،

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " أَيُّمَا امْرَأَةٍ لَمْ يُنْكِحْهَا الْوَلِيُّ فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ(٣).

وهكذا تعاضَد الكتابُ والسُّنةُ على أن "**لاَ نِكَاحَ إِلاَّ بِوَلِيٍّ**"، وأَمَّا قولُ النبيِّ ﷺ : " **الأَيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا**(٤)، فمعناه أَنَّها أحقُّ بنفسِها أَنْ لا يَعْقِدَ عليها

---

(١) خ(٩/١٨٧/٥١٣٠)، ت(٤/٢٨٤/٤٠٦٥)، د(٦/١٠٩/٢٠٧٣).

(٢) صحيح: [ص.ج:٧٥٥٧]، هق(٧/١٢٥)، حب(٣٠٥/١٢٤٧).

(٣) صحيح[ص.جه:١٥٢٤]، جه(١/٦٠٥/١٨٧٩)، د(٦/٩٨/٢٠٦٩)، ت(٢/٢٨٠/١١٠٨).

(٤) م(٢/١٠٣٧/١٤٢١)، ت (٢/٢٨٧/١١١٤) ، د (٦/١٢٤/٢٠٨٤) ، ن (٦/٨٤)، جه (١/٦٠/١٨٧٠) .

إلاَّ برضاها لا أَنّها أحقُّ بنفسها في أَنْ يعقدَ عليها عقدَ النكاح على نفسها دُون وليِّها»(١)، ومعنى ذلك أَنَّ ما يَجْرِي في ساحةِ الجامعةِ وغيرِها من هبَةِ المرأةِ نفسَها للشاب وبمحضرٍ من الزُّملاءِ والزَّميلات ما هو إلاَّ نوعٌ من السفاح لا نكاح.

وفي نَهْيِ اللهِ تعالى الأولياءَ عن عَضْلِ النِّساءِ ومَنْعِهنَّ من الزَّواج ممن يرغبنْ فيه إذا كان كُفْئاً دليلٌ على أَنَّ للمرأةِ الحَقَّ في اختيار الزَّوج الذي سيُشارِكُها حياتَها، وأنَّه ليس للوليِّ أَنْ يمنَعها ممن تُحِبّ، كما أَنَّه ليس له أَنْ يُكْرِهَها على الزَّواج ممن تكره:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لاَ تُنْكَحُ الأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ وَلاَ تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَيْفَ إِذْنُهَا قَالَ أَنْ تَسْكُتَ»(٢)،

وَعَنْ خَنْسَاءَ بِنْتِ خِذَامٍ الأَنْصَارِيَّةِ " أَنَّ أَبَاهَا زَوَّجَهَا وَهْيَ ثَيِّبٌ فَكَرِهَتْ ذَلِكَ فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَرَدَّ نِكَاحَهُ»(٣)،

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ "أَنَّ جَارِيَةً بِكْرًا أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَتْ لَهُ أَنَّ أَبَاهَا زَوَّجَهَا وَهِيَ كَارِهَةٌ فَخَيَّرَهَا النَّبِيُّ ﷺ »(٤).

هذه هي شرُوط عَقْدِ النكاح: الوليُّ والشاهدان.

---

(١) القرطبي (٧٢-٣/٧٥).

(٢) متفق عليـه: خ(٥١٣٦/١٩١/٩)، م(١٤١٩/١٠٣٦/٢)، د(٢٠٧٨/١١٥/٦)، ت(١١١٣/٢٨٦/٢)، جه(١٨٧١/١).

(٣) خ(٥١٣٨/١٩٤/٩)، د(٢٠٨٧/١٢٧/٦)، جه(١٨٧٣/٦٠٢/١)، ن(٨٦/٦).

(٤) صحيح: [ص.جه:١٥٢٠]، جه(١٨٧٥/٦٠٣/١)، د(٢٠٨٢/١٢٠/٦).

أمَّا أركانُه فهي القَبولُ والإيجابُ، وهما من السُّهولة بمكانٍ بحيثُ لا يحتاجان إلى تلقين المأذُونِ أو غيره: فالإيجابُ من ولِيِّ المرأةِ أَنْ يقولَ زوَّجتُك، والقبول أَنْ يقول الرَّجلُ قَبِلْت، كما قال صِهْرُ موسى عليه السلام له: ﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ(٢٨)**﴾ [القصص]،

وواجباتُ النِّكاح: الصَّداقُ قال تعالى: ﴿**وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا(٤)**﴾ [النساء].

فلابُدّ فى النكاح من صداق وإن قل،أما النكاح بلا صداق فهو من خصائص النبى ﷺ ، لقوله تعالى : ﴿ **..وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِىُّ أَنْ يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ..(٥٠)**﴾ [الأحزاب].

* * *

الحقوق الزوجية
أ- حق المرأة على الرجل

قال تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**(٢٢٨)﴾ [البقرة].

إنَّ الأسرة هي اللَّبِنَةُ الأولى في المجتمع، إذا صلَحت صلَح المجتمعُ كلُّه، وإذا فسدَت فسدَ المجتمعُ كلُّه، ولذا أَوْلى الإسلامُ الأُسرةَ عنايةً كبيرةً وفرضَ لها من الحقُوقِ والواجباتِ ما يَكْفُلُ سلامتَها وسعادَتها، فاعتبرَ الأسرةَ مؤسَّسةً تقومُ على شَركَة بين اثنيْن، المسئولُ الأوَّلُ فيها هو الرَّجل، فقال تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**(٣٤)﴾ [النساء]، وجعلَ الإسلامُ لكلٍّ من الشريكيْن على صاحبهِ حُقوقاً يكفلُ بأدائها استقرارَ هذه المؤسَّسةِ واستمرارَ هذه الشَّركَة، وحَثَّ كلاًّ من الشريكيْن على أداء ما عليه من واجباتٍ و العفوِ عما يكونُ في حَقِّه من زلاَّت، فقال تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**(٢٢٨)﴾ [البقرة]، وهذه الكلمةُ على إيجازِها جمعتْ ما لا يُؤدَّى بالتفصيل إلاَّ في سِفْرٍ كبير، فهي قاعدةٌ كُلِّيَّةٌ ناطقةٌ بأَنَّ المرأةَ مساويةٌ للرَّجل في جميع الحُقوق، إلاَّ أمراً واحداً عبّر اللهُ تعالى عنه بقوله: ﴿**وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**(٢٢٨)﴾ [البقرة] وقد أحال في ما لَهُنَّ وما عَلَيْهِنَّ على المعروفِ بيْن الناس ومُعاشَرتِهم ومُعاملاَتِهم في أهليهم. وما يجري عليه عُرْفُ النَّاس هو تابعٌ لشرائعهم وعَقائِدهم وآدابهم وعاداتهم، فهذه الجملةُ تُعْطي الرَّجُلَ ميزاناً يَزِنُ به معاملتَه لزوْجه في جميع الشؤون والأحوال، فإذا همّ بمُطالَبتِها بأمرٍ من الأُمور تذكَّر أَنَّه يجبُ عليه مِثلُه بإزائه، ولهذا قال ابنُ عبَّاس

رضي الله عنهما: "**إِنِّي لأَتزين لامرأتي كما أحب أنْ تتزين لي**"(١).

فالمسلمُ الحَقُّ يعترفُ بما لزَوْجَتِه عليه من الحقوق كما قال تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**(٢٢٨)﴾[البقرة]، وكما قال النبيُّ ﷺ: "**إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا**"(٢).

والمسلمُ الواعي يحاولُ دائماً أَنْ يؤدِّيَ لزوجه حقَّها غيرَ ناظرٍ في حَقِّه استوْفاه أم لا، لأَنَّه حريصٌ على دوام المودَّة والرَّحمةِ بينْهما، كما أَنَّه حريصٌ على تفويت الفُرْصةِ على الشَّيطانِ الذي يُحَرِّش بينْهما ليتفرَّقا.

ومن أوَّل ما يجبُ للمرأةِ على زَوْجِها: أَنْ يعاشِرَها بالمعرُوف، لقوله تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**(١٩)﴾[النساء]، وذلك: أَنْ يُطعِمَها ويكسُوَها ويقضيَ حاجتَها ويرعى شئُونَها ومصالِحَها، وأَنْ يؤدِّبها إذا خافَ نُشوزَها بما أمر الله أَنْ يؤدّب به النِّساء، بأَنْ يَعِظَها موعظةً حَسنةً من غير سَبٍّ ولا شَتْمٍ ولا تَقْبيح، فإنْ أطاعتْ وإلاَّ هجرَها في الفراش، فإنْ أطاعتْ وإلاَّ ضربَها في غير الوجه ضرباً غير مُبَرِّح، لقوله تعالى: ﴿**وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا**(٣٤)﴾[النساء]،

عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ مَا حَقُّ الْمَرْأَةِ عَلَى الزَّوْجِ قَالَ: " أَنْ يُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمَ وَأَنْ يَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَى وَلاَ يَضْرِبِ الْوَجْهَ وَلاَ يُقَبِّحْ وَلاَ يَهْجُرْ إِلاَّ فِي الْبَيْتِ(٣)،

---

(١) الطبري(٢/٤٥٣).

(٢) حسن [ص.جه:١٥٠١]، جه(١/٥٩٤/١٨٥١)، ت(٢/٣١٥/١١٧٣).

(٣) صحيح [ص.جه:١٥٠٠]، جه(١/٥٩٣/١٨٥٠)، د(٦/١٨٠/٢١٢٨).

إنَّ من مظاهرِ اكتمالِ الخُلق ونُموِّ الإيمان أَنْ يكونَ المرءُ رفيقاً رقيقاً مع أهلِه كما قال النبيُّ ﷺ : «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا**»(١)، فإكرامُ المرأةِ دليلُ الشَّخصيةِ المُتكاملَة، وإهانتُها علامةٌ على الخِسَّة واللؤم.

ومن إكْرامِها التلطُّف معَها ومُدَاعبتُها، اقتداءً برسولِ الله ﷺ ، فقد كان يتلطَّف مع عائشةَ ويُسابِقُها، حتى: **أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ قَالَتْ: «فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلَيَّ فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَقَالَ هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ**»(٢).

وقد عدَّ النبيُّ ﷺ اللَّهوَ باطلاً إلاَّ ما كان مع الأهل، فقال ﷺ : «**كُلُّ مَا يَلْهُو بِهِ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ بَاطِلٌ إِلاَّ رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَمُلاَعَبَتَهُ امْرَأَتَهُ فَإِنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ**»(٣).

ومِنْ حقِّ المرأةِ على الرَّجل أَنْ يصبرَ على أذاها، وأَنْ يعفُوَ عما يكون منها من زَلاَتٍ لقوله ﷺ : «**لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**»(٤)،

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»(٥)،

---

(١) حسن صحيح: [ص.ت:١١٦٢]، ت(٢/٣١٥/١١٧٢).

(٢) صحيح: [الزفاف:٢٠٠]، د(٧/٢٤٣/٢٥٦١).

(٣) صحيح: [س.ص:٣١٥]،ت(٣/٩٥/١٦٨٧)، جه(٢/٩٤٠/٢٨١١)، مي(٢/١٢٤/٢٤١٠).

(٤) م(٢/١٠٩١/١٤٦٩).

(٥) متفق عليه: خ(٩/٢٥٣/٥١٨٦)، م(١٤٦٨ــ٦٠-/٢/١٠٩١).

قال بعض السلف: اعلم أنَّه ليس حُسْنُ الخُلقِ مع المرأةِ كَفَّ الأذى عنها، بل تحمّلُ الأذى منها، والحِلْمُ على طَيْشِها وغَضَبِها، اقتداءً برسولِ الله ﷺ، فقد كانت نساؤهُ يُراجِعْنَه وتهجره إحداهنَّ اليومَ والليلة، وكان يقولُ لعائشةَ رضي الله عنها: «**إنِّي لأَعْلَمُ إذَا كُنْت عَنِّي رَاضِيَةً وَإذَا كُنْت عَلَيَّ غَضْبَى قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَمَّا إِذَا كُنْت عَنِّي رَاضِيَةً فَإِنَّك تَقُولِينَ لا وَرَبِّ مُحَمَّد وَإِذَا كُنْت عَلَيَّ غَضْبَى قُلْتِ لاَ وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّه مَا أَهْجُرُ إلاَّ اسْمَكَ**»(١).

ومِنْ حَقِّ المرأةِ على الرَّجل أَنْ يصونَها ويحفظَها مِنْ كلِّ ما يخدُش شرَفها ويمْتَهِنُ كرامتَها، فيمنَعها من السُّفور والتبرُّج، ويحولُ بيْنها وبيْن الاختلاطِ بغيْر محارمها من الرِّجال، كما عليه أَنْ يوفِّر لها حصانةً كافيةً ورعَايةً وافية، فلا يسمحُ لها أَنْ تَفْسُدَ في خُلق أوْ دين، ولا يُفْسِحُ لها المجالَ أَنْ تَفسُقَ عن أوامر اللهِ ورسولِه أو تفجُر، إذ هو الرَّاعي المسئولُ عنها والمكلَّفُ بحفْظِها وصيانَتِها، لقولِه تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**(٣٤)﴾ [النساء]، ولقولِ النبيِّ ﷺ: «**وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(٢).

ومِنْ حَقِّ المرأةِ على الرَّجل أَنْ يُعلِّمَها الضروريَّ من أمور دينها إِنْ كان أهلاً للتعليم، وإلاَّ أذنَ لها في حُضور مجالس العلم، فإِنَّ حاجتَها لإصلاحِ دينِها وتزكيةِ رُوحها ليستْ أقلَّ مِنْ حاجتِها إلى الطَّعام والشَّراب الواجبِ بذلُهما لها، وذلك لقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**(٦)﴾ [التحريم]، والمرأةُ من الأهل، ووقايتُها من النَّار بالإيمانِ والعملِ الصالح، والعملُ الصالح لا بُدَّ له من العِلْم والمعرفة، حتى يُمكنَ أداؤه والقيامُ به على الوجه المطلوب شرعاً.

---

(١) متفق عليه: خ(٥٢٢٨/٣٢٥/٩)، م(٢٤٣٩/١٨٩٠/٤).

(٢) متفق عليه: خ(٨٩٣/٣٨٠/٢)، م(١٨٢٩/١٤٥٩/٣).

ومن حَقّ المرأةِ على الرّجل أَنْ يأمرَها بإقامةِ دينِ الله والمحافظةِ على الصلاة، لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا(١٣٢)﴾ [طه].

ومن حَقّ المرأةِ على الرَّجل أَنْ يأذن لها في الخرُوج من البيت إذا احتاجت إليه، كأن ترغَب في شهُود الجماعة، أو في زيارةِ أقاربها أو جيرَانها، بشرط أَنْ يأمرَها بالحِجاب، وينْهَاها عن التبرُّج والسُّفور، كما ينهاها عن العُطور والبُخور، ويحَذّرَها من الاختلاط بالرجال ومُصافَحتِهم، كما يُحذّرَها من رُؤْيَةِ التلفزيون وسماع الأغاني.

ومن حَقّ المرأةِ على الرَّجل أَنْ لا يُفْشِيَ سِرَّها، ولا يذكُرَ عَيْبَها، إذ هو الأمينُ عليها، والمُطالَبُ برعايتَها والذَّودِ عنها، ومن أخطرِ الأسرارِ أسرارُ الفِراش، ولذا حذَّر النبيُّ ﷺ من إذاعتها:

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ قُعُودٌ عِنْدَهُ فَقَالَ: « لَعَلَّ رَجُلاً يَقُولُ مَا يَفْعَلُ بِأَهْلِهِ وَلَعَلَّ امْرَأَةً تُخْبِرُ بِمَا فَعَلَتْ مَعَ زَوْجِهَا فَأَرَمَّ الْقَوْمُ فَقُلْتُ: إِي وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُنَّ لَيَقُلْنَ وَإِنَّهُمْ لَيَفْعَلُونَ قَالَ: فَلاَ تَفْعَلُوا فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لَقِيَ شيطانه فِي طَرِيقٍ فَغَشِيَهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ»(١).

ومن حَقّ المرأةِ على الرَّجل أَنْ يستشيرَها في الأُمور ولا سِّيما التي تخصُّها وأولادَها، اقتداءً برسول الله ﷺ فقد كان يستشيرُ نساءَه ويأخذُ برأيهنَّ، ومن ذلك ما كان منه يومَ الحُدَيْبِيَة **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "لأَصْحَابِهِ قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ فَقَالَتْ: أُمُّ**

---

(١) حسن صحيح: [الزفاف:١٤٣و١٤٤]، حم(١٦/٢٢٣/٢٣٧).

سلَمَةَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا»(١).

ومن حَقِّ المرأةِ على الرَّجل أَنْ يَرْجِعَ لها بعدَ العشَاء مباشرةً، وألاَّ يسهرَ خارجَ المنزلِ إلى ساعةٍ متأخِّرَةٍ من الليل، فإنْ هذا يؤرِّقُها ويُزْعِجُها قلقاً عليه، إنْ لم تَدُبَّ في صدرها الوساوسُ والشُّكوكَ إنْ طال السَّهر وتكرَّر، بل من حَقِّ المرأةِ على الرَّجل أَنْ لا يسهَر في البيْت بعيداً عنها ولو في الصلاةِ حتى يؤدِّيَها حقَّها، ومن هنا أنكر النبيُّ ﷺ على عبدِ الله بن عمرو طُولَ سَهرِه واعتزالَ امرأتِه، وقال له: «**وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»(٢).

ومن حَقِّ المرأةِ على الرَّجلِ أَنْ يَعْدِلَ بيْنها وبيْن ضَرَّتها إنْ كان لها ضَرَّة، يعدلُ بيْنهما في الطَّعام والشراب، واللِّباس، والمَسكن، والمَبيت في الفراش، ولا يجوز أَنْ يَحيفَ في شيءٍ من ذلك أو يجورَ أو يظلم، فإنَّ الله حرَّم هذا:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ يَمِيلُ مَعَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ سَاقِطٌ»(٣).

* * *

---

(١) خ(٢٧٣١و٢٧٣٢/٣٢٩/٥).

(٢)متفق عليه :خ(١٩٧٥/٢١٧و٢١٨/٤)، م(١١٥٩-١٨٢-/٨١٣/٢)، ن(٢١١/٤).

(٣)صحيح : [ص.جه:١٦٠٣]،جه(١٩٦٩/٦٣٣/١)،د(٢١١٩/١٧١/٦)، ت(١١٥٠/٣٠٤/٢)، ن(٦٣/٧).

ب- حق الرجل على المرأة

قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٢٨)﴾ [البقرة].

إنَّ حَقَّ الرَّجلِ على المرأةِ عظيم، بيّنه النبيُّ ﷺ بقوله: « **لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدُ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**»(١)، « **والَّذِي نَفْسِي بيَده! لَوْ أَنَّ مِنْ قَدمه إلى مَفْرَقِ رَأْسِه قُرْحَةً تَنْبجِسُ بِالْقَيْحِ والصَّدِيد، ثُمَّ أَقْبَلَتْ تَلْحَسُهُ مَا أَدَّتْ حَقَّه**»(٢).

وقد أجملت حكيمةٌ حقُوقَ الرَّجلِ على زَوْجتِه فقالت لابْنَتِها توُصيها قبلَ زَفَافها :

«أي بُنيَّة: إنَّ الوصيَّةَ لو تُركَتْ لفَضْلِ أدبٍ لتركتُ ذلكَ لك، لكنَّها تذكِرَةٌ للغافل ومعونةٌ للعاقل، ولو أَنَّ امرأة استغنتْ عن الزَّوْج لغنَى أبويّها وشِدَّة حاجتهما إليها كنتِ أغنَى النَّاس عنه، ولكنَّ النِّساء للرِّجالِ خُلِقْنَ ولَهُنَّ خُلِقَ الرِّجال .

أي بُنيَّة: إنَّكِ فَارقْتِ الجوَّ الذي مِنْه خَرجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبحَ بملكِه عليكِ رقيباً ومَليكاً، فكُونِي له أَمةً يكن لك عبداً وشيكاً. واحْفَظِي له خِصَالاً عشراً يكنْ لك ذُخْراً :

أَمَّا الأُولى والثَّانية: فالخُشُوع له والقنَاعة، وحُسْنُ السَّمْع والطَّاعة .

---

(١)حسن صحيح : [ص.ت:١١٥٩]، ت(٢/٣١٤/١١٦٩) ، جه(١/٥٩٥/١٨٥٣) .

(٢)صحيح : لغيره [ص.غ:١٩٣٦] ، حم(١٦/٢٢٧/٢٤٧) .

وأَمَّا الثَّالثة والرَّابعة: فالتفقُّد لمواضِعَ عيْنِه وأَنْفِه، فلا تقعُ عينُه مِنْكِ على قبيحٍ ولا يشمُّ منكِ إلاَّ أطيبَ ريح .

وأَمَّا الخَامسةُ والسَّادسةُ: فالتفقُّد لوقتِ منَامِه وطعَامِه، فإِنَّ تواترَ الجُوعِ مَلْهبَة، وتنغيصَ النَّوم مَغْضَبَة.

وأَمَّا السَّابعةُ والثَّامنةُ: فالاحتراسُ بماله، والإرْعَاءُ على حَشَمِه وعِيالِه، ومَلاكُ الأمْرِ في المالِ حُسْنُ التَّقدير، وفي العِيَال حُسْنُ التَّدبير.

وأَمَّا التَّاسِعَةُ والعَاشِرَةُ: فلا تعصينَ له أمراً ولا تُفْشِينَ له سِرْاً، فإِنَّك إنْ خَالفْتِ أمرَه أوْغَرْت صدْرَه، وإنْ أفشيْتِ سِرَّه لم تأمني غَدْرَه .

ثمَّ إيَّاكِ والفَرَحَ بينْ يديّهِ إنْ كانَ مهمُوماً، والكآبةَ بيْن يديْه إنْ كان مسرُوراً»[١].

فأوَّلُ حَقٍّ للرَّجلِ على المرأةِ هو السَّمعُ له والطَّاعة، فإنَّ النبيَّ ﷺ جعل طاعةَ المرأةِ لزَوْجِهَا من موُجبات دُخولِها الجنَّة كطاعتِها لربِّها فقال ﷺ : «**إذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ**»[٢].

فتأمَّلي أيتها المسلمةُ كيفَ جعلَ النبيَّ ﷺ طاعةَ الزَّوج من مُوجبات الجنَّة كالصَّلاة والصِّيام، فالْزَمِي طاعتَه، واجتنبِي معصيتَه، فإِنَّ في معصيتَه غضبَ الرَّب سبُحانه وتعالى، قال النبيُّ ﷺ : «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا فَتَأْبَى عَلَيْهِ إِلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا**»[٣].

---

(١) فقه السنة(٢/٢٠٠).
(٢) حسن صحيح [الزفاف:٢٨٦]، حم(١٦/٢٢٨/٢٥٠).
(٣) م(١٤٣٦-١٢١-/١٠٦٠/٢).

فالواجبُ عليكِ أيَّتُها المسلمةُ أَنْ تَدِيني لزَوْجك بالسَّمعِ والطَّاعةِ في كلِّ ما يأمُرك به ممَّا لا يُخالفَ الشَّرعَ، واحْذَري كُلَّ الحذَرِ من الإفْراطِ في الطَّاعةِ حتى تطيعيه في المعصية، فإنَّك إنْ فَعلْتِ كُنْتِ آثمة.

ومنْ ذلك مثلاً: أَنْ تطيعيه في إزالة شَعْرِ وَجْهكِ تجمُّلاً له، فقد لعنَ النبيُّ ﷺ «**النَّامِصَةَ وَالْمُتَنَمِّصَةَ**»(١).

ومن ذلك: أَنْ تطيعيه في تَرْكِ الخِمَار عند الخُروج من البيْت لأَنَّه يتباهى بجَمالِك أمامَ النَّاس، فقد قال النبيُّ ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**»(٢).

ومن ذلك أَنْ تطيعيه في الوَطْءِ في المَحيضِ أو في غَيْرِ ما أحلَّ الله، فقد قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**»(٣).

ومن ذلك أَنْ تطيعيه في الظُّهورِ على الرِّجالِ والاخْتلاطِ بهم ومُصافَحتِهم، فقد قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**(٥٣)﴾ [الأحزاب].

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ

---

(١) متفق عليه: خ(٤٨٨٦/٦٣٠/٨)، م(٢١٢٥/١٦٨٧/٣)، د(٤١٥١/٢٢٥/١١).

(٢) م (٢١٢٨/١٦٨٠/٣).

(٣) صحيح: [ص.جه:٥٢٢]، جه(٦٣٩/٢٠٩/١)، ت(١٣٥/٩٠/١)، وليس عنده جملة «**فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ**».

(وهو قريب الزوج كأخيه وابن أخيه وعمه وابن عمه ونحوهم) قَالَ الْحَمْوُ الْمَوْتُ»(١).

وقيسي على ذلك كلَّ ما يخالفُ شَرْعَ ربِّك، فلا تَغْتَرِّي بما يلزمُكِ من الطَّاعة لزَوْجِك حتى تُطيعيه في المَعْصية، فإنَّما الطَّاعُة في المَعْرُوف.

ومن حَقِّ الزَّوج على زَوْجته أَنْ تصونَ عِرْضَه، وتُحافظَ على شَرفه، وأَنْ تُراعِيَ مَاله وولَده وسائرَ شئُون المَنْزل، لقوله تعالى:﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ**(٣٤)﴾ [النساء].

وَقَالَ النَّبِيِّ ﷺ: "وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ»(٢).

ومن حقِّ الزَّوج على زَوْجتِه أَنْ تتزيَّن له وتتجَّمل، وأَنْ تَبْتَسِمَ في وَجْهه دائماً ولا تَعْبَس، ولا تبدُو في صُورةٍ يكرهُها، فقد قال النبيُّ ﷺ : "**خَيْرُ النِّسَاءِ الَّتِى تسُرُّهُ إِذَا نَظَر، وتُطيعُهُ إِذَا أَمَرَ،وَلا تُخالفُه فِى نَفْسِهَا ومَالِها بمَا يَكْرَه»**(٣).

والعَجبُ كلُّ العجَبِ من إهْمالِ المرأةِ نفسَها في بَيْتها بحضرةِ زَوجِها، وإفراطِها في الاهتِمَام بنَفْسها وإبداءِ زينتِها عند الخُروج من بيتها، حتى صدقَ فيها قولُ من قال: قِرْدٌ في البَيْت وغَزالٌ في الشارع!!! فاتَّقِ اللهَ يا أَمةَ الله في نفسك وفي زَوْجك، فإنَّه أحقُّ النَّاس بزينتِك وتجمُّلك، وإيَّاك وإبداء الزِّينةِ لمن لا يجوزُ له رُؤيتُها، فإنَّ هذا من السُّفور المحرَّم .

---

(١)متفق عليه : خ(٥٢٣٢/٣٣٠/٩)، م(٢١٧٢/١٧١١/٤)، ت(١١٨١/٣١٨/٢).

(٢)متفق عليه : خ(٨٩٣/٣٨٠/٢)، م(١٨٢٩/١٤٥٩/٣).

(٣)حسن صحيح : [ص.ن: ٣٢٣١]، ن(٦٨/٦)، ك(١٦١/٢)، حم(٢٢/١٤٥/١٦).

ومِنْ حَقِّ الزَّوج على زَوْجته أَنْ تلزَم بيتَهُ فلا تخرُج منه- ولو إلى المسجد- إِلاَّ بإذنه، لقوله تعالى:﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (٣٣)﴾ [الأحزاب].

ومن حَقِّ الزوج على زَوجته أَنْ لا تأذنَ في بَيْتِه إِلاَّ بإذنه، لقوله ﷺ : **"فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلاَ يُوطِّئَنَّ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ وَلاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ"**(١).

ومن حَقِّ الزَّوج على زَوْجتِه أَنْ تحفظَ مالَه، وأَنْ لا تُنْفقَ منه إِلاَّ بإذنه، لقوله ﷺ : **" لاَ تُنْفِقُ الْمَرْأَةُ مِنْ بَيْتِهَا شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ زَوْجِهَا، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَلاَ الطَّعَامَ؟ قَالَ: ذَلِكَ مِنْ أَفْضَلِ أَمْوَالِنَا"**(٢).

ومن حَقِّ الزَّوج على زَوْجتِه أَنْ لا تُنْفِقَ من مالِها إِنْ كان لها مالٌ إِلاَّ بإذنه لقوله ﷺ : **"لَيْسَ لِلمَرْأَةَ أَنْ تَنْتَهِكَ شَيْئاً مِنْ مَالِهَا إِلاَّ بِإِذْنِ زَوْجِهَا"**(٣).

ومن حقِّ الزَّوج على زَوْجته أَنْ لا تصومَ تطوُّعاً وهو شاهِدٌ إِلاَّ بإذنه، لقوله ﷺ : **"لاَ يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلاَّ بِإِذْنِه"**(٤).

ومن حقِّ الزَّوج على زوجته أَنْ لا تَمُنَّ عليه بما أنفقتْ من مالِها في بَيْتها وعلى عيالِه، فإِنَّ المنَّ يُبطِلُ الأجرَ والثَّواب، قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى (٢٦٤)﴾ [البقرة].

---

(١)حسن : [ص.جه:١٥٠١]، جه(١/٥٩٤/١٨٥١)، ت(٢/٣١٥/١١٧٣).

(٢)حسن :[ص.جه:١٨٥٩]، جه(٢/٧٧٠/٢٢٩٥)، ت(٣/٢٩٣/٢٢٠٣)، د(٩/٤٧٨/٣٥٤٨).

(٣)صحيح : [س.ص:٧٧٥]، وقال الشيخ: أخرجه تمام في الفوائد(٢/١٨٢/١٠).

(٤)متفق عليه : خ(٩/٢٥٩/٥١٩٥)، م(٢/٧١١/١٠٢٦).

ومن حقِّ الزَّوج على زوجتهِ أَنْ تَرْضى باليسير، وأَنْ تقنعَ بالمَوْجُود، وأَنْ لا تكَلِّفَه من النَّفقة ما لا يطيق، فقد قال تعالى: ﴿**لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**(٧)﴾ [الطلاق].

ومن حقِّ الزَّوج على زَوجته أَنْ تحسنَ القيامَ على تربيةِ أولادِها منه في صَبْرٍ: فلا تَغضَبُ على أولادها أمامه، ولا تَدْعُو عليهم، ولا تسبُّهم، فإنَّ ذلك قد يُؤْذيه والرَّسول ﷺ يقول: « **لاَ تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ لاَ تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللَّهُ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا**»(١).

ومن حقِّ الزَّوج على زَوجته أَنْ تُحْسِنَ مُعاملةَ والديْه وأَقاربهِ، فما أحسَنَتْ إلى زَوْجها من أساءت إلى والديْه وأقاربه.

ومن حقِّ الزَّوج على زوجتِهِ أَنْ لا تمنعَ منْه نفسَها متى طلبها،لقوله ﷺ : «**إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ**»(٢).

وَعَنْ طَلْقِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِذَا الرَّجُلُ دَعَا زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّورِ»(٣).

ومن حقِّ الزَّوج على زَوجته أَنْ تكتُم سِرَّه وسِرَّ بيْتِه، ولا تُفْشِي من ذلك شيئاً، ومن أخطَرِ الأسْرارِ التي تتهاونُ النِّساءُ بإذاعتِها أسرارُ الفِراشِ وما يكونُ بيْنَ الزوجين فيه، وقد نهى النبيُّ ﷺ عن ذلك:

---

(١) صحيح [ص.ت:١١٧٤]، ت(١١٨٤/٣٢٠/٢)، جه(٢٠١٤/٦٤٩/١).

(٢) متفق عليه خ(٥١٩٤/٢٩٤/٩)، م(١٤٣٦/١٠٦٠/٢)، د(٢١٢٧/١٧٩/٦).

(٣) صحيح [ص.ت:١١٦٠]، ت(١١٧٠/٣١٤/٢).

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ قُعُودٌ عِنْدَهُ فَقَالَ: « لَعَلَّ رَجُلاً يَقُولُ مَا يَفْعَلُ بِأَهْلِهِ وَلَعَلَّ امْرَأَةً تُخْبِرُ بِمَا فَعَلَتْ مَعَ زَوْجِهَا فَأَرَمَّ الْقَوْمُ فَقُلْتُ: إِي وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهُنَّ لَيَقُلْنَ وَإِنَّهُمْ لَيَفْعَلُونَ قَالَ فَلاَ تَفْعَلُوا فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لَقِيَ شَيْطَانَةً فِي طَرِيقٍ فَغَشِيَهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ»(١).

ومن حَقِّ الزَّوجِ على زَوجتهِ أَنْ تَحرِصَ عليه وتُحافِظَ على الحياةِ معه، ولا تسألُه الطَّلاقَ من غير سبب، فقد قال النبيُّ ﷺ : « **أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ**»(٢).

وقال ﷺ : « **الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ**»(٣).

هذه أيَّتُها المسلمةُ حقوقُ زَوْجِكِ عليك، فعليكِ أَنْ تجتهدي في القيامِ بها حَقَّ القيام، وأَنْ تَغُضِّي الطَّرْفَ عن تقصيرِ زَوْجِكِ في حقِّك، فإنَّه بذلكَ تدومُ المودَّةُ والرَّحمة، وتصلُح البُيوتُ وتستقرُّ، وتُرَفْرِفُ عليها أعلامُ المحبَّة والمودَّة، وتغيبُ عنها النِّزاعَاتُ والخِلاَفاتُ التي تجلبُ العداوةَ والبغضاءَ. وإليك أختي المسلمة هذه القِصَّة من واقع التاريخ تشهد بذلك:

خرج القاضي شُرَيْحٌ يوماً فقابله الشَّعْبِيُّ، فسأله الشَّعْبِيُّ عن حالِه في بيتِه؟ فقال: مِنْ عِشْرينَ عاماً لم أَرَ ما يُغْضِبُني من أهلي.

قال وكيفَ ذاك؟

قال شُرَيْحٌ: من أولِ ليلةٍ دخلتُ على امرأتِي رأيتُ فيها حُسْناً فاتِناً، وجمَالاً نادراً.

---

(١) حسن صحيح [الزفاف : ١٤٣و١٤٤]، حم(١٦/٢٢٣/٢٣٧).

(٢) صحيح : [ص.ت:١١٨٧]،ت(٢/٣٢٩/١١٩٩)،د(٦/٣٠٨/٢٢٠٩)،جه(١/٦٦٢/٢٠٥٥).

(٣) صحيح [ص.ت: ١١٨٦]، (٢/٣٢٩/١١٩٨).

قلت في نفسي: فلأتطهَّر وأصلِّي ركعتيْن شُكْراً لله، فلمَّا سَــلَّمتُ وجــدتُ زَوْجتِي تُصلِّي بصلاَتي، وتُسلِّم بسلامي.

فلمَّا خلا البيتُ من الأصحابِ والأصدقاءِ قمتُ إليها فمددَتُ يدي نحوَهــا، فقالت: على رِسْلِكَ يا أبا أُميَّة، كما أنت، ثمَّ قالت: الحمدُ لله، أحمدُه وأســتعينُه، وأُصلِّي على محمدٍ وآله، إنِّي امرأةٌ غريبة، لا عِلْمَ لي بأَخْلاقِك، فبيِّن لــي مــا تُحِبُّ فآتيه، وما تكرَه فأترُكَه.

وقالت: إنَّه كانَ لك في قَوْمِكَ مَنْ تتزوَّجُه مِنْ نسائِكم، وفي قَــوْمِي مِــنَ الرجال مَنْ هو كُفْءٌ لي، ولكن إذا قضَى اللهُ أمراً كان مفعولاً، وقــد مَلكْــتَ، فاصنَعْ ما أمرَك اللهُ به، إمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان.

أقولُ قَوْلي هذا وأستَغفِرُ اللهَ لي ولك!!

قال شُرَيْحٌ: فأَحْوجَتْني والله يا شَعْبِيُّ إلى الخُطْبَةِ في ذلك الموضِع فقلــتُ: أَحمدُ اللهَ وأستعينُه، وأُصلِّي على النبيِّ وآله وأسلِّم.

وبعد: فإنَّكِ قُلْتِ كلاماً إنْ ثَبتِّ عليه يكنْ ذلك حَظَّك، وإنْ تدَعيه يكنْ حُجَّةً عليكِ.. أُحِبُّ كذا وكذا.. وأكرَه كذا وكذا .. وما رأيتِ من حَسَنَةٍ فانشُرِيها، وما رأيتِ من سيِّئةٍ فاستُريها.

فقالت: كيفَ محبَّتُك لزيارَةِ أهلي؟ قلتُ: ما أُحِبُّ أَنْ يملَّني أصْهاري.

فقالت: فمن تُحِبُّ من جيرانِكَ أَنْ يدخُلَ دارَك، فآذن له، ومن تكرَه فأكره؟

قلت : بنُو فُلانٍ قومٌ صالِحون، وبنُو فُلانٍ قومُ سوء.

قال شُرَيْحٌ: فَبِتُّ معها بأَنْعمِ ليلةٍ، وعِشْتُ معها حَوْلاً لا أرَى إلاَّ ما أُحِبُّ، فلمَّا كان رَأْسُ الحَوْلِ جئْتُ مِنْ مجلسِ القضاءِ، فإذا بفُلانةٍ في البَيْتِ، فقلتُ: مَنْ هي؟ قالت: خَتَنُك، (أي أُمُّ الزوجة).

فالتفتتْ إليّ وسألتْني: كيفَ رأيتَ زَوْجك؟ قلتُ: خَيْرُ زَوْجةٍ.

قالت: يا أبا أُميَّة إنَّ المرأة لا تكونُ أسوأ حالاً منها إلاَّ في حالَيْن: إذا ولدَتْ غُلاماً أو حَظِيَتْ عند زَوْجِهَا، فوالله ما حازَ الرِّجالُ في بيُوتهم شرًّا من المرأةِ المدلَّلة، فأدِّبْ ما شِئْتَ أَنْ تُؤدِّب وهَذِّبْ ما شِئْتَ أَنْ تُهذِّب.

قال شُرَيْحٌ: فمكَثَتْ معي عِشرينَ عاماً لم أَعتِبْ عليها في شيءٍ إلاَّ مرَّةً واحدةً وكنتُ لها ظالماً!!»[١] .

* * *

(١) نقلاً من المرأة المثالية (٤٤و٤٥).

ما يحل وما يحرم للرجال من النساء

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(٢٢٢)نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٢٢٣)﴾ [البقرة].

الحَيْضُ لُغةً: السَّيلانُ، واصْطِلاحاً: دمٌ يخرُجُ من المرأةِ في أوقاتٍ مخْصُوصةٍ، دليلاً على بلُوغها سِنَّ التَّكليف وصَلاحِيَتها للزَّواج والوِلادة، وهو عِنْدَ العُلماءِ لا ينزلُ من الفَتاةِ إلاَّ بعدَ بلوغ التاسعة فأكثَر، ولا حَدَّ لانتهائه، وإنَّما يختلف من امرأةٍ لأُخرى، ويُعْرفُ زَمَنُ انْقطَاعه بسِنِّ اليَأْس قال تعالى: ﴿واللائى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ واللائى لَمْ يَحِضْنَ(٤)﴾[الطلاق].

وهو شَيءٌ كتَبه اللهُ على بناتِ آدم كما قال النبيُّ ﷺ :

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: خَرَجْنَا لاَ نَرَى إِلاَّ الْحَجَّ فَلَمَّا كُنَّا بِسَرِفَ حِضْتُ فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي قَالَ: «مَا لَكِ أَنُفِسْتِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ فَاقْضِي مَا يَقْضِي الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لاَ تَطُوفِي بِالْبَيْتِ»[1].

وقد اختلفَ العُلماءُ في مُدَّة الحَيْض كم يستمرُّ بالمرأة ؟ والرَّاجحُ أَنَّه لا حَدَّ لأقلِّه وأَكْثَرِه، وإنَّما مَردُّه إلى العادةِ والعُرْف، وإنْ كان متوسِّطُه سِتَّةَ أيَّامٍ أو

---

(١) متفق عليهخ(٢٩٤/٤٠٠/١)، م(١٢١١-١١٩-/٨٧٣/٢)، د(١٧٦٥/٢٠٢و٢٠٣/٥).

سبْعةً، كما قال ﷺ لحمْنَةَ بنْت جَحْشٍ وكَانتْ تَشتَكي منْه: " **إنَّمَا هَذه ركْضَةٌ منْ رَاكضَات الشَّيْطَانِ فَتَحَيَّضي ستَّةَ أَيَّامٍ أَوْ سَبْعَةَ أَيَّامٍ فِي علْمِ اللَّه ثُمَّ اغْتَسلي حَتَّى إذَا رَأَيْت أَنَّك قَدْ طَهُرْت واسْتَنْقَأْت فَصَلِّي ثَلاثًا وَعشْرينَ لَيْلَةً أَوْ أَرْبَعًا وَعشْرينَ لَيْلَةً وَأَيَّامَهَا وَصُومي فَإِنَّ ذَلكَ يَجْزِيك وكَذَلكَ فَافْعَلي فِي كُلِّ شَهْرٍ كَمَا تَحيضُ النِّسَاءُ وكَمَا يَطْهُرْنَ ميقَاتُ حَيْضهِنَّ وَطُهْرِهِنَّ**»[١].

وابتداءُ الحَيْضِ يكونُ بسَيلانِ الدَّمِ وجَرَيانه، ولا عبْرَة بالنُّقْطَة والنُّقْطَتَيْن تَنْزلانِ قبلَ الموْعدِ بيومٍ أو يومين، فقد ذكر الأطبَّاءُ أنَّ هذه النُّقطَ المتقطِّعة قبلَ السَّيلانِ ليستَ من الحيض وإنَّما هي نتيجةُ اضْطِراباتٍ لضَعْف الرَّحم قبلَ الحيض، وانتهاؤه يكونُ بتوقُّف سَيلانِ الدم وانقطاعه، والصُّفْرَة والكُدْرَةُ في آخرِ الدَّورَة منْها، وعلامةُ الطُّهْرِ القَصَّةُ البَيْضَاءُ وهي سائلٌ أبيضُ يُفْرزُه الرَّحِمُ إيذاناً بانتهاءِ الدَّورةِ فإنْ لم تُمَيزْها المرأةُ استدلَّت عليها بعدَمِ تلوُّث القُطْنَةِ إذا أصابت بها موضعَ الدّم:

عَنْ مُرجَانَةَ مَوْلاَة عَائشَةَ قَالَتْ: "كُنَّ نسَاءٌ يَبْعَثْنَ إِلَى عَائشَةَ بالدُّرَجَة فيهَا الْكُرْسُفُ فيه الصُّفْرَة فَتَقُولُ لاَ تَعْجَلْنَ حَتَّى تَرَيْنَ الْقَصَّةَ الْبَيْضَاءَ تُرِيدُ بذَلكَ الطُّهْرَ منَ الْحَيْضَة»[٢].

ودَمُ الحَيْضِ نَجِسٌ، إذا أصابَ الثَّوبَ وجبَ غَسْلُه:

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهَا قَالَتْ: سَأَلَت امْرَأَةٌ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّه! أَرَأَيْتَ إِحْدَانَا إِذَا أَصَابَ ثَوْبَهَا الدَّمُ منَ الْحَيْضَة كَيْفَ تَصْنَعُ قَالَ: "إِذَا أَصَابَ إِحْدَاكُنَّ الدَّمُ منَ الْحَيْضِ فَلْتَقْرُصْهُ ثُمَّ لِتَنْضَحْهُ بِالْمَاءِ ثُمَّ لِتُصَلِّ»[٣].

---

(١) حسن: [ص.د:٢٦٧]، د(١/٤٧٥/٢٨٤)، ت(١/٨٣/١٢٨)، جه(١/٢٠٥/٦٢٧).

(٢) صحيح [الإرواء:١٩٨]، ط(١٢٦/٤٩و٥٠) خ تعليقا(٤٢٠ /١).

(٣) متفق عليه: خ(١/٤١٠/٣٠٧)، م(١/٢٤٠/٢٩١)، واللفظ له.

ونَجَاسَةُ الحَيْضِ لا تتعدَّى مَوْضِعَه، فالحَائضُ ليستْ نَجِسةً، فمُلامستُها ومُخالَطتُها ومُؤاكلَتُها ومُشَارَبَتُها لا حرجَ فيها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ! نَاوِلِينِي الثَّوْبَ فَقَالَتْ: إِنِّي حَائِضٌ فَقَالَ: « إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ فَنَاوَلَتْهُ»(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَّكِئُ فِي حَجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ ثُمَّ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ»(٢).

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ بَيْنَمَا أَنَا مُضْطَجِعَةٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَمِيلَةِ إِذْ حِضْتُ فَانْسَلَلْتُ فَأَخَذْتُ ثِيَابَ حِيضَتِي فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَفِسْتِ قُلْتُ نَعَمْ فَدَعَانِي فَاضْطَجَعْتُ مَعَهُ فِي الْخَمِيلَةِ»(٣).

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «كُنْتُ أَتَعَرَّقُ الْعَظْمَ وَأَنَا حَائِضٌ فَأُعْطِيهِ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَمَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي فِيهِ وَضَعْتُهُ وَأَشْرَبُ الشَّرَابَ فَأُنَاوِلُهُ فَيَضَعُ فَمَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كُنْتُ أَشْرَبُ مِنْهُ»(٤).

وكان اليهودُ – قاتَلَهمُ الله – يَجْتَنِبُون الحائضَ اجتناباً:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ الْيَهُودَ كَانَتْ إِذَا حَاضَتْ مِنْهُمُ الْمَرْأَةُ أَخْرَجُوهَا مِنَ

---

(١) م(٢٩٨/٢٤٤و٢٤٥/١)، د(٢٥٨/٤٤٢-٤٤٤/١)، ن(١٩٢/١)، ت(١٣٤/٨٩و٩٠/١)، جه(٦٣٢/٢٠٧/١).

(٢) متفق عليه: خ(٢٩٧/٤٠١/١)، م(٣٠٢/٢٤٦/١)، د(٢٥٧/٤٤٢/١)، ن(١٩١/١)، جه(٦٣٤/٢٠٨/١).

(٣) متفق عليه : خ(١٩٢٩/١٥٢/٤)، م(٢٩٦/٢٤٣/١)، ن(١٤٩و١٥٠/١).

(٤) صحيح : [ص.د:٢٣٢]، د(٢٥٦/٤٤١و٤٤٢/١)، ن(١٤٨/١)، جه(٦٤٣/٢١١/١). ورواه : م(٣٠٠/٢٤٥و٢٤٦/١) مختصرا.

الْبَيْت وَلَمْ يُؤَاكلُوهَا وَلَمْ يُشَارِبُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهَا فِي الْبَيْت فَسُئلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ عَنْ ذَلكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ(٢٢٢)﴾ [البقرة] **إِلَى آخر الآيَة فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ جَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ وَاصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَ النِّكَاحِ»**[١].

فبيَّن ﷺ أَنَّ المُرادَ بالاعتزالِ المأمورِ به فى الآية هو اعْتزَالُ النِّكاح وهو الوطءُ في الفَرْج فقط، فقال: "**وَاصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ**" من القُبْلَةِ والمُعانَقةِ والمُباشَرةِ والاستمتاعِ مع الإنزال في غير موضع الدم.

عَنْ عَائشَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أَغْتَسلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ منْ إِنَاءِ وَاحد كلانَا جُنُبٌ وكَانَ يَأْمُرُني فَأَتَّزِرُ فَيُبَاشِرُنِي وَأَنَا حَائضٌ وكَانَ يُخْرِجُ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَهُوَ مُعْتَكفٌ فَأَغْسلُهُ وَأَنَا حَائضٌ»[٢].

عَنْ عكْرِمَةَ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ : "كَانَ إِذَا أَرَادَ منَ الْحَائضِ شَيْئًا أَلْقَى عَلَى فَرْجِهَا ثَوْبًا»[٣].

فالذي يَحْرُم من الحَائض على زَوْجِها الوَطءُ فقط وهو "حرامٌ بإجماعِ المسلمين بنصِّ القرآنِ العزيزِ والسنَّةِ الصَّحيحةِ. فإذا اعتقدَ مُسْلِمٌ حِلَّ جِمَاعِ الحَائضِ في فَرْجِها صار كافراً مُرْتَداً، ولو فعله إنسانٌ غيرَ مُعْتَقدٍ حِلَّه: فإنْ كان ناسِياً أو جاهلاً بوجُودِ الحَيْضِ أو جاهلاً بتحريمه فلا إِثْم علَيه ولا كفارة، وإنْ وَطئَهَا عامداً عالما بالحيْض والتَّحريم فقد ارتكبَ معصيةً كبيرةً ويجب عليه التوبة»[٤]. والكفارة فيه:

---

(١) م(٣٠٢/٢٤٦/١)، د(٢١٥١/٢٠٦/٦)، ت(٤٠٦٠/٢٨٢و٢٨٣/٤)، ن(١٥٢/١)، جه(٦٤٤/٢١١/٢) .

(٢) متفق عليه: خ(٢٩٩-٣٠١/٤٠٣/١)، م(٢٩٣/٢٤٢و ٢٩٧/٢٤٤و٣٢١/٢٥٦/١) .

(٣) صحيح : [ص.د: ٢٤٢]، د(٢٦٩/٤٥٥ و٤٥٦/١) .

(٤) شرح مسلم النووي(٢٠٤/٣).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : "سألت فِي الَّذِي يَأْتِي امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ قَالَ يَتَصَدَّقُ بِدِينَارٍ أَوْ نِصْفِ دِينَارٍ"(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: " إِذَا أَصَابَهَا فِي أَوَّلِ الدَّمِ فَدِينَارٌ وَإِذَا أَصَابَهَا فِي انْقِطَاعِ الدَّمِ فَنِصْفُ دِينَارٍ"(٢).

وتحريمُ الوطءِ مستمرٌ إلى انقطاع الدم والغُسْل، لقوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(٢٢٢)﴾ [البقرة]، فعلّق القُرْآنَ على غايةٍ وهي أَنْ يَطْهُرْنَ ويتطهّرن، وقد فسّر جمهورُ العلماء لَفْظَ يَطْهُرْنَ بانقطاع الدم برؤيةِ علامَتهِ السَّابقةِ الذكر وهي القَصَّةُ البيضاء، كما فسَّروا تَطهَّرْنَ بالاغتسال، ويؤيده حديث أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا(١٠٨)﴾ [التوبة] لما نَزَلَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ فَمَا طُهُورُكُمْ قَالُوا نَتَوَضَّأُ لِلصَّلاَةِ وَنَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ وَنَسْتَنْجِي بِالْمَاءِ قَالَ: فَهُوَ ذَاكَ فَعَلَيْكُمُوهُ"(٣).

وقد بيّن النبيُّ ﷺ صِفَةَ غُسْلِ الحَيْضِ:

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ غُسْلِ الْمَحِيضِ فَقَالَ: " تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ دَلْكًا شَدِيدًا حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً

---

(١) صحيح: [ص.د:٢٣٧]، د(١/٤٤٥/٢٦١)، ن(١/١٥٣)، جه(١/٢١٠/٦٤٠) .

(٢) صحيح موقوف: [ص.د:٢٣٨]، د(١/٢٤٩/٢٦٢).

(٣) صحيح: [ص.جه:٢٨٥]، جه(١/١٢٧/٣٥٥)، ورواه مختصرا : د(١/٦٦/٤٤)، ت(٤/٣٤٤/٥٠٩٨).

مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بِهَا فَقَالَتْ: أَسْمَاءُ وَكَيْفَ تَطَهَّرُ بِهَا؟ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ تَطَهَّرِينَ بِهَا فَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَأَنَّهَا تُخْفِي ذَلِكَ تَتَبَّعِينَ أَثَرَ الدَّمِ وَسَأَلَتْهُ عَنْ غُسْلِ الْجَنَابَةِ فَقَالَ: تَأْخُذُ مَاءً فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ أَوْ تُبْلِغُ الطُّهُورَ ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ»(١).

وهكذا فرَّق ﷺ بيْن غُسْلِ الحَيْضِ وغُسْلِ الجنَابةِ، فأكَّد على الحائضِ أن تُبالِغَ في ذَلْكِ رِأْسِها ولم يُؤكِّد ذلكَ على الجُنب، فيجبُ على المرأةِ أَنْ تَنقُضَ شَعْرَ رَأْسِها في غُسلِ الحيْض ولا يجبُ عليها نَقْضُه في غُسْلِ الجنابة .

والحَذَرَّ كُلُّ الحَذَرِ من إهْمالِ المرأةِ رَأْسَها في غُسْل الحَيْضِ أو الجَنابةِ حِرْصاً على المَكْوي أو التَّسريحةِ كما يُفْعلُ بالعَرائسِ ليلَة الزفاف، نسأل الله السلامة.

وفي قولـه تعالى: ﴿**فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ**(٢٢٢)﴾[البقرة]، إشارةٌ إلى تحريمِ وطْءِ الدُّبرِ لأَنَّ اللهَ لم يأذن لنا فيه وقد أكَّد على ذلك بعدُ فقال: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**(٢٢٣)﴾ [البقرة]، والحَرْث مَوْضِعُ الزَّرْعِ والإنْبات، فشبَّه قُبُلَ المرأةِ الذي هو مَحلُّ الوِلادةِ بالأرض التي هي مَحَلُّ الزَّرْع والإنبات، والدُّبرُ ليس مَحَلاً للوِلادةِ فلا يَحِلُ وطؤه، وإذا كان مَحَلُّ الوِلادةِ يحرُم من أَجْلِ الأَذى العَارِض وهو الحيْضُ فتحريمُ مَحلِّ الأذَى الدائم أوْلى، ولذَا كَثُرتِ الأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ في النَّهْيِ عن وَطْءِ الدُّبر:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا»(٢).

---

(١) م(٣٣٢-٦١-/١/٢٦١).

(٢) صحيح : [ص.جه: ١٥٦٠]، جه(١٩٢٣/٦١٩/١).

وَعَنْ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لاَ تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :«مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا»(٢)

وشدّد ﷺ فقال: «مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»(٣).

أَمَّا أَنْ يأتيَ الرَّجلُ امرأتَه مِنْ ورائها في قُبلِها الذي هو مَوْضِعُ الحَرْثِ فلا حَرج فإنَّ الله تعالى قال: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ(٢٢٣)﴾ [البقرة] أي كيف شِئْتم ما دام ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ(٢٢٢)﴾ [البقرة]،

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَانَتْ يَهُودُ تَقُولُ مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِي قُبُلِهَا مِنْ دُبُرِهَا كَانَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ(٢٢٢)﴾ [البقرة]»(٤)،

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلَكْتُ قَالَ: وَمَا أَهْلَكَكَ؟ قَالَ: حَوَّلْتُ رَحْلِيَ اللَّيْلَةَ قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَالَ: فَأُنْزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالْحَيْضَةَ»(٥).

---

(١) صحيح: [ص.جه:١٥٦١]، جه(١/٦١٩/١٩٢٤).

(٢) حسن: [ص.د:١٨٩٤]، د(٦/١٩٨/٢١٤٨).

(٣) صحيح: [ص.جه:٥٢٢]، جه(١/٢٠٩/٦٣٩)، ت(١/٩٠/١٣٥) .

(٤) صحيح: [ص.جه:١٥٦٢]، جه(١/٦٢٠/١٩٢٥).

(٥) حسن: [ص.ت:٢٩٨٠]، ت(٤/٢٨٤/٤٠٦٤).

ومِنَ الدِّماء التي تخرُج من المرأةِ دمُ النِّفاسِ وهو الدَمُ الخَارِجُ بسببِ الوِلادة، وأكثرُه أربعونَ يوماً ولاَ حدّ لأقلِّه،

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ كَانَتِ النُّفَسَاءُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَجْلِسُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»(١)، يعني إذا استمرَّ بها الدمُ، أَمَّا إذا انقطع قبل الأربعين ورأت الطُّهْرَ فقد طَهُرت، وإنْ استمرَّ بعد الأربعين اغتسلتْ لتمامِ الأربعينَ واعتبرت الزِّيادةَ استحاضة.

والاستِحَاضَةُ: دمٌ يخرُج من المرأةِ في غيرِ أوقاتِ الحيْض والنِّفاس أو متَّصِلاً بهما، فالأَّولُ واضحٌ، وإنْ اتَّصل بهما فإنْ كانتِ المرأةُ مُعتادةً فما زاد على عادتِها فهو استحاضة، لقوله ﷺ لأم حبيبة " **امْكُثِي قَدْرَ مَا كَانَتْ تَحْبِسُكِ حَيْضَتُكِ ثُمَّ اغْتَسِلِي فَكَانَتْ تَغْتَسِلُ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ**»(٢)،

وقد ذكر الأطِّباءُ أَنَّ اللولب يتسبَّب في زيادة الدم، وأَنَّ الزيادة استِحَاضَةٌ فمتى انتهتِ الأيَّامَ المعتادةُ للمرأة فقد انتهتْ دَوْرَتُها والزِّيادةُ استحاضة، وإنْ كانتِ المرأةُ تستطيعُ التَّمييزَ بيْن الدَّميْن فالحَيْضُ هو الأسْودُ المعرُوف، وغيرُه استِحَاضة لقوله ﷺ لفاطمةَ بنتِ أبي حُبَيش: «**إذَا كَانَ دَمُ الْحَيْضِ فَإِنَّهُ دَمٌ أَسْوَدُ يُعْرَفُ فَأَمْسِكِي عَنِ الصَّلاَةِ وَإِذَا كَانَ الآخَرُ فَتَوَضَّئِي فَإِنَّمَا هُوَ عِرْقٌ**»(٣).

والاستِحَاضَةُ لا تحرِّمُ على المرأةِ شيئاً إلاَّ أَنَّه يلزمُها الوُضُوءُ لكلِّ صلاةٍ، لقولهِ ﷺ لفاطمةَ بنتِ أبي حُبيش: " **وَتَوَضَّئِي لِكُلِّ صَلاَةٍ**»(٤).

---

(١)حسن صحيح : [ص.جه:٥٣٠]،جه(١/٢١٣/٦٤٨)، د(١/٥٠١/٣٠٧)، ت(١/٩٢/١٣٩).

(٢) م(٣٣٤-٦٥-/١/٢٦٤).

(٣)صحيح : [الإرواء٢٠٤]، ن(١/١٨٥)، د(١/٤٧٠/٢٨٣).

(٤)صحيح : [ص.جه:٥٠٧]، جه(١/٢٠٥/٦٢٤)بمعناه، د(١/٤٩٠/١٩٥).

وإنْ استَطاعَتْ أَنْ تغْتسِلَ لكلِّ صلاتيْن فَعلَتْ:

عَنْ حَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ قَالَتْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَآمُرُكِ بِأَمْرَيْنِ... وَإِنْ قَوِيتِ عَلَى أَنْ تُؤَخِّرِي الظُّهْرَ وَتُعَجِّلِي الْعَصْرَ فَتَغْتَسِلِينَ وَتَجْمَعِينَ بَيْنَ الصَّلاَتَيْنِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَتُؤَخِّرِينَ الْمَغْرِبَ وَتُعَجِّلِينَ الْعِشَاءَ ثُمَّ تَغْتَسِلِينَ وَتَجْمَعِينَ بَيْنَ الصَّلاَتَيْنِ فَافْعَلِي وَتَغْتَسِلِينَ مَعَ الْفَجْرِ فَافْعَلِي»(١).

أَمَّا الحَيْضُ والنِّفاسُ فإنَّهما يحرِّمانِ على المرْأةِ : الوطءَ والصَّلاةَ والصَّومَ والطَّوافَ بالبيْت، فإذا طَهُرَتْ قَضَتْ الصَّومَ دُونَ الصَّلاة.

ومن اللَّطائفِ في هاتيْن الآيتيْن خِتَامُ الأولى ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ**(٢٢٢)﴾ [البقرة] "الذين إذا خالَفُوا سُنَّةَ الفِطْرةِ بغَلَبةِ سُلْطَانِ الشَّهوةِ فأَتَوْا نساءَهم في زَمنِ الحيضْ أو في غير المأتَي الذي أمرَ اللهُ به يَرْجِعُون إليه تائبينَ و لا يُصرُّون على فِعْلِهُم السَّيئ ﴿**وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**(٢٢٢)﴾ [البقرة] من الأحْداثِ والأقْذارِ ومن إتيان المُنكر، بل هؤلاءِ أحبُّ إليه من الذين يَقعُون في الدَّنس، ثم يتوبون منه»(٢)، "وإنَّما قدَّم مَنْ أَذْنبَ على من لم يُذْنِب لِئلاَّ يقنَط التَّائِبُ من الرحمة، ولا يُعْجَبَ المتطهِّرُ بنفسه»(٣).

ومن اللَّطائفِ في الآيةِ الثانية قولُه تعالى: ﴿**وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ**(٢٢٣)﴾ [البقرة] "أي افْعلُوا ما تَستوْجِبُون به الجنَّة والكرَّامةَ، وهو نظيرُ قولِ الرَّجلِ لأخيه: قَدِّمْ لِنَفْسِكَ عملاً صالحاً، وهو كقوله تعالى: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**(١٩٧)﴾ [البقرة]، ومُنَاسبةُ هذا الأمرِ للآيةِ أنَّها اشتمَلتْ على الإذْنِ بالوطءِ في وَقْتٍ والنَّهْيِ

---

(١) حسن : [ص.د:٢٦٧]، د(٢٨٣/٤٧٠/١).

(٢) المنار(١/٢٠٣).

(٣) القرطبي(٣/٩١).

عنه في وقت، فتناسبَ أَنْ يُوصَوْا بمُراقَبةِ الله في الحالَيْن فقال تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي لا تكونوا في قَيْدِ الشَّهوة فتُخالِفُوا إلى ما نَهاكم الله عنه، بل كُونوا في قَيْدِ الطَّاعة ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ(٢٢٢)﴾ [البقرة]، وقد أكَّد الله تعالى ذلكَ بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ(٢٢٣)﴾ [البقرة]، ثم أكَّده ثانياً بقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ(٢٢٣)﴾ [البقرة]، ثم لمَّا رغَّب ورهَّب أَتْبَع ذلك بذكر جزاء من أَطاعَ فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٢٢٣)﴾ [البقرة]، وَحذَفَ البِشارَة لأَنَّها سُنَّةٌ معلومة، لِتَقَدُّمِ التَّصريحِ بها في أوَّل السورة ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥)﴾ [البقرة]»[(١)].

* * *

(١) الرازي(٦/٧٩)بتصرف.

الخلافات الزوجية وطرق علاجها

لقد تضمَّنتْ سُورةُ البقرةِ أحكامَ الطَّلاقِ وما يترتَّبُ عليه من أحكامٍ وواجبات، جعلَها الله تعالى من حُدودِه التي يجبُ أن تُصانَ وتُحتَرم فقال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٢٩) ﴾ [البقرة].

وقد أباحَ اللهُ تعالى لكلٍّ من الزَّوجيْن إنهاءَ الشَّركَةِ التي بيْنهما حين يتضررَّ من استمرارِها ولا يُطيقها، ولا يستطيع أن يصبْرَ عليها، فجعلَ منْ حَقِّ الرَّجُل الطلاقَ، ومِنْ حَقِّ المرأةِ طلبَ الطَّلاقِ وهو ما يُسمَّى بالخُلْع، لكنَّ هذا الطَّلاقَ بمثابة الكيِّ الذي جاء فيه "**آخر الدواء الكي**" .

ولذلك أرشدَ اللهُ تعالى كُلاًّ من الزَّوجيْن إلى الصَّبْرِ على صَاحِبه وتحمُّله ومُحَاولةِ عِلاجِه قبلَ الْكَيِّ، لِمَا في الْكَيِّ من الألم، وعِظَمِ الضَّرر، ولكنْ إذا استفحلَ الشرُّ يُرتكبُ أخفُّ الضَّررَيْن كما تقولُ الأُصول.

وقد رأيتُ قبلَ أنْ نشرَح أحكامَ الطَّلاقِ وحُدودَه كما جاءت في سورة البقرة أنْ نذكر طُرُقَ العلاَج التي ذكرَها اللهُ تعالى في سورة النساء فقال تعالى: **﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا(٣٥)﴾** [النساء]، وقال تعالى: **﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(١٢٨)﴾** [النساء].

فمنهجُ الإسلامِ لا ينتظرُ حتَّى يقعَ النُّشوزُ بالفِعْل وتُعْلَنَ رايـةُ العِصْـيان، وتَسْقُطَ نِهايةُ القَوامَةِ وتنقسِمَ المؤسَّسةُ إلى مُعسْكَرِيْن، فالعِلاجُ حين ينتهي إلـى هذا الوضْعِ قلَّما يُجْدِي، ولا بُدَّ من المُبادَرةِ في عِلاج النُّشوزِ قبل استِفْحالِه، لأَنَّ مآلَه إلى فسادِ هذه المنَظَّمةِ الخَطيرة، لا يستقرُّ معـه سـكنٌ ولا طُمأنينـة، ولا تَصْلُحُ معه تربيةٌ ولا إعْدادٌ للناشئين في المحْضَنِ الخطير، ومآلُه بعدَ ذلكَ إلـى تصدُّعٍ وانهيار ودَمارِ المؤسَّسةِ كلِّها، وتشَرُّدِ النَاشئينَ فيهـا، أو تـربيتِهم بـيْن عَوامِلَ هدَّامةٍ مُفْضِيَةٍ إلى الأمراضِ النَّفسيَّةِ والعصبيَّةِ والبدنيَّة، وإلى الشذوذ.

فالأمرُ إذْنَ خطير، ولابُدَّ من المُبادَرةِ بِاتخاذ الإجراءاتِ المُنْدَرِجَـة فـي عِلاج عَلامَات النُّشوزِ مُنْذُ أَنْ تلوحَ من بعيد.

وقد أرشدَ اللهُ تعالى الرِّجال إلى طُرُقِ عِلاجَ نُشُوزِ النِّساء فقـال تعـالى: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)﴾ [النساء]، فإذا رأيتَ من امرأتك تغيُّراً في مُعامَلتِك، وإذا رأيتَها خرَجتْ عن المألُوفِ فـي خِـدْمتِك فعجِّلْ باتِّخاذِ الإجراءِ اللازم ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ فهذا هو الإجـراءُ الأوَّلُ الموْعظـة، وهذا هو أَوَّلُ واجباتِ القيِّم وربِّ الأسرة، عملٌ تهذيبيٌّ مطلوبٌ منه في كلِّ حالة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَـارَةُ(٦)﴾ [التحريم]، ذَكِّرْها يقول الله تعالى : ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ(٢٢٨)﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْـضٍ وَبِمَـا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَـا حَفِـظَ اللهُ والاتـي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْـنَكُمْ فَلا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا(٣٤)﴾ [النساء]،

وذكّرْها يقول النبى ﷺ : " **لاَ تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ لَمْ تَمْنَعْهُ**"(١)، ذَكِّرْها بما أوجب الإسلام عليها.

لكنَّ العِظَةَ قد لا تنفعُ لأَنَّ هناك هوىً غالباً، أو انفعالاً جامحاً، أو استعْلاءً بجمالٍ أو بمالٍ أو بمركزٍ عائلي، أو بأيِّ قيمةٍ من القِيَم، بحيثُ تَنْسَى الزَّوْجةُ أَنَّها شريكةٌ في مؤسَّسةٍ وليست نِداً في صِراعٍ أو مَجَالِ افتخار.

هنا يجيء الإجراءُ الثاني، حَرَكةُ استعلاءٍ نَفْسِيَّةٍ من الرَّجلِ على كلِّ ما تُدِلّ به من جمالٍ وجاذبيَّةٍ أو قِيَمٍ أُخرى، ترفَعُ بها ذاتَها على ذاتِه، أو عن مكانِ الشَّريكِ في مؤسَّسةٍ عليها قوامة: ﴿**وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ**(٣٤)﴾ [النساء]، والمَضْجَعُ مَوْضِعُ الإغراءِ والجاذبيَّةِ التي تبلغُ فيها المرأةُ الناشزُ المُتعاليةُ قِمَّةَ سُلْطانِها، فإذا استطاعَ الرَّجلُ أَنْ يقهرَ دوافِعَه تجاهَ هذا الإغراءِ فقد أَسْقَطَ مِنْ يدِ المرأةِ الناشزِ أَمْضَى أَسْلِحَتِها التي تعتزُّ بها.

على أَنَّ هناك أدباً مُعَيَّناً في هذا الإجراء.. إجراءِ الهَجْرِ في المضجع.. وهو ألاَّ يكونَ هجراً ظاهِراً في غيرِ مكان خَلْوَةِ الزَّوجيْن.. لا يكونُ هجراً أمامَ الأطفالِ يورِثُ نفُوسَهم شرّاً وفساداً.. ولا هجراً أمامَ الغُرَباءِ يُذِلُّ الزَّوجَة، أو يستثيرُ كرامَتَها فتزدادُ نُشوزاً فالمقصودُ عِلاجُ النُّشوزِ لا إذلالُ الزَّوجة و لا فسادُ الأطفال. وكِلا الهدفيْن يبدُو أَنَّه مقصودٌ من هذا الإجراء.

ولكنَّ هذه الخُطوةَ قد لا تُفْلِحُ كذلك .. فهل تُتْرَكُ المؤسَّسةُ تتحطَّم؟ إنَّ هُنَاكَ إجراءً ولو أَنَّه أعْنَفُ، ولكنَّه أَهْونُ وأَصْغَرُ من تحطيم المؤسَّسة كلِّها بالنُّشوز: ﴿**وَاضْرِبُوهُنَّ**(٣٤)﴾ [النساء] واستِصْحَابُ المعاني السابقةِ كلِّها،

---

(١) حسن صحيح: [ص.جه:١٥٠٣]، جه(١٨٥٣/١/٥٩٥).

واستصحاب الهدفِ من هذه الإجراءاتِ كلِّها يمنعُ أَنْ يكونَ هذا الضربُ تعذيباً للانتقام والتشفيِّ. ويمنعُ أَنْ يكونَ فيه إهانةٌ للإذلالِ والتَّحقير، ويمنعُ أَنْ يكونَ أَيضاً للقَسْرِ والإرْغام على معيشةٍ لا ترضاها، ويُحَدِّد أَنْ يكونَ ضرب تأديبٍ، مصحوبٍ بعاطفةِ المؤدِّب المربِّي، كما يزاولُه الأبُ مع أبنائه، وكما يزاولُه المربِّي مع تلميذِه.

وقد أُبيحَت هذه الإجراءاتُ لمُعالَجةِ أعراضِ النُّشوز قبلَ اسْتِفْحالِها وأُحيطَتْ بالتَّحذيرِ من سُوءِ اسْتِعْمالها، فَوْرَ تقديرها وإباحَتِها، وتولَّى الرَّسولُ ﷺ بسُنَّتِهِ العمليَّةِ في بيْتِهِ مع أهلِهِ وبتوجيهاتِه الكلاميَّةِ عِلاجَ الغُلُوِّ هنا وهناك، وتصحيحَ المفْهومَاتِ في أقوالٍ كثيرة:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: « مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِمًا إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[١]،

وَعَنِ الأَسْوَدِ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ قَالَتْ: « كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ»[٢] **وَعَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ مَا حَقُّ الْمَرْأَةِ عَلَى الزَّوْجِ قَالَ: « أَنْ يُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمَ وَأَنْ يَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَى وَلاَ يَضْرِبِ الْوَجْهَ وَلاَ يُقَبِّحْ وَلاَ يَهْجُرْ إِلاَّ فِي الْبَيْتِ»**[٣]،

---

(١) م(٤/١٨١٣/٢٣٢٧)، د(١٣/١٤٣/٤٧٦٥).

(٢) خ(٢/١٦٢/٦٧٦)، ت(٤/٦٦/٢٦٠٩).

(٣) صحيح: [ص.جه:١٥٠٠]، جه(١/٥٩٣/١٨٥٠)، د(٦/١٨٠/٢١٢٨).

عَنْ إِيَاسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ذُبَابٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "لاَ تَضْرِبُنَّ إِمَاءَ اللَّهِ فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ ذَئِرَ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ فَأْمُرْ بِضَرْبِهِنَّ فَضُرِبْنَ فَطَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ طَائِفُ نِسَاءٍ كَثِيرٍ فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: لَقَدْ طَافَ اللَّيْلَةَ بِآلِ مُحَمَّدٍ سَبْعُونَ امْرَأَةً كُلُّ امْرَأَةٍ تَشْتَكِي زَوْجَهَا فَلاَ تَجِدُونَ أُولَئِكَ خِيَارَكُمْ»(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ قَالَ خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ فَوَعَظَ فِيهِنَّ ثُمَّ قَالَ إِلاَمَ يَجْلِدُ أَحَدُكُمُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ وَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ»(٢).

وعلى أيةِ حالٍ فقد جُعِلَ لهذه الإجراءاتِ حَدٌّ تقفُ عنده، متى تحقَّقت الغايةُ عندَ مرحلةٍ من المراحلِ فلا تتجاوز إلى ما وراءها: ﴿**فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً**(٣٤)﴾ [النساء]، فعند تحقُّقِ الغايةِ تقفُ الوسيلةِ مما يدلُّ على أنَّ الغايةَ-غايةَ الطاعة- هي المقصود، وهي طاعة الاستجابة، لا طاعة الإرغام، فهذه ليست طاعةً تصلُح لقيامِ مؤسَّسةِ الأسرة، قاعدةِ الجماعة.

ويُشيرُ النَّصُّ إلى أنَّ المُضِيَّ في هذه الإجراءاتِ بعد تحقُّق الطَّاعةِ بَغْيٌ وتَحَكُّمٌ وتَجاوزٌ ﴿**فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً**﴾ ثم يُعقِبُ على هذا النَّهيِ بالتَّذكير بالعليّ الكبير، كي تتطامَنَ القلوبُ وتعْنُو الرؤوس، وتتبخَّرَ مشاعرُ البَغْيِ والاستعلاء، إنْ طافتْ ببَعضِ النُّفوس على طريقةِ القرآنِ في التَّرغيبِ والتَّرهيب»(٣).

---

(١) حسن صحيح : [ص.جه:١٦١٥]، جه(١/٦٣٨/١٩٨٥)، د(٦/١٨٣/٢١٣٢).

(٢) متفق عليه : خ(٨/٧٠٥/٤٩٤٢)، م(٤/٢٠٩١/٢٨٥٥)، ت(٥/١١١/٣٤٠١).

(٣) في ظلال القرآن(٣٥٨-٢/٣٦٢).

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ قال: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلامًا لِي بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: « اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي فَقَالَ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلامِ قَالَ فَقُلْتُ لا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا»(١).

وكما أرشدَ اللهُ تعالى الرِّجال إلى طُرُقِ عِلاجِ نُشُوزِ النِّساء، فقد أرشدَ النِّساءَ إلى طُرقِ علاجِ نُشوزِ الرِّجال فقال تعالى: ﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**(١٢٨)﴾ [النساء] « فإذا خَشِيَتِ المرأةُ أَنْ تُصبِحَ مَجْفُوَّةً، وأَنْ تُؤدِّيَ هذه الجَفْوةُ إلى الطَّلاق أو إلى الإعراضِ الذي يتركُها كالمعلَّقةِ لا هي زوجةٌ ولا هي مطلَّقة، فليس هناك حرجٌ عليها ولا على زَوْجِها أَنْ تتنازلَ له عن شيءٍ من فرائضِها الماليَّةِ أو فرائضِها الحيويَّة، كأَنَّ تتركَ له جُزْءاً أو كُلاًّ من نفقتِها الواجبةِ عليه، أو أَنْ تتركَ له قِسْمتَها وليلَتها إِنْ كانت له زوجةٌ أخرى يُؤْثرها.

هذا كلُّه إِن رأتْ هي بكامل اختيارها وتقديرِها لجميع ظُروفها أَنَّ ذلكَ خيرٌ لها وأكرمُ من طلاقها، وهذا هو الصُّلحُ الذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿**وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**(١٢٨)﴾ [النساء]، خيرٌ من الشِقاقِ والجَفْوةِ والنُّشوزِ والطَّلاق، ثم حثَّ اللهُ تعالى الرجلَ على الإحسانِ إلى هذه المرأةِ الرَّاغبة فيه، ولذا تنازلتْ عن بعضِ حقُوقها لِتَبْقَى في عصْمَته، وبين أَنَّه سبحانه عليمٌ بهذا الإحسانِ وسيُجازيه به فقال: ﴿**وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**(١٢٨)﴾ [النساء]، وقد جاء في سَبَبِ نُزول هذه الآية:

---

(١) م(١٦٥٩/١٢٨٠/٣)، د(٥١٣٧/٦٨/١٤)، ت(٢٠١٣/٢٢٥/٣).

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ رَسُولُ اللَّـه ﷺ لاَ يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقَسْمِ مِنْ مُكْثِه عِنْدَنَا وَكَانَ قَلَّ يَـوْمٌ إِلاَّ وَهُـوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَة مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتَ عِنْدَهَا وَلَقَدْ قَالَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ: حِينَ أَسَنَّتْ وَفَرِقَتْ أَنْ يُفَارِقَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ يَا رَسُولَ اللَّه! يَوْمِي لِعَائِشَةَ فَقَبِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّـه ﷺ مِنْهَا قَالَتْ: نَقُولُ فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى وَفِي أَشْبَاهِهَا أُرَاهُ قَالَ ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا(١٢٨)﴾ [النساء]»(١).

«ذلك الذي ذكرناه لعلاج نُشوزِ الرَّجلِ والمرأةِ حينَ لا يَستَعْلِنَ النُّشوز، وإنَّما تُتَّقَي بوادرُه، فأمَّا إذا كان قد استَعْلن، فلا تُتَّخذُ تلكَ الإجراءاتُ السالفة، إذ لا قيمةَ لها ولا ثمرة وإنَّما هي إذن صراعٌ وحَربٌ بين خَصميْن، يريدُ كلٌّ منهما أنْ يُحطِّمَ الآخر، وليس هذا هو المقصودَ ولا المطلوب، وكذلك إذا رُئِيَ أنَّ استخدامَ هذه الإجراءاتِ قد لا يُجْدِي، بل سيَزيدُ الشُّقةَ بُعداً والنُّشوزَ استعلاناً، ويمزِّقُ بقيَّةَ الخيُوطِ التي لا تزالُ مربوطةً، أو إذا أدَّى استخدامُ تلك الوسائلِ بالفعلِ إلى غَيْرِ نتيجة. وفي هذه الحالاتِ كلِّها يشيرُ المنهجُ الإسلاميُّ الحكيمُ بإجراءٍ أخيرٍ لإنقاذِ المؤسَّسة العظيمةِ من الانهيار قبلَ أَنْ ينفُضَ يديْه منها ويدعَها تنهار: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا(٣٥)**﴾ [النساء].

وهكذا لا يدعو المنهجُ الإسلاميُّ إلى الاستسلامِ لبَوادرِ النُّشوزِ والكراهيَّة، ولا إلى المُسارعَةِ بفَصْمِ عُقْدةِ النكاح، وتحطيم مؤسَّسةِ الأُسرةِ على رؤوس مَنْ فيها منَ الصِّغارِ والكبار الذين لا ذَنبَ لهم ولا يدَ ولا حيلة، فمؤسَّسةُ الأُسرةِ عزيزةٌ على الإسلام، وبقَدْرِ خطُورتِها في بناءِ المجتمع، وفي إمدادهِ باللبناتِ الجديدة اللازمة لنموِّه ورُقيِّه وامتداده.

---

(١) حسن صحيح : [ص.د:١٨٦٨]، د(٢١٢١/١٧٢/٦).

إنَّه يلجأ إلى الوسيلةِ الأخيرة -عند خَوْف الشقاق- فيبادر قبل وقوع الشقاق فعْلاً ببَعْث حَكمٍ من أهلها ترتضيه، وحكمٍ من أهله يرتضيه، يجتمعان في هُدوءٍ بعيداً عن الانفعالات النفسيَّة، والرَّواسبِ الشُّعوريَّة، والمُلابساتِ المعيشيَّة، التي كدَّرت صَفْوَ العلاقاتِ بيْن الزَّوجيْن، طليقيْن من هذه المؤثِّراتِ التي تُفْسِدُ جوَّ الحياة، وتُعَقِّد الأمور، وتبدو - لقربها من نفس الزوجيْن - كبيرةً تُغطِّي كلَّ العوامِل الطيِّبة الأخرى في حياتهما، حريصيْن على سُمْعَةِ الأُسرتيْن الأصيلتيْن، مُشْفِقيْن على الأطفالِ الصِّغار، بريئيْن من الرَّغبةِ في غلَبة أحدِهما على الآخر، كما قد يكونُ الحالُ مع الزوجيْن في هذه الظروف، راغبيْن في خيْر الزوجيْن وأطفالِهما ومؤسَّستِهما المهدَّدةِ بالدمار، وفي الوقتِ ذاتِه هما مُؤتَمنَان على أسرارِ الزوجيْن، لأَنَّهما من أهلهما، فلا خوفَ من تشهيرِهما بهذه الأسرار، إذ لا مصلحةَ لهما في التَّشهير، بل المصلحةُ في دَفْنِها ومُدَاراتها.

يجتمعُ الحكَمانِ لمحاولَةِ الإصلاح، فإنْ كان في نفسِ الزوجيْن رغبةٌ حقيقيَّةٌ في الإصلاح، ولكن الغضبَ فقط هو الذي يَحْجِبُ هذه الرَّغبة، فإنَّه بمساعدةِ الرَّغبةِ القويَّة في نفسِ الحكَميْن يقدِّر اللهُ الإصلاحَ بيْنهما والتَّوفيق ﴿**إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا**(٣٥)﴾ [النساء]، فهما يُريدَان الإصلاحَ، واللهُ يستجيبُ لهما ويُوَفِّق ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا**(٣٥)﴾ [النساء].

وبهذا ينتهي الشِّقاقُ ويحصلُ الوفَاق، وتذهبُ الوَحْشَةُ ويحلُّ محلَّها الأُنْسُ ويجمعُ اللهُ شملَ الأُسرة في ظلِّ الرَّحمةِ والمودَّة كما قال تعالى: ﴿**وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**(٢١)﴾ [الروم].

* * *

الأيمان المتعلقة بالحياة الزوجية

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾ [البقرة].

تحدَّثنا عن الخِلافاتِ الزَّوجيَّة وطُرُقِ علاجها، وعَرفنا أَنَّ من نُشُوزِ المَرْأةِ امتِنَاعَها عن فِرَاش زَوْجها، ومن نُشوزِ الرَّجلِ امْتناعَهُ عن فراشِه، وقد يكون امتناعُ الرَّجل عن فِرَاشه من غيْر يمينٍ، وقد يكونُ باليمين، والأَيْمانُ المتعَلِّقَةُ بذلك **أربعةُ أنواع** :

الأول: "**الإيلاء** : وهو لُغةً: الحَلف، وشَرْعاً: الحَلِفُ على تَرْكَ وطْءِ المرأة"(١) فإذا حَلف الرَّجُل باللهِ ألاَّ يطأَ زوجَته شهراً أو دُونه أو أكثرَ منه ولكن لا يتجاوزُ الأربعةَ أشهر فالأَوْلى أَنْ يكفِّر عن يمينه ويباشِرَها لقوله ﷺ : **"مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِهَا وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ"**(٢).

فإِنْ لم يكفِّرْ فعليها الصَّبرُ حتى ينقضي الأجلُ الذي سمَّاه :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ : آلَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ نِسَائِهِ وَكَانَت انْفَكَّتْ رِجْلُهُ فَأَقَامَ فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ ثُمَّ نَزَلَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! آلَيْتَ شَهْرًا فَقَالَ: "الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ"(٣).

---

(١) المغني(٧/٢٩٨).

(٢) م(١٦٥٠/١٢٧١/٣)، ن(٧/١١)، جه(٢١٠٨/٦٨١/١).

(٣) خ(٥٢٨٩/٤٢٥/٩)، ت(٦٨٥/٩٩/٢)، ن(٦/١٦٦).

وأمَّا إذا حلَف ألاَّ يباشِرَها أبداً أو مُدَّةً تزيد على أربعةِ أشهر، فإنْ كفَّر وعاد إلى معاشرَتِها، وإلاَّ انتظرتْ حتى تمضيَ أربعةُ أشهرٍ ثم طالبتْه بالمُعاشرة أو الطلاق، لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦)﴾ [البقرة].

عَنْ نَافِعٍ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهما كَانَ يَقُولُ: " فِي الإِيلاَءِ الَّذِي سَمَّى اللَّهُ لاَ يَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدَ الأَجَلِ إِلاَّ أَنْ يُمْسِكَ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ يَعْزِمَ بِالطَّلاَقِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ "(١)، قال البخاري: وَيُذْكَرُ ذَلِكَ عَنْ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَعَائِشَةَ وَاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ .

وكفَّارة اليمينِ هي المنصوصُ عليها في قول ربِّنا سبحانه: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ (٨٩)﴾ [المائدة].

وهي على الترتيب: إطعامُ عَشرةِ مساكين، أو كِسْوَتهم، أو تحريرُ رقبة، فهو مخيَّرٌ في هذه الثلاث، بأيِّ خصلةٍ كفَّر أجزأت عنه، فمن لم يجد شيئاً من هذه الثلاث صام ثلاثةَ أيام، ولا يُجزئ الصِّيام إلاَّ بعد فَقْدِ الثلاثِ المذكورةِ، على خلاف المشهورِ عند العامَّةِ أنَّ كفارةَ اليمينِ صيامُ ثلاثةِ أيام، وليسَ هذا على إطلاقه، فمنْ صامَ وهو قادرٌ على خَصْلَةٍ من الخِصَالِ السَّابقةِ لم يُجْزِئه الصيامُ ولم تبرأْ ذِمَّتُه.

: وهو أنْ يقولَ الرَّجلَ لامرأتِه أنْتِ عليّ حرامْ، هكذا بلا تشبيه ولا تقييد، فإذا قال أنْتِ عليّ حرامٌ شهراً أو دونَه أو أكثرَ منه ما لم

---

(١) خ(٩/٤٢٦/٥٢٩٠).

يتجاوزْ الأربعةَ أشهر، فالأوْلى له أنْ يكفِّر عن يمينِه ويرجعَ إلى مُعاشَرةِ زوجته.

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ "كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ يَطَؤُهَا فَلَمْ تَزَلْ بِهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ حَتَّى حَرَّمَهَا عَلَى نَفْسِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ"(١).

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: " فِي الْحَرَامِ يُكَفِّرُ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ "(٢).

والكفَّارة هي المذكورة أيضاً في قوله تعالى: **﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ(٨٩)﴾** [المائدة]،

وإذا حرَّم الرَّجُل امرأتَه وأصرَّ على هَجْرِها وأبَى أَنْ يكفِّر عن يمينه فهي بالخيار بيْن الصَّبرِ على هجرِه وبيْن مُطَالبتِه بالمُعاشَرةِ بالمعرُوف أو الطلاقِ كما سبق.

الثالث: الظِّهار: وهو تحريمُ الرَّجلِ امرأتَه مشبِّهها بأُمِّه وهو أنْ يقول: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمي، أو يقول: بِلُغَةَ العامَّة: تحْرَمي عليَّ زَي ما حُرُمتْ عليَّ أُمي، وهو حرامٌ لأنَّ الله قد سمَّاه منكرًا من القَوْل وزُوراً، فقال تعالى: **﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢)﴾** [المجادلة].

---

(١) صحيح الإسناد :[ص.ن:٣٩٦٩]، ن(٧/٧١).

(٢) متفق عليه : خ(٤٩١١/٦٥٦/٨)، م(١٤٧٣/١١٠٠/٢).

فإذا قال الرَّجلُ لامرأتِه أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمي شهرًا أو أقلَّ أو أكثرَ فهو مُظاهِرٌ، فإنْ التزَم اعتزالَها حتى انقضى الأجلُ الذي سمَّاه فلا حرَج عليه، وإنْ مسَّها قبلَ انقضاءِ الأجل فعليه الكفارة:

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ صَخْرٍ الْبَيَاضِيِّ قَالَ: كُنْتُ امْرَأً أَسْتَكْثِرُ مِنَ النِّسَاءِ لاَ أَرَى رَجُلاً كَانَ يُصِيبُ مِنْ ذَلِكَ مَا أُصِيبُ فَلَمَّا دَخَلَ رَمَضَانُ ظَاهَرْتُ مِنِ امْرَأَتِي حَتَّى يَنْسَلِخَ رَمَضَانُ فَبَيْنَمَا هِيَ تُحَدِّثُنِي ذَاتَ لَيْلَةٍ انْكَشَفَ لِي مِنْهَا شَيْءٌ فَوَثَبْتُ عَلَيْهَا فَوَاقَعْتُهَا فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَى قَوْمِي فَأَخْبَرْتُهُمْ خَبَرِي وَقُلْتُ لَهُمْ سَلُوا لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا مَا كُنَّا نَفْعَلُ إِذًا يُنْزِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِينَا كِتَابًا أَوْ يَكُونَ فِينَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلٌ فَيَبْقَى عَلَيْنَا عَارُهُ وَلَكِنْ سَوْفَ نُسَلِّمُكَ لِجَرِيرَتِكَ اذْهَبْ أَنْتَ فَاذْكُرْ شَأْنَكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ فَخَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْتَ بِذَاكَ فَقُلْتُ أَنَا بِذَاكَ وَهَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ صَابِرٌ لِحُكْمِ اللَّهِ عَلَيَّ قَالَ فَأَعْتِقْ رَقَبَةً قَالَ قُلْتُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَصْبَحْتُ أَمْلِكُ إِلاَّ رَقَبَتِي هَذِهِ قَالَ فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهَلْ دَخَلَ عَلَيَّ مَا دَخَلَ مِنَ الْبَلاَءِ إِلاَّ بِالصَّوْمِ قَالَ فَتَصَدَّقْ أَوْ أَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا قَالَ قُلْتُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَقَدْ بِتْنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ مَا لَنَا عَشَاءٌ قَالَ فَاذْهَبْ إِلَى صَاحِبِ صَدَقَةِ بَنِي زُرَيْقٍ فَقُلْ لَهُ فَلْيَدْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَانْتَفِعْ بِبَقِيَّتِهَا»(١).

ومن قال لامرأتِه أنْتِ عليّ كظَهْرِ أُميّ وأطلقَ ولم يُقَيدْ مُدَّةً فهو مظاهر، وامرأتُه عليه حرامٌ لا يستمتع منها بشيءٍ حتى يكفِّر بما سمَّاه الله في كتابه: ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ**

---

(١) صحيح: [ص.جه:١٦٧٧]،جه(٢٠٦٢/٦٦٥/١)، د(٢١٩٨/٢٩٨/٦)، ت(١٢١٥/٣٣٥/٢)

مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا(٤)﴾ [المجادلة]،

عَنْ خُوَيْلَةَ بِنْتِ مَالِك بْنِ ثَعْلَبَةَ قَالَتْ ظَاهَرَ مِنِّي زَوْجِي أَوْسُ بْنُ الصَّامت فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ أَشْكُو إِلَيْه وَرَسُولُ اللَّه ﷺ يُجَادِلُنِي فِيه وَيَقُولُ اتَّقِي اللَّهَ فَإِنَّهُ ابْنُ عَمِّكِ فَمَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا(١)﴾ [المجادلة]، إِلَى الْفَرْضِ فَقَالَ يُعْتِقُ رَقَبَةً قَالَتْ لا يَجِدُ قَالَ فَيَصُومُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَا بِه مِنْ صِيَامٍ قَالَ فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا قَالَتْ مَا عِنْدَهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَصَدَّقُ بِه قَالَتْ فَأُتِيَ سَاعَتَئِذٍ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه فَإِنِّي أُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ قَالَ قَدْ أَحْسَنْتِ اذْهَبِي فَأَطْعِمِي بِهَا عَنْهُ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَارْجِعِي إِلَى ابْنِ عَمِّكِ»(١).

وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ إِنِّي لأَسْمَعُ كَلامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّه! أَكَلَ شَبَابِي وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلاءِ الآيَات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ(١)﴾ [المجادلة]»(٢).

الرابع: "**الحَلِفُ بالطَّلاق**: وهو على قسمين الأول: الحلف بالطلاق على الماضي: كأن يَحلِفَ بالطلاق أنه فعل كذا أو لم يفعل، فإنْ كان فعلَ كان صادقاً ولا جناح عليه، وإنْ كان كاذباً وهو يعلم قبل اليمين أنَّه كاذب ثم حلف فقد قال منكراً من القول وزوراً وارتكب كبيرةً من الكبائر وعليه أَنْ يتوبَ إلى الله تعالى ويستغفره.

---

(١) حسن: [ص.د:١٩٣٤]، د(٢١٩٩/٣٠١/٦).

(٢) صحيح: [ص.جه:١٦٧٨]، جه(٢٠٦٣/٦٦٦/١).

فإذا ترتَّب على هذه اليمين ضياعُ حَقٍّ لأحدٍ من المسلمين تضاعفَ الإثمُ وَعظُم الوزرُ، لقوله ﷺ : «**مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ**»(١).

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**(٧٧)﴾ [آل عمران].

الثاني : الحَلِفُ بالطَّلاقِ على المستقبل: كأَنْ يقول: إنْ فعلتُ كذا فامرأتي طالق، أو يقول لها: إنْ فعلتِ كذا فأنْتِ طالق، فإنْ كان نَوى الطَّلاقَ وعزَم عليه إنْ حَنثَ في يمينه فهو وما أراد فقد قال ﷺ : «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»(٢).

وإنْ لم يَنْوِ الطَّلاقَ ولم يَعْزِمْ عليه ولم يَسْتَحْضِرْه أثنَاء الحَلِف بهِ وكان يكرهُه كما يكرَه الكُفْرَ بعد الإيمان وكما يكرَه أَنْ يُلْقَى في النار، فإنْ حَنَثَ لم يقعَ الطَّلاق وعليه كَفارةُ يمين»(٣).

هذه هي الأيمان المتعلّقةُ بالحياةِ الزَّوجيَّة وما يترتَّب عليها مِن أحكَام، ويجبُ على المسلمين أَنْ يتذكروا قولَ ربِّ العالمين: ﴿**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**(٨٩)﴾ [المائدة]، فلا تَحْلِفُوا، وإذا حَلَفْتُم فحَنَثْتُم فعليكم الكفارة.

* * *

---

(١) م(١/١٢٢/١٣٧)، ن(٨/٢٤٦)، ط(٥١٥/١٤٠٧).

(٢) متفق علية خ(١/٩/١)، م(٣/١٥١٥/١٩٠٧)، د(٦/٢٨٤/٢١٨٦)، ت(٣/١٠٠/١٦٩٨)، جه(٢/١٤١٣/٤٢٢٧)، ن(١/٥٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢٥-٣٣/١٣٠).

أحكام الطلاق وحدوده

قال تعالى: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢٣٢)﴾ [البقرة].

رأينا فيما سبقَ حرْصَ الإسلام على الأُسرة وسلامتِها واستقرارِ الحياة فيها، وعرفنا طُرُقَ العلاجِ التي شرَعها الإسلامُ لمعالجةِ الخلافِ الذي ينشأ في الأُسرةِ سواءٌ كان سببُه أحدَ الزوجيْن أو كلَيْهما.

إلاَّ أنَّه قد لا يكفي هذا العلاجُ أحياناً لاستفحال الخلافِ وشدَّة الخُصومة، وحينئذٍ فلا بدّ من استخدامِ علاجٍ أقوى وهو الطلاق.

والمتأمِّل في أحكامِ الطَّلاقِ يتأكَّد له مَدى حِرْص الإسلام على مؤسَّسة البيْت، ورَغْبته في بقاءِ الشَّرِكَة بيْن الزوجيْن، ذلك أَنْ الإسلام حين أباح الطَّلاقَ لم يأذن في إيقاعه في أيِّ وقتٍ بل أمر بإيقاعِه في حالِ طُهْرِ المرأةِ طُهْرًا لم يمسَّها فيه، ومعنى ذلك أَنَّ الرَّجلَ إذا عزمَ على الطَّلاق في أيِّ لحظةٍ لابُدَّ أن يَعْرِفَ هل المرأةُ حائضٌ أم طاهر؟، وإذا كانت طاهراً فهل باشرَها في هذا الطُّهر أم لا ؟، وهذا كلُّه إبعادٌ له عن الطلاق، وحثٌّ على التروِّي والتأنِّي في أَخْذِ القرار حتى لا يندَم بعد ذلك. لأَنَّ المرأةَ إمَّا طاهِرٌ أو حائِض، وفي الطُّهر لا يخلُو من مسَاس، فعليه أَنْ ينتظر حتى تحيضَ ثم تَطْهُر ﴿**لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا**(١)﴾ [الطلاق]،

فإذا عزم على الطَّلاق في الوقتِ الذي أُذِنَ له فيه فإِنَّ الإسلام لم يأذَن له في بَتِّ العلاقةِ الزوجيَّةِ مرَّةً واحدة وإنَّما قال اللهُ تعالى: ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**(٢٢٩)﴾ [البقرة]، أي الطَّلاقُ الذي يَمْلِكُ الرَّجلُ بعدَه الرَّجعةَ مرَّتان ﴿**فَإِنْ طَلَّقَهَا**(٢٣٠)﴾ [البقرة]، الثالثةَ ﴿**فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**(٢٣٠)﴾ [البقرة].

وإذا طلَّق الرَّجلُ الطَّلْقَةَ الأُولى أو الثَّانية فليس مِنْ حَقِّه أَنْ يخرج مُطلَّقتَه من بيته حتى تنقضِيَ عِدَّتُها، بل وليس لها الخروج، والعِلَّةُ في ذلك الطَّمَعُ في ذَهاب الغَضبِ الذي أوْجدَ الطَّلاقِ، ثُمَّ الحَثُّ على عَوْدةِ الأمُورِ إلى ما كانت عليه، وهذا ما ذكَره ربُّنا في السُّورة التي أفردها بذكرِ أحْكامِ الطلاَّق التي لم تُذْكَر في سورة البقرة وهي سورة الطلاق فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا**(١)﴾.

والذي يَدْرُس آياتِ الطلاَّق في سورةِ البقرة وسورة الطلاق يتبيَّن لـه أَنَّ الطلاق أقسام:

أوَّلاً : من حيث اللفظ: ينقسمُ الطلاَّقُ من حيثُ اللفظُ إلى صريحٍ وكِنَاية:

أَمَّا الصَّريح: فهو الذي يتبادر إلى الفَهْم من ظاهرِ اللَّفظ ولا يحتمل غيره، مثل: أنت طالق ومطلَّقة، وكُلٍّ ما اشْتُقَّ من لفظ الطلاق. وهذا يقعُ به الطَّلاق، هازِلاً كان أو لاعِباً،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "ثَلاَثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ النِّكَاحُ وَالطَّلاَقُ وَالرَّجْعَةُ"(١).

والكِنَاية: ما يحتملُ الطَّلاق وغيرَه، مثل: أَلْحِقي بِأهلِك ونحـوِه، وهـذا لا يقعُ به الطلاق إلاَّ بالنيَّة، فإنْ نوَى طلاقاً وقع، وإنْ لم ينوِ لم يقع:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا أَنَّ ابْنَةَ الْجَوْنِ لَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ وَدَنَا مِنْهَا قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ فَقَالَ: "لَهَا لَقَـدْ عُـذْتِ بِعَظِـيمٍ الْحَقِـي بِأَهْلِكِ"(٢)،

وَعَنْ كعب بن مالك حين هجرَه النبيُّ ﷺ وصاحبيْه لتخلُّفهم عن الخـرُوج معه في غَزْوَة تَبُوك: **أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرْسَلَ إِلَيه "أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَـكَ فَقُلْـتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ لا بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلا تَقْرَبْهَا وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ"**(٣).

ثانياً: من حيث التَّعليقُ والتَّنجيزُ: وهو أيضاً قِسْمان: مُنْجَزٌ ومُعلَّق:

---

(١)حسن : [الإرواء: ١٨٢٦]،جه(١/٦٥٨/٢٠٣٩)،د(٦/٢٦٢/٢١٨٠)، ت(٢/٣٢٨/١١٩٥).

(٢) خ(٩/٣٥٦/٥٢٥٤)، ن(٦/١٥٠).

(٣)متفق عليه :خ(١٣/١١٣/٤٤١٨)، م(٤/٢١٢٠/٢٧٦٩)، د(٦/٢٨٥/٢١٨٧)، ن(٦/١٥٢).

فالمُنْجَزُ: هو الذى قصد به من أصدره وقوعَ الطلاق في الحال : كأن يقول الزَّوْج لزَوْجته: أنت طالق.

وحكم هذا الطلاق أَنَّه يقع في الحال، متى صدَر من أهلِه، وصادَف محلاًّ له.

وأَمَّا المعلَّق: فهو ما جعل الزَّوجُ فيه حصولَ الطَّلاق معلَّقاً على شرط، مِثْلَ أَنْ يقولَ لزوجته :إِنْ ذَهبتِ إلى مكانِ كذا فأنتِ طالق، وإِنْ لم تفعلِي كذا فأنتِ طالق، ونحو ذلك من الألفاظ.

وحُكْمُ هذا الطلاقِ أَنَّه إِنْ نوى الطَّلاقَ وأراده وقصدَ وقُوعَه إِنْ خَالفتْه فقد وقع الطلاق، وإن كان يريدُ حَمْلَها على الفِعْل أو التَّرْك ولا ينوي الطَّلاقَ ولا يُريده، بل يكرَهُه كما يكرَهُ الكُفْرَ بعد الإيمانِ، وكما يكرَهُ أَنْ يُقذَف في النار، فإِنْ خالَفتْه لم يقع الطَّلاقُ وعليه كفَّارةُ يمين.

ثالثاً: من حيثُ السُّنةُ والبِدْعةُ: وهو أيضاً قسمان: سُنِّيٌّ وبِدْعيٌّ:

فالطَّلاقُ السُّنيّ: أَنْ يُطلِّق الرجلُ امرأتَه طلقةً واحدةً في طُهْرٍ لم يمسَّها فيه قال تعالى: ﴿**الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**(٢٢٩)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**(١)﴾ [الطلاق]، وقد فسَّر النبيُّ ﷺ الآيةَ: حين طلَّق ابنُ عمرَ امرأتَهَ وهي حائض،**فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ »**(١).

---

(١)متفق عليه : خ(٤٣٣٢/٤٨٢/٩)، م(١٤٧١/١٠٩٣/٢)، د(٢١٦٥/٢٢٧/٦)واللفظ له، ن(٦/١٣٨).

وأَمَّا الطلاقُ البدعيّ: فهو المخالِفُ للمشرُوع، كأَنْ يطلِّقَها وهي حائض، أو في طُهْرٍ جامَعها فيه، أو أَنْ يجمعَ الطَلْقاتِ الثلاثَ بلفظٍ واحدٍ أو في مجلسٍ واحد: كأَنْ يقولَ: أنتِ طالِقٌ ثلاثاً، أو أنتِ طالق، أنتِ طالق، أنتِ طالق.

وهذا الطَّلاق حرام، وفاعلُه آثم. إنْ كان عالماً بحُرمته.

فإنْ طلَّقها وهي حائضُ فقد وقعتْ طلقةٌ، وإنْ كانت رجعيةً فهو مأمورٌ شَرْعاً أَنْ يُراجِعَها ثم يُمْسِكَها حتى تطهُرَ، ثم تحيضَ ثم تطهُرَ، ثم إِنْ شاء أمسكَ بعدَ ذلِكَ وإِنْ شاء طلَّق قبل المسَاس كما أمرَ النبيُّ ﷺ ابنَ عمر.

وأَمَّا إِنْ طلقها ثلاثاً بلفظٍ واحدٍ أو في مجلسٍ واحد، فإِنَّما هي طلقةٌ واحدة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "كَانَ الطَّلَاقُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّه ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَسَنَتَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةً فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِنَّ النَّاسَ قَدِ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنَاةٌ فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ"[(١)].

ورَأْيُ عُمرَ هذا اجتهادٌ منه رضي الله عنه، غايتُه أَنْ يكونَ سائِغاً لمصلحةٍ رآها، ولا يجوزُ تَرْكُ ما أفتى به رسولُ الله ﷺ ، وكان عليه أصحابُه في عَهْدِهِ وعَهْدِ خليفته.

رابعاً: من حيثُ الرَّجْعَةُ وعَدَمُها: وهو قسمان: رَجْعِيٌّ وبائِنٌ:

فالرَّجْعِيُّ هو طلاقُ المَدْخُولِ بها للمرَّة الأولى أو الثانية، والمطلَّقَةُ طلاقاً رجعياً زوجةٌ ما دامت في عِدَّتها، لها السُّكْنَى والنَّفقة، ولِزَوْجها حَقُّ مراجعتها في أيِّ وقتٍ شاء ما دامت في عِدَّتها، ولا يُشْتَرط رِضاها ولا إِذْنُ وليِّها لقوله تعالى: ﴿**وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا**(٢٢٨)﴾ [البقرة].

---

(١) م(٢/١٠٩٩/١٤٧٢).

والطَّلاق البائِنُ قِسْمان: البائنُ بينونةً صُغْرى، والبائِنُ بينونةً كبرى:

فالبَيْنونَةُ الصُّغرى: هي المطلَّقةُ قبلَ الدُّخول، والمطلَّقَةُ بعد الدُّخول طلاقاً رَجْعيّاً إذا لم يراجعها زوجُها أثناء العدة.

فالمطلقةُ قبلَ الدُّخول لا عِدَّة عليها ولذا تبينُ مِنْ زوجها بيْنُونةً صغرى بمجرَّدِ إيقاع الطلاق، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً**(٤٩)﴾ [الأحزاب].

والمطلَّقةُ بعد الدُّخول إذا انقضتْ عِدَّتُها بانت مِنْ زَوْجها بينونةً صُغرى، ومعنى البينُونةِ الصُّغرى أَنَّ المرأةَ البائنَ أحقُّ بنفسِها من زَوْجِها، فإذا أراد زوجُها أن يخطبها فهو كغيره من الخُطَّاب، إنْ وافقت عليه فلا بُدَّ من المهر والعقد، وإنْ لم توافق عليه فلها ذلك.

والبينونَةُ الكُبرى: هي المطلَّقةُ للمرَّةِ الثَّالثة، فلا تجوز مراجعَتُها أثناءَ العِدَّةِ ولا بعدَها حتى تَنْكِحَ زوجاً غيرَه كما قال سبحانه: ﴿**فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**(٢٣٠)﴾ [البقرة].

والمرادُ بهذا النِّكاحِ النكاحُ الشّرعِيُّ الذي يَنْكِحُ مِنْ أجلِه النَّاسُ، فإنْ نُكِحَتِ المطلقةُ ثلاثاً ثم مات زوجُها، أو لم تستقرَّ حياتُها فطلَّقها جاز لمطلِّقها الأولِ أَنْ ينكحِها بعد انقضاءِ عِدَّتها بمهرٍ وعقدٍ.

ولا بُدَّ في النِّكاح الثاني من المباشرَة، فإنْ نُكِحَت المطلَّقةُ ثلاثاً نِكاحاً شرعياً يُراد به الدَّوامُ والثَّبات وحال بيْنها وبيْن زوجِها حائلٌ ومنَعه مانِعٌ أَنْ يُفْضِيَ إليها وتُفْضِيَ إليه فَطُلِّقَتْ لم تَحِلَّ بهذا النكاح لمطلِّقها الأول .

عَنْ عَائشَةَ قَالَتْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَتزَوَّجَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ فَدَخَلَ بِهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يُوَاقِعَهَا أَتحلُّ لِلأَوَّلِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لاَ حَتَّى يَذُوقَ الآخَرُ عُسَيْلَتَهَا وَتَذُوقَ عُسَيْلَتَهُ"(١).

وَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ"(٢).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: هُوَ الْمُحَلِّلُ لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ"(٣).

فإِنْ أراد رجلٌ أَنْ يفعلَ خيراً بالمطلَّقةِ ثلاثاً ومُطلِّقها وأولادها فعزَم على نكاحِها وطلاقِها وأَسرّها في نفسِه ولم يُبْدِها لغيره فإِنَّ هذا النكاحَ أيضاً باطل.

عَنْ عُمَرَ بن نَافِعٍ عَنْ أَبيه أَنَّه قالَ: "جاءَ رَجُلٌ إلى ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فسأَلهُ عن رَجُلٍ طَلَّقَ امرأَتَه ثلاثاً، فتزوَّجَها أخٌ لَهُ مِنْ غَيْرِ مُؤامَرةٍ مِنْهُ لِيُحِلَّها لأَخيه، هَلْ تَحِلُّ لِلأَولِ؟ قالَ: لاَ، إلاَّ نِكَاحَ رَغْبةٍ، كُنَّا نعُدُّ هذا سِفَاحاً على عَهْدِ رسُولِ اللهِ ﷺ "(٤).

وإذا عزم الرجلُ على الطلاق وجبَ عليه أَنْ يتَّقِيَ اللهَ في طلاقه، وأَنْ يلتزمَ حُدودَه، وأَنْ يعطي المرأة حقَّها وافياً غيرَ منقوص: والحقُّ يختلف باختلافِ أحوالِ الطلاق .

---

(١) متفق عليه: خ(٥/٢٩٤/٢٦٣٩)، م(١٤٣٣/١٠٥٥و١٠٥٦/٢)، د(٦/٤٢١/٢٢٩٢)، ت(١١٢٧/٢٩٣/٢)، جه(١٩٣٢/٦٢١و١/٦٢٢).

(٢) صحيح: [ص:ج:٥١٠١]، د(٦/٨٨/٢٠٦٢)، ت(١١٢٨/٢٩٤/٢)، جه(١/٦٢٢/١٩٣٥).

(٣) حسن: [ص.جه:١٥٧٢]، جه(١٩٣٦/٦٢٣/١)، كم(٢/١٩٨)، هق(٧/٢٠٨).

(٤) صحيح: [الإرواء٦/٣١١]، كم(٢/١٩٩)، هق(٧/٢٠٨).

فمن طلَّق قبلَ الدُّخولِ وقد سمَّى لامرأتِهِ مهراً فعليه نِصْفُ ما سمَّى لها من المهر وجوبا، إلاَّ أنْ يجتهد في التَّحلِّي بمكارم الأخلاق التي ندبَ الله إليها،

ومنها أَنْ يتصدَّق عليها بالنِّصف الآخر فيعطيها المهرَ كلَّه، أَو تُحاوِلَ هي أَنْ تكونَ ذاتَ الفضل عليه فتعفُوَ له عما وجبَ لها عليه، لكن الرِّجال أوْلى بالعفوِ من النساء ولذلك خُوطِبُوا به دونهنَّ في قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**(٢٣٧)﴾ [البقرة].

لذلك كان السَّلف الصَّالح يتسابقُون إلى العفوِ للنساء والتصدق عليهنَّ.

"عن جُبَيْر بنِ مُطعمِ أَنَّه تزوَّج امرأةً وطلَّقها قبلَ أَنْ يدخُلَ بها فأكملَ لها الصَّداقَ وقال أنا أحقُّ بالعَفْو. وعنه أَنَّه دخلَ على سعدِ بن أَبي وقَّاصٍ فعرَضَ عليه بِنْتاً له فتزوَّجَها فلمَّا خرجَ طلَّقها وبَعثَ إِلَيْها بالصَّداقِ كاملاً، فقيلَ لَهُ لِمَ تَزَوَّجْتَها؟ قال: عرَضَها عليَّ فكَرِهْتُ أَنْ أردَّه ، فقيلَ له لِمَ بعثْتَ بالصَّداق؟ فقال: أينَ الفضل"[1].

وإنْ طلَّقها قبلَ الدُّخول ولم يُسمِّ لها مهراً فلها نصفُ مهرِ مثلِها.

ومن طلَّق بعدَ الدُّخول فعليه المهرُ كلُّه ولا يَحلُّ له منه شيء وإنْ قَلَّ، لقوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا**(٢٢٩)﴾[البقرة]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**(٢٠)﴾[النساء].

ومَنْ دخَل على امرأتِه فحُبِسَ عنها لمرضٍ أو نحوِه ثم طلَّقها فلها نِصْفُ المهر.

---

(١) الكشاف (١٤٥و١٤٦/١).

وللمطلَّقة من المال غيرُ المَهر المُتْعةُ لقوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ(٢٣٦)﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ(٢٤١)﴾ [البقرة].

هذه هي أحكامُ الطَّلاق وحدُوده، وقد أمر اللهُ باحترامها ونَهى عن تعدِّيها والاستهزاءِ بها فقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٢٩)﴾ [البقرة]، ثم قال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٢٣٠)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٣١)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢٣٢)﴾ [البقرة].

ورغَّب سبحانه في الْتِزَام تلك الأحكامِ واحترامِ تلك الحدودِ كلها وتوعَّد مَنْ خالفَ وتعدَّي فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ(٣)﴾[الطلاق]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤)﴾ [الطلاق]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا(٥)﴾ [الطلاق]،

ولم يأت هذا الوعدُ الحسن للمتَّقين ولم يتكرَّر هذا التكريرَ إلاَّ في سورةِ الطلاقِ، لأَنَّ الطلاق فراقٌ بين حَبيبيْن، ظاهرُه إنهاءُ هذه المحبَّة بيْن الزوْجيْن وسائرِ الأسرتيْن، وقد يُفْضِي إلى بَذْرِ رُوحِ العدَاوةِ والبغضَاءِ مما يجعلُ كُلاًّ منهما يكرَه صاحبَه ويعملُ على إضْرارِه .

والإسلامُ لا يُريد هذا وإنَّما يُريد فِراقًا بإحسان، لا يقضي على المحبَّة والمودَّة بل يحفظُ جذُورَها وأُصولَها في القلوب ﴿لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا(١)﴾[الطلاق]، ولذا فهو يدعُو إلى العفو والسماحة ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى(٢٣٧)﴾ [البقرة]، كما يدعُو إلى الاحتفاظ بالماضي المليء بالذكْريات الجميلة والمواقف النَّبيلة ﴿وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ(٢٣٧)﴾ [البقرة]، ولذلك يكرِّر ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ(٢)﴾[الطلاق]، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ(٢٣١)﴾[البقرة]،

والذي يُعين على الالتزامِ بأداءِ الأحكام هو التَّقْوى ولذلك رغَّب فيها ببيانِ فَضْلِها وحذَّر من المخالفة فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨)فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩)أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا(١٠)﴾[الطلاق].

وهكذا بيَّن اللهُ أحكامَ الطلاق وحدُودَه لقومٍ يعلَمُون لعلَّهم يعقلون، فمن عقَلَ عن اللهِ وعَلِمَ مرادَ الله ووقَف عند حدُودِ الله يَّسرَ اللهُ أمرَه، وغفر ذنبه، وجعلَ له من كل ضيقٍ فرجاً، ومن كل همٍّ مخرجاً، ورزقَه من حيثُ لا يحتسب.

فإذا التزم الزَّوْجان عند الطلاقِ هذه الأحكامَ ووقفُوا عند تلك الحدُود دَخلُوا في عُموم قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا(١٣٠)﴾[النساء].وأراح كلٌّ من الطرفيْن صاحبَه واستراح، وفارَقَه وبَيْنَه وبينه ذِكْريَاتٌ مشتركةٌ في صفحةٍ واحدةٍ تجعلُ بينهما وبيْن الأسرتيْن أواصرَ المودَّة والمحبَّة، ولكنَّ الشيطانَ حين يحظَى بطلاقِ الزَّوج من زَوْجه وهو أحبُّ الأعمالِ إليه كما قال النبيُّ ﷺ : " إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ

سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ: وَيَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ أَوْ قَالَ: فَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ! فَيُدْنِيهِ مِنْهُ»[١].

فإذا ظفر الشَّيطانُ بالتَّفريقِ بيْن الزَّوجيْن سعى لعنه اللهُ في أَنْ يكون تفريقاً سَيِّئاً يقضي على ما يَبقى في القلوبِ من المحبَّة والمودَّة، فيزين للرَّجلِ البُخْلَ بحقِّ المرأة، ويزيِّن للمرأةِ وأوليائها الحِرْصَ على الإضرارِ بهذا الرجل بقدْر ما يُمْكِنُهم من الإضرار، فيَنْسون الفضلَ بينهم ويتخلّون عن تقوى ربّهم.

ويلجأون إلى المحاكم ولا يخرجون منها إلاَّ بنُفوسٍ ملؤها الحقدُ والكراهيَة والعداوةُ والبغضاء، وكان خيراً للرَّجل إذا طلَّق المرأة أَنْ يتَّقِيَ اللهَ ويُوفيَها حقَّها، وكان حقًّا على المرأةِ أَنْ تتَّقِيَ اللهَ في مُطَلِّقها ولا تُطالبَ بأكثرَ من حقها ولكنَّه الشُّحُّ الذي قال الله فيه: ﴿**وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ**(١٢٨)﴾[النساء]،

وقد قال النبيُّ ﷺ : "**اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**[٢]"

نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

---

(١) م (٢٨١٣-٦٧-/٤/٢١٦٧).
(٢) م (٤/١٩٩٦/٢٥٧٨).

الخلع والعدة

قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٢٨) الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٢٩)﴾ [البقرة].

الحياةُ الزوجيَّةُ شَرِكَةٌ بين الزَّوجيْن قائمةٌ على أساس من المودَّةِ والرَّحمةِ لتحقيق مصالح الشريكين، فإذا نُقِضَ هذا الأساسُ وفَقَد أحدُ الشريكيْن مصلَحتَه فَلَهُ حَقُّ فَسْخِ الشركة، أمَّا الرَّجلُ فله حقُّ الطلاق، وأمَّا المرأةُ إذا تضرَّرت من استمرارِ الحياةِ الزوجيَّةِ فلها حقُّ طَلَبِ الطَّلاق وهو ما يُسميّه الفُقهاءُ الخُلْعَ.

والخُلْعُ لغةً: مأخوذٌ من خَلَع الثَّوب إذا أزاله، لأَنَّ المرأة لِباسُ الرَّجل، وهو لِباسُها، قال تعالى: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**(١٨٧)﴾ [البقرة].

وعرّف الفقهاءُ الخُلع بأنَّه فِراقُ الرَّجلِ زَوجَته بِعِوَضٍ يأخذُهُ منها، وسُمِّيَ هذا العِوَضُ: فِديةً وافتداء.

فإذا اشتدَّ الخِلافُ بيْن الزَّوجيْن ولم يُمكن التوفيقُ بينهما وكان للرَّجل رغبةٌ في زوجتهِ ولم تكن المرأة راغبةً فيه فلها أَنْ تُفدِيَ نفسَها منه بمالٍ تُعوِّضُه به عن الضَّررِ الذي يلحقُه بفراقِها، كما أَنَّه حين يكرَهُها فيطلّقها يُعوِّضها، قال

تعالى: ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ(٢٢٩)﴾ [البقرة].

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةُ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّه! مَا أَنْقَمُ عَلَى ثَابِتٍ فِي دِينٍ وَلاَ خُلُقٍ إِلاَّ أَنِّي أَخَافُ الْكُفْرَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «فَتَرُدِّينَ عَلَيْه حَدِيقَتَهُ فَقَالَتْ نَعَمْ فَرَدَّتْ عَلَيْهِ وَأَمَرَهُ فَفَارَقَهَا»[١].

إلاَّ أَنَّ الإسلامَ حذَّر النِّساءَ من طَلَبِ الطَّلاق من غير سببٍ، وحذَّر الرِّجَالَ إذا كَرِهُوا النِّساءَ من إمْساكِهنَّ بقصد الإضرارِ بهنَّ وإلجائِهنَّ إلى افتداء أنفسهنَّ:

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلاَقَ فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»[٢].

وَعَنْه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : «قَالَ الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ»[٣].

وقالِ تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٣١)﴾ [البقرة].

---

(١) خ(٩/٣٩٥/٥٢٧٦).

(٢) صحيح: [ص.جه:١٦٧٢]،جه(١/٦٦٢/٢٠٥٥)،د(٦/٣٠٨/٢٢٠٩)، ت(٢/٣٢٩/١١٩٩).

(٣) صحيح: [ص.ج:٦٦٨١]، ت(٢/٣٢٩/١١٩٨).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا(١٩)﴾[النساء].

وإذا افتدت المرأةُ نفسَها وفارقَها زوجُها كانت أملَك لِنَفْسِها، ولا حقَّ له في مُراجعتها إلاَّ برضاها، ولا يُعتَبرُ هذا الفِراقُ طلاقاً وإنْ وقع بلفظ الطَّلاق، وإنَّما هو فَسْخٌ للعقدِ لمصلَحةِ المرأةِ مُقابِلَ ما افتدت به.

قال ابن القيِّم-رحمه الله-:

«والذي يدلُّ على أنَّه ليس بطلاقٍ أَنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى رتَّب على الطَّلاق بعدَ الدُّخول الذي لم يستوفِ عددَه ثلاثةَ أحكامٍ، كلُّها مُنْتَفِيةٌ عن الخُلْع:

أحدها: أَنَّ الزَّوج أحقُّ بالرَّجعة فيه.

الثاني: أَنَّه محسوبٌ من الثلاث، فلا تحلُّ له بعد استيفاءِ العددَ إلاَّ بعد زواجٍ وإصابةٍ، والخُلعُ غيرُ محسوبٍ من الثلاث.

الثالث: أَنَّ العدَّة ثلاثةُ قروء، وفي الخَلْعِ قُرْءٌ واحد، وهذا ظاهرٌ جدّاً من قوله تعالى: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ(٢٢٩)﴾ [البقرة]»(١). ثم قال: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا(٢٣٠)﴾ [البقرة]. أي فإنْ طلَّقها بعد الطَّلقتيْن والخُلْعِ فلم يَعُدَّ الخُلْعَ طلقةً ثالثةً فذكَره بعد طلقتيْن وذكَر بعده الثالثة فدلَّ على ما ذُكِرَ أَنَّ الخُلْعَ فسخٌ وليس طلاقاً، بمعنى أنَّه لا يُحسَبُ من عددِ الطَّلَّقات، سواءٌ سبقَه طلاقٌ أو لا. هذا عن الخلع.

---

(١) زاد المعاد(١٩٩/٥).

وأَمَّا **العدة:** فهي مأخوذةٌ من العَدِّ والإحْصاء، أَي ما تُحصيه المرأةُ وتعدُّه من الأيام والأقراء.

وهي: اسمٌ لمدَّةٍ تتربَّصُ بها المرأةُ عن التَّزويجِ بعدَ وفاةِ زَوْجِها أَوْ فِراقه لها، إِمَّا بالوِلادةِ أو بالأقْراءِ أو الأشْهرُ.

وعِدَّة المُخْتلِعَة حَيْضَةٌ واحدة:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ "فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تَعْتَدَّ بِحَيْضَةٍ"[١].

وَعَنْ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ أَنَّهَا اخْتَلَعَتْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ " فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَوْ أُمِرَتْ أَنْ تَعْتَدَّ بِحَيْضَةٍ"[٢].

والحكمةُ في ذلكَ التخفيفُ عنها بتقصير المُدَّة لِتَحلَّ للأزواج، لأنَّها افتدتْ نفسَها من زوجها بخلافِ الطَّلاق فإِنَّ الرَّجل هو الذي طلَّقها وهو أحقُّ بها في العِدَّة فَطُوِّلت عليها العِدَّة وفاءً بحقِّه ليتمكَّن من مُراجعَتِها إذا شاء.

أَمَّا عدَّةُ المطلَّقة فإِنها تختلفُ باختلافِ الأحوال:

فالمطلَّقةُ قبلَ الدُّخول لا عِدَّة عليها لقولِه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا**(٤٩)﴾ [الأحزاب].

والمطلَّقةُ بعدَ الدخولِ إِنْ كانتْ حاملاً فعدتُّها بوضعِ الحمل لقوله تعالى: ﴿**وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**(٤)﴾ [الطلاق].

---

(١) صحيح[ص.ت: ١١٨٥م]، ت(٢/٣٢٩/١١٩٧)، د(٦/٣١١/٢٢١٢).

(٢) صحيح[ص.ت:١١٨٥]، ت(٢/٣٢٨/١١٩٦)، ن(٦/١٨٦)، جه(٦٦٣/٢٠٥٨و١/٦٦٤).

عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ أَنَّهُ كَانَتْ عِنْدَهُ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ فَقَالَتْ: لَهُ وَهِيَ حَامِلٌ طَيِّبْ نَفْسِي بِتَطْلِيقَةٍ فَطَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ فَرَجَعَ وَقَدْ وَضَعَتْ فَقَالَ: مَا لَهَا خَدَعَتْنِي خَدَعَهَا اللَّهُ ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: " سَبَقَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ اخْطُبْهَا إِلَى نَفْسِهَا "(١).

وإنْ كانتْ من ذواتِ الحيْضِ فعِدَّتُها ثَلاثُ حيَض لقوله تعالى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ**(٢٢٨)﴾ [البقرة]، والقُرْءُ هو الحيضة:

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ كَانَتْ تُسْتَحَاضُ فَسَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ : "فَأَمَرَهَا أَنْ تَدَعَ الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِهَا"(٢).

والمَرأةُ مؤتَمَنَةٌ على عِدَّتِها لا يحلُّ لها أَنْ تصـرِّح بانتهائها استعجالاً للزَّواج، ولا يحلُّ لها أَنْ تصرِّح ببقائها طمعاً في مُراجعة زوجها.

قال تعالى: ﴿**وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا**(٢٢٨)﴾ [البقرة].

وإنْ كانت المطلَّقةُ قد بلَغتْ سنَّ اليأْس فعِدَّتُها ثلاثةُ أشْهُر، قال تعالى: ﴿**وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ**(٤)﴾ [الطلاق].

أَمَّا المُتوفَّى عنها زوجُها فعِدَّتُها أربعةُ أشْهُرٍ وعَشْر، لا فرقَ في ذلك بيْن المدْخُول بها وغيرِ المدْخُول بها لعمُوم قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**(٢٣٤)﴾ [البقرة].

---

(١) صحيح :[ص.جه:١٦٤٦]، جه(٢٠٢٦/٦٥٣/١).

(٢) صحيح لغيره :[ص.د:٢٥٢]، د(٢٧٨/٤٦٣/١).

عَنْ عَلْقَمَةَ وَالأَسْوَدِ قَالاَ أُتِيَ عَبْدُ اللَّهِ فِي رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَلَمْ يَفْرِضْ لَهَا فَتُوُفِّيَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: سَلُوا هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا أَثَرًا قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا نَجِدُ فِيهَا يَعْنِي أَثَرًا قَالَ: أَقُولُ بِرَأْيِي فَإِنْ كَانَ صَوَابًا فَمِنَ اللَّهِ لَهَا كَمَهْرِ نِسَائِهَا لاَ وَكْسَ وَلاَ شَطَطَ وَلَهَا الْمِيرَاثُ وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَشْجَعَ فَقَالَ: فِي مِثْلِ هَذَا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِينَا فِي امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا بَرْوَعُ بِنْتُ وَاشِقٍ تَزَوَّجَتْ رَجُلاً فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا فَقَضَى لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ صَدَاقِ نِسَائِهَا وَلَهَا الْمِيرَاثُ وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ فَرَفَعَ عَبْدُ اللَّهِ يَدَيْهِ وَكَبَّرَ »(١).

وقد كانت عدَّةُ المُتوفَّى عنها زوجُها سنةً ولها المُتْعَةُ دونَ الميراث كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ (٢٤٠)﴾ [البقرة]، فنسَخَها الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (٢٣٤)﴾ [البقرة]،

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ «فَنُسِخَ ذَلِكَ بِآيَةِ الْمِيرَاثِ بِمَا فَرَضَ لَهُنَّ مِنَ الرُّبُعِ وَالثُّمُنِ وَنُسِخَ أَجَلُ الْحَوْلِ بِأَنْ جُعِلَ أَجَلُهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً »(٢).

فإنْ توفِّي الرجلُ عن زوْجتهِ التي دخلَ بها وكانتْ حاملاً فعدَّتُها بوضعِ الحَمل لعمُوم قولِه تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ (٤)﴾ [الطلاق].

عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّ سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةَ نُفِسَتْ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا بِلَيَالٍ فَجَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ «فَاسْتَأْذَنَتْهُ أَنْ تَنْكِحَ فَأَذِنَ لَهَا فَنَكَحَتْ »(٣).

---

(١)صحيح : [ص.ن:٣٣٥٤]، ن(١٢١-١٢٣/٦)، د(٢١٠١/١٤٧/٦)، جه(١٨٩١/٦٠٩/١).

(٢)حسن : [ص.د:٢٠١٢]، د(٢٢٨١/٣٩٩/٦).

(٣)متفق عليه : خ(٥٣٢٠/٤٧٠/٩)، م(١٤٨٥/١١٢٢/٢).

ويجبُ على المتوفَّى عنها زوجُها الإحدادُ وعدمُ الخروجُ من بيْتِها حتى تَنقَضِي عِدَّتُها.

والإحدادُ هو تَرْكُ الزِّينةِ والطيّب ولُبْسِ الحُلِيِّ ولُبْسِ المُلَوّنِ مـن الثيـاب والخِضَابِ والكُحل.

عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ قَالَتْ: كُنَّا نُنْهَى أَنْ نُحِدَّ عَلَى مَيِّت فَوْقَ ثَلاَث إِلاَّ عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا وَلاَ نَكْتَحِلَ وَلاَ نَطَّيَّبَ وَلاَ نَلْبَسَ ثَوْبًا مَصْـبُوغًا إِلاَّ ثَـوْبَ عَصْبٍ وَقَدْ رُخِّصَ لَنَا عِنْدَ الطُّهْرِ إِذَا اغْتَسَلَتْ إِحْدَانَا مِنْ مَحِيضِهَا فِي نُبْذَةٍ مِنْ كُسْتِ أَظْفَارٍ وَكُنَّا نُنْهَى عَنِ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ»(١).

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « الْمُتَـوَفَّى عَنْهَـا زَوْجُهَا لاَ تَلْبَسُ الْمُعَصْفَرَ مِنَ الثِّيَابِ وَلاَ الْمُمَشَّقَةَ وَلاَ الْحُلِيَّ وَلاَ تَخْتَضِـبُ وَلاَ تَكْتَحِلُ»(٢).

أَمَّا المُطلَّقةُ طلاقاً رجْعياً فيجبُ عليها أَنْ تلزَم بيتَ الزوجيَّة حتى تنقضِيَ عِدَّتُها ولا يَحِلُّ لها أَنْ تخرُجَ منه ولا يَحِلُّ لزوجِها إخراجُها، ويُستَحبُّ لهـا أَنْ تتجمَّل وتتزيَّن وتتعرَّض لزوْجِها لعلَّه يُراجعها، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِـيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُـوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ(١)**﴾ [الطلاق].

أَمَّا المطلَّقةُ البائنُ فلا سُكْنَى لها على زَوْجِها ولا نفقة، لقوله ﷺ لفاطمـة بنتِ قَيْسٍ وقد طلَّقها زوجُها ثلاثًا: « **لاَ نَفَقَةَ لَكِ وَلاَ سُكْنَى**»(٣).

---

(١) متفق عليه :خ(٥٣٤١/٤٩١/٩)، م(٩٣٨-٦٧-/١١٢٨/٢)، وبنحوه: د(٢٢٨٥/٤١١/٦)، ن(٢٠٣/٦)، جه(٢٠٨٧/٦٧٤/١).

(٢) صحيح : [ص.د:٢٠٢٠]، د(٢٢٨٧/٤١٣/٦)، ن(٢٠٣/٦)، ولم يذكر «الحلي» .

(٣) م(١٤٨٠-٤٤-/١١١٨/٢).

ويلزمُها أَنْ تعتدَّ في بيْت أهلِها، ولا يجوزُ لها الخروجُ إلاَّ لِحاجة.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: طُلِّقَتْ خَالَتِي فَأَرَادَتْ أَنْ تَجُدَّ نَخْلَهَا فَزَجَرَهَا رَجُلٌ أَنْ تَخْرُجَ فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: "بَلَى فَجُدِّي نَخْلَكِ فَإِنَّكِ عَسَى أَنْ تَصَدَّقِي أَوْ تَفْعَلِي مَعْرُوفًا»(١).

* * *

(١) م(٢/١١٢١/١٤٨٣)، ن(٢/٢٠٩)، د(٦/٣٩٨/٢٢٨٠) بنحوه، جه(١/٦٥٦/٢٠٣٤).

حق الطفل

قال الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٣٣)﴾ [البقرة].

" إنَّ أبناءَنا هم الأملُ الوضيءُ الذي يملأ علينا حياتَنا نُوراً وبهجة، وهم الرَّجاءُ العظيمُ الذي تتطلَّع به نفوسُنا في شَوْقٍ إلى المستقبلِ القريبِ والبعيد، وهم الْبَسْمَةُ الواعِدَةُ الواثِقَةُ التي ترتَسِمُ على شفتَي الحياةِ فتغسِلُ عن قلُوبِنَا الأحزانَ والهمُوم، وهم الغايةُ التي ننشدُها في سعادةٍ راغبةٍ آملة، لتنشُرَ بها أفياءَ الخُلود على أرضٍ جُرزٍ، فإذا هِيَ تهتزُّ وترْبُو، وتُقَدِّمُ لنا وللنَّاسِ عطاءَها الجوادَ المدرار.

وهم الأثرُ الذي يبقى في أعقابِنا من بعده بتاريخ جيلٌ قد انقضى فهو على أثره، فإمَّا أَنْ يُحَدِّثهُم بتاريخٍ مليءٍ بالأمجادِ يملأ الدنيا عبيراً ونُوراً، وإمَّا أَنْ يحدِّثهم بتاريخٍ أسودَ قاتمٍ أو سيِّئ فَاجِع.

فيجبُ علينا أَنْ نعلم أَنَّ أبناءنا أمانةٌ في أيدينا يجبُ علينا حِفْظُها والوفاءُ بحقِّها كي نكونَ بذلك من الذين عناهُمُ اللهُ تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٨)﴾ [المؤمنون]، فهم أمانةٌ ائتمنَنا اللهُ عليها، ورَعِيَّةٌ استَرْعانا إيَّاها، فلا يجوزُ بحالٍ أَنْ نخون الأمانةَ ولا أَنْ نضيِّع الرَّعِيَّة فإنَّ اللهَ سائِلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه،

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ "(١).

فإمَّا أَنْ يُحْسِنَ الرَّاعي الرِّعايةَ ويقومَ بحقِّ الرَّعية فينجُو، وإمَّا أَنْ يُفرِّط في الرِّعاية ويضيِّعَ الأمانةَ فيهلِك، كما قَالَ **رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : "مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**"(٢)(٣).

ولا يُمكنُ القيامُ بحُسْنِ الرِّعاية إلاَّ إذا عرفَ الرَّاعي ما يجبُ عليه ثم اجتهد في القيامِ به، ولقد أمر الإسلامُ برعايةِ الطفلِ مِنْ قبل تَكْوينه بل من قبلِ زواجِ أبيه، فأوجبَ الإسلامُ على الشَّابِّ تَحرِّيَ الحلال من الطَّعام والشَّراب لأنَّهما أساسُ تكوينِ مادة خَلْقِ الإنسان، قال تعالى: ﴿**فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ(٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦)يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(٧)**﴾ [الطارق]،

وهذا الماءُ هو خُلاصةُ غذاءِ الإنسان، فإنْ طاب الغذاءُ طاب الماء وطاب نباته، وإذا خبث الغذاء خَبُثَ الماءُ وخَبُثَ نباتُه، قال تعالى: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا(٥٨)**﴾ [الأعراف]، **ولذا قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "وَلَدُ الزِّنَا شَرُّ الثَّلاَثَةِ "**(٤)،

---

(١)متفق عليه : خ(٢/٣٨٠/٨٩٣)، م(٣/١٤٥٩/١٨٢٩).

(٢)متفق عليه : خ(١٣/١٢٦/٧١٥٠)، م(١/١٢٥/١٤٢).

(٣) المجتمع الرباني(٥٩و٦٠) بتصرف.

(٤)صحيح : [ص.د:٣٣٥٤]، د(١٠/٥٠٦/٣٩٤٤)، ك(٢/٢١٤)، هق(٥٧و٥٨/١٠)، حم(١٦/٧٢/١٩٠).

قال العلماء: "معناه شرُّ الثَّلاثةِ أصلاً ونسباً ومولداً، لأنَّه خُلِقَ من مـــاء الزَّاني والزَّانية، وهو ماءٌ خبيث "[١].

فإذا طابَ مطعَمُ الشَّاب وشَرابُه طاب ماؤه، فعليه أَنْ لا يُريقَ هذا المـــاءَ الطَّيبَ إلاَّ في أرضٍ طيِّبة،بل ويتعيَّن عليه أَنْ يبحثَ عن امرأةٍ طيِّبةٍ تكون حَرْثاً له، وتَلِدُ له الذريَّةَ الطيِّبة بإذن الله، ولذلك أمرَ الإسلامُ بحُسْنِ اختيار المرأة.

قَالَ النَّبِيِّ ﷺ : "تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا ولِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَـــا ولِـــدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ"[٢].

اظفرْ بذاتِ الدِّين التي تحفَظُك في نفسِها، وتحفَظ فِراشَكَ وتصونُ نسبَك فلا تُدْخِلُ عليكَ مَنْ ليس منك.

وحرَّم الإسلامُ نِكاحَ الزَّانية فقال تعالى: ﴿**الزَّانِي لاَ يَـــنْكِحُ إلاَّ زَانِيَـــةً أَوْ مُشْـــرِكَةً وَالزَّانِيَـــةُ لاَ يَنْكِحُهَـــا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْـــرِكٌ وَحُـــرِّمَ ذَلِـــكَ عَلَـــى الْمُؤْمِنِينَ**[٣]﴾ [النور]،

وقد جاء في سبب نزولها :

عَنْ مَرْثَدِ بْنِ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ كَانَ يَحْمِلُ الأَسَارَى بِمَكَّةَ وَكَانَ بِمَكَّةَ بَغِيٌّ يُقَالُ: لَهَا عَنَاقُ وَكَانَتْ صَدِيقَتَهُ قَالَ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه! أَنْكِحُ عَنَاقَ قَالَ: فَسَكَتَ عَنِّي فَنَزَلَتْ ﴿ وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ فَدَعَانِي فَقَرَأَهَا عَلَيَّ وَقَالَ: " لاَ تَنْكِحْهَا"[٣].

---

(١) جامع الأصول(٨/٨٠).

(٢) متفـــق عليـــه:خ(٥٠٩٠/١٣٢/٩)، م(١٤٦٦/١٠٨٦/٢)، د(٢٠٢٣/٤٢/٦)، ن(٦/٦٨)، جه (١٨٥٨/٥٩٧/١).

(٣) حسن صحيح:[ص.د:١٨٠٦]، د(٢٠٣٧/٤٨/٦)، ن(٦/٦٦)، ت(٣٢٢٧/١٠/٥).

فإذا تزوَّج ذلك الرَّجلُ فَمِنْ حقِّ الطِّفلِ عليه أَنْ يجنِّبَه ما يُؤْذيه من شَرِّ الشَّيطان وأَنْ يعوِّذَه بالله منه، وذلك بأَنْ يقول ما أمرَ به الرَّسولُ ﷺ عند مُباشَرة الرَّجلِ أهلَه حيث قال: « **أَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِي أَهْلَهُ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ثُمَّ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ أَوْ قُضِيَ وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا** »(١).

فإذا ثبت الحملُ وجَبَ على الحاملِ أَنْ تُحافِظَ على جَنينِها وسلامَتِه بالابتعاد عن كل ما من شأنِه أَنْ يضرَّه من نحو العقاقيرِ الطبيَّة والأدويَة التي عُرِفَ بالتجربة أَنْ تناول الحامِلِ لها يضرُّ الجنين، وإذا امتنعت عن الدَّواءِ مع حاجتها إليه فأَوْلى أَنْ تمتنِعَ عن كلِّ ما يضرُّ الجنينَ من المسْكِرَاتِ والمخدِّرات والتَّدخين، فإِنْ إضرارَها على الحامل وجنينِها ثابتٌ يقيناً.

بل إِنْ الإسلام حفاظاً على الجنين أَذِنَ للحامل في الفِطْرِ في رمضانَ إِنْ خافت على جنينها وعليها الفديةُ دونَ القضاء إِلاَّ أَنْ تشاء القضاء:

عن ابن عباس قال: « الحُبْلَى والمُرْضِعُ إذا خَافَتا أفْطَرتا وأَطْعمَتا كُلَّ يَوْمٍ مِسْكِيناً »(٢).

ولا يجوز إسقاطُ الحملِ بعد ثُبوته إلاَّ لضرورة، وأمَّا إسقاطه بعد نَفْخِ الرُّوح فيه فهو قتلٌ لنفسٍ يترتَّب عليه من الأحكام الجنائية ما يترتَّب على قتلِ الإنسان.

---

(١) متفق عليه: خ(٩/٢٢٨/٥١٦٥)، م(٢/١٠٥٨/١٤٣٤)، د(٦/١٩٧/٢١٤٧)، ت(١٠٩٨/ ٢/٢٧٧)، جه(١/٦١٨/١٩١٩).

(٢) إسناده صحيح: [الإرواء: ٤/١٨)]، هق(٤/٢٣٠).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى فِي امْرَأَتَيْنِ مِنْ هُــذَيْلٍ اقْتَتَلَتَــا فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى بِحَجَرٍ فَأَصَابَ بَطْنَهَا وَهِيَ حَامِلٌ فَقَتَلَتْ وَلَدَهَا الَّذِي فِي بَطْنِهَا فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَضَى أَنَّ دِيَةَ مَا فِــي بَطْنِهَــا غُــرَّةٌ عَبْــدٌ أَوْ أَمَــةٌ»(١).

فإذا وضَعت الأمُّ وجب على الجميع حَمْدُ الله علــى ســلامَتِها وســلامَة ولدِها، والرِّضا بما رزق الله ولا يجوز الفرحُ بالصبيِّ دون الصبيَّة فَضْلاً عــن بُغْضِها وكراهيَتِها ووالدَتِها، فإنَّ اللهَ هو الخلاَّق العليم **﴿لِلَّــهِ مُلْــكُ السَّــمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَــاءُ الــذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٥٠)﴾** [الشورى].

وقد عاب اللهُ أقواماً **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُــوَ كَظِيمٌ (٥٧)يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّــهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(٥٨)﴾** [النحل].

وعلى ذلك بوَّب البُخاريُّ في كتاب الأدب المُفْرَد فقال: **بابُ مَنْ حَمِدَ اللهَ عِنْدَ الوِلادَةِ إذا كان سَوِيّاً ولم يُبالِ ذكراً كان أو أُنْثَى، ثم أسند عن كثيــر بــن لبيد قال: "كانتْ عائشةُ إذا وُلِدَ فيهم موْلُودٌ "يَعني مِنْ أَهْلِها " لا تَسْأَلُ غُلاماً ولا جَارِيَةً، تقولُ: خُلِقَ سَوِيّاً؟ فإذَا قيلَ نَعم قالت: الحمدُ للهِ ربِّ العالمين»**(٢).

ثم عليهم أَنْ يُحَنِّكوه:

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وُلِدَ لِي غُلامٌ فَأَتَيْتُ بِــهِ النَّبِــيَّ ﷺ فَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ فَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ وَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ وَدَفَعَهُ إِلَيَّ »(٣).

---

(١) متفق عليه: خ(١٠/٢١٦/٥٧٥٨)، م(١٢/٣١٧/٤٥٥٢)، ن(٤٧و٨/٤٨).

(٢) الأدب المفرد: باب رقم (٥٣٠) والحديث : حسن الإسناد موقفاً [ص.خد:٩٥١].

(٣) متفق عليه: خ(٩/٥٨٧/٥٤٦٧)، م(٣/١٦٩٠/٢١٤٥).

«والتَّحنيكُ هو مضغُ الشيءِ ووَضْعُه في فَمِ الصبيِّ ودَلْكُ حَنَكِهِ بِه، يُصْنَع ذلكَ بالصبيِّ لِيتمرَّن على الأكل ويقوى عليه، وأوْلى الأشياءِ بتحنيكِ الصبيِّ التمرُ فإنْ لم يتيسَّرْ فالرُّطب وإلاَّ فشيءٌ حُلْوٌ، وعَسَلُ النَّحلِ أَوْلَى مِن غَيْرِه»(١).

وعلى أُمِّه أَنْ تُرْضِعَه: فإنْ كانتْ تحتَ أبيه فنفقتُها واجبةٌ عليه، وإنْ كانت مطلَّقةً فعليه أَنْ تُرْضِعَه وعلى أبيه أَنْ يُنْفِقَ عليها بالمعروف، وعلى الأبويْن أَنْ يُراعِيَا مصلحَةَ هذا الطِفل فإنْ كانت مصلحتُه في إرضاع أُمِّه له فعلَيْها إرْضاعُه وعلى أبيه النَّفقة، ولا يجوزُ للأبِّ إذا رأى تَعلُّقَ الأُمِّ بولدها أَنْ يأخذَه منها ويسترضِعَ له غيرَها، ولا يجوز للأمِّ أَنْ ترفُضَ إرضَاعَه للإضرار بأبيه، ومُدَّة الرِّضاع العامَّةُ حولان إلاَّ أَنْ يرى الأبوانِ المصلحةَ في فِطامِه قبلَ ذلك، وإنْ رأيَا أَنَّ مصلحةَ الولدِ في الاسترضاع له فلا جناح عليهما، وهذا معنى الآية الكريمة ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ(٢٣٣)**﴾[البقرة]، وهو خبرٌ بمعنى الأمر كما في قوله تعالى: ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ(٢٢٨)**﴾ [البقرة]، ثم خفَّف اللهُ عنهم فقال: ﴿ **لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ(٢٣٣)**﴾ [البقرة]، وقال تعالى في سورة الطلاق: ﴿**أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى(٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا(٧)**﴾ [الطلاق].

---

(١) فتح الباري(٩/٥٨٨).

فإنْ سمَّياه عند وِلاَدتِه فبها، وإنْ أخَّرا التَّسمية للسابع فلا جُناحَ عليهما.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "وُلِدَ لِـي اللَّيْلَـةَ غُـلامٌ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ"(١)،

وَعَنْ الْحَسَنِ عَنْ سَمُرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " كُلُّ غُلاَمٍ مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِـهِ تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ وَيُسَمَّى"(٢).

ومن حَقِّ الطفل تسميتُه باسمٍ حَسَنٍ من أسماء الأنبياء والصالحين فإنَّ لكلِّ مُسمًّى نصيباً من اسمه:

عَنْ أَبِي وَهْبٍ الْجُشَمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ : "أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ "(٣).

ويحرُم تعبيدُ المولودِ لغير الله كعبد النبِّي وعبدِ الرسول وعبد الحُسين وعبد الكعبة، ويحرُم تسميتُه بأسماءِ الكفَرةِ الفَجرة كاسم فرعونَ وهامانَ وقارونَ ونحوِها من أسماء الملاحدة، ويُكْرَه تسميتُه بما فيه تزكية، كناصرِ الدِّين، ومُحْيِ الدِّين، وعمادِ الدِّين، وصلاحِ الدِّين، وناجحٍ وفَلاحٍ وبَركةٍ:

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "وَلاَ تُسَـمِّيَنَّ غُلاَمَـكَ يَسَارًا وَلاَ رَبَاحًا وَلاَ نَجِيحًا وَلاَ أَفْلَحَ فَإِنَّكَ تَقُولُ أَثَمَّ هُوَ فَلاَ يَكُونُ فَيَقُولُ لاَ"(٤).

---

(١) م(٤/١٨٠٧/٢٣١٥).

(٢) صحيح: [ص.د:٢٤٦٢]، د(٨/٣٨/٢٨٢١)، ت(٣/٣٨/١٥٥٩)، جه(٢/١٠٥٦/٣١٦٥)، ن(٧/١٦٦).

(٣) صحيح: [ص.د:٤١٤٠]، د(١٣/٢٩٣/٤٩٢٩)، ن(٢١٨و٦/٢١٩).

(٤) م(٣/١٦٨٥/٢١٣٧)، ت(٤/٢١٣/٢٩٩٢)، د(١٣/٢٩٩/٤٩٣٧).

ولهذه العلَّة يُكرَه أيضاً تسميةُ المولود باسم إسلام، وإيمان، وإحسان، لأنك تقولُ لأخيك: إسلامٌ عندكم فيقول: لا، وتقولُ له: إيمانٌ عندكم فيقول لا.

عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: كَانَ اسْمِي بَرَّةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمُ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ فَقَالُوا بِمَ نُسَمِّيهَا قَالَ سَمُّوهَا زَيْنَبَ"(١)،

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أبيه أَنَّ أَبَاه قَدِمَ عَلَى ﷺ فَقَالَ: مَا اسْمُكَ قَالَ: اسْمِي حَزْنٌ قَالَ: بَلْ أَنْتَ سَهْلٌ قَالَ: مَا أَنَا بِمُغَيِّرٍ اسْمًا سَمَّانِيهِ أَبِي قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: فَمَا زَالَتْ فِينَا الْحُزُونَةُ بَعْدُ"(٢).

"ويُكْرَه تسميةُ البناتِ بالأسماء التي فيها دَلَعٌ وميُوعةٌ وغرامٌ كاسم: هيام، هيفاء، ناهد، نِهَاد، سوسن، غادة، ومِيادة، ومَيّ، وأحلام، وسهام.

وهكذا أراد ﷺ لأمَّته أَنْ تتميَّز على سائر الأمم حتى في أسماء أبنائها لتكون كما أراد الله لها ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ(١١٠)﴾ [آل عمران]،

فإذا تركتِ الأمَّة التَّسميةَ بأسماءِ الصَّالحين وسمَّت بأسماءِ الكفَرة الفَجرة فإنَّ ذلك دليلُ فُقدانِ كيانِها، وتحطُّم معنَويَّاتها، وانْحدارِها إلى مُنْحدَرِ الوَهَنِ والذُّلِّ والضَّعفِ الذي يُطمِّع فيها أعداءَها"(٣).

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ

---

(١) م(٢١٤٢-١٩-/١٦٦٨/٣)، د(٤٩٣٢/٢٩٤و٢٩٥/١٣).

(٢) خ(٦١٩٣/٥٧٥/١٠)، د(٤٩٣٤/٢٩٧/١٣).

(٣) تربية الأولاد في الإسلام (٨٠و٨١/١).

الدُّنْيا وكَراهيَةُ الْمَوْتِ»(١).

ومن حقِّ الطفلِ يومَ سابعه أَنْ يعقَّ عنه أبوه، ويَخْتِنَه، ويَحْلِقَ رأسَه ويتصدَّق بوزنِه فِضَّةً:

عَنْ سلْمَانَ بْنِ عَامرٍ الضَّبِّيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَـعَ الْغُـلاَمِ عَقِيقَـةٌ فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ دمًا وَأَمِيطُوا عَنْهُ الأَذَى»(٢).

وَعَنْ عَائشَةَ قَالَتْ: « أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَعُقَّ عَنِ الْغُـلاَمِ شَـاتَيْنِ وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةً»(٣).

وعَنْ سمُرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « كُلُّ غُلاَمٍ مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِهِ تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ وَيُسَمَّى»(٤).

وعن جابر أَنَّ رسول الله ﷺ « عقّ عَنِ الْحَسَـنِ والْحُسَـيْنِ وَخَتَنَهُمَـا لِسَبْعَةِ أَيَّام »(٥).

وعنْ أَبِي رَافِعٍ أَنَّ النبي ﷺ قَالَ لفَاطِمَةَ لَمَّا وَلَدَتِ الحسَنَ:« احْلِقِي رَأْسَهُ وَتَصَدَّقِي بِوَزْنِ شَعْرِهِ مِنْ فِضَّةٍ عَلَى الْمَسَاكِينِ»(٦).

ولا فرقَ في ذلك كلِّه بين الصَّبِيِّ والجارِية.

---

(١) صحيح : [ص.د:٣٦١٠]، د(١١/٤٠٤/٤٢٧٦).

(٢) خ(٩/٥٩٠/٥٤٧٢)، د(٨/٤١/٢٨٢٢)، ت(٣/٣٥/١٥٥١)، ن(٧/١٦٤).

(٣) صحيح : [ص.جه:٢٥٦٢]، جه(٢/١٠٥٦/٣١٦٣)، ت(٣/٣٥/١٥٤٩).

(٤) صحيح: [ص.د:٢٤٦٢]، د(٨/٣٨/٢٨٢١)، ت(٣/٣٨/١٥٥٩)، جه(٢/١٠٥٦/٣١٦٥)، ن(٧/١٦٦).

(٥) حسن لغيره : [تمام المنة:٦٧و٦٨]، طغ(٢/١٢٢/٨٩١)، هق(٨/٣٢٤).

(٦) حسن : [الإرواء:١١٧٥]، حم(١/٣٣٤/٥٦٢)، هق(٨/٣٢٤).

ومن حقِّ الطفل على أبويْه رحمتُه والعَطْفُ عليه وتقبيلُه وملاعَبتُه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا فَقَالَ: الأَقْرَعُ إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»(٢).

ومن حَقِّ الطفلِ على أبويْه إذا بدأ الكلامَ أَنْ يلقِّناه كلمةَ التَّوحيد ليألفَها ويتعوَّد عليها، ويُلَقِّنانه القُرآنَ الكريم ويُحَفِّظانه قِصَارَ السُّور، وأذكارَ النَّوم والانتباه والطعامِ والشرابِ واللِّباس، ثم يُوَجِّهانه إلى الكُتَّابِ لحِفْظِ كتَابِ الله، ويَغْرِسَا في نفسه حبَّ العلم والعُلماء، ويذْكُرانِ له من سيرةِ سيِّد المرسلينَ وقَصصِ العُلماء الربَّانيين والعابدين الصالحين ما يقذفُ في قلبه حُبَّهم والتَّأسِّي بهم، وعليهما أَنْ يمنَعاه من أَخْذِ ما لا يحلُّ أَخْذُه، وأَكْلِ ما يحرُم عليه أكلُه لينشأ على معرفةِ الحلالِ والحرام فيحرصَ على الحلال ويجتنبَ الحرام:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كِخْ كِخْ ارْمِ بِهَا أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»(٣).

---

(١) متفق عليه: خ(٥٩٩٧/٤٢٦/١٠)، م(١٨٠٨،٢٣١٨/٤)، ت(١٩٨٧/٢١٢/٣)، د(٥١٩٦/ ١٢٩/١٤).

(٢) متفق عليه: خ(٥٩٩٨/٤٢٦/١٠)، م(٢٣١٧/١٨٠٨/٤).

(٣) متفق عليه: خ(١٤٦١/٣٥٤/٣)، م(١٠٦٩/٧٥١/٢).

ومن حَقِّ الطفلِ على أبويْه أَنْ يعلِّماه آدابَ الطعام:

عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: كُنْتُ فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي: " يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ"(١).

ومن حقِّ الطفلِ على أبويْه أَنْ يَصْطَحِبَاه إلى المسجدِ في أوقاتِ الصلاة وأوقات درُوس العلم ليتعلَّق قلبُه بالمساجد، فقد كان الرَّسولُ ﷺ يفعل ذلكَ بنفسه وكان يُقِرُّ أصحابَه عليه:

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : "كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلأَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَبِيعِ فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا"(٢).

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُنَا إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللَّهُ ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ(١٥)﴾ [التغابن]، **فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا"**(٣).

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنِّي لأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ"(٤).

---

(١) متفق عليه: خ(٩/٥٢١/٥٣٧٦)، م(٣/١٥٩٩/٢٠٢٢).

(٢) متفق عليه: خ(١/٥٩٠/٥١٦)، م(١/٣٨٥/٥٤٣)، د(٣/١٨٥/٩٠٤)، ن(٢/٤٥).

(٣) صحيح: [ص.ت:٣٧٧٤]، ت(٣٨٦٥/٣٢٣و٥/٣٢٤)، د(٣/٤٥٨/١٠٩٦)، جه (٢/١١٩٠/٣٦٠٠).

(٤) خ(٢/٢٠١/٧٠٧).

فإذا بلغ السابعةَ أمراه بالصَّلاةِ ولن يجدا مشقة فيها، ولن يستعصِيَ على أبويْه لأنَّهما نشَّآه على ارتياد المساجد ورُؤْية المصلِّين، ثم يَفْصِلانِ بيْنه وبيْن إخوانه في المنام بأَنْ يجعلا لكلِّ صَبِيٍّ فراشاً، فإنْ اضطُّرا جعَلا لكلِّ صبيٍّ لحافًا:

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ"(١).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لاَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَلاَ تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ"(٢).

كما ينبغِي لهما أَنْ يأمُراه بالصِّيام ليتعوَّد عليه:

عَنْ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ: "أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَى قُرَى الأَنْصَارِ مَنْ أَصْبَحَ مُفْطِرًا فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِه وَمَنْ أَصْبَحَ صَائِمًا فَلْيَصُمْ قَالَتْ: فَكُنَّا نَصُومُهُ بَعْدُ وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا وَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ أَعْطَيْنَاهُ ذَاكَ حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ الإِفْطَارِ"(٣).

وينبغِي لهما أَنْ يغْرِسَا في قلبه مُراقبَة اللهِ بأَنْ يعلِّماه من أسماءِ الله الحُسْنى ما يدلّ على اطلاعِ اللهِ على عبادِه ومراقبتِه لهم من نحو: الله سميع بصير، الله عليم، ويحفِّظانِه قولَ النبي ﷺ: "**اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ**"(٤)، وبذلك يترك الصبيُّ الأقوالَ القبيحةَ والأعمالَ القبيحة، ويترك ما حرّم الله عليه.

---

(١) حسن: [ص.ج:٥٨٦٨]، د(٤٩١/١٦٢/٢) وهذا لفظه، حم(٨٤/٢٣٧/٢)، ك(١٩٧/١).

(٢) م(٣٣٨/٢٦٦/١)، د(٣٩٩٩/٥٨/١١)، ت(٢٩٤٥/١٩٦و١٩٧/٤).

(٣) متفق عليه: خ(١٩٦٠/٢٠٠/٤)، م(١١٣٦/٧٩٨و٧٩٩/٢).

(٤) حسن: [ص.ت:١٩٨٧]، ت(٢٠٥٣و٢٠٥٤/٢٣٩و٢٤٠/٣)، حم(٣٦/١٨٥/١٩).

ومن حَقِّ الطفل إذا بلغَ عشرَ سنينَ أَنْ يهتمَّ أبوه بمُراقَبته دون أَنْ يشعُرَ ليرى كيف مدخلُه ومخرجُه، ومع مَنْ يمشِي ومَنْ يُصاحب، ولا يأذنَ له في السَّهر خارجَ البيْت، ويتأكدَّ ذلك في البنات، فلا يجوز للآباء أَنْ يسمحوا للولد أَنْ يبيتَ عند أصدقائه وأقرانه، ولا يجوزُ لهم أَنْ يسمَحوا للبنت أَنْ تبيتَ عند صديقتها وعمِّها وخالِها وخالَتها، لأَنَّ النَّاس ليسُوا سواءً في المحافَظةِ والالتزام، فقد يكونُ الوَلدُ والبنتُ من بيْتٍ محافظٍ ملتزم، فإذا باتَا عند أحدٍ من الناس ليس عندهم التزامٌ ولا محافظةٌ ولا يعرفون الحلالَ والحرام، فيشاهدُ الولدُ والبنتُ التليفزيونَ ويألفُ الاختلاطَ ويتساهلُ في إبداءِ العوْرات، وبذلك يهدِمُ ما فعله الآباء معه، ثم يتجرَّأ الولدُ على أبيه فيطلُبَ منه التليفزيونَ ويطلب منه أتارِيَ وغيرَ ذلك، ولا يقفُ الأمرُ عند هذا الحدِّ بل يصير الأبناءُ ينظرون إلى أبيهم نظرةَ احتقارٍ وسُخْرِيَةٍ إذ يتَّهمُّونه بالتزمُّتِ والتَّشدُّدِ والرجعيَّةِ وبذلك يخسَرُ الأبُ كلَّ جُهْدٍ بذَلهِ في التربية بسبب تهاوُنِه في غيابِ الأولادِ خارج منزِلِهم وغيابِهم عن بيْته ومُراقَبته.

ومن حقِّ الطفل على أبويّه أَنْ يعوِّداه الاجتماعَ على طاعةِ الله وذِكْره فيجعلاَنِ له ولإخوانه ساعةً يذكُرونَ فيها اللهَ بقراءةِ القُرآن ومُدارستَه، وبدراسةِ أحاديثِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وسيرته، ودراسةِ ما يجبُ تعلُّمه من الأحكامِ الشرعيَّة ونحوِ ذلك ليتفقَّهوا في الدِّين،

عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »(١).

وبعد: فإذا كان الآباءُ يشكُون اليومَ من عُقوقِ الأبناء فإنَّ لنا أَنْ نسأل:

---

(١) متفق عليه خ(١/١٦٤/٧١)، م(٢/٧١٨/١٠٣٧)، جه(١/٨٠/٢٢٠).

مَنِ العاقّ؟ الأبناءُ أم الآباء؟ إنَّ كل حقٍّ يقابلُه واجبٌ، فإذا كان مِنْ حَقِّكَ على ابنك أَنْ يبرّك، فإنَّ من حَقِّه أيضاً عليك أَنْ تبَّره، وبِرُّه مقدَّمٌ على بـرك، فإذا بررتَه برّك، وإذا عققْتَه عقَّك ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**(٤٠)﴾ [الشورى].

وكما تَدِين تُدان، فإذا لم تَقُمْ بحقٍّ ابنكِ ولم يقمْ هو أيضًا بحقِّك فلا تلومنَّ إلاَّ نفسك.

* * *

لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (١٦٩)**﴾ [البقرة].

هذا الخطاب مِنَ اللهِ تعالى للنَّاس كافةً مؤمنينَ وكافرين، وهو ثاني خطابٍ في السُّورة بهذا العُموم فقد سبقَ قولُه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)**﴾ [البقرة]، ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ (٢٥٣)**﴾ [البقرة]، ومع ذلك جاءَ النِّداءُ الثَّاني لهم جميعاً بالأكلِ مما في الأرض حلالاً طيباً، مما يدلُّ على أَنْ كُفْرَ الكافرِ لا يمنعُه رِزْقَ الله في الدُّنيا، كما سبقَ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ (١٢٦)**﴾ [البقرة]، فخصَّ إبراهيمُ المؤمنينَ بالدُّعاء أَنْ يرزقَهم الله، فقال الله تعالى: ﴿**قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً (١٢٦)**﴾ [البقرة]، يعني في الدُّنيا بنعمتي ﴿**ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ (١٢٦)**﴾ [البقرة] في الآخرة فأحْرِمُه رِزْقي، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٣٢)**﴾ [الأعراف].

قال قومٌ إنَّها كانَتْ لهم ولغَيرِهم في الدُّنيا، لكنَّ اللهَ سبحانه أهملَ غيرَ المسلمين فلم يَذكُرْهم تحقيراً لهم، كما دلَّ على أَنَّ المؤمنينَ يختصُّون يومَ القيامة بفضلِ الله ونعمتِه كما قال تعالى: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى**

الْكَافِرِينَ(٥٠) ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ(٢٠)**﴾ [الأحقاف].

والشاهد أَنَّ اللهَ من جُودِه وكَرمَه لا يحْرِمُ عبدَه الكافرَ من رزقِه في الدُّنيا مع كُفْرِه وتكذيبِه له ووَصْفِه له سبحانه بما لا يليق بجلاله كما جاء في الحديث:

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ"(١).

"وهكذا: امتنَّ اللهُ تعالى على الناسِ جميعاً فأمرَهم أَنْ يأكلُوا مما في الأرض من حُبوبٍ وثمارٍ وفواكِهَ وحيواناتٍ حالَةَ كَوْنِها حلالاً"(٢).

وقوله: ﴿**حَلَالًا**﴾ حالٌ من المأكول وقوله: ﴿ **طَيِّبًا** ﴾ وصفٌ للحلال، فإِنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ(٤)**﴾ [البقرة].

فالحلالُ طيِّب، والحرامُ خبيث، ولذلك قابل اللهُ تعالى بيْن الوصفيْن في ذكر الحلالِ والحرامِ فقال في وصف النبيِّ ﷺ ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ(١٥٧)**﴾ [الأعراف]، فكل طيِّبٍ حلال، وكل خبيثٍ حرام.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أَنَّ الأصل في الأشياءِ الإباحةُ أكلاً وانتفاعاً كما دلَّ عليه قولُ ربِّنا سبحانه: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ(١٣)**﴾ [الجاثية].

---

(١) متفق عليه: خ(٦٠٩٩/٥١١/١٠)، م(٢٨٠٤/٢١٦٠/٤).

(٢) السعدي (١/١٩٩).

وأما الحرام فهو عارضٌ إمَّا لخُبْثِ الشَّيءِ نفسه، ويكونُ الشَّيءُ محرَّمًا لذاته، وإمَّا لحقِّ الغير وإنْ كان في أصلِه حلالاً، لكنه حُرِّم لعارضِ امتلاكِ الغيْر، ولا يحلُّ مالُ امرئٍ مسلمٍ إلاَّ عن طيب نفسٍ منه، ولذلك فإنَّ الحلالَ لا ينحَصِر، أمَّا الحرام فمنحصرٌ، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة]،

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ»(١)

ولذلك لمَّا **قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ مِنَ الثِّيَابِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لاَ يَلْبَسُ الْقُمُصَ وَلاَ الْعَمَائِمَ وَلاَ السَّرَاوِيلاَتِ وَلاَ الْبَرَانِسَ وَلاَ الْخِفَافَ»(٢)**،

وهكذا سأل الرَّجلُ عما يلبَس فذكر له الرسولُ ﷺ ما لا يلبَس، لأَنَّ ما يُلْبَسُ لا ينحصر، وما لا يُلْبَس منْحَصِر، فاستَغْنِ يا عبدَ الله بالحلالِ عن الحرام، فإنَّ الحلالَ كثير، والحرَام قليل، فإيَّاكَ والحِرْصَ على القليل الذي يُرْديك.

ولقد خصَّ اللهُ تعالى المؤمنينَ بعد الأمرِ العام بأمرٍ خاصٍّ فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (١٧٢)﴾ [البقرة].

---

(١) م(٢٨٦٥/٢١٩٧و٢١٩٨/٤).

(٢) متفق عليه: خ(١٥٤٣/٤٠١/٣)، م(١١٧٧/٨٣٤/٢)، د(١٨٠٦/٢٦٩/٥)، ن(١٢٩/٥).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٥١)﴾ [المؤمنون]، **وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ"[١].**

"فالرُّسلُ وأُمَمُهم مأمورُونَ بالأكلِ من الطيِّبات التي هي الحلالُ وبالعملِ الصالح، فما كان الأكلُ حلالاً فالعمل الصَّالح مقبول، وإذا كان الأكلُ غيرَ حلالٍ فكيف يكون العملُ مقبولاً؟ وما ذكرَه بعدَ ذلك من الدُّعاء واستبعادِ قَبُولِه مع الأكلِ الحرامِ إِنَّما هو مِثَالٌ لاستبعادِ الأعمالِ مع التغذية بالحرام.

عن وهب بن الورد قال: لو قمت مقام هذه السارية لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل بطنك حلال هو أَمْ حرام.

وقال سعيد بن يزيد: خمس خصال بها تمام العمل: معرفة الله عزَّ وجلَّ، ومعرفة الحق، والإخلاص، واتباع السنة، وأكل الحلال، فإِنْ فقدت واحدة لم يرتفع العمل"[٢]،

وقال سهل بن عبد الله: النجاة في ثلاث: أكل الحلال، وأداء الفرائض، والاقتداء"[٣].

---

(١) م(١٠١٥/٢/٧٠٣)، ت(٤٠٧٤/٤/٢٨٨).

(٢) جامع العلوم والحكم(٨٥-٨٧).

(٣) القرطبي(٢/٢٠٨).

فالحذَرَ كلَّ الحذَرِ من أكلِ الحرام فإنَّه أَخْرَجَ آدمَ من الجنَّة إلى الدنيا، ومَنْ أكلَ الحرامَ في الدنيا حُرِمَ الجنة أيضاً في الآخرة كما قال ﷺ: "**كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِه**"(١).

ولَمَّا أمر اللهُ تعالى النَّاس جميعًا بالأكلِ من الطيِّب الحلال الذي ينفعُهم نهاهُم عمَّا يضرُّهم فقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**(١٦٨)﴾ [البقرة] فَتُحرِّموا ما أحلَّ الله، أو تُحِلُّوا ما حرَّم، لأَنَّ الحلالَ هو ما أحلَّ الله والحرامَ ما حرَّم، وهذا مُقتَضى أُلوهيَّته، فالإلهُ الذي يُعبَدُ هو صاحِبُ الحقِّ في التَّشريعِ لعباده، فمن شرَع للناس غيرَ شريعةِ الله فقد نَصَبَ نفسَه إلهاً مع الله، ومن اتَّبعه على ما شرَع فقد عبَده مِنْ دُون الله، كما قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**(٣١)﴾ [التوبة]،

"عن الضحاك قال: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ** ﴾ قال: قُرّاءهم وعُلمَاءهم ﴿**أَرْبَابًا** ﴾ يعني سادةً لهم من دونِ الله يُطيعُونَهم في مَعاصِي الله، فَيُحلُّون ما أحلُّوه لهم مما قد حرَّم الله عليهم، ويُحَرِّمُون ما يُحرِّمُونه عليهم مما قد أحلَّه الله لهم.

عَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ: " يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ(٣١) **﴾ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ**"(٢)(٣)

---

(١) صحيح : [ص.ج:٤٣٩٥]، حم(١٥/٥/٧)، ك(٤/٤٢٢).

(٢) حسن : [ص.ت:٣٠٩٥]، ت(٥٠٩٣/٣٤١/٤).

(٣) الطبري (١٠/١١٤).

ولقد كان المشركُونَ في جاهليَّتِهم على ما كان عليه أهــلُ الكتــابِ مــن تحريم الحلالِ وتحليلِ الحرام، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَــرْثٌ حِجْــرٌ لاَ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَــذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيــهِ شُــرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْــرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَــلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)**﴾ [الأنعام].

وكانوا يُسيِّبُون السَّوائِبَ تقرُّباً إلى الآلهة ويُحرِّمُون ظُهورَها وألبانَها فقال تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِــنَّ الَّــذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٣)**﴾ [المائدة].

كما كانوا يتلاعَبُون في الأشهرِ الحُرُمِ بالتَّحليــل والتَّحــريم فــإذا أرادُوا الحربَ في ذي الحِجَّةِ مثلاً حاربُوا ثم تَركُوا الحربَ في صفر تعويضاً عــن ذي الحجة فقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُــمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)**﴾ [التوبة].

فلمَّا جاء الإسلامُ نهى الله تعالى المؤمنينَ عن اتِّباع سبيل المجرمين فــي التَّحليل والتَّحريم فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَــلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّــهُ حَــلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)**﴾ [المائدة].

ولَمَّا أوْحى اللهُ إلى رسولِه ﷺ ما حرَّم على عباده من الأطعمــة ومنهــا المَيتَةُ " قال المشركون: يا محمدُ أخْبِرْنا عن الشَّاةِ إذا ماتَتْ مَنْ قَتلها؟ فقــال اللهُ

قتلَها قالوا: فتزعُم أنَّ ما قتلتَ أنتَ وأصحابُك حلال، وما قتلَه الكلبُ والصَّقرُ والفَهْدُ حلال، وما قتل اللهُ حرام! فأنزل اللهُ على رسوله ﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ(١٢١)﴾ [الأنعام] »(١)، « ﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في شِرْكِهم وتحليلِهمُ الحرامَ وتحريمِهمُ الحلالَ ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأَنَّكم اتخَذْتمُوهم أولياءَ من دون الله ووافَقْتمُوهم على ما به فارَقُوا المسلمين»(٢).

قال الزَّجاج: «وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أَنَّ مَنْ أحلَّ شيئاً مما حرّم الله أَو حرَّم ما أحلَّ الله فهو مُشْرِك»(٣).

ثم حضَّ اللهُ تعالى عبادَه على الاستجابةِ له فيما نهاهم عنه من اتِّباع خُطُواتِ الشيطان فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(١٦٨)﴾ [البقرة] أي ظاهرُ العداوة، وقد بانَتْ عداوَتُه مِنْ يوم أَنْ أَبَى أَنْ يسجُدَ لأبيكم واستكبر وقال مُتَوَعِّدَكم: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ(١٦)﴾ [الأعراف] فما من طريقِ خَيْرٍ إلاَّ وعلى رأسه شيطانٌ يصدُّ عنه ويُخوِّف سالكيه كما قال النبي ﷺ: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِه** »(٤).

ومن كان كذلك وجَبتْ عداوتُه ومُجاهَدتُه، ولا سيِّما وقد أكثرَ اللهُ على عباده من التَّحذير منه، ثم لم يكتفِ بذلك حتَّى أخبرَنا بتفصيلِ ما أمرَ به الشَّيطانُ وأَنَّه أقبحَ الأشياءِ وأعظمها مفسدة فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ

---

(١) البغوي (٢/٤١٧).

(٢) السعدي (٢/٤٦٧).

(٣) البغوي (٢/٤١٧).

(٤) صحيح: [ص.ن: ٣١٣٤]، ن(٢١و٢٢/٦).

بِالسُّوءِ(١٦٩)﴾ [البقرة] وهو الشرُّ الذي يسوءُ صاحبَه ويدْخُلُ فيه الكفرُ والفُسوقُ والعِصيْان ﴿**وَالْفَحْشَاءِ(١٦٩)**﴾ [البقرة] وعُطِفَ على السوءِ من باب عَطْف الخاص على العام لأنَّ الفحشاء مِنَ المعاصي، وهيَ ما تناهى قُبْحُه كالزِّنا وشُربِ الخَمر والقتْلِ والقذْف ونحوِ ذلك.

﴿**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(١٦٩)**﴾ [البقرة]، ويدخل في ذلك القولُ على اللهِ بلا علمٍ في شَرْعِهِ وقَدَرِه:

فمَن وصفَ اللهَ بغيْرِ ما وصفَ به نفسَه أو وصفَه به رسولُه، أو نفىَ ما أثْبتَه لنفسه فقد قالَ على الله بلا علم قال تعالى: ﴿**قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٦٨)**﴾ [يونس].

ومَنْ قال إنَّ اللهَ أحلَّ كذا أو حرَّم كذا، أو أمرَ بكذا أو نَهى عن كذا بغير بُرْهانٍ فقد قال على الله بلا علم، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨)**﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ (١١٦)مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١١٧)**﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ(٦٠)**﴾[يونس]، وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**

وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَتَعْلَمُونَ(٣٣)﴾ [الأعراف].

ومما يأمر به الشَّيطانُ ما ذكَره ربُّنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا(١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧)لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨)وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّغُرُورًا (١٢٠)أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا(١٢١)﴾ [النساء].

فهذا ما أمر به الشيطان، وممَّا يُريدُه من الإنسان ما ذَكره اللهُ تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا(٦٠)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(٩١)﴾ [المائدة].

والغايةُ الكُبْرى للملْعونِ فيما يأمرُ به النَّاس هو أَنْ يُورِدَهم مَوْرِدَه ويُدْخِلَهُم مُدْخَله كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(٦)﴾ [فاطر].

وهكذا حذَّر اللهُ عبادَه من طاعةِ الشَّيطان غايةَ التَّحذير، وبيَّن لهم الفرقَ بين دعوته سُبحانه لهم ودَعْوةِ الشَّيطان فقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً(٢٦٨)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠)﴾ [النحل]، وقال عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ

بالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ(١٦٩)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ(٢٢١)﴾ [البقرة].

وأخبرهم أنَّ الشَّيطان إذا أُوردَ وأتباعَه النَّار تبرّأ منهم فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦)وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ(١٦٧)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٢)﴾ [إبراهيم]، وبيَّن لهم إنَّ أتباعَ الشَّيطان سيندمون يومَ القيامة على اتِّباعه ومُوالاته فقال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ(٩٤)وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ(٩٥)قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ(٩٦)تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ(٩٧)إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ(١٠٠)وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ(١٠١)فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٢)﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧)يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً (٢٨)لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً(٢٩)﴾ [الفرقان].

"فتأمل أيُّها العاقلُ في نفسِك وانْظُر: مع أيِّ الدَّاعِييْن، ومن أيِّ الحزبيْن؟

أتتَّبع داعِيَ الله الذي يُريد لك الخيرَ والسَّعادةَ الدُّنيويةَ والأُخْرويَّة، الذي كُلُّ الفَلاحِ بطاعتهِ، وكلُّ الفوْزِ في خِدمَتِه، وجميعُ الأرباح في مُعاملته؟

أم تتَّبِعُ داعِيَ الشَّيطان الذي هو عدُّو الإنسانِ الذي يُريد لك الشرَّ ويسعى جاهِداً في إهلاكِك في الدُّنيا والآخرة، والذي لا يأمرُ إلاَّ بالشرِّ ولا ينهىَ إلاَّ عن الخيْر، والذي كلُّ الشرِّ في طاعتِه وكلُّ الخُسرانِ في وِلايته».[١]

* * *

(١) السعدى (٢٠١و٢٠٢/١) .

الحلال والحرام في البيوع

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا[٢٧٥]﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ[٢٨٢]﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا[٢٨٢]﴾ [البقرة].

البُيوع جمعُ بَيْع، وجُمع لاختلافِ أنواعه. والبَيع نقلُ ملكٍ إلى الغيْر بثَمن. والشِّرَاء قبولُه. ويُطلَق كلٌّ منهما على الآخر.

وهي جائزة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا[٢٧٥]﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ[٢٨٢]﴾ [البقرة]،

عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»[١].

وأجمع المسلمونَ على جوازِ البيع والحكمةُ تقتضيه، لأَنَّ حاجةَ الإنسان تتعلَّق بما في يد صاحبِه غالباً، وصاحبُه قدْ لا يبذُله له، ففي تشريعِ البَيع وسيلةٌ إلى بلُوغ الغرَضِ من غيْر حرج.

وكلامُنا عن البيُوع ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسام :

الأوّل: آدابُ البَيع، والثاني: البُيوع المحرَّمة، والثالث: الأعيانُ التي يحرُم بيعُها.

---

(١) خ(١/٣٣٥/١٤٧١).

فنقول وبالله التوفيق: إنَّ المال هو عمادُ الحياة وعصبُها، به يسدُّ الإنسانُ فاقتَه، ويقضي حاجتَه، ويصونُ حرُماته، ويحفظُ ماءَ وجهه،

ولقد حثَّ الإسلامُ على العمل لكسبِ المال، وعدّ ما أكلَه الإنسانُ من كدِّه وكَسْبِه أفضلَ الأكل فقال ﷺ: " **أطيب الكسب عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور**"[١]،

عَنْ الْمِقْدَامِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"[٢].

ومن طُرُقِ الكَسْب التِّجارة، ولقد حثَّ الإسلامُ عليها ورغَّب فيها بأكثرَ من أُسلوب: فتارةً ينهَى عن أكْل أموالِ الناس بالباطل ويستثْني التِّجارةَ فيفُيد أَنَّ التجارةَ من الكسب الحلالِ الطيِّب قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(٢٩)**﴾[النساء]، وتارةً يأمرُ بكتابةِ الدَّين ويستثْني التِّجارةَ تيسيراً على التُّجارِ ورَفْعاً للحرج عنهم فقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا(٢٨٢)**﴾ [البقرة] وكانوا يتحرَّجون من التجارةِ في الحجِّ فرخَّص لهم فيها فقال تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ(١٩٨)**﴾ [البقرة]

---

(١) صحيح [ص.ج:١٠٤٤]، حم(١٠/٦/١٥) .

(٢) خ (٢٠٧٢/٣٠٣/٤).

وفرضَ اللهُ على رسولهِ والمؤمنيَن قيامَ اللَّيلِ فقامُوا حتى تورَّمت أقدامُهم ثُمَّ خفَّف اللهُ عنهم وكانت التِّجارةُ من أسباب التَّخفيف قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ(٢٠)﴾ [المزمل].

إلاَّ أَنَّ الشَّيطانَ- لعنه الله – يحضرُ الأسْواقَ فيُحِلُّ للناس ما حرّم اللهُ عليهم ولا يزال معهم حتى يوقِعَهم في الإثم، كما قال ﷺ: " يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ إِنَّ الشَّيْطَانَ وَالإِثْمَ يَحْضُرَانِ الْبَيْعَ فَشُوبُوا بَيْعَكُمْ بِالصَّدَقَةِ"[١].

ولذلك كانت الأسْواق أبغضَ البِقاع إلى الله كما قال النبيُّ ﷺ: " أَحَبُّ الْبِلاَدِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلاَدِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا"[٢].

وَقَالَ سَلْمَانَ: " لاَ تَكُونَنَّ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ وَلاَ آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ وَبِهَا يَنْصِبُ رَايَتَهُ"[٣].

ولذلك كان التُّجار على خطرٍ عظيم، حتى أَنَّ النبيَّ ﷺ سمَّاهم فجاراً فقال: " إِنَّ التجَّارَ هم الفُجَّار. قيل يا رَسُولَ اللهِ أَوْ لَيْسَ قَدْ أحَلَّ اللهُ البَيْعَ قالَ بلَى، ولكنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ فيكْذِبُون، ويَحْلِفُونَ فَيأْثَمُون"[٤].

ولن ينجُوَ التَّاجرُ من هذا الخطر إلاَّ: أَنْ يتفقَّه في الدِّين ويعرِفَ الحلالَ والحرامَ في البيوع، حتى لا يقعَ في الحرام وهو لا يدري، ولذلك كان عمرُ يقول: " لاَ يَبِعْ فِي سُوقِنَا إِلاَّ مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ"[٥] .

---

(١) صحيح :[ص.ت:١٢٠٨]، ت(١٢٢٥/٣٤١/٢)، ن(٧/٢٤٧)، جه(٢١٤٥/٧٢٦/٢).
(٢) م(٦٧١/٤٦٤/١).
(٣) م(٢٤٥١/١٩٠٦/٤).
(٤) [س.ص:٣٦٦]، حم(٦١/٢١/١٥).
(٥) حسن الإسناد : [ص.ت:٤٨٧]، ت(٤٨٥/٣٠٣و٣٠٤/١).

ومن الآدابِ التي يجبُ على التاجر أنْ يتأدب بها: الاقتصادُ في الطلب:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ»(١).

وأنْ يتحرَّى الصِّدْقَ ويدعَ الكَذِبَ:

عَنْ حكِيمِ بْنْ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَذَبَا وكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»(٢)،

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ بَاعَ مِنْ أَخِيهِ بَيْعًا فِيهِ عَيْبٌ إِلاَّ بَيَّنَهُ لَهُ»(٣).

وأنْ يتركَ الحَلِفَ:

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فِي الْبَيْعِ فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ ثُمَّ يَمْحَقُ»(٤).

وأنْ يحذَرَ الغِشَّ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِرَجُلٍ يَبِيعُ طَعَامًا فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ فَإِذَا هُوَ مَغْشُوشٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ»(٥).

---

(١) صحيح :[ص.جه:١٧٤٣]، جه(٢/٧٢٥/٢١٤٤).

(٢) متفق عليه :خ(٤/١٢٨/٢١١٠)،م(٣/١١٦٤/١٥٣٢)،د(٩/٣٣٠/٣٤٤٢)، ت(٢/ ٣٥٩/١٢٦٤).

(٣) صحيح : [ص.جه:١٨٢٣]، جه(٢/٧٥٥/٢٢٤٦).

(٤) م(٣/١٢٢٨/١٦٠٧)، ن(٧/٢٤٦).

(٥) م(١/٩٩/١٠١)،ت(٢/٣٨٩/١٣٢٩)، د(٩/٣٢٠/٣٤٣٥)، جه(٢/٧٤٩/٢٢٢٤)واللفظ له.

وأن يُحافظَ على الصَّلاة في وقتِها ولا يشْتغلَ بالبَيْع عنْها فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ(٩)﴾ [الجمعة].

فتلك هي التِّجارة الرابحة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ(٢٩)﴾ [فاطر].

ولقد مدح اللهُ الذين استجابوا فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧)لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣٨)﴾ [النور].

وأنْ يَفِيَ الكيلَ والميزانَ فقد قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ(١)الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(٢)وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ(٣)﴾ [المطففين]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨)وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(٩)﴾ [الرحمن].

ويُستَحَبُّ للتاجرِ أَنْ يكون سهلاً في مُعاملَته فقد قال ﷺ : " رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى"(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " إِنَّ رَجُلاً كَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ فَيَقُولُ: لِرَسُولِهِ خُذْ مَا تَيَسَّرَ وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا فَلَمَّا هَلَكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ قَالَ لا إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ لِي

---

(١) خ(٢٠٧٦/٣٠٦/٤)، ت(١٣٣٥/٣٩٠/٢).

غُلاَمٌ وكُنْتُ أُدَاينُ النَّاسَ فَإِذَا بَعَثْتُهُ لِيَتَقَاضَى قُلْتُ لَهُ خُذْ مَا تَيَسَّرَ وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْكَ»(١).

ويُستَحَبُّ له أَنْ يبكِّر بالرَّواح إلى السُّوقِ مع ملاحظَةِ وصيَّةِ سَلْمانَ "لاَ تَكُونَنَّ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ"،

عَنْ عُمَارَةَ بْنِ حَدِيدٍ عَنْ صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا(٢).

ويُستَحبُّ له إذا دخلَ السُّوق أَنْ يكْثِرَ من ذكْر الله فقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠)﴾[الجمعة]،

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ قَالَ حِينَ يَدْخُلُ السُّوقَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»(٣)،

ولذلك قال أبو الدرداء: "ما أودّ أَنَّ لي متجراً على درجة جامع دمشق أُصيب فيه كل يوم خمسين ديناراً فأتصدق بها في سبيل الله وتفوتني الصلاة في الجماعة، وما لي تحريم ما أحل الله ولكني أكره أَنْ لاأكون من الذين قال الله فيهم: ﴿ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ(٣٧)﴾ [النور]»(٤).

---

(١) صحيح: [ص.ن:٤٧٠٩]، ن(٧/٣١٨).
(٢) صحيح: [ص.ت:١٢١٢]، ت(٢/٣٤٣/١٢٣٠)، د(٧/٢٦٥/٢٥٨٩).
(٣) حسن: [ص.ت:٣٤٢٨]، ت(٥/١٥٥/٣٤٨٨)، جه(٢/٧٥٢/٢٢٣٥).
(٤) جامع الأصول(١/٤٤٦).

أمَّا البُيوع المحرَّمة فمن الجدير بالذِّكرِ أَننا قلنا فيما سبق أَنَّ الأصْلَ في الأشياءِ الحِلُّ، ولذلك فإِنَّ الحلال كثيرٌ لا ينحصر، والحرامَ قليلٌ مُنْحَصِر، ومن ذلك نعلمُ أَنَّ الأصلَ في البُيوع جوازُ بيع كلِّ شيءٍ على أيِّ نَحْوٍ كان البيعُ ما دام عن تراضٍ من المتبايعين ما لم ينه الشارِع، ومما نهى عنه الشارِعُ بيعُ الغرر: **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ"**[١]،

قال الإمامُ النَّوويُّ: «وأَمَّا النَّهْيُ عن بيع الغرَر فهو أصلٌ عظيمٌ من أصول كتاب البُيوع ولهذا قدَّمه مسلم، ويدخل فيه مسائلُ كثيرةٌ لا تنحصرُ: كبيع العبدِ الآبق- أي العبد الهارب، ومثلُه الشيءُ المفقودُ والبهيمةُ الضَّالة- والمعدومُ والمجهول، وما لا يقدرُ على تسليمه، وما لم يتمَّ مِلْكُ البائع عليه، وبيعُ السَّمكِ في الماءِ الكثير- كأن يتَّفِقَ المشْتري مع الصيَّاد على ما تجمعُه الشَّبكةُ اللَّيلةَ- وبيعُ اللَّبن في الضَّرع، والحَمْلُ في البَطن، وبيعُ ثوبٍ من الأثواب، وشاةٍ من الشياه ونظائرُ ذلك، وكلُّ هذا بيعُه باطلٌ لأَنَّه غرَرٌ من غيْر حاجة.

فإِنْ دعتْ حاجةٌ إلى ارتكاب الغرَرِ ولا يمكنُ الاحترازُ عنه إلاَّ بمشقة وكان الغررُ حقيراً جاز البيع، ولذا أجمعَ المسلمونَ على جوازِ بيْعِ الجُبَّةِ المحْشوَّةِ وإِنْ لم ير حَشْوهَا ولو بيع حَشْوُها بانفرادِه لم يجز»[٢].

ومما نُهِيَ عن بيْعِهِ ما لا يملِكُه البائع:

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَأْتِينِي الرَّجُلُ يَسْأَلُنِي مِنَ الْبَيْعِ مَا لَيْسَ عِنْدِي أَبْتَاعُ لَهُ مِنَ السُّوقِ ثُمَّ أَبِيعُهُ قَالَ: "لاَ تَبِعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ"[٣].

---

(١) م(٣/١١٥٣/١٥١٣)، ت(٢/٣٤٨/١٢٤٨)، د(٩/٣٢٠/٣٣٦٠)، ن(٧/٢٦٢).

(٢) شرح مسلم النووي (١٠/١٥٦).

(٣) صحيح : [ص.ت:١٢٣٢]، ت(٣٥٠/١٢٥٠و ٢/٣٥١)، د(٩/٤٠١/٣٤٨٦)، ن(٧/٢٨٩)، جه(٢/٧٣٧/٢١٨٧)،

وصُورتُه أَنْ يدخلَ الرَّجلُ المحلَّ فيسألَ عن شيءٍ غيرِ موجودٍ فيقول صاحبُ المحلِّ أُحْضِرُه لك بعد يوم أو يومين، وهو بكذا، فيقبلَ المشتري ويدفعَ الثَّمن، ثم يتصرَّف صاحبُ المحلِّ في الشيء ويأتي المشتري فَيقْبِضه، فهذا لا يجوز، وبعضُ أصحابِ المحلاتِّ يبيعُه وبعدَ الاتِّفاقِ على الثَّمنِ وقَبْضِه يُرْسِلُ صَبيَّهُ إلى محلٍّ آخرَ بينهما تعامل، وهذا أيضاً لا يجوز، والصَّوابُ أَنْ يُحْضِرَه أولاً ثم يبيعَه سواءٌ أحضرَه في الوقتِ نفسِه أم بعد.

ومما نُهِيَ عنه بيعُ العينَة: وهو أَنْ يشتريَ الرجلُ السِّلعةَ بثمنٍ مؤجَّلٍ ثم يبيعَها للبائع نفسِه نقداً، فيقبض ألفاً نقداً، وقد كُتب عليه ألفٌ ومائتان مثلاً:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ »(١).

ومما نُهِيَ عنه بيعُ التَّقسيط بزيادةٍ في الثَّمن بسبب الأجل:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا أَوِ الرِّبَا»(٢)، وفي روايةٍ:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا قَالَ: « نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ صَفْقَتَيْنِ فِي صَفْقَةٍ وَاحِدَةٍ قَالَ سِمَاكٌ: الرَّجُلُ يَبِيعُ الْبَيْعَ فَيَقُولُ هُوَ بِنَسَاءٍ بِكَذَا وَكَذَا وَهُوَ بِنَقْدٍ بِكَذَا وَكَذَا»(٣).

---

(١) صحيح : [ص.د:٢٩٥٦]، د(٩/٣٣٦/٣٤٤٥).

(٢) صحيح : [ص.ت:١٢٣١]، ت(٢/٣٥٠/١٢٤٩)، د(٩/٣٣٢/٣٤٤٤)، ن(٣٩٥و٣٩٦/٧).

(٣) حم(١٥/٤٥/١٤٦).

ومما نهِيَ عنه بيعُ المُسْلِمِ على بيْعِ أخيه:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " لاَ يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ"(١).

فإذا تمَّ البيعُ فلا يجوز أَنْ يقولَ ثَالِثُ لأحدِ الطَّرفيْن رُدَّ بيعَك وأبيعُك بأرخَص أو أشتري منك بأعلى، وليس هذا فقط بل نَهى الشارِعُ أَنْ يدخُلَ ثالثٌ بيْن المتساوميْن قبل أَنْ يتفقا:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لاَ يَسُومُ الرَّجُلُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ"(٢).

ومما نُهِيَ عنه النَّجشُ وهو أَنْ يساوِمَ الرجلُ على السِّلعةِ لا يريدُ شِرَاءها بقصد نَفْعِ البائعِ برفْعِ سعرِ البيع وإضْرارِ المشْتري، أو العكس:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " لاَ تَنَاجَشُوا"(٣)،

وقال ابن أبي أوفى: النَّاجِشُ آكلُ رِبًا خَائِنٌ.

ومما نُهِيَ عنه: بيعُ المبيعِ قبلَ قَبْضِه:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِذَا اشْتَرَى أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلاَ يَبِعْهُ حَتَّى يَقْبِضَهُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَحْسِبُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِثْلَ الطَّعَامِ"(٤)،

---

(١) متفق عليه: خ(٤/٣٧٣/٢١٦٥)، م(٣/١١٥٤/١٤١٢)، جه(٢/٣٣٣/١٢٧١).

(٢) م(٣/١١٥٤/١٥١٥).

(٣) متفق عليه :خ(٤/٣٦١/٢١٥٠)، م(١٥١٥-١١-/٣/١١٥٥)،ت(٢/٣٨٤/١٣٢٠)، د(٩/٣٠٤/٣٤٢١)، جه(٢/٧٣٤/٢١٧٤).

(٤) متفق عليه : خ(٤/٣٤٩/٢١٣٥) م(٣/١١٥٩/١٥٢٥)، د(٩/٣٩٣/٣٤٨٠) واللفظ له، ت(٢/٣٧٩/١٣٠٩)، ن(٧/٢٨٥و٢٨٦)، جه(٢/٧٤٩/٢٢٢٧) .

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَنِ اشْتَرَى طَعَامًا فَلاَ يَبِعْهُ حَتَّى يَسْتَوْفِيَهُ قَالَ: وَكُنَّا نَشْتَرِي الطَّعَامَ مِنَ الرُّكْبَانِ جِزَافًا فَنَهَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَبِيعَهُ حَتَّى نَنْقُلَهُ مِنْ مَكَانِه»(١)،

عَنْ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ قَالَ: ابْتَعْتُ طَعَامًا مِنْ طَعَامِ الصَّدَقَةِ فَرَبِحْتُ فِيهِ قَبْلَ أَنْ أَقْبِضَهُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: "لاَ تَبِعْهُ حَتَّى تَقْبِضَهُ"(٢).

فإذا اشتريتَ من تاجرٍ شيئاً ما واتَّفقتَ على تسلُّمِه في يومٍ معلومٍ فلا يجوزُ لك أَنْ تبيعَ ما اشتريتَ قبل قَبْضِه وتُرْسِلَ من بِعْتَ له ليقْبِضَه ممن اشتريتَ منه، وإذا اشتريتَ من مصنَعٍ فلا يجوزُ لك أَنْ تبيعَ قبل التسلُّم، بل يجبُ أَنْ تستَلِمَ وتحوزَ ما اشتريتَ ثم تبيعَه.

أَمَّا الأعيانُ التي يحرُم بيْعُها:

فمنها الخمر:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: « لَمَّا نَزَلَتِ الآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاقْتَرَأَهُنَّ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ نَهَى عَنِ التِّجَارَةِ فِي الْخَمْرِ»(٣)،

عَنْ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: بَلَغَ عُمَرَ أَنَّ سَمُرَةَ بَاعَ خَمْرًا فَقَالَ: قَاتَلَ اللَّهُ سَمُرَةَ أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا"(٤).

---

(١) متفق عليه : خ(٤/٣٤٤/٢١٢٦)، م(٣/١١٦١/١٥٢٦)، وأخرج المرفوع وحده: ن(٧/٢٨٦)، جه(٢/٧٤٩/٢٢٢٦) .

(٢) صحيح : [ص.ن: ٤٦١٧]، ن(٧/٢٨٩) .

(٣) متفق عليه : خ(١/٥٥٣/٤٥٩)، م(٣/١٢٠٦/١٥٨٠)، د(٩/٣٨٠/٣٤٧٣)، ن(٧/٣٠٨).

(٤) متفق عليه : خ(٤/٤١٤/٢٢٢٣)، م(٣/١٢٠٧/١٥٨٢)، ن(٧/١٧٧) .

ومنها: الميتةُ والخنزيرُ والأصْنَام:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ: "إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ"[١].

ويدخلُ في الأصنامِ: ما ينحتُه النقَّاشونَ من الصُّور والتَّماثيل مثل: السَّبُعِ والأسَدِ والنمر ونحوِ ذلك من الحيوانات التي ينحتُونها ثم يبيعُونها سواءٌ في ذلك ما كان من الجِبْسِ ونحوِه، وما كان من الخَشَبِ الذي يستعملُه النَّجارُون كحِلْيَةٍ على الدواليبِ ونحوِها من نحو رَأْسِ الأسَدِ والفَراشةِ وغيرِ ذلك، ويدخلُ فيه أيضاً ما يُصْنَعُ من الذَّهبِ والفِضَّة من نحوِ ما يسمَّى بالحيَّةِ والثُّعبانِ، فهذه أصنامٌ لا يجوز بيعُها ولا شِراؤُها.

ومنها الكلبُ والهِرَّة :

عَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ "نَهَى عَنْ ثَمَنِ الْهِرَّةِ"[٢]،

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ "نَهَى عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ وَمَهْرِ الْبَغِيِّ وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ"[٣].

ومنها صورةُ كلِّ ذي رُوح :

عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ! إِنِّي إِنْسَانٌ إِنَّمَا مَعِيشَتِي مِنْ صَنْعَةِ يَدِي وَإِنِّي

---

(١) متفق عليه :خ(٤/٤٢٤/٢٢٣٦)، م(٣/١٢٠٧/١٥٨١)، ت(٢/٣٨١/١٣١٥)، د(٣٤٦٩/ ٣٧٧و٧/٣٧٨)، جه(٢/٧٣٢/٢١٦٧).

(٢) صحيح: [ص.د:٢٩٧١]، م(٣/١١٩٩/١٥٦٩)،د(٩/٣٧٣/٣٤٦٣)، جه(٢/٧٣١/٢١٦١)، ت(٢/٣٧٤/١٢٩٧).

(٣) متفق عليه: خ(٤/٤٢٦/٢٢٣٧)، م(٣/١١٩٨/١٥٦٧)، د(٩/٣٧٤/٣٤٦٤)، ن(٧/٣٠٩)، ت(٢/٣٧٢/١٢٩٣)، جه(٢/٧٣٠/٢١٥٩).

أَصْنَعُ هَذِهِ التَّصَاوِيرَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لاَ أُحَدِّثُكَ إِلاَّ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: « مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فَإِنَّ اللَّهَ مُعَذِّبُهُ حَتَّى يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ فِيهَا أَبَدًا فَرَبَا الرَّجُلُ رَبْوَةً شَدِيدَةً وَاصْفَرَّ وَجْهُهُ فَقَالَ وَيْحَكَ إِنْ أَبَيْتَ إِلاَ أَنْ تَصْنَعَ فَعَلَيْكَ بِهَذَا الشَّجَرِ كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ»(١).

ويدخلُ في ذلك الملابسُ التي تحمِلُ الصُّورِ فلا يجوزُ بَيْعُها ولا شِرَاؤُها، كما يدخل في ذلك المجلاَّت ذاتُ الصُّوَر.

ومنها شراء المسرُوقِ والمغْصُوب:

فمن عُرِضَتْ عليه سِلْعَةٌ للشِّراءِ وهو يعلم أَنَّها ليستْ مِلكَ الذي يبيُعها كأَنْ يعلَم أَنَّه سرقَها أَوْ غصبَها ونهَبها فلا يجوزُ أَنْ يشتريَها، لأَنَّه بذلكَ يتعاونُ مع السَّارِقِ على الإثمِ والعُدوان والله يقول: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**(٢)﴾[المائدة]،

ويدخل في ذلك شِرَاءُ ما يُسمَّى اليومَ في الأسواق بالمحرُوق:

فإذا جاء رجلٌ بسلعةٍ تعلَمُ أَنَّه اشتَراها بأجلٍ ليبيعَها بعاجلٍ وهو معروفٌ في الأسواقِ بعدم السَّدادِ والوَفاءِ فلا تشترها لأَنَّك بذلك تُعاونُه على أكلِ أموالِ الناس بالباطل.

ومنها بيعُ الثَّمر قبلَ بدُوِّ صلاحه:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ "نَهَى عَنْ بَيْعِ الثَّمَرَةِ حَتَّى يَبْدُوَ صَلاحُهَا وَعَنِ النَّخْلِ حَتَّى يَزْهُوَ قِيلَ وَمَا يَزْهُو قَالَ يَحْمَارُّ أَوْ يَصْفَارُّ»(٢).

---

(١) خ(٢٢٢٥/٤١٦/٤)، واللفظ له، م(٢١١٠/١٦٧٠/٣)، ن(٨/٢١٥) مختصراً.

(٢) خ(٢١٩٧/٣٩٧/٤).

وَعَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ "نَهَى عَنْ بَيْعِ الثِّمَارِ حَتَّى تُزْهِيَ فَقِيلَ لَهُ: وَمَا تُزْهِي؟ قَالَ حَتَّى تَحْمَرَّ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "أَرَأَيْتَ إِذَا مَنَعَ اللَّهُ الثَّمَرَةَ بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيه"(١).

ومنها بيعُ الزَّرع قبل اشْتِدَادِ حَبِّه:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ "نَهَى عَنْ بَيْعِ النَّخْلِ حَتَّى يَزْهُوَ وَعَنِ السُّنْبُلِ حَتَّى يَبْيَضَّ وَيَأْمَنَ الْعَاهَةَ نَهَى الْبَائِعَ وَالْمُشْتَرِيَ"(٢)،

والمُرادُ بهذا أَنْ يبيعَ البلحَ على النَّخلِ في أوَّل انعقادِه قبل أَنْ يأمنَ السُّقوطَ، وأَنْ يبيعَ القمحَ وهو أخضرُ قبلَ أَنْ يعقِدَ السُّنبلَةَ ويأمنَ العاهاتِ التي تذهَبُ به، لأَنَّ الثَّمرةَ في أوَّل انعقادِها تكونُ كثيرة ثم لا يبقى منها إلاَّ القليل، والقمحُ في أوَّل انعقادِه عُرْضَةٌ للآفاتِ التي تذهبُ به فلا يجوزُ بيعُ الثَّمر قبل بدوِّ صلاحِه ولا بَيْعُ الحَبِّ قبلَ اشتدادِه.

ومنها بيعُ الذَّهبِ الخاصِّ بالرِّجال: كالخواتِم التي لا يلبسُها إلاَّ الرِّجالُ فلا يجوز بيعُها لأَنَّ الذهبَ محرَّمٌ على الرِّجالِ فيكون بيعُ ما يُصْنَعُ خصِّيصاً للرِّجالِ من باب نشرِ الحرام والدَّعوةِ إلى استعماله، وهو من التعاوُنِ على الإثمِ والعُدوان.

ومنها آلاتُ الطَّربِ كالمعازِف: فإِنَّ المعازف حرام:

عَنْ أَبِي مَالك الأَشْعَرِيُّ قَالَ: سَمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ"(٣)، **وقَال ﷺ : "إِنَّ الله إِذا**

---

(١) متفق عليه : خ(٢١٩٨/٣٩٨/٤)واللفظ له، م(١٥٥٥/١١٩٠/٣)، ن(٢٦٤/٧).

(٢) م(١٥٣٥/١١٦٥/٣)، د(٣٣٥٢/٢٢٢/٩)، ت(١٢٤٥/٣٤٨/٢)، ن(٢٧٠/٧).

(٣) صحيح : [ص.د:٤٣٠٧]، خ(٥٥٩٠/٥١/١٠) تعليقاً، د(٤٠٢١-٨٣/٨٥/١١).

حرم شيئاً حرم ثمنه»[١]**، وقال ﷺ : "ثمن الخمر حرام" .**

ومنها أشرطَةُ الغناء سواءٌ أشرطَةُ الكاسيت أَوْ الفيديو فإنَّ الله تعالى قال: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**(٦)﴾ [لقمان]، **عن ابن عباس قال: "نزلَتْ في الغنَاءِ وأشْبَاهه»**[٢][٣].

ومنها الدُّخَانُ: فإنَّه خبيثٌ وكُلُّ خبيثٍ حرام، لقول الله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**(٤)﴾ [المائدة]، وقوله تعالى في حقِّ النبيِّ ﷺ : ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**(١٥٧)﴾ [الأعراف]، وضررُهُ بالصِّحةِ ثابتٌ وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**(١٩٥)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**(٢٩)﴾ [النساء]، **عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ "قَضَى أَنْ لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»**[٤]،

وإذا ثبتَتْ حرمتُه ثبتَتْ حُرْمةُ بيْعهِ وشرائهِ لقولـه ﷺ " **إنَّ اللهَ إذا حرم شيئاً حرم ثمنه**"، فبائع الدُّخانِ كَسْبُه حرامٌ وهو مسئُولٌ عنه، ومُشْتَريهِ مُنْفِقٌ في الحرامِ وهو مسئُولٌ عن نَفقَتِه:

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ

---

(١) صحيح : [ص.د:٢٩٧٨]، د(٣٤٧١/٣٧٨و٣٧٩/٩) .

(٢) صحيح الإسناد موقوف: [ص.خد:٩٥٥]: ش(٣١٠/٦)، جامع البيان(٤٠/٢١)، هق(٢٢١و٢٢٣/١٠).

(٣) تحريم آلات الطرب(١٤٢).

(٤) صحيح : [ص.جه:١٨٩٥]، جه(٢٣٤٠/٧٨٤/٢)، ط(١٤٢٦/٥٢٩) مرسلاً.

أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ»[١].

وأخيراً يجبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّه يحرُم البيعُ والشِّراءُ في مكانٍ وزمانٍ:

أَمَّا المكانُ فالمساجد، فلا يجوزُ البيعُ والشِّراءُ فيها فقد قـــال ﷺ : « **إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا لاَ أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ فِيهِ ضَالَّةً فَقُولُوا لاَ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ»**[٢].

وأَمَّا الزَّمانُ فبعدَ الآذان للصَّلاةِ يومَ الجمُعة لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**(٩)﴾ [الجمعة].

وأَنا أَقول: لا أَري إِلاَّ أَنْ يكون كلُّ أذانٍ مثْلَ أذانِ الجمعـــة، لأَنَّ إجابـــةَ المؤذِّنِ واجبةٌ على الرِّجالِ وشهُودَ الجماعةِ عليهم واجبٌ إلاَّ من عُـــذْرٍ، فهـــو مأمورٌ بالصَّلاةِ، والأمرُ بالصَّلاةِ يقتضي تَرْكَ البيع والله أعلم.

* * *

(١) صحيح : [ص.ت:٢٤١٧]، ت(٤/٣٥/٢٥٣١).

(٢) صحيح : [ص.ت:١٣٢١]، ت(٢/٣٩١/١٣٣٦).

يا معشر المرابين خذوا أسلحتكم فقد أعلن الله الحرب عليكم

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)﴾ [البقرة].

الرِّبا لغةً: الزِّيادة، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ (٥)﴾ [الحج]،

وشَرعاً: الزِّيادةُ في الدَّيْن على رَأْسِ المال قلَّت أو كثُرَت.

وهو حرامٌ بالكتاب والسنَّةِ وإجْماعِ الأمة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)﴾ [آل عمران]، وليس القيْدُ المذكورُ شرْطاً، ولكنَّه لبيانِ الواقع فلا يُعْتَدُّ بِه، بدليلِ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ فعدهنَّ .... ثم قال: وَأَكْلُ الرِّبَا "(١).

وعن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ : "الرِّبَا ثَلاثَةٌ وسَبْعُونَ بَاباً أَيْسَرُهَا مِثْلُ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجلُ أُمَّه"(٢).

وَعَنْ عَبْدِ الله بن حَنْظَلَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: "دِرْهَمُ رِبًا يَأْكُله الرَّجلُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ عِنْدَ اللهِ من سِتَّةٍ وثَلاثِينَ زَنْيَة"(٣).

وفي حديث الرُّؤيا الطَّويل عند البُخاريِّ: "أَنَّ النبي ﷺ أَتَى عَلَى نَهَرٍ حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا قَالَ قُلْتُ لَهُمَا مَنْ هَذَا، فَقِيلَ لِي: إِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا"(٤).

ولقد شنَّ القرآنُ الكريمُ حملةً شديدةً على المُرابين. ولم يبلغْ من تَفْظِيعِ أمرٍ أرادَ الإسلامُ إبْطالَه من أمُورِ الجاهليَّةِ ما بلغَ من تفظيع الرِّبا، ولا بلغَ من التَّهديدِ في اللَّفظ والمَعنى ما بلغَ من التَّهديد في أمر الرِّبا

[البقرة]، إنَّها الحملَةُ المُفْزِعَةُ والتَّصويرُ المُرْعِب، وما كان أيُّ تهديدٍ معنويٍّ ليبلُغَ إلى الحِسِّ مبلَغَ هذه الصُّورةِ الحِسيَّةِ الحيَّةِ المُفْزِعَة، صُورةِ المَمْسوسِ المَصْرُوع، وهي صورةٌ

---

(١) متفق عليه : خ(٥/٣٩٣/٢٧٦٦)، م(١/٩٢/٨٩)، د(٨/٧٧/٢٨٥٧)، ن(٦/٢٥٧).

(٢) صحيح : [ص.ج:٣٥٣٩]، كم(٢/٣٧).

(٣) صحيح : [ص.ج:٣٣٧٥]، حم(١٥/٦٩/٢٣٠).

(٤) خ(٤٣٨/٧٠٤٧و١٢/٤٣٩)

معروفةٌ معهودةٌ للناس، والنصَّ يستحضرُها لتؤدِّيَ دَوْرَها الإيجابيَّ في إفــزاعِ الحِسِّ لاستجابة مشاعرِ المُرابين، وهزِّها هزَّةً عنيفةً تُخرِجُهم من مألوفِ عادتهم ومن حِرْصِهم على ما يُحقِّقُ لهم من الفائدة.

والذين يأكلُون الرِّبا ليسُوا هم الذين يأخذُون الفائدَة الرِّبويَّةَ وحدَهم، إنَّما هم كُلُّ المُتعاونينَ على إجْراءِ العملية الربوية:

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: " لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ"(١).

والقرآنُ يصفُهم بأنَّهم ﴿**لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**(٢٧٥)﴾ [البقرة]: إنَّهم لا يقومُون في الحياة، ولا يتحرَّكُون إلاَّ حركةَ المَمْسُوسِ المُضطَّربِ القَلِق المتخبِّطِ الذي لا ينالُ استقرارًا ولا طُمأنينةً ولا راحةً وهذا هو واقِعُهم المُشاهَدُ المحسوس، فعلى الرَّغم من كثرةِ المالِ وتوفُّرِ الشَّهواتِ والملذَّات إلاَّ إنَّهم خائِفُون قَلِقُون مضطَّرِبون، قد مسَّت منهم الأمراضُ العصبيَّةُ والنفسيَّة، والسَّببُ هو خواءُ الأرواح من زادِ الإيمانِ الذي هو سببُ الطَّمأنينَةِ والسَّكينةِ والهُدوء والرَّاحةِ ﴿**الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**(٢٨)﴾ [الرعد]،

وحين يشقَى الأغنياءُ والأثرياءُ مع هذا الرَّخاءِ فلا بُدَّ أَنْ يعلموا أَنَّ السَّببَ هو فَقْدُ الغذاءِ الرُّوحيِّ الذي سببُه الإعراضُ عن ذِكْرِ الله كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** (١٢٤)**قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا** (١٢٥)**قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى** (١٢٦)**وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ**

---

(١) م(١٥٩٨/١٢١٩/٣).

الآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى(١٢٦)﴾ [طـه]، ولكنَّ القومَ لا يكادُون يفقَهُون حديثاً.

ولمَّا كان مَنْ ماتَ على شيءٍ بُعِثَ عليه فإنَّ أَكَلَةَ الرِّبا لا يقومُـون مـن قُبورِهم يومَ القيامة إلاَّ كما يقومُ الذي يتخبَّطه الشَّيطانُ من المسِّ

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا(٢٧٥)﴾ [البقرة]، ذلك العِقَابُ الذي حلَّ بهم في الدُّنيا وما ينتظرُهم في الآخرة إنَّما سَبَبُه أَنَّهم قالوا ﴿إِنَّمَـا الْبَيْـعُ مِثْـلُ الرِّبَا﴾ "وأرادوا نَظْمهما في سلكٍ واحدٍ لإفضائهما إلى الرِّبح فحيثُ حلَّ بيعُ ما قيمتُه درهمٌ بدرهَميْن حلَّ بيعُ دِرْهمٍ بدرهَميْن، إلاَّ أَنَّهم جعلُوا الرِّبا أصـلاً فـي الحِلِّ وشبَّهوا البيعَ به رَوْمًا للمبالغة.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا(٢٧٥)﴾ [البقرة] جُمْلَةٌ مسـتأْنَفةٌ من اللهِ تعالى ردّاً عليهم وإنكاراً لتسويتهم، وحاصلُه أَنَّ ما ذكرْتُم قياسٌ فاسدٌ لأَنَّه مُعارِضٌ للنصِّ فهو من عَمَلِ الشَّيطان، على أَنَّ بيْنَ البيعين فرقاً وهو أَنَّ مـن باع ثوباً يساوي دِرْهماً بدرهَميْن فقد جعل الثَّوبَ مقابِلاً لدرهميْن فلا شيءَ عليه بينهما إلاَّ وهو في مُقابَلَةِ شيءٍ من الثَّوب، وأَمَّا إذا باع دِرْهماً بدرهمَيْن فقد أخذ الدِّرهمَ الزَّائدَ بغير عِوَضٍ، ولا يُمكنُ جعلُ الإمهالِ عِوَضاً إذ الإمهالُ ليس بمالٍ حتى يكونَ في مُقَابلَة المالِ"(١)،

"وفي هذه الآية دِلاَلَةٌ على أَنَّ القياسَ في مُقابلَةِ النصِّ لا يصحُّ إذ جعـلَ اللهُ تعالى الدليلَ في إبطالِ قَوْلِهم هو أَنَّ الله أحلَّ البيع وحرَّم الربا"(٢).

وقد سبق التنبيهُ على ذلك أَيضاً في الحديث على فضل آدمَ وإباءِ إبلـيسَ عن السجودِ له واعتذارِهِ بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِـنْ

---

(١) الألوسي (٣/٥٠).

(٢) البحر المحيط (٢/٣٣٥).

طِينٍ(١٢)﴾ [الأعراف]، فقدَّم القياسَ على النصِّ فكان من المُهلَكين.

ولمَّا كانَ اللهُ تعالى لا يؤاخذُ إلاَّ بعدَ قيامِ الحُجَّة فقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ(٢٧٥)﴾ [البقرة] أي فمن سَمِعَ مَوْعِظَةَ ربِّهِ فانتهى عن الرِّبا بعدَ الموْعِظَةِ فلا يُكلَّف ردّ ما أخذ من الناس قبلَ ذلك، وحَسْبُه أَنْ لا يزيدَ عليهم بعدَ الموْعِظَة، ولكن انظُر إلى خطَر الأمرِ حيثُ يقولُ تعالى: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ(٢٧٥)﴾ [البقرة] ليظلَّ متوحِّشاً من الأمرِ خائفاً منه بقوله: كفاني ما مضى، لعلَّ اللهَ أَنْ يغفِرَ لي إذا تبتُ وأنبتُ ولم أقعْ في الرِّبا بعد ذلك.

وقد استدلَّت المُعتَزِلةُ ومَنْ وافقَهم على تخليدِ عُصَاة المسلمينَ في النَّارِ خُلودَ الكفَّار بهذه الآية وأمثالِها من آياتِ الوعيد، وفصَّلَ أهلُ السنَّةِ تفصيلاً فرَّقوا بهِ بين الإستحلالِ القَلْبِيِّ والعملي فقالوا:

﴿وَمَنْ عَادَ(٢٧٥)﴾ [البقرة] بعدَ الموْعِظَةِ إلى تحليل الرِّبا وقولِ ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا(٢٧٥)﴾ [البقرة] فقد أحلَّ ما حرَّم الله وكفرَ بالله ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٧٥)﴾ [البقرة]، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ من المؤمنينَ بعد المَوْعِظَةِ إلى أَكْلِ الرِّبا مع اعتقادِ حُرْمَتهِ ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إلى ما شاءَ الله ثم يُخْرِجُهم منها برَحْمَته وشَفَاعةِ الشَّافعينَ من أهلِ طاعتِه للتَّفريق بين المؤمنين والكافرين الذى أثبته اللهُ في أكثرَ من آيةٍ مثلَ قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥)﴾ [القلم] فلو خلُدُوا جميعاً بلا خُروجٍ لوقعت التَّسويَةُ بين الفريقَيْن، فلمَّا نفاها اللهُ عُلِمَ أَنَّ كلَّ ذنبٍ تُوعِّدَ عليه المسلم: بالخلود في النار فليس كخُلودِ الكافرين ويشهد لهذا التفصيل»(١) .

---

(١) الكشاف(١/١٦٦)، الرازي(٧/١٠٢)، السعدي(١/٣٣٨)، القاسمي(٣/٢٦٩)، الألوسي (٣/٥١).

قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(٢٧٦)﴾ [البقرة].

"فالكَفّارُ هو المستَحِلُّ، والأثيمُ هو من يأكلُ الرِّبا مع اعتقادِ حُرْمَتِه"(١).

وقال الطَّبرِيُّ: " ﴿ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(٢٧٦)﴾ [البقرة] يعني: والله لا يُحِبُّ كلَّ مُصرٍّ على الكُفْر بربِّه، مقيمٍ عليه، مستحلٍّ أكْلَ الرِّبا وإطعامَه، أثيمٍ مُتمادٍ في الإثم فيما نهاهُ اللهُ عنه من أكل الرِّبا والحرَام وغيرِ ذلك من معاصيه لا ينزجرُ عن ذلك ولا يرعَوِي عنه، ولا يتَّعِظُ بموعظةِ ربِّه التي وعظَه بها في تنزيله وآيِّ كتابه"(٢).

ولمَّا كان الكافرُ لا يؤمنُ باليومِ الآخر، وكان المؤمنُ الفاسقُ غافلاً عنه فقد خوَّفَهم اللهُ من عقابه العاجلِ وهو الذَّهابُ بكلِّ ما جَمَعُوه من الحرامِ فقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا(٢٧٦)﴾ [البقرة] : "أي يُذْهِبُ رِبْحَه ويَمْحَقُ خيرَه، وإنْ كان زيادةً في الظاهر، ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ(٢٧٦)﴾ [البقرة]، أي يُكثِّرها وينمِّيها وإنْ كانتِ نُقصانًا في الشاهد"(٣).

وقد ضرب اللهُ تعالى المثلَ للمَحْقِ والإنماءفقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٢٦٤)﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ

---

(١) الرازي (٧/١٠٤).

(٢) الطبري (٣/١٠٥).

(٣) القاسمي(٣/٢٧٠).

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٦٥) [البقرة]،

عَنْ عَبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا إِلاَّ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ"(١)،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ"(٢).

وقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(٢٧٦)** ﴾ [البقرة] " أي لا يُحِبُّ كَفُورَ القلبِ أثيمَ القَولِ والفِعْلِ.

قال ابنُ كثير: ومناسبةُ خَتْمِ هذه الآيةِ بهذه الصِّفةِ هي أَنَّ المُرابي لا يرضَى بما قسم اللهُ له من الحلالَ ولا يكتَفِي بما شَرع له من الكَسْب المُباح فهو يسعى في أَكْل أموالِ النَّاس بالباطل بأنواعِ المكاسبِ الخَبيثةِ فهو جَحُودٌ لما عليه من النِّعمة ظلومٌ آثمٌ بأكْل أموال النَّاس بالباطل"(٣).

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٧٧)**﴾ [البقرة]: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾ أي صَدَّقوا تصديقَ إذْعانٍ بما جاء من عندِ الله في هذهِ المسألةِ وغيرِها ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ التي تَصلُح بها نفوسُهم وشأنُ من يعيشُ معهم، ومنها مُواساةُ المحتاجين والرَّحمةُ بالبائسين وإنْظارُ المُعْسِرين

---

(١) صحيح : [ص.جه:١٨٤٨]، جه(٢/٧٦٥/٢٢٧٩).

(٢) خ(٣/٢٧٨/١٤١٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم(١/٣٣٠).

﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ التي تُذَكِّر المؤمنَ باللهِ فتزيدُ في إيمانه وحبه ربه ومراقبته له حتى تسهُلَ عليه طاعتُه في كل شيء ﴿وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ﴾ التي تُزكيِّ النَّفس من رَذيلةِ البُخلِ والحرصِ وتمرِّنُها على أعمالِ البرِّ حتى تسهُلَ عليها ويكون تَركُ أموال الناس بالرِّبا أسهل.

وإنَّما ذكَر الصَّلاةَ والزكاةَ لأنَّهما أعظمُ العبادةِ النفسيَّةِ والماليَّةِ فمن أتى بهما كاملتيْن سَهُلَ عليه كلُّ عملٍ صالحٍ واللهُ يَعِدُهم بأنَّ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ(٢٧٧)﴾ [البقرة] يحفظه لهم ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٧٧)﴾ [البقرة] فهو وَعْدٌ بالأمن فلا يخافُون، وبالسَّعادةِ فلا يحزنون، في الوقتِ الذي يتوعدَّ فيه أكلةَ الرِّبا بالمَحْقِ والسَّحقِ وبالتخبُّطِ في الضَّلال وبالقلَقِ والخوف.

وإنَّما أدخل اللهُ هذه الآيةَ بيْن آياتِ الرِّبا ليبيِّنَ أنَّ أكثرَ الأسباب التي تُعينُ على ترك الرِّبا هو الإيمان، وأنَّ آكل الربا لا يأكل الرِّبا وهو مؤمن، ولذلك قال بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(٢٧٨)﴾ [البقرة] فوصفَهم بالإيمانِ وذكَّرهم بالتَّقوى، ثم انتقل إلى الأمرِ بترك ما بَقِيَ من الرِّبا لمن كانوا يُرابون، ثم وصل بعد ذلك بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إِنْ كنتم مؤمنينَ حقاً، إِنْ كنتم مؤمنينَ إيماناً شاملاً لجميع ما جاء به محمدٌ ﷺ من الأحكام فَذَرُوا بقايا الرِّبا، ويُفْهَم من هذا الشَّرط أَنَّ من لم يترك ما بَقِيَ من الرِّبا بعد نَهْيِ اللهِ عنه وتوعُّدِه عليه فلا يُعَدُّ من أهل الإيمانِ التَّامِ الشاملِ الذي تتحقَّق به النَجَّاةُ من النَّار والفوزُ بالجنَّة، وإنَّما هو ناقصُ الإيمانِ فاسقٌ ظالمٌ أثيم، ومثْلُه لا يدخلُ الجنَّة مع أوَّل الداخلين.

وهكذا أخذَهُم اللهُ بالتَّرغيب أوَّلاً، ثم بالتَّرهيب الذي يَقْصِمُ الظهور، ويُزلْزِلُ القُلوب ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ(٢٧٩)﴾ [البقرة] "يعني فإِنْ لم تفعلوُا ما أُمِرتم به من الاتِّقاء وتَرْكِ ما بقى من الرِّبا فاعلموا

بحربٍ من الله ورسولِه، وإنَّما ذكَر الحربَ تعظيماً لها، وزادها تعظيماً نِسْبَتُها إلى اسمِ الله الأعظمِ وإلى رسولِهِ الذي هو أشرفُ خليقته»[١].

ويا للهَوْل! حربٌ من اللهِ ورسولِه! إنَّ الخَصْم ليعلَمُ أنَّ عدوَّه يُعِدُّ له العُدَّةَ لِشَنّ الغارةِ عليه فلا يهدأ ولا ينام مع احتمالِ أَنْ يدفعَ عن نفسِه وأَنْ يكونَ هو المنتصِر، فكيف إذا أُعلِم بالحربِ من اللهِ ورسوله؟ وهي حربٌ رهيبةٌ معروفةُ المصير، مقرَّرةُ العاقبة، لا هَوادَةَ فيها، وأينَ الإنسانُ الضعيفُ الفاني مِنْ تِلْكَ القُدرةِ الجبَّارة السَّاحِقَة الماحِقَة، وهذه الحربُ المُعلَنةُ أعمُّ من القتال بالسَّيْف والمدافع، إنَّها حربٌ على الأعصابِ والقلوب، وحربٌ على البرَكة والرَّخاء، وحربٌ على السعادَةِ والطُمأنينَة، حربٌ يسلِّطُ اللهَ فيها بعضَ العُصاة على بعض، حربُ المطارَدَةِ والمُشاكسَة، حربُ الغُبْنِ والظُّلم، حرب القَلَقِ والخَوْف، وأخيراً حربُ السِّلاح بيْن الأُمم والجُيوش والدُّوَل، إنَّها الحربُ المشبُوبةُ دائماً، وقد أعلنَها اللهُ على المرابين، وهي مُسْعَرَةٌ الآن تأكلُ الأخضَر واليابسَ والبشريةَ وهي غافلةٌ عما يُفْعلُ بها.

قال القاسمي: «الحربُ نقيضُ السِّلم ومَنْ حاربَه اللهُ ورسولُه لا يُفْلِحُ أبداً، وفيه إيماءٌ إلى سُوءِ الخاتمةِ إنْ دام على أكْلِه»[٢].

وقال أبو محمدٍ عبدُ الحقِّ بنُ عبد الرحمن الإشبيلي: «واعْلَمْ أَنَّ لسُوءِ الخاتمةِ أعاذنا اللهُ منها أسبابًا ولها طرقٌ وأبوابٌ أعْظمُها الانكبَابُ على الدُّنيا وطَلَبُها والحِرْصُ عليها والإعراضُ عن الآخرةِ والإقدامُ والجُرأةُ على معاصي اللهِ عزَّ وجلَّ، وربُّما غلبَ على الإنسانِ ضربٌ من الخطيئة ونوعٌ من المعصية

---

(١) فتح القدير(١/٢٩٧).

(٢) القاسمي(٣/٢٧٤).

من الإعراضِ ونصيبٌ من الجرأة والإقدام فملَك قلبَه وسبَي عقلَه وأطفأ نُورَه وأرسلَ عليه محقه فلم ينتفع فيه بذكره ولا تنجع فيه موعظة، وإنَّما جاءه الموتُ على ذلك فسَمِعَ النِّداءَ من مكانٍ بعيد فلم يتبيَّن له المرادُ ولا عَلِمَ ما أراد وإن كرَّر عليه الداعي وأعاد.

وقد رُوِيَ أَنَّ رجلاً نزلَ به الموتُ فقيل له قُلْ لا إله إلاَّ الله فجعلَ يقول بالفارسيَّةِ ده بازده ، وتفسيره: عشرة بإحدى عشرة»(١).

ومع ذلك فالتَّوابُ الرَّحيم يفتح بابَ التَّوبةِ ويدعو كلَّ من أسرفَ على نفسه من الكافرين وعُصَاةِ المسلمين إليه فمن أناب أقبلَ عليه ومن تابَ تابَ عليه ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١)﴾ [الحجرات].

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ(٢٧٩)﴾ [البقرة] يعني من المُعاملاتِ الرِّبويَّة ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ(٢٧٩)﴾ [البقرة] دُون الزِّيادة التي هي الربا ﴿ لاَ تَظْلِمُونَ﴾ النَّاسَ بأخذِ الربا ﴿ وَلاَ تُظْلَمُونَ(٢٧٩)﴾ [البقرة] أنتم ببَخْسِكُم رُءوسَ أموالكم.

ثم أرشد سُبحانه إلى السَّماحةِ في الاقتضاء بإنظارِ المُعْسر ونَدَبَ إلى التصدُّقِ عليه: فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٨٠)﴾ [البقرة] :

إنَّها السَّماحة النَّدية التي يحملها الإسلامُ للبشريَّة، إنَّه الظلُّ الظَّليل الذي نادى إليه البشريَّةَ المُنبعثةَ في هجير الأثَرَةِ والشُّح والطَّمع والتكَّالب، إنَّها الرَّحمةُ للدائنِ والمدينِ وللمجتمعِ الذي يُظِلُّ الجميع.

إنَّ المُعسرَ لا يُطارَد منْ صاحبِ الدَّين أو منَ القانونِ والمَحاكم، إنَّما يُنْظَرُ حتى يُوسِر، ثم إنَّ المجتمعَ المسلمَ لا يتركُ هذا المُعْسِرَ وعليه دَيْن، فالله

---

(١) الجواب الكافي(١١٦و١١٧).

يدعو صاحبَ الدَّيْن أَنْ يتصدَّق بدَيْنه إِنْ تطوَّع بهذا الخير، وهو خيرٌ لنفسه كما هو خيرٌ للمدين، وهو خيرٌ للجماعة كلِّها ولحياتِها المتكاتفةِ لو كان يعلم ما يعلَمُه الله من سريرةِ هذا الأمرِ وقد كَثُرت الأحاديثُ في التَّرغيبِ في إِنْظَارِ المُعْسِرِ والتَّجاوُزِ عنه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ أَظَلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ"(١).

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: " أُتِيَ اللَّهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَقَالَ لَهُ مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا قَالَ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا قَالَ يَا رَبِّ آتَيْتَنِي مَالَكَ فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ فَقَالَ اللَّهُ أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي"(٢).

ثم يجئ التَّعقيبُ العميقُ الإيحاءِ الذي ترجُف منه النَّفسُ المؤمنةُ وتتمنَّى لو تَنْزِلُ عن الدَّيْن كله ثم تمضي ناجيةً من الله يومَ الحساب ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ**(٢٨١)﴾ [البقرة] فأنجعُ شيءٍ لمَرضِ القلُوبِ هو تذكُّر يومِ الدِّين وهو يومٌ عسيرٌ له في قلبِ المؤمنِ وقعٌ شديد ﴿ **ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ**(٢٨١)﴾ [البقرة] من خيْرٍ ومن شرٍّ ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**(٧) **وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**(٨)﴾ [الزلزلة] ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**(٤٧)﴾[الأنبياء] ﴿**وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**(٢٨١)﴾ [البقرة]، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**(٤٠)﴾[النساء]، ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**(١٦٠)﴾[الأنعام].

* * *

---

(١) صحيح : [ص.ت:١٣٠٦]، ت(١٣٢١/٣٨٥/٢).

(٢) م(١٥٦٠-٢٩-/١١٩٥/٣).

هذه معاملات ربوية فاحذروها

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامت قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ مِثْلاً بِمِثْلٍ سَوَاءً بِسَوَاءٍ يَدًا بِيَدٍ فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ"(١).

إِنَّ الإسلامَ دينٌ شامل، نظَّم للنَّاس حياتَهم الدُّنيا بكل جوانبِها، وأرشدَهم إلى ما يُسْعِدُهم في الآخرة الأبديَّة .

نظَّم الإسلامُ معاملاتِ النَّاس بعضِهم مع بعض في المطاعِم والمشاربِ والمناكِح وسائرِ ضروريَّات الحياة، كما نظَّم علاقَتهم بالله، وفي ذلك يقول ربُّنا سبحانه: ﴿ **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ(٣٨)** ﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ(٨٩)**﴾ [النحل]، فما مِن قضيَّةٍ من قضايا الحياة إلاَّ وقد بيَّن الإسلام حُكْمَها بالنَّص أو الاستنْباط، وفي ذلك يقول ربُّنا سبحانه: ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ(٥٩)**﴾ [النساء]، أي إلى الكتاب والسنَّة لتعلَمُوا حُكْمَه بالنَصّ، ويقول سبحانه: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ(٨٣)**﴾ [النساء]، أي العلماءُ المجتهدون، ولذلك قال تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(٤٣)**﴾ [النحل].

من هنا يجبُ على كلِّ مسلمٍ أَنْ يتفقَّه في الدِّين فإِنَّ النبيَّ ﷺ قال: "**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**"(٢)،

---

(١) م(١٥٨٧-٨١-/١٢١١/٣).

(٢)متفق عليه : خ(٣١١٦/٢١٧/٦)، م(١٠٣٧/٧١٨/٢)، جه(٢٠/٨٠/١) .

فمن لم يستطِعْ أَنْ يصِلَ بنفسِه إلى الحُكم الشَّرعيِّ وجب عليه أَنْ يسألَ العُلماءَ المتخصِّصين، ولا يجوز للمسلمِ أَنْ يعملَ عملاً قبل أَنْ يعرِفَ حُكْمَ الله فيه أحلالٌ هو أم حرام؟ لأَنَّ العلم مقدَّم على القول والعمل كما ترجم بذلك الإمامُ البخاريُّ في صحيحه فقال: بابُ العِلْمُ قبلَ القوْلِ والعمَل، فمن قال قولاً قبل أَنْ يتعلَّم فقد أخطأ، ومن عَمِلَ عملاً قبل أَنْ يتعلَّم حُكمَه فقد أخطأ .

وقد كان عُمَرُ يقول: "لاَ يَبِعْ فِي سُوقِنَا إلاَّ مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّين"(١)،

فإِنَّ من باعَ وليس عنده فقهٌ ولا معرفة، ولا درايةٌ بالأحكامِ الشَّرعيَّة فإنَّه قد يستحلُّ الحرامَ من حيث لا يدري، ويأكلُ الرِّبا من حيث لا يدري، فالفِقْهُ في الدِّين واجبٌ على كلِّ مسلمٍ فيما يأتي من العباداتِ والمُعاملاتِ على حدٍّ سواء، ولا يجوز لمسلمٍ أَنْ يعملَ بلا علْم، ولا أَنْ يقولَ فعلتُ مِثْلَ ما فعلَ الناس، فإِنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**(١١٦)﴾ [الأنعام]، وعابَ سُبحانَه على أقوامٍ جَرْيَهم وراءَ النَّاس فقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ**(١٠٤)﴾[المائدة].

ولقد تحدَّثنا عن الرِّبا وخُطورَتِه وما أعلَم اللهُ به المُرابين من حَرْبه وحَرْبِ رسولِه، وهانحنُ نذكر بعضَ المُعاملاتِ الرِّبوية تحذيراً للمسلمين منها فنقول:

الرِّبا قسمان: رِبَا النَّسيئةِ ورِبَا الفَضْل، فأمَّا ربا النَّسيئةِ فهو الزِّيادةُ المشروطة التي يأخذُها الدَّائن من المدين نظيرَ التأخير:

---

(١) حسن الإسناد: [ص.ت:٤٨٧]، ت(٣٠٣/٤٨٥و١/٣٠٤).

يقترضُ الألفَ بألفٍ ومائةٍ إلى سنَةٍ، فإذا حلَّ الأجلُ ولم يقضِ زاد المدينُ في النقدِ مُقابلَ أَنْ يزيدَ الدَّائن في الأجل، فيؤخرَ القضاءَ إلى سنةٍ أخرى حتى تصبح الألفُ والمائةُ ألفاً ومائتيْن وهكذا كلَّما تضاعف الأجلُ تضاعف الدَّيْن وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً**(١٣٠)﴾ [آل عمران]،

وأَمَّا رِبَا الفَضْلِ فهو بيعُ النُّقودِ بالنُّقودِ أو الطَّعامِ بالطعامِ مع الزِّيادة: ولا يكون إلاَّ في الأصنافِ السِّتةِ المذكورة في حديث عُبادة " الذهب، والفضة، والقمح، والشعير، والتمر، والملح" فإذا بيع جنسٌ من هذه السِّتةِ بجنسه كذهبٍ بذهب، أو تمرٍ بتمر، وجب التماثُلُ في الوزْن والكيْل دون التفاتٍ إلى الجَوْدةِ والرَّداءة، والجِدَةِ والقِدَم، ووجب التقابُضُ في المجلس .

فإذا بعتَ ذهباً قديماً بذهبٍ جديدٍ وجب التماثُل في الوزْن والتقابُض في المجلس، فلا يجوز أَنْ تبيعَ الجرامَ الجديدَ بجرامٍ ونصفٍ من القديم ولا يجوز أَنْ تقبض وإذا بعتَ قَمْحاً بقمْح وجب أَنْ تكونَ الكيْلةُ بكَيْلةٍ وأَنْ يتمَّ التقابضُ في المجلسْ ولا يجوز أَنْ تبيعَ كيلةً من قمحٍ جيِّد بكَيلتيْن من قمحٍ دونه في الجَوْدة، وهذا يقعُ بيْن الفلاَّحين في موسم الزِّراعة، قد تشتري الكيْلَة من قمح التَّقاوي بكيْلتيْن، وهذا ربا .

عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " لاَ تَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إِلاَّ مِثْلاً بِمِثْلٍ وَلاَ تُشِفُّوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ وَلاَ تَبِيعُوا الْوَرِقَ بِالْوَرِقِ إِلاَّ مِثْلاً بِمِثْلٍ وَلاَ تُشِفُّوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ وَلاَ تَبِيعُوا مِنْهَا غَائِبًا بِنَاجِزٍ"(١)،

---

(١) متفق عليه: خ(٢١٧٧/٣٧٩/٤)، م(١٥٨٤/١٢٠٨/٣)،ن(٢٧٨/٧)، ت(١٢٥٩/٣٥٥/٣).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللَّه ﷺ : " الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ رِبًا إِلاَّ هَاءَ وَهَاءَ وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ رِبًا إِلاَّ هَاءَ وَهَاءَ وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ رِبًا إِلاَّ هَاءَ وَهَاءَ وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ رِبًا إِلاَّ هَاءَ وَهَاءَ"[١]،

عَنْ أَبِي سَعِيد قَالَ: كُنَّا نُرْزَقُ تَمْرَ الْجَمْعِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الْخِلْطُ مِنَ التَّمْرِ فَكُنَّا نَبِيعُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: " لاَ صَاعَيْ تَمْرٍ بِصَاعٍ وَلاَ صَاعَيْ حِنْطَةٍ بِصَاعٍ وَلاَ دِرْهَمَ بِدِرْهَمَيْنِ"[٢]،

وعنه قَالَ: جَاءَ بِلاَلٌ بِتَمْرٍ بَرْنِيٍّ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ فَقَالَ بِلاَلٌ تَمْرٌ كَانَ عِنْدَنَا رَدِيءٌ فَبِعْتُ مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ لِمَطْعَمِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ: " أَوَّهْ عَيْنُ الرِّبَا لاَ تَفْعَلْ وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ التَّمْرَ فَبِعْهُ بِبَيْعٍ آخَرَ ثُمَّ اشْتَرِ بِهِ "[٣].

ومِنْ ذلك نعلم أَنْ بيْع الذَّهب وشراءَه بالتَّقسيط لا يجوز، كأَنْ يشترِيَ رجلٌ بألفِ جُنيهٍ ذهباً ويُقسِّطَها على أقساطٍ قليلةٍ أو كثيرة.

بل لا يجوز تَبْقِيَةُ شيءٍ من ثمنِ الذَّهب وإِنْ قلَّ، كأَنْ يشترِيَ الرَّجلُ بألفٍ ثم لا يجد معه إلاَّ تِسعَمائةٍ وخمسين، فلا يجوز إبقاءُ الخمسين دَيْناً:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : " الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ رِبًا إِلاَّ هَاءَ وَهَاءَ"[٤]، أي خُذْ وهات، خُذِ الثَّمنَ وهاتِ الذَّهب، هاتِ الذَّهب وخُذِ الثَّمن، أَمَّا تأخيرُ الثَّمنِ فلا يجوز.

---

(١)و(٤)متفق عليه:خ(٤/٣٤٧/٢١٣٤) وهذا لفظه،م(٣/١٢٠٩/١٥٨٦)،ت(٢/٣٥٧/١٢٦١)، ن (٧/٢٧٣)،

(٢) متفق عليه : خ(٤/٣١١/٢٠٨٠)مختصراً، م(٣/١٢١٦/١٥٩٥)، ن(٧/٢٧٢).

(٣) م(٣/١٢٦١/١٥٩٤).

وكذلك لا يجوز أَنْ يبيعَ رجلٌ على الصائغ ذهبًا بألفيْن فيقول الصائغُ ليس معي نقداً الآن ارجع إليّ آخرَ النهار فخُذْ ثمَن ما بعتَ ، فهذا لا يجوز، وكذلك لا يجوز بيعُ الذَّهب القديم، ثم يشتري الجديدَ ويدفعُ الفَرْقَ والواجبُ أَنْ يبيعَ الذَّهبَ القديمَ ويقبضَ ثمنَه ثم يشترِيَ ويدفعَ الثَّمن.

فإنْ قالَ قائلٌ: نحنُ لا نبيعُ ذهبًا بذهب إنَّما نبيعُ ذهباً بعُمْلَةٍ ورقيَّة؟

فالجواب: "لقد كانَ التعاملُ سابِقاً بالذَّهب والفِضَّة، وأصبح التَّعاملُ الآنَ بالأوراقِ النَّقدية بدلاً عنها، والبدلُ له حُكْمُ المُبدَل"(١)،

وعليه فإنَّ صَرْفَ الأوراقِ النَّقديةِ اليومَ وإنْ جاز فيه التَّفاضلُ لاختلاف الجِنْس فلا يجوز فيه النَّسيئَة، بمعنى: لو بعتَ جُنَيْهاتٍ مِصْرِيَّةً بريالاتٍ سُعوديةٍ مثلاً: فلا بأسَ أَنْ يكونَ المائةُ جنيه بتسعين ريالاً والعكس، شريطةَ التقابضِ في المجلس، فلو أعطيتَ صرَّافاً ألفَ ريالٍ ليصرفَها لك جُنيهاتٍ فلم يجدْ عندَه قيمتَها فلا يجوز أَنْ تتركَها كلَّها أو بعضَها ثم تأتي بعد حينٍ قليلٍ أو كثير لتقبض قيمة الصَّرف لقوله ﷺ في حديث عبادة: "**فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ**"(٢).

فإذا بِعْتَ ذهبًا بفضَّةٍ أو قمْحاً بشعير جاز التَّفاضلُ بشرْطِ التقابضِ في المجلس:

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "وَلاَ بَأْسَ بِبَيْعِ الذَّهَبِ بِالْفِضَّةِ وَالْفِضَّةُ أَكْثَرُهُمَا يَدًا بِيَدٍ وَأَمَّا نَسِيئَةً فَلاَ وَلاَ بَأْسَ بِبَيْعِ الْبُرِّ بِالشَّعِيرِ وَالشَّعِيرُ أَكْثَرُهُمَا يَدًا بِيَدٍ وَأَمَّا نَسِيئَةً فَلاَ"(٣).

---

(١) الضياء اللامع (٥٣٦و٥٣٧).

(٢) م(١٥٨٧-٨١-/١٢١١/٣).

(٣) خ(٢٢٠٠/٣٩٩/٤).

وأَمَّا بَيْعُ جنسٍ من هذه السِّتةِ بما يخالفُه في الجنسِ والعِلَّةِ كذهبٍ بقمحٍ، ومِلْحٍ بنَقْدٍ، ونحوِ ذلكَ جازَ التَّفاضلُ والنَّسيئة:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اشْتَرَى طَعَامًا مِنْ يَهُودِيٍّ إِلَى أَجَلٍ فَرَهَنَهُ دِرْعَهُ»(١).

قال الأميرُ الصَّنْعانِيُّ: "واعلم أَنَّه اتَّفق العُلماءُ على جوازِ بيْعِ رِبَوِيٍّ برِبَوِيٍّ لا يُشارِكُه في الجنس، مؤجَّلاً ومتفاضلاً كبيع الذَّهب بالحِنْطة، والفِضَّة بالشعير وغيرِه من المكيل"(٢).

ويدخلُ في ذلك شراءُ سيارةٍ بأخرى مع دَفْعِ الفَرْق، وبيتٍ بآخرَ مع دفع الفرق وهكذا.

ولا يجوز بيعُ رِبَوِيٍّ بجنسِه ومعهُما أو في أحدهما من غير جنسه: والمُراد بذلك لا يجوزُ شراءُ الذهب المحلَّى بغير جِنْسه بذهبٍ أو نَقْدٍ، والواجبُ شراءُ الذَّهبِ وحدَه والحُليِّ وحده:

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: اشْتَرَيْتُ يَوْمَ خَيْبَرَ قِلَادَةً بِاثْنَيْ عَشَرَ دِينَارًا فِيهَا ذَهَبٌ وَخَرَزٌ فَفَصَّلْتُهَا فَوَجَدْتُ فِيهَا أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ دِينَارًا فَذَكَرْتُ ذَلِكَ ﷺ فَقَالَ: «لَا تُبَاعُ حَتَّى تُفَصَّلَ»(٣).

إِنَّ الرِّبا ضررُه عظيم وخطرُه جسيم، وأبوابُه كثيرةٌ متشابِهَة، وقد قال ﷺ: "**الربا بضع وسبعون باباً**"(٤).

---

(١) متفق عليه : خ(٤/٣٩٩/٢٢٠٠)، م(٣/١٢٢٦/١٦٠٣)، ن(٧/٢٨٨) .

(٢) سبل السلام (٣/٣٨).

(٣) م(٣/١٢١٣/٩٠-١٥٩١)، ت(٢/٣٦٣/١٢٧٣)، د(٩/٢٠٢/٣٣٣٦)، ن(٧/٢٧٩).

(٤) صحيح : [ص.ج:٣٥٣٩]، كم(٢/٣٧).

قال ابنُ كثير: "وبابُ الرِّبا من أشْكَلِ الأبواب على كثيرٍ من أهلِ العلم، وقد قال أميرُ المؤمنين عمرُ: ثلاثٌ وددْتُ أنَّ رسولَ الله ﷺ عَهِدَ إلينا فيهنّ عهداً نَنْتَهِي إليه: الجَدُّ والكلاَلَةُ وأبوابٌ من أبوابِ الرِّبا- يعني بذلك بعضَ المسائلِ التي فيها شائبَة الربا،

وقال رضِيَ الله عنهُ: إنَّ آخر ما نزلتْ آيةُ الربا، وإنَّ رسولَ الله ﷺ قُبِضَ ولم يُفَسِّرْها لنا فدَعُوا الرِّبا والرِّيبة: يريد رضي الله عنه: أنَّ آيةَ الرِّبا آخرَ ما نزل في الحلالِ والحرامِ ولم يُفَسِّرْها ﷺ تفسيراً جامعاً لتمام الجُزْئيات، حتى يستغنوا ببيانه عن القياس، وإلاَّ فالتفسيرُ قد جاء، وإنَّما مُراده: لابُدَّ في باب الرِّبا من الاحتياط" اهـ.

وقد ثبت في الصحيحين: **عَنْ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " الْحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ"**(١)،

وعَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ السَّعْدِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : "دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَيَرِيبُكَ"(٢)،

---

(١) متفق عليه: خ(١/١٢٦/٥٢)، م(١٥٩٩/١٢١٩و١٢٢٠/٣)، د(٣٣١٣/١٧٧/٩)، ت(١٢٢١ /٣٤٠/٢)، جه(٣٩٨٤/١٣١٨/٢).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢٥١٨]، ت(٢٦٣٧/٧٧/٤)، ن(٣٢٧و٣٢٨/٨).

وقال ﷺ : " الْبِرُّ ما اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، والإِثْمُ مَا حَاكَ فِى النَّفْسِ وتَردَّدَ فِي الصَّدْرِ »(١)(٢).

"وفي هذا إِشارةٌ إلى أَنَّه ينبغي التَّباعُدُ عن المحرَّماتِ وأَنْ يجعلَ الإنسانُ بيْنَه وبيْنَها حاجزاً.

قال أبو الدَّرْدَاء: تمامُ التَّقوى أَنْ يتقيَ اللهَ العبدُ حتى يتّقيَهُ من مثقـــالِ ذرَّة وحتى يتركَ ما يرى أَنَّه حلالٌ خشية أَنْ يكونَ حراماً.

وقال الحسن: مازالت التَّقوى بالمتَّقين حتى تَركُوا كثيراً من الحلالِ مخافةَ الحرام.

وقال سُفيان: لا يصيبُ عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتى يجعلَ بيْنَه وبيْنَ الحــرامِ حاجِزاً من الحلالِ وحتى يَدع الإثمَ وما تشابه فيه»(٣).

* * *

---

(١) حسن لخيره :[ص.غ:١٧٣٤]، حم(١/٣٣و١٩/٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير(٣٢٨و١/٣٢٨).

(٣) جامع العلوم والحكم(٦٤).

لا تخيفوا أنفسكم بالدين

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾ [البقرة].

« هذه آيةُ المداينَة، وهي أطولُ آيةٍ في القرآنِ العظيم، وأحدَثُ الآياتِ عهداً بالعرْش العظيم، لأنَّها من آخِرِ ما نزل»(١).

«وهي آيةٌ عُظْمىَ في الأحكام، مُبيَّنةٌ جُمَلاً من الحلالِ والحرام، وهي أصلٌ في مسائلِ البُيوع، وكثيرٍ من الفروع.

---

(١) ابن كثير(١/٣٣٤).

والمداينَة مفاعَلةٌ من الديَن، وهو عبارةٌ عن كلِّ معامَلةٍ كان أحدُ العِوَضَيْنِ فيها نقداً والآخرُ فيها نسيئة»[١]،

فيدخلُ فيه القَرْض، والسَّلم، وثمنُ السِّلعةِ المؤجَّل، ومُؤخَّرُ الصَّداق، وكُلُّ ما يأمنُ النَّاسُ بعضَهم بعْضاً عليه.

إنَّ الله تعالى فضَّل بعضَ النَّاس على بعضٍ في الرِّزق ورفَع بعضَهم فَوْقَ بعضٍ درجات، ليبلوَهم فيما آتاهم، قال تعالى:﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً(٢٠)﴾ [الفرقان]، وقال تعالى:﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ (١٧)﴾ [الفجر].

ليست النَّعمةُ إكراماً، ولا حَبْسُها إهانةً، وإنَّما الكلُّ مبتلىً ليعلَم اللهُ الصابرين والشَّاكرين، ولذلك قال سليمانُ بن داودَ عليهما السلام لمَّا رأى عرْشَ بلقيسَ مستقراً عنده﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ(٤٠)﴾ [النمل].

وقد أمر اللهُ تعالى مَنْ أنعمَ عليهم بالشُّكْرِ ووَعدَهم بالزيادة ونهاهم عن الكُفْرِ وخوَّفهم من الإزالة فقال تعالى:﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(٧)﴾ [إبراهيم]،

ومِنْ شُكْرِ النَّعمةِ نفعُ النَّاس بها والإحسانُ إليهم عن طريقِها كما قال علماءُ بني إسرائيلَ لقارون﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ(٧٧)﴾ [القصص]، وإلى ذلك أشار ربُّنا سبحانه بقوله:﴿وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ(٢٨٢)﴾ [البقرة] أي كما أحسنَ اللهُ إليه فعلَّمه الكتابةَ دون كثيرٍ من الناس فليُحْسِنْ إلى الناس كما أحسنَ اللهُ إليه وليكتُبْ لهم ما يحتاجُون إلى كتابتهِ ولا يتأخَّرْ عنهم إذا ندَبُوه لذلك.

---

(١) أحكام القرآن(١/٢٤٧).

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : "إِنَّ أقواماً يَخْتَصُّهُمُ اللهُ بالنِّعَمِ لمَنَافِعِ الْعِبَادِ، ويُقِرُّهُمْ فِيهَا ما بَذَلُوهَا فَإِذَا مَنَعُوهَا نزَعَها مِنْهُم فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهم"(١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»(٢)،**

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ أَوْ أَيُّ الأَعْمَالِ أَحبُّ إِلَى اللهِ؟ فقالَ ﷺ : "أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهمْ لِلنَّاسِ، وَأَحبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ سُرورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعاً"(٣).

وكما أرشدَ اللهُ تعالى الأغنياءَ إلى الإحسانِ إلى الفُقراء فقد أرشد الفُقَراءَ إلى حُسْنِ الاستِهلاك الذي يُعْفِيهم من ذُلِّ السُّؤالِ ولو قَرْضاً، فقال تعالى: **﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا(٧)﴾** [الطلاق]،

وأمر سبحانه بالاقتصادِ في المعيشةِ والاعتدَالِ في النَّفقةِ فقال تعالى: **﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(٢٩)﴾** [الإسراء]،

---

(١) [س.ص:١٦٩٢] ، طس(٥١٦٢/٣٧٠/٥) .

(٢) م(٢٦٩٩/٢٠٧٤/٤)،د(٤٩٢٥/٢٨٩و٢٩٠/١٣)، ت(٤٠١٥/٢٦٥/٤)،جه(٢٢٥/٨٢/١).

(٣)حسن :[س.ص:٩٠٦]، طب(١٣٦٤٦/٤٥٣/١٢).

ومدح الذين استجابُوا لربِّهم وشرَّفهم بالنِّسبة إليه وسمَّاهم عبادَ الرحمن وقال في وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا(٦٧)﴾ [الفرقان].

وأكثر النبيُّ ﷺ على أصحابه من التَّحذير من التَّهاوُنِ في الاستدانة:

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ»(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلاَّ الدَّيْنَ»(٢).

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَحْشٍ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ وَضَعَ رَاحَتَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! «مَاذَا نُزِّلَ مِنَ التَّشْدِيدِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ رَجُلاً قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيِيَ ثُمَّ قُتِلَ ثُمَّ أُحْيِيَ ثُمَّ قُتِلَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ دَيْنُهُ»(٣).

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دِينَارٌ أَوْ دِرْهَمٌ قُضِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ»(٤).

وَعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تُخيفوا أنفسكم بالدين»(٥).

---

(١) صحيح: [ص.ت:١٠٧٨]، ت(١٠٨٤و١٠٨٥/٢٧٠و٢٧١/٢)، جه(٢٤١٣/٨٠٦/٢)، حم (٣٠٠/٩١/١٥)، ك(٢٦و٢٧/٢).

(٢) م(١٨٨٦/١٥٠٢/٣).

(٣) حسن : [ص.ج:٣٥٩٤]، حم(٢٩٧/٩٠/١٥)، ن(٣١٤/٧)، ك(٢٥/٢).

(٤) صحيح : [ص.ج:٦٤٢٢]، جه(٢٤١٤/٨٠٧/٢).

(٥) حسن : [ص.ج:٧١٣٦]، انظر تخريجه في الصحيحة(٢٤٢٠).

أي لا تستَدينُوا فتُخِيفُوا أنفسَكم بالدَّين، ومع ذلك فإنَّ المُسْلِمَ لو اضطَّرتْه الحاجةُ إلى الاستدانةِ فاستدانَ مضطَّراً عازِماً على القَضاءِ والوَفاءِ قضى الله عنه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً قَالَ: صَدَقْتَ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلاً فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً فَرَضِيَ بِكَ وَسَأَلَنِي شَهِيدًا فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ فَقَالَ وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ قَالَ هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ قَالَ أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا»(١).

عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ مَيْمُونَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ نَبِيِّي وَخَلِيلِي ﷺ يَقُولُ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدَّانُ دَيْنًا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَدَاءَهُ إِلاَّ أَدَّاهُ اللَّهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا»(٢).

---

(١) خ تعليقا (٢٢٩١/٤٦٩/٤).

(٢) صحيح: [ص.ج:٥٥٥٣]، حم(٣١٣/٩٥/١٥)، ن(٣١٥/٧)، جه(٢٤٠٨/٨٠٥/٢).

وعنها قَالَتْ: قال رسول الله ﷺ : « من ادّان ديناً ينوي قضـاءه إلاّ أدّاه الله عنه في الدنيا»(١).

ومع هذا التَّحذير الشَّديدِ والتَّخويف العظيمِ من الاستدانة تـرى الكثيـرين يتهاونون بها ويُقْدِمُون عليها بلا سبب، فهذا يستدينُ لشراءِ غسَّالة، وثانٍ يستدين للثلاَّجة، وثالثٌ للتليفزيون، وما مَعارِضُ السِّلع المُعَمِّرةِ بخافيـةٍ التـي تغـري الموظَّفِينَ بالشِّراء على المرتَّب فيشتري بالألفين والثلاثة بلا تفكير في العواقـب ثم يرى المرتَّبَ قد نَقُصَ عن الوفاء بالضروريَّات فيضطَّرُ أيضاً إلى الاسـتدانة وهكذا يعيش في دوَّامة الاستدانة، وقديماً قالوا: الدَّيْنُ همٌّ بالليـلِ وذُلٌّ بالنهـار. نسأل اللهَ العافية.

أما الذي يستهينُ بحُرْمَةِ أموالِ النَّاس فيستدينُ منهم وهو لا يَنْوِي قضاءَهم فهو والسَّارِقُ سواء، ويومَ القيامة يُعْطَوْن من حسناته ويُحْمَلُ عليه من سيِّئاتهم:

عَنْ صُهَيْبُ الْخَيْرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَيُّمَا رَجُلٍ يَدِينُ دَيْنًا وَهُوَ مُجْمِعٌ أَنْ لاَ يُوَفِّيَهُ إِيَّاهُ لَقِيَ اللَّهَ سَارِقًا»(٢).

فإذا استقرضَ المسلمُ أخاه فأقْرضَه فَمِنَ الخيْر لهما أَنْ يكتُبا هذا القـرضَ ويسمِّيا أجلَه لقوله تعالى: [البقرة]، وهو أمرٌ ظاهرهُ الإيجـابُ إلاَّ أنَّ اللهَ خفَّف عن العباد فقال تعالى: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ**(٢٨٣)﴾[البقرة]، فإذا كتَباه فليُشْـهِدَا عليـه لقولـه تعـالى: ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ** (٢٨٢)﴾[البقرة]،

---

(١) صحيح [ص.ج:٥٨٦٢]، طب(٧٩٤٩/٢٩٠/٨).

(٢) حسن صحيح [ص.جه:١٩٥٤]، جه(٢٤٠٩/٨٠٥/٢).

وإنَّما أمرَ اللهُ تعالى بكتابةِ الدَّين لأَنَّ النِّسيانَ والجُحودَ مُوكَّلان بالإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا(١١٥)﴾ [طـه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ أَيْ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ قَالَ هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَقَالَ أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا فَقَالَ هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ فَقَالَ رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ قَالَ سِتِّينَ سَنَةً قَالَ أَيْ رَبِّ زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَقَالَ أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ قَالَ فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ"(١)،

فحتى لا تضيعَ الأموالُ أمرَ اللهُ بكتابَتِها وجعل الإملاءَ إلى المَدين لأَنَّه إقرارٌ واعترافٌ وهو سيِّدُ الأدِلَّة، فإنْ عجزَ المدينُ أَنْ يُمِلَّ هو أملى وليُّ أمرِه والقائمُ بمصلحته، فإذا أَملَى وكتب كاتبُ العَدْلِ شَهد الشَّاهدان من ذَوِي العَدالة المرضيين ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى(٢٨٢)﴾ [البقرة]،

فإنْ لم يكتبُوه فليسلِّم المدينُ للدَّائِن رهْناً يحبِسُه حتَّى القضاء، فإذا قضاه المدينُ ردّ عليه الرَّهن، وإنْ لم يَقْضِه تصرَّف في الرَّهن وأخذ حقَّه منه قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ(٢٨٣)﴾ [البقرة]، وليس السَّفرُ شرْطاً للرَّهن وإنَّما هو إخبارٌ عن الحالةِ التي يفقِدُون فيها الكاتب،

---

(١) صحيح : [ص.ت:٣٠٧٦]، ت(٥٠٧٢/٣٣١و٣٣٢/٤)، ك(٣٢٥/٢) .

لأنَّهم كانُوا في الحَضَرِ قليلين، فمن الممكن أَنْ يُعْدَموا في السَّفر ولذلك فالرَّهنُ مشروعٌ في الحضر والسفر.

ولا يجوز الانتفاعُ بالرَّهن إلاَّ بمقابل، كأَنْ يكونَ الرهنُ حيَواناً يحتاج إلى الطَّعام والشَّراب، فعليه إطْعَامُه وشَرابُه وله لبَنُه وظَهْره:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « الرَّهْنُ يُرْكَبُ بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا وَلَبَنُ الدَّرِّ يُشْرَبُ بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا وَعَلَى الَّذِي يَرْكَبُ وَيَشْرَبُ النَّفَقَةُ»(١).

وإذا رهَن أرضاً فزرعها وجب عليه دَفْعُ إيجارِها بالمعروف كما يستأجِرُ الناس، ولا يجوز أَنْ يزرعَها بلا إيجار، لأَنَّه سيكونُ قد انتفَع بها بلا مقابل بسبب القرض، وكلُّ قرضٍ جرّ منفعةً فهو ربا.

وكذلك إذا أَهْدَى المدينُ للدائنِ خِلاَل المُدَّة أو عِنْدَ انتهائِها هديَّةً لم تكن تُهْدَى إليه قبل الدَّين فهي ربا:

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَلَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلاَمٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ أَلاَ تَجِيءُ فَأُطْعِمَكَ سَوِيقًا وتَمْرًا فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ فَأَطْعَمَنِى ثُمَّ قَالَ: إِنَّكَ بِأَرْضٍ الرِّبَا بِهَا فَاشٍ إِذَا كَانَ لَكَ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ فَأَهْدَى إِلَيْكَ حِمْلَ تِبْنٍ أَوْ حِمْلَ شَعِيرٍ أَوْ حِمْلَ قَتٍّ فَلاَ تَأْخُذْهُ فَإِنَّهُ رِبًا »(٢).

فإذا انتهى الأجلُ المسمَّى للدَّين فإِنَّ على الدَّائنِ أَنْ يُطالِبَ بحقِّه برِفْقٍ، وعلى المدين أَنْ يُبادِرَ بأداءِ ما عليه بإحسانٍ لقوله تعالى: ﴿**فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**(١٧٨)﴾ [البقرة]،

---

(١) خ(٥/١٤٣/٢٥١٢)، د(٩/٤٣٩/٣٥٠٩)، ت(٢/٣٦٢/١٢٧٢)، جه(٢/٨١٦/٢٤٤٠).

(٢) صحيح :[الإرواء:٥/٢٣٥]، هق(٥/٣٤٩).

عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ طَالَبَ حَقًّا فَلْيَطْلُبْهُ فِي عَفَافٍ وَافٍ أَوْ غَيْرِ وَافٍ»(١).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَخْزُومِيُّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَلَفَ مِنْهُ حِينَ غَزَا حُنَيْنًا ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا فَلَمَّا قَدِمَ قَضَاهَا إِيَّاهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْوَفَاءُ وَالْحَمْدُ»(٢).

ولا يجوز للقادرِ على القضاء أَنْ يُماطِلَ ويُسَوِّفَ ويكلِّفَ دائنَه عناءَ المُطالَبةِ فضلاً عن أَنْ يُلْجِئَه إلى المَحْكَمة، وليتذَّكر أَنَّه أحسنَ إليه حينَ أقْرضَه فليُحْسِنُ إليه هو بالقضاء: **فقد قال النبي ﷺ : « إِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَوْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»(٣).**

فإذا ماطلَ القادرُ حلَّ للدَّائن أَنْ يشْكُوَه ويرفعَ أمرَه إلى القضاء:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ »(٤).

عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ»(٥).

فإذا اشتكى الدَّائنُ المدينَ الواجدَ المماطِلَ وطالب الشُّهودَ بالشَّهادة وجب عليهم الإدلاءُ بها وحَرُم عليهم كِتْمانُها لقوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا**

---

(١)صحيح : [ص.جه:١٩٦٥]، جه(٢/٨٠٩/٢٤٢١)، كم(٢/٣٢).

(٢)حسن : [ص.جه:١٩٦٨]، جه(٢/٨٠٩/٢٤٢٤)، حم(١٥/٨٤/٢٧٩)، ن(٧/٣١٤).

(٣)متفق عليه : خ(٥/٥٦/٢٣٩٠)، م(٣/١٢٢٥/١٦٠١)، ت(٢/٣٨٩/١٣٣١)، ن(٧/٢٩١).

(٤)متفق عليه : خ(٥/٦١/٢٤٠٠)، م(٣/١١٩٧/١٥٦٤)، د(٩/١٩٥/٣٣٢٩)، ت(٢/ ٣٨٦/١٣٢٣)، جه(٢/٨٠٣/٢٤٠٤)، ن(٧/٣١٧).

(٥)حسن : [ص.د:٣٠٨٦]، د(١٠/٥٦/٣٦١١)، ن(٧/٣١٦)، جه(٢/٨١١/٢٤٢٧).

دُعُوا(٢٨٢)﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ(٢٨٣)﴾ [البقرة]،

ولا يجوز للمدينِ تهديدُ الكاتب والشُّهودِ لمَنْعِهم من الإدْلاءِ بالشَّهادة لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ(٢٨٢)﴾ [البقرة].

أَمَّا إذا حلَّ الأجلُ ولم يجد المدينُ قضاءً فإنَّ اللهَ تعالى قد ندبَ الدائِنَ إلى الإنظارِ والصَّدقة فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٨٠)﴾ [البقرة]،

عَنْ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ وَمَنْ أَنْظَرَهُ بَعْدَ حِلِّهِ كَانَ لَهُ مِثْلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ»(١)،

عَنْ أَبِي الْيَسَرِ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُظِلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ فَلْيُنْظِرْ مُعْسِرًا أَوْ لِيَضَعْ لَهُ»(٢)،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ»(٣)،

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ»(٤)

---

(١)صحيح :[ص.جه:١٩٦٢]، جه(٢/٨٠٨/٢٤١٨)، حم(١٥/٩٧/٣٢١)، كم(٢/٢٩).

(٢)صحيح : [ص.جه:١٩٦٣]، جه(٢/٨٠٨/٢٤١٩)، ورواه مسلم مطولا (٣٠٠٦/٢٣٠١و٤/٢٣٠٢) .

(٣)متفق عليه : خ(٣٠٨/٢٠٧٨و٤/٣٠٩)، م(٣/١١٩٦/١٥٦٢).

(٤)متفق عليه : خ(٥/٣٠٧/٢٧٠٥)، م(٣/١١٩١/١٥٥٧).

ومن الجديرِ بالذِّكْر أَنَّ التصدُّقَ على المُعْسِرِ بدَيْنِه إنَّما هو صدَقَةُ تطوُّعٍ له أجرُها وثوابُها، ولا يجوز حِسابُها من الزَّكاة الواجبة، لأَنَّ إسقاطَ الدَّين عن المدين بنيَّة الزَّكاة إنَّما نفعُه في الحقيقةِ للمتصدِّق وليسَ للغارم، لأَنَّ الغارِمَ لم يَقْبِضْ شيئاً، والمتصدِّقَ لم يدفعْ زكاته.

ثم إنَّ الزَّكاةَ تحتاجُ إلى نيَّةٍ عند إخْراجِها، وهو لم يَنْوِ بالدَّين الزَّكاة.

ولا بأس بالصُّلْحِ بيْن الدائنِ والمَدين صُلْحًا يُسقِطُ بعضَ الدَّين:

عَنْ عَائشَةَ قَالَتْ: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةٍ أَصْوَاتُهُمَا وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لا أَفْعَلُ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمَا فَقَالَ: أَيْنَ الْمُتَأَلِّي عَلَى اللَّهِ لا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ قَالَ: « أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبَّ»(١)،

عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ وَنَادَى كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ فَقَالَ يَا كَعْبُ فَقَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ قَالَ كَعْبٌ قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُمْ فَاقْضِهِ»(٢)

* * *

---

(١) متفق عليه : خ(٥/٣٠٧/٢٧٠٥)، م(٣/١١٩١/١٥٥٧) .

(٢) متفق عليه: خ(١/٥٥١/٤٥٧)، م(٣/١١٩٢/١٥٥٨)، د(٩/٥١٦/٣٥٧٨)، جه (٢/ ٨١١/٢٤٢٩).

لعن الله الراشي والمرتشي

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨)﴾ [البقرة].

إِنَّ الأُمَّةَ المسلمةَ أمةٌ واحدة ذاتُ جسدٍ واحد، لا ينفكُ الفردُ عن أُمَّتـه ولا تستغني الأمةُ عن فردٍ من أفرادها، فمصلحةُ الفردِ هي مصلحةُ الأمة، ومصلحةُ الأُمة هي مصلحةُ كلِّ فرد، فلا يقدحُ الفردُ في أمَّتِه لأَنَّ هذا القدَح قدحٌ في ذاته، ولا تقدح الأمةُ فرداً من أفرادها لأنَّ هذا القدح يضرُّها هـي، وتتجلَّـى هـذه الوحْدَةُ بين الأُمةِ وأفرادِها في مِثْلِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ(٦١)﴾ [النور]،

والدَّاخلُ إِنَّما يُسلِّم على أَهْلِ البَيْتِ ولكنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ لأَنَّ الدَّاخلَ وأهلَ البيتِ من نفسٍ واحدةٍ وأمةٍ واحدةٍ فهم وِحْدَةٌ واحـدة فإِذا سلَّم الداخلُ عليهم فكأَنَّه سلّم على نفسِه .

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ(١١)﴾ [الحجرات]،أي لا تُعيبُوها وتذمُّوها، والإنسانُ لا يعيبُ نفسَه، ولكنَّه إذا عاب أيَّ فرْدٍ من أفراد أُمَّتِه فقد عابَ نفسَـه لأَنَّه والمَعيبَ جزءٌ من أُمَّةٍ واحدة يعيبُ كلَّ فرد فيها ما يعيبُ فرْداً منها.

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ(٢٩)﴾ [النسـاء]، وقتلُ الإنسان نفسَه نـادِرُ الوُقوع، ولكنَّ المُرادَ النَّهيُ عن قَتْلِ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ قتلَها ولكنَّه سبحانه عبَّر عنها بالنَّفس لأَنَّ النَّفس المقْتُولةَ أختُ القاتل هي وهو سواء، فيجـب أَنْ يحـافِظ عليها ويحتَرِمَ حُرْمَتَها كما يُحافِظُ على نفسِه ويصُونها.

مِنْ أَجْل ذلك جاء النَهْيَ في الآية الكريمةِ عن الاعتداءِ على أموالِ الناس بلفظ ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ(١٨٨)﴾[البقرة]، لأَنَّ كلَّ مالِ فَرْدٍ في الأُمَّةِ له حُرْمَة، فيجبُ أَنْ يُصانَ ويُحْتَرم ولا يجوزُ الاعتداءُ عليه، لأَنَّ مالَ الأفـرادِ هو مالُ الأمة، تتحقَّق به المصالِحُ العامة ، فذُو المال يتصـدَّق علـى الفُقـراءِ ويصِلْهم ويبرُّهم إيماناً واحتساباً، ويستغلُّهم في الأعمال بالأجرِ فكأَنَّ المالَ هـو مالُ الجميع، ومن الخطأ الاعتداءُ على المال العامِّ بالنَّهب والسَّلب والاخـتلاس بحُجَّةِ أَنَّه مالٌ لا صَاحِبَ له، هذا فَهْمٌ خاطئٌ مَردُّه إلى الجَهْل بالحقيقةِ والواقـع، فالمالُ العامُّ مِلْكُ الأمَّةِ كلِّها، ومِلْكُ كلِّ فَرْدٍ فيها، يجب على مَنْ وُكِلَ إليه المـالُ العامُّ أَنْ يكونَ أميناً عليه وأنْ يرعاه ويصونَه، فإِنْ ضيَّعه فقد خانَ الأمانة، واللهُ سائلُه عما استرْعاه يوم القيامة، والنبيُّ ﷺ يقول: "**إِنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(١).

فلا تأكُلوا أموالَكم بيْنكم بالباطل، والباطِلُ ضِدُّ الحَقِّ، فمن أكلَ مالَ الغيْـر بغَيْر حقٍّ فقد أكلَ الباطل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْـوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ(٢٩)﴾[النساء]،

فأمَّا أكْلُ مالِ الغَيْر عن طريقِ التِّجارة والبَّيعِ والشِّراء الذي يكون برضى الطرفيْن فهذا من أكل مال الغير بالحق ومنه: أكلُ الصَّدقة، والهديَّـة، والهِبَـة، وكُلُّ ما طابت نفسُ صاحبه به لأخيه .

ومِنْ أكل أموالِ النَّاس بالباطِل: "الغصْبُ والسَّرِقَةُ وجُحودُ الدَّين والوديعةِ والعارية .

---

(١) خ(٦/٢١٧/٣١١٨).

ومنه: الرِّبا، والقِمَار، وما يأخذُه الإنسانُ بسبب الغِشِّ في البيْع والشـراء والإجارة ونحو ذلك. وأكلُ أُجْرَةِ العامل، وأَخْذُ العاملِ الأُجْرَةَ على عملٍ لم يَقُـمْ به، والأخذُ من الزَّكاةِ والصَّدقةِ والأوقافِ بغير استحقاق، فكلُّ هذا ونحـوُه مـن أكْلِ أموال النَّاس بالباطل، فلا يحلُّ ذلك بوجْهٍ من الوجوه»(١).

وقد توعَّد اللهُ عليه بالنَّار فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُـدْوَانًا وَظُلْمًـا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(٣٠)﴾[النساء].

ولمَّا نهى سُبحانَه وتعالى عن الاعتداءِ على الأَمْوال نَهْياً عامًّا خصَّ بعـد ذلك نوعاً من أنواع الباطل بالنَّهْي لِشدَّة خَطرِه وعظيمِ ضررَِه، إذ أَنَّ التَّخصيصَ بعد العُموم يدُلُّ على زيادةِ الخاصِّ على ما وُصِفَ به العام، فإنْ ذُكِرَ العامُّ فـي مَعْرِضِ المَدْحِ كان الخاصُّ أشدَّ مدْحاً كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَـانَ عَـدُوًّا لِلَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَـافِرِينَ(٩٨)﴾[البقـرة]، فعـمَّ الملائكةَ وخَصَّ منهم جبريلَ وميكال تنبيهاً على زيادةِ فَضْلِهما وشرَفِهما.

وإنْ ذُكِرَ العامُّ في مَعْرِضِ الذَّم ثم خُصَّ بعضُ أفرادِه بالذِّكْر كان الخاصُّ أشدَّ ذمًّا، وهكذا لمَّا نهى اللهُ تعالى عن أكْلِ أموالِ النَّاسِ بالبَاطلِ نَهْياً عامًّا خصَّ بعدَ ذلك الرِّشْوةَ بالذِّكْرِ تنبيهاً على شِدَّة خَطرِها وعظيمِ ضررَِها فقـال تعـالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَـأْكُلُوا فَرِيقًـا مِـنْ أَمْـوَالِ النَّـاسِ بِـالْإِثْمِ وَأَنْـتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨)﴾[البقرة]،

«أي ولا تُدْلُوا بها إلى الحُكَّام، والإدلاءُ مأخوذٌ مـن إدلاءِ الـدَّلْوِ وهـو إرْسَالُها في البِئْر للاستِقاءِ ثم استُعِيرَ لكلِّ إلقاءِ قولٍ أو فِعْلٍ توصُّلاً إلى شـيء، ومنه: يقال أَدْلى فلانٌ بحُجَّته، كأنَّه يُرْسِلُها ليصل إلى مُرادِه، كـإدلاءِ المُسْـتَقِي

---

(١) السعدي(٢٢٨و٢٢٩/١).

الدَّلو ليصلَ إلى مطلُوبه من الماء.

والمعنى: لا تُلْقُوا ببعض الأموال إلى حُكَّام السُّوء على وجْهِ الرِّشْوَة ليُعِينُوكم على اقْتِطاعِ أموالِ النَّاس، فقد "**لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي**"(١)(٢).

"عن ابن عباس قال: ﴿ **وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ**(١٨٨)﴾ [البقرة]: هذا في الرَّجلِ يكون عليه مالٌ وليس عليه فيه بيِّنةٌ فيجحدُ المالَ ويُخاصِمُ إلى الحكَّام وهو يعرِفُ أَنَّ الحقَّ عليه، ويعلم أَنَّه آثمٌ آكلٌ حراماً"(٣).

قلت: والجُحودُ حاصِلٌ اليومَ مع البيِّنة، فقد يكون الدَّينُ مكتوباً ومشهوداً عليه، وعليه توقيعُ المدين، ومع ذلك يجحدُ ويُخاصِمُ ويُنْكِرُ ويُكابِرُ ويُوكِّل من يُدافعُ عنه، وأوَّل ما يتَّخِذُه ذريعةً الطَّعنُ في صِحَّة التَّوقيع وغيرُ ذلك مما لا يخفى، وغرَضُه بذلك إن نجح في مقصوده وبريء فهذا أعلى غاياته، وإنْ فَشِلَ وأُدِيْن يكون قد انتفع بمال الغيْر فترةً مكَّنته من استثماره وقضائه من الرِّبح،

ومِثْلُ هذا لا يجوز للمحامين أَنْ يتوكَّلوا عنه ولا أَنْ يُدافعوا عنه فإنَّ الله تعالى قال لرسوله ﷺ : ﴿**وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**(١٠٥)﴾ [النساء].

وهذا الرجلُ خائنٌ آكلَ حراماً، حتى لو حكم الحاكمُ ببراءته لرِشْوَةٍ دفعها أو شُهودِ زُورٍ أحضرَهم، فإنَّ حُكْم الحاكم على ما يظهرُ له لا يُغَيِّرُ من الواقع شيئاً، ولذلك قال **النبي ﷺ** : "**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ**

---

(١) صحيح: [ص.د:٣٠٥٥]د(٩/٤٩٥/٣٥٦٣)، ت(٢/٣٩٧/١٣٥٢)، جه(٢/٧٧٥/٢٣١٣).
(٢) القاسمي (١٢٦و٢/١٢٧).
(٣) الطبري (٢/١٨٣).

يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا»(١).

إنَّ الرِّشوةَ من كبائر الذنوب لأنَّ الرسولَ ﷺ لعن آكلَها وموكلها، "واللَّعنةُ لا تكون إلاَّ على أمرٍ عظيم ومنكرٍ كبير، والرِّشوةُ كذلك، لأنَّ بها تغييرَ حُكْمِ الله وتضييعَ حُقوقِ عباد الله وإثباتَ ما هو باطلٌ ونَفْيَ ما هو حقٌّ.

وهي تكونُ في الحُكْم فيُقْضى من أجلها لمن لا يستحِقّ، أو يُمْنَعُ مَن يستحِقٌّ أو يُقدَّم مَن غيرُه أحقٌّ بالتقديم، وتكونُ في تنفيذِ الحُكْم فيتهاونُ مَنْ عليه تنفيذُهُ في تنفيذِهِ من أجل الرشوة.

وتكونُ في الوظائفِ والمُسابقات فيقدَّم من أجلها من لا ينجح، أو تُعطى له أسئلةُ المسابقة قبلَ الامتحان، فيتولَّى الوظيفةَ مَنْ غَيْرُه أحقٌّ منه.

وتكونُ الرِّشوةُ في تنفيذ المشاريع فيُعتمدُ المشروعُ بعد إتمامه وهو غيْرُ مستوفٍ الشُّروط المتَّفقَ عليها من أجل الرِّشوة يأخذها المسئول عن الاستلام»(٢)

ثم لا يلبث المشروعُ أنْ ينهارَ ويحتاجَ إلى إنشاءٍ جديد، مما يكلِّف الدَّولةَ والأفرادَ أموالاً طائلةً تضرٌّ باقتصادها.

"ولا تسأل عما ينتجُ عن الرِّشوة من الأضرار التي لا تُعدُّ ولا تُحصى من ضياع الكرامةِ وهَضْم الحُقوق، وقَبْر النُّبوغ وتلاشي الجِدِّ في العمل، واضْمحلالِ الغيْرة على أداء الواجب، فيذهبُ ذلكَ كلُّه ويحلُّ مكانَه الخمولُ والضعفُ والغِشُّ والخيانة، وتُصابُ مصالحُ الأُمَّة بالشلل، وعقولُ النَّابغين بالعُقْم، ومواهبُ المفكِّرين بالجمُود، وعزائمُ المجدِّين وهمَمُهم بالخَورَ والفتُور.

---

(١) متفق عليه: خ(٢٤٥٨/١٠٧/٥)، م(١٧١٣-٥-/١٣٣٨/٣).

(٢) الضياء اللامع (٦٢٠) .

وقد تلبسَ الرِّشوةُ ثوباً مستعاراً يشفُّ عن حقيقتَها؛ فتكونُ في صورةِ هديَّة، أو مُجاملةٍ في بيعٍ أو شراء، أو إبراءٍ من دَيْن، وكلٌّ هذه حِيَلٌ لا تُغيِّرُ الحقائق، وهي في جميع الصُّور رِشْوةٌ، بَشِعَةُ المنظر، سَيِّئةُ المخْبَر، كريهةُ الرَّائحة، مُلوِّثةٌ للشَّرف، مُضيِّعةٌ للعفَّة والكرامةِ والمهابة»(١).

فلعنةُ اللهِ على الراشي والمُرتشي، كم ضيَّعا من حقُوقٍ وأجْلَبا من مضار، وظلما أنفسَهما وأُمتَّهمَا ظُلماً عظيماً بإفساد أخلاقِ أبنائها، وتضييعِ أمْنِها وإهدارِ أموالها، وحسابُهم على الله.

ومن الرِّشوة ما يأخذُه الموظَّفون في المصالحِ العامةِ من المُراجعينَ سواء تطوَّع المُراجعُ بها وبادر بدفْعِها، أو طلَبها الموظَّفُ وسأله إياها،**فقد قال ﷺ : « هَدَايَا العُمَّالِ غُلُولٌ »**(٢).

وعَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ»(٣).

وعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً مِنَ الأَسْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِي أُهْدِيَ لِي قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: « مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي أَفَلاَ قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لاَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلاَّ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٌ تَيْعِرُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَيْنِ»(٤).

---

(١) الأدب النبيوي (٣٦٩و٣٧٠).

(٢)صحيح : [الإرواء:٢٦٢٢]، حم٢٧٠/٩٠/١٤)، هق(١٣٨/١٠).

(٣)صحيح : [ص.د:٢٥٥٠]، د(٢٩٢٧/١٦٠/٨).

(٤)متفق عليه : خ(٦٩٧٩/٣٤٨/١٢)، م(١٨٣٢/١٤٦٣/٣)، د(٢٩٣٠/١٦٢و١٦٣/٨).

قال الغزالي: " إذا ثبتتْ هذه التَّشديداتُ فالقَاضي والوالي ومَنْ في حُكْمِهما ينبغي أَنْ يقدِّر نفسَه في بيتِ أُمِّه أو أبيه فما كان يُعطى بعدَ العزْلِ وهو في بيْت أُمّه يجوز له أَنْ يأخذَه في ولايته، وما يعلم أَنَّه يُعطاه لولاَيته فحرامٌ أَخْذُه، وما أَشْكلَ عليه من هدايا أصدقائه أنَّهم هل كانُوا يُعطونَه لو معزولاً فهو شُبْهةٌ فليجتنبْه»[١].

والواجبُ على المُراجعينَ أَنْ يصبِرُوا على الموظَّفين الذين يُؤخِّرون حوائِجَهم ويُعَطِّلون مصالِحَهم ولا يُبادِرُوا بدَفْعِ الرِّشوة وهذا من باب نَصْرِ الظالم وهو مَنْعُه عن ظُلمه ومن باب التَّعاون على البرِّ والتَّقوى الذي أمر اللهُ به، وذلك خيرُ للطرفيْن لو كانوا يعلمون.

فإذا أصرَّ الموظَّفُ على تأخيرِ الأوراق وتعطيلِ المصالح وخاف المُراجِعُ من الضَّرر الذي يلحقه بسبب تعطيل الموظَّفِ له فدَفع له مالاً ليحرِّك الأوراقَ فليدفع وهو كاره.

«فيا عبادَ الله إنَّ الأموالَ التي تُوكل بالباطل قَبَسٌ من نارٍ وجَذْوةٌ من لهبٍ، وشُعلةٌ متوهِّجةٌ وآفةٌ مهلكةٌ تأكل الأخضرَ واليابس، وانظروا يميناً وشمالاً تروا أموالَ الناسِ التي أُكلِتْ بالباطل ما أغْنَتْ عن آكليها وما أجدَتْ على غاصبيها وناهبيها بل على العكس من ذلك أَتتْ على بيُوتهم فخربَتْها ودكَّت صُروحَ عزِّهم ومَجْدِهم فهدَمتْها، فليتَ شِعْري ماذا يكون الجوابُ إذا وقَفُوا بيْن يدي الجبَّار للحسابِ وسألَهم عن هذه الأموال ممَ اكتسبُوها؟ وفيمَ أنفقُوها؟ وبأيِّ وجْه أَخذُوها؟ وعلى أيِّ دينٍ استَباحُوها، وبأيِّ شيئ ينطقون إذا شَهدَتْ عليهم أيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ

---

(١) الإحياء (٢/١٥٦).

اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾ [النور]، وساعتَها يسألون الرَّجعَة ليتداركوا ما فات ولكن هيهات هيهات ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة]»[١]

* * *

---

(١) موراد الظمآن (٥٨٥و٣/٥٨٦) بتصرف.

ما يحل ويحرم من الأطعمة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)﴾ [البقرة].

" الأَطْعِمةُ جمعُ طعام، وهي ما يأكلُه الإنسانُ ويتغذَّى به من الأقواتِ وغيرها"(١).

والمرادُ بها هنا الأطعمةُ الحيوانيَّة، أمَّا الأطعمةُ النباتيَّة فلم ينصَّ الشارعُ على حُرْمة شيءٍ منها بعينه إلاَّ ما ثبت ضررُه فيحرُم لعمُوم قولهِ تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ (١٩٥)﴾ [البقرة]، وقوله ﷺ : " لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ"(٢).

لمَّا أمر اللهُ تعالى النَّاس جميعاً بالأكلِ مما في الأرضِ حالَ كونه حلالاً طيباً ونهاهم عن اتِّباع خُطواتِ الشَّيطان في تحريم ما أحلَّ اللهُ لهم خصَّ المؤمنينَ بالنِّداء فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: يا من رضيتم بالله ربّاً وبالإسلامِ ديناً وبمحمدٍ رسولاً ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وهو أمرُ إباحةٍ وقد يجب حين يجوعُ الإنسانُ ويخشى على نفسهِ الهلاكَ فإنَّ الأكلَ في هذه الحالةِ واجب، ولو لم يجد إلاَّ الحرامَ حفاظاً على نفسه من الهلاك، قال تعالى بعد ذكْرِ المحرَّمات ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)﴾ [البقرة].

---

(١) فقه السنة (٢/٢٤٦).

(٢) صحيح: [ص.جه:١٨٩٥]، جه(٢/٧٨٥/٢٣٤٠).

ثم أرشدهم سبحانه إلى ما ينبغي عليهم إذا أكلُوا من الطيِّبات وهو أَنْ يستعينُوا بها على فعْل الطاعات، وعَملَ الصَّالحات، فقال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا للَّه إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)﴾ [البقرة]، وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا منَ الطَّيِّبَات وَاعْمَلُوا صَالحًا إنِّي بمَا تَعْمَلُونَ عَليمٌ (٥١)﴾ [المؤمنون]،

ولذلك قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: "أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّبًا وَإنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمنينَ بمَا أَمَرَ به الْمُرْسَلينَ فَقَالَ: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا منَ الطَّيِّبَات وَاعْمَلُوا صَالحًا إنِّي بمَا تَعْمَلُونَ عَليمٌ ﴾ وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُلُوا منْ طَيِّبَات مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْه إلَى السَّمَاء يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذيَ بالْحَرَام فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لذَلكَ"(١).

وقد تكرَّر الأمرُ من الله تعالى لمَنْ قبلَنا من الأمم بالأكْل من الطيِّبات وعَملِ الصَّالحات، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لسَبَإٍ في مَسْكَنهمْ ءَايَةٌ جَنَّتَان عَنْ يَمينٍ وَشمَالٍ كُلُوا منْ رزْق رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ (١٥)﴾ [سبأ]، وقال تعالى: ﴿وَإذ اسْتَسْقَى مُوسَى لقَوْمه فَقُلْنَا اضْربْ بعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ منْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا منْ رزْق اللَّه وَلاَ تَعْثَوْا في الأَرْض مُفْسدينَ (٦٠)﴾ [البقرة]،

فمن أكلَ منْ رزْق الله فليشكُر اللهَ فمن شكرَ اللهَ زاده الله، ومن كفرَ فقد نعْمَةَ الله فلا يلُومنَّ إلاَّ نفسه قال تعالى: ﴿وَإذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئنْ شَكَرْتُمْ لأَزيدَنَّكُمْ وَلَئنْ كَفَرْتُمْ إنَّ عَذَابي لَشَديدٌ (٧)﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى عن سبأ: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهمْ سَيْلَ الْعَرم وَبَدَّلْنَاهُمْ بجَنَّتَيْهمْ جَنَّتَيْن ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ

---

(١) م(١٠١٥/٧٠٣/٢)، ت(٤٠٧٤/٢٨٨/٤).

وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ(١٧)﴾ [سبأ].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]، ثم أمر المُخَاطَبِينَ بالأكْل من رزقه والاجتهاد في شُكره حتى لا يصيبَهم ما أصابَ الكافرين فقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(١١٤)﴾ [النحل].

وتعليقُ الشُّكْرِ على العبادةِ دليلٌ على أَنَّ من لم يشكُرِ اللهَ لم يَعْبُدْه، كما يدلُّ على الاتِّصال الوثيقِ بيْن الشُّكر والعبادة ولذلك جمع النبيُّ ﷺ بيْنهما في حديث معاذٍ حين قال له : **لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ: « اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»**[١].

ومن الشُّكر أَنْ يقولَ الإنسانُ إذا فرغَ من طعامه ما جاء في هذه الأحاديث:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»[٢]،

عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلاَ قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[٣]،

---

(١) صحيح: [ص.د:١٣٤٧]، د(٤/٣٨٤/١٥٠٨)، ن(٣/٥٣).

(٢) م(٤/٢٠٩٥/٢٧٣٤)، ت(٣/١٧٢/١٨٧٦).

(٣) حسن: [ص.ت:٣٤٥٨]، ت(٥/١٧١/٣٥٢٤)، د(٤/٤٠٠٤و٦٤/٦٥/١١)، جه (٢/١٠٩٣/٣٢٨٥).

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قَالَ: « الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلاَ مُوَدَّعٍ وَلاَ مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا»(١).

ولمَّا أمر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنينَ بالأكْل من الطيِّبات التي أباحها لهم بيَّن لهم ما حرّم عليهم من الخبائث فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٧٣)﴾ [البقرة].

وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٤٥)﴾ [الأنعام]،

وهي كقولهِ تعالى في سُورة النَّحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١١٥)﴾ .

وهُمَا كقولهِ تعالى في سُورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣)﴾، والأصنافُ الخَمْسةُ الزّائدةُ المذكورةُ هنا ليست أَصنافًا مستقلَّةً وإنَّما هي من الميْتة إلاَّ أَنْ تُدْرَك حيَّة فتزكَّى لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾:

---

(١) خ(٥٤٥٨/٥٨٠/٩)، ت(٣٥٢١/١٧٠/٥)، د(٣٨٣١/٣٢٨/١٠)، جه(٣٢٨٤/١٠٩٢/٢).

فإذا التفَّ الحبلُ على رقبة البهيمةِ وأشرفتْ على الموْتِ فذُبِحَتْ وسال دَمُها وتحرَّك عضوٌ منها بعد الذَّبح حركةً تدلُّ على أنها ماتَتْ بالذَّبح فهي حلال.

وإذا رمى صبيٌّ حيواناً بحجر، أو ضُرِبَتْ بهيمةٌ بعصا ضربةً قويةً فأشرفت على الموت فذُبِحَت قبل الموت فهي حلال،

وإذا سقط حيوانٌ من أعلى الدَّار أو وقعت بهيمةٌ في بئرٍ فذُبِحَتْ قبل الموْت فهي حلال.

وإذا نطح كبشٌ عنزةً فأشرفت على الموْت فذُبِحَتْ قبلَ أن تموتَ فهي حلال.

وإذا عدي ذئبٌ أو غيرُهُ من الحيوانات المفْتَرِسةِ على بهيمةٍ فطاردَه صاحِبُها فتركها وهي حيَّةٌ فذكَّاها صاحِبُها فهي حلال، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ(٣)﴾ [المائدة]،

وبهذا البيان نعلمُ أَنَّ الآياتِ الأربَع آيةَ البقرةِ والأنعامِ والمائدةِ والنَّحل متَّفَقَةٌ على الأطعمة المحرَّمة وهي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ لغير الله به.

أما المَّيتَة: "فهي في الشَّرْع اسمٌ للحيوان الذي يموتُ بغيرِ ذَكاةٍ شرعيَّة، بأَنْ يموتَ حتفَ أَنْفه من غير سببٍ لآدميٍّ فيه، أو يموتَ بسببِ فِعْلَ آدمَيٍّ دونَ التَّذكيةِ الشَّرعيَّة كأَنْ يُخْنَق أو يُضْرَبَ حتى يموتَ أو يُصْعقَ بالكهرباء"[١].

والمَّيْتةُ نَجِسَةٌ إلاَّ عظْمَها وقَرْنَها وظُفْرَها وشَعرَها وريشَها.

---

(١) أحكام القرآن الجصاص(١/١٥٠) بتصرف.

قال الزُّهْرِيُّ في عظَامِ الْمَوْتَى نَحْوِ الْفِيلِ وغَيْرِه: " أَدْرَكْتُ نَاساً مِنْ سَلَفِ العُلَماءِ يَمْتَشِطُونَ بِهَا ويدَّهِنُونَ فيها لا يرون بها بأساً.

وقال حمَّاد: لا بأسَ بريشِ الميْتَة. أَمَّا جِلْدُها فإِنَّه يَطْهُر بالدِّباغ"[(١)].

وقال النبيُّ ﷺ : " إِذَا دُبِغَ الإِهَابُ فَقَدْ طَهُرَ "[(٢)].

ويُستَثْنى من الميْتةِ ميْتَةُ السمَّكِ فهي حلالٌ: **لقوله ﷺ فى البحر: "هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ"[(٣)]،**

فميتةُ البَحْرِ حلالٌ حتى ولو كانت طافيةً على سطح الماء. كما يُستَثْنى من الميْتَةِ الجنينُ إذا ذُبِحَتْ أُمُّه فخرج ميْتاً فإنَّه حلال:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " ذَكَاةُ الْجَنِينِ ذَكَاةُ أُمِّه"[(٤)]،

وإذا وقعتِ الميْتةُ في إناءٍ فيه طعامٌ فإِنْ كان جامداً أَلْقَوْها وما حَوْلها وأكلوا الباقي، وكذا إِنْ كان مائعاً إِلاَّ أَنْ يتغيرَّ الطَّعامُ بها فلا يحلُّ أكْلُه.

ويُستَثْنى من الميْتةِ الجرَادُ: **لقوله ﷺ : " أُحلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ"[(٥)].**

---

(١) فتح الباري(١/٣٤٢).

(٢) م(١/٢٧٧/٣٦٦)، د(١١/١٨١/٤١٠٥)، ت(٣/١٣٥/١٧٨٢)، جـه(٢/١١٩٣/٣٦٠٩)، ن(٧/١٧٣).

(٣) صحيح: [ص.جـه:٣٠٩]، جـه(١/١٣٦/٣٨٦)، د(١/١٥٢/٨٣)، ت(١/٤٧/٦٩)، ن(١/١٧٦).

(٤) صحيح: [ص.د:٢٤٥١]، د(٨/٢٦/٢٨١١).

(٥) صحيح: [ص.جه:٢٦٧٩]، جه(٢/١١٠٢/٣٣١٤).

وأمَّا الدَّمُ الحرامُ فهو " المسفوحُ أي الجاري كما صرَّح بذلك في آيةِ الأنعام، والمفسَّر قاضٍ على المُبْهَم، وكان بعضُ العربِ يجعل الدَّمَ في المصَارينِ ثم يَشْويها ويأكلُها ويُسَمُّونَه الفَصِيدَ، وكان أهلُ الجاهليَّة يأكلُونه ويُطْعمُونه الضَّيفَ في وقتِ الشِّدةِ والحاجة، فكان الضَّيفُ إذا نزل يَشِحُّ المُضيفُ براحلته ينحرُها له، فيَفْصِدُها فإذا خرج الدَّمُ سخَّنه للضَّيف إلى أَنْ يجْمُدَ ويقوى فيطْعِمَه إياه»[١].

ويُستثْنى من الدَّمِ ما يبقى في العرُوق بعدَ الذبح، وما بَقِيَ في القِدْرِ عند الطبخ.

كما يُستثْنى الكَبِدُ والطِّحال **لقوله ﷺ : " أُحلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ**»[٢].

وأَمَّا لحمُ الخنزير فأكْلُه حرامٌ وكذلك شَحْمُه وبَقيَّةُ أجزائه " وإنَّما خُصَّ اللَّحْمُ بالذِّكر لأَنَّه أعظَمُ منفعةً وما ينبغي منه، كما خُصَّ البيعُ بالنَّهي بعد النِّداءِ يومَ الجمُعة لأَنَّه كان أعظمَ ما يبتغون من منافِعهم والمُراد النَّهْيِ عن جميعِ الأمُورِ الشَّاغلة عن الصلاة»[٣].

وقولُه تعالى: ﴿**وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**[١٧٣]﴾ [البقرة].

الإهلالُ معناه رَفْعُ الصَّوت، ﴿**وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**﴾ أي ذُكِرَ عليه عند الذبح غيرُ اسْمِ الله كما كانوا في الجاهليَّة يتقرَّبون إلى الأصنام والأوثان بالذَّبح لها، وما يقع فيه جهلَة المسلمين بالذَّبح لأربابِ القُبور والأضْرحة، وهذا كُلُّه

---

(١) تفسير القاسمي (٣/٢٩).

(٢)صحيح : [ص.جه:٢٦٧٩]، جه(٣٣١٤/١١٠٢/٢).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (١/١٧٤).

شِرْكٌ بالله، وقد أمرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ وأتْباعَه أَنْ يُخْلِصُوا لـه النَّوايـا فـي الصَّلاة والذَّبح فقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢)﴾ [الكوثر]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢)﴾ [الأنعام]،

قال ابنُ كثير: "يُخْبِرُه تعالى أَنْ يخبر المشركين الذين يعبدُون غيرَ الله ويَذْبحون لهم بأَنَّه أخلَص لله صلاتَه وذَبْحه، لأَنَّ المشركين يعبـدُون الأصنامَ ويَذْبَحُون لها، وأمرَه تعالى بمخالفَتِهم والإعْراضِ عمَّا هم عليه والإقبالِ بالقَصْدِ والنيَّةِ والعَزْمِ على الإخلاصِ لله تعالى"[١].

هذه هي الأطعمةُ التي حرَّمها اللهُ علينا في كتابه وقد جعل سبحانه لرسولِه حقّ التَّحريم فقال في وصفه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ(١٥٧)﴾ [الأعراف].

فما حُرِّم في السنَّة فهو كما حُرِّم في القرآن، لأَنَّ السُّنة شـقيقةُ القـرآن، ولذلك قال تعالى في حقِّ النبيِّ ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣)إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى(٤)﴾ [النجم]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا(٧)﴾ [الحشر]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا(٣٦)﴾ [الأحزاب].

عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: " أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ"[٢]،

---

(١) ابن كثير (٢/١٩٨).

(٢) صحيح :[ص.د:٣٨٤٨]، د(٤٥٨٠/٣٥٤-١٢/٣٥٦)،جه(١٢/٦/١).

وَعَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : "أَلاَ هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الْحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّه فَمَا وَجَدْنَا فِيه حَلاَلاً اسْتَحْلَلْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ "(١).

ومما ثبتت حُرْمتُه بالسُّنة: ذُو النَّاب من السِّباع كالأسدَ والنَّمِر ونَحْوِهما، وذُو المِخْلَب من الطَّير كالصَّقْر والحِدأة ونَحْوِهما:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ فَأَكْلُهُ حَرَامٌ"(٢)،

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَعَنْ كُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ"(٣).

ومنها الحُمرُ الأهليَّة:

عَنْ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَهُ جَاءٍ فَقَالَ: أُكِلَتِ الْحُمُرُ، ثُمَّ جَاءَهُ جَاءٍ فَقَالَ: أُكِلَتِ الْحُمُرُ ثُمَّ جَاءَهُ جَاءٍ فَقَالَ: أُفْنِيَتِ الْحُمُرُ، "فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى فِي النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ فَأُكْفِئَتِ الْقُدُورُ وَإِنَّهَا لَتَفُورُ بِاللَّحْمِ"(٤)،

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " نَهَى النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ وَرَخَّصَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ"(٥).

---

(١) صحيح : ص.ت:٢٦٦٤]، ت(٢٨٠٢/١٤٥/٤).

(٢) م(١٩٣٣/١٥٣٤/٣)، ت(١٥٠٧/١٩و٢٠/٣)، ن(٢٠٠/٧).

(٣) م(١٩٣٤/١٥٣٤/٣)، د(٣٧٨٥/٢٧٧/١٠)، ن(٢٠٠/٧).

(٤) متفق عليه : خ(٥٥٢٨/٦٥٣/٩)، م(١٩٤٠-٣٥-/١٥٤٠/٣).

(٥) متفق عليه:خ(٥٥٢٠/٦٤٨/٩)، م(١٩٤١/١٥٤٠/٣)، د(٣٧٧٠/٢٦٠/١٠)، ن(٢٠٢/٧).

ومنها الجلاَّلة: وهي التي أكثرُ أكْلِها النَّجاسة:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ لُحُومِ الْجَلاَّلَةِ وَأَلْبَانِهَا"(١).

وَعَنْهُ قَالَ: " نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْجَلاَّلَةِ فِي الإِبِلِ أَنْ يُرْكَبَ عَلَيْهَا أَوْ يُشْرَبَ مِنْ أَلْبَانِهَا"(٢).

وإذا حُبِسَت الجلاَّلةُ وعُلِفَتْ الطاهِرَ جاز ذَبْحُها وأكْلُها:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ: "أَنَّه كان يحبس الدجاجة الجلالة ثلاثاً"(٣).

هذه هي الأطعِمَةُ التي حرّمها اللهُ ورسولُه ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٧٣)**﴾ [البقرة]،

قال ابنُ كثير: " أي فمَنْ احتاج إلى تناوُل شيءٍ من هذه المحرَّماتِ التــي ذكَرها اللهُ تعالى لضرُورَةٍ ألجأَتْه إلى ذلك: فلَه تناوله، واللهُ غفورٌ رحيم له، لأَنَّه تعالى يعلَم حاجَة عبدِه المضطَّر، وافتقارَه إلى ذلك، فيتجاوَزُ عنه ويغفرُ له"(٤).

ومن تمامِ الفائدةِ أَنْ نعرِّف الذَّكاةَ الشَّرعيَّة، فقد قلنا: المَيْتَةُ: هي ما ماتَ من الحيوانِ بلا ذكاةٍ شرعيَّةٍ:

والذَّكاة في الأصل معناها التطيُّب، ومنه رائحةً ذكيَّة أي طيِّبة، وسُمِّي بها الذَّبحُ لأَنَّ الإباحةَ الشَّرعيَّة جعلتْه طيِّباً،

---

(١)صـــحيح : [ص.جـــه:٢٤٨٢]، جـــه(٢/١٠٦٤/٣١٨٩)، د(١٠/٢٥٨/٣٧٦٧)، ت(٣/١٧٥/١٨٨٤).

(٢)حسن صحيح : [ص.د:٣٢١٧]، د(١٠/٢٦٠/٣٧٦٩).

(٣)صحيح : [الإرواء:٢٥٠٤]، ابن أبي شيبة(٨/١٤٧/٤٦٦٠).

(٤) ابن كثير (٢/١٤).

والمقصودُ بها هنا ذَبْحُ الحيوانِ أو نَحْرُه، وتجوزُ بكلِّ ما يجرحُ إلاَّ السِّنَّ والظُّفْرَ لقوله ﷺ : "**مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ فَكُلْ لَيْسَ الظُّفُرَ وَالسِّنَّ**"(١).

وتكون الذَّكاةُ في الحَلْقِ واللُّبَّةِ إلاَّ أَنْ يشرُدَ البعيرُ أو تتردَّى البهيمةُ فحينئذٍ تجوز الذَّكاة فى أي مكان :

عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَنَدَّ بَعِيرٌ فَرَمَاهُ رَجُلٌ بِسَهْمٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " إِنَّ لَهَا أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ فَمَا غَلَبَكُمْ مِنْهَا فَاصْنَعُوا بِهِ هَكَذَا"(٢).

ويُشتَرط في الذَّابح: أَنْ يكون مسلماً أو كتابيًّا قال تعالى: ﴿**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ**(٥)﴾ [المائدة]، **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: " طَعَامُهُمْ ذَبَائِحُهُمْ"**(٣).

أَمَّا غيرُ الكتابيِّ من الوثنيِّينَ الملْحدين واللَّادينين فلا تحلُّ ذبيحتُه.

كما يشترط في التَّذكية التَّسمية لقوله تعالى: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ**(١١٨)﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**(١٢١) ﴾ [الأنعام]،

---

(١) متفق عليه: خ(٥٥٠٣/٦٣١/٩)، م(١٩٨٦/١٥٥٨/٣)، د(٢٨٠٤/١٧/٨)، ن(٢٢٦/٧)، ت(١٥٢٢/٢٥/٣)، جه(٣١٧٨/١٠٦١/٢).

(٢) متفق عليه :خ(٢٤٨٨/١٣١/٥)، م(١٩٦٨/١٥٥٨/٣)، ت(١٥٢٤/٢٥/٣)، د(٢٨٠٤/١٧-٢٠/٨) ، جه(٣١٨٣/١٠٦٢/٢) ، ن(٢٢٦/٧).

(٣) خ(٦٣٦/٩).

فإذا ترك الذابحُ التَّسميةَ عامِداً لم تحلَّ ذبيحتُه، ولذلك نُذَكِّر أصحابَ محلاَّتِ الدَّجاج بتَقْوى الله والتَّسميةِ على كلِّ ذبيحةٍ ولا يملُّ ولا يفتر فيترك التَّسميةَ عمداً. والناسُ أمانةٌ في رقَبته وهو مسئولٌ عنهم يومَ القيامة.

فإِنْ قيل: فإِنَّ أهلَ الكتاب لا يُسمُّون، أو يُسمُّون غيرَ اسمِ الله ؟، فالجواب،

كما قال الزهريُّ: " إن سمعته يسمى لغير الله فلا تأكل، وإن لم تسمعه فقد أحلَّه الله وعلم كفرهم "[١]،

فإِنْ قيل: ما حُكم اللُّحومُ المُستَوْردة ؟ فالجواب :

المستوردةُ من دُولٍ مسلمةٍ أو كتابيَّةٍ حلال، إِلاَّ أَنْ يثبُت العكس، وليس لمن تورَّع وتركَ الأكلَ منها أَنْ يحرِّمها على غيره.

ومن الجدير بالذكر: أَنَّه لا فرْقَ بين ذَبْحِ الرَّجلِ والمرأةِ ولو كانت حائضاً، فإِنَّ حيْضتَها ليستْ في يَدِها فلا تمنعُها من الذَّبح، كما أَنَّ الجنابةَ لا تمنعُ الرَّجُلَ من الذبح، ولا يُشْترطُ إِذْنُ الجزَّار لمن أراد أَنْ يذبح، وإِنَّما كُلُّ من قَدرَ على الذَّبح وأتقنه حلَّت ذبيحتُه.

* * *

---

(١) خ تعليقا (٩/٦٣٦) .

ما يحل ويحرم من الأشربة

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩)﴾ [البقرة]،

كان العرَبُ في جاهليَّةٍ وشرٍّ، يعبدُون الأصنامَ والأوثان، ويأكلُون الميْتة، ويشرَبُون الخَمر، ويقتُلون ويزْنون، فلمَّا أراد اللهُ رحمتَهم بعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته ويعلِّمهم الكتابَ والحِكْمَة ويزكِّيهم، فقام رسولُ اللهِ ﷺ بذلك خيرَ قيام، وبدأ بدعْوَتِهم أولاً إلى ترك عبادةِ الأصنام والأوثان وعبادةِ الله الواحد الديَّان، ولم ينهَهُمْ عن شيءٍ مما كانُوا فيه من الشرِّ، تقول عائشةُ:

«**أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُوَرَ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الْحَلاَلُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لاَ تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لاَ نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لاَ تَزْنُوا لَقَالُوا لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا**»(١).

حتى إذا استقرَّت العقيدةُ في نفوسِ العُصبَةِ المؤْمِنَةِ التي شرح اللهُ صدرَها للإسلام وحبَّب إليهم الإيمان، وكَرِهُوا أَنْ يعودُوا إلى الكفْر بعد أَنْ أنقذَهم اللهُ منه كما كَرِهوا أَنْ يُقْذَفُوا في النار، وهانت عليهم ديارُهم وأموالُهم فخرَجُوا منها وهاجرُوا فراراً بدينهم في سبيل الله، بدأتْ نفُوسهم تتطلَّع إلى التخلُّص من كل شيءٍ كانوا يفعلونه في الجاهليَّة، فأخذُوا يسألونَ رسولَ الله ﷺ وأخذ رسولُ الله ﷺ يجيبهم بما يُوحَى إليه من ربِّه، فسألوه عن الخَمْرِ والمَيْسرِ فأوحى اللهُ إلى رسوله ﷺ ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**(٢١٩)﴾[البقرة]،

---

(١) خ(٤٩٩٣/٣٨و٣٩/٩).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ بِالْمَدِينَةِ قَالَ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعَرِّضُ بِالْخَمْرِ وَلَعَلَّ اللَّهَ سَيُنْزِلُ فِيهَا أَمْرًا فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلْيَبِعْهُ وَلْيَنْتَفِعْ بِهِ"(١). فقالوا ما حرّما فلننتفع بمنافعهما وإنْ كان إثمهما أكبر.

والمرادُ بالمنافعِ المنافعُ الماديَّةُ التي يَجْنُونها من التِّجارةِ في الخَمْرِ ومن لعبِ القِمار.

وذات يومٍ قام رجلٌ يؤمُّ النَّاسَ وهو سكرانُ فخلطَ في القراءة فأنزلَ اللهُ تعالى على رسوله ﷺ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ(٤٣)**﴾ [النساء].

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا، وَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَقَدَّمُونِي فَقَرَأْتُ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (٢)

وهكذا ضيَّق عليهم الخنَاق، لأنَّ الصَّلواتِ النَّهاريَّةَ متقاربةٌ فلا يستطيع أَنْ يشربَ بالنَّهار لأنَّه لن يفيقَ قبلَ دخُولِ الوقت، فكانوا يشربُونها ليلاً أو أولَّ النَّهار بعد الفجر، فقال عمرُ اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً فأنزل اللهُ تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ**

---

(١) م(٣/١٢٠٥/١٥٧٨).

(٢) صحيح: [ص.ت:٣٠٢٦]، ت(٤/٣٠٥/٥٠١٦)، د(١٠/١٠٧/٣٦٥٤).

وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)﴾ [المائدة].

وقد دلَّت هذه الآيةُ على تحريم الخَمْرِ من وجوه:

من تسميتها رجساً وقد سُمِّيَ به ما أُجْمِعَ على تحريمه وهو لحم الخنزير.

ومن كونها من عَمَلِ الشيطان، لأَنَّ كلَّ ما كان من عمل الشيطانِ حَرُم تناولُه.

ومن الأمرِ بالاجتناب، وهو للوجُوب، وما وجبَ اجتنابُه حَرُم تناولُه.

ومن الفلاح المرتَّب على الاجتنابِ فمن لم يجتنِبْها لم يُفلح.

ومن كونها سببَ العداوةِ والبغضاء، وتعاطي ما يوقعُ ذلك حرام.

ومن كونها تصدُّ عن ذكْرِ الله وعن الصلاة والله تعالى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩)**﴾ [المنافقون].

ومن خَتْم الآيةِ بهذا الاستفهام ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾ فإنَّه للزَّجْرِ والرَّدْع ولذلك قالوا انتهيْنا انتهيْنا.

ولقد حذَّرنا النبيُّ ﷺ من الخَمْرِ أَيَّما تحذير فقال: "**مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ**"(١)، وقال ﷺ "**إِنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ قَالَ: عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ أَوْ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ**"(٣).

---

(١) حسن : [ص.جه: ٢٧٢٠]، جه(٣٣٧٥/١١٢٠/٢).

(٢) صحيح : [ص.جه: ٢٧٢١]، جه(٣٣٧٦/١١٢١/٢).

(٣) م(٢٠٠٢/١٥٨٧/٣)، ن(٣٢٧/٨).

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مُدْمِنُ خَمْرٍ"(١).

وأجمع المسلمون على تحريمِ الخمر، فمن استحلَّها فقد كفر، شأنُه في ذلكَ شأنُ كلِّ من استحلَّ المحرَّم الذي عُلِمَتْ حُرْمَتُه من الدِّين بالضرُورة.

ولو لم تكنَ الخمرُ محرَّمة لزهدَ فيها أولُوا الألباب، إذ كيف يليقُ بعاقلٍ أَنْ يتعاطى ما يخمّر عقلَه ويُغطِّيه ويسترُه، كيف يليق بعاقلٍ أنعمَ اللهُ عليه بنعمة العقلِ أَنْ يتعاطى ما يَذْهَبُ بعقله ويتركُه هو والبهيمةُ سواء؟

ولذلك قال الشاعرُ الجاهليُّ:

شَربْتُ الخمرَ حتى ضلَّ عقلي ... كذاكَ الخمرُ تفعلُ بالعُقولِ.

فإذا شربَ الإنسانُ من الخمر وفقدَ عقلَه كان أشدّ ضراوةً من الحيوان المُفْتَرس، وامتدَّ أذاه وشرُّه إلى كلِّ من يلقاه مهما كان، وربَّما امتدَّ شرُّ السكران إلى نفسه هو فيعتدي على نفسِه بالقتل أو الجرح، ولذلك سمَّاها رسولُ الله ﷺ: أُمَّ الخبائث، وأُمَّ الفواحش:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْروٍ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "الْخَمْرُ أُمُّ الخَبائِث، فَمَنْ شَرِبَهَا لَمْ تُقْبَلْ صلاَتُه أَرْبعِينَ يَوْماً، فإِنْ مَاتَ وهي فِي بَطْنِه مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّة"(٢).

وعَنِ ابْنِ عبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: "الْخَمْرُ أُمُّ الْفَواحِش، وَأَكْبَرُ الْكَبائِر، مَنْ شَرِبَها وَقَعَ عَلَى أُمِّهِ وخَالَتِه وَعَمَّتِه"(٣).

---

(١) صحيح: [ص.جه: ٢٧٢١]، جه(٣٣٧٦/١١٢٠/٢).

(٢) حسن: [ص.ج: ٣٣٣٩]، طس(٣٦٦٧/٢٣٩/٤).

(٣) حسن: [ص.ج: ٣٣٤٠]، طس(٣١٥٥/٤٠٤/٣).

عَنْ عُثْمَانَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِث إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلاَ قَبْلَكُمْ تَعَبَّدَ فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْه جَارِيَتَهَا فَقَالَتْ: لَهُ إِنَّا نَدْعُوكَ لِلشَّهَادَةِ فَانْطَلَقَ مَعَ جَارِيَتِهَا فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غُلاَمٌ وَبَاطِيَةُ خَمْرٍ فَقَالَتْ إِنِّي وَاللَّهِ مَا دَعَوْتُكَ لِلشَّهَادَةِ وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَيَّ أَوْ تَشْرَبَ مِنْ هَذِه الْخَمْرَةِ كَأْسًا أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الْغُلاَمَ قَالَ: فَاسْقِينِي مِنْ هَذَا الْخَمْرِ كَأْسًا فَسَقَتْهُ كَأْسًا قَالَ زِيدُونِي فَلَمْ يَرِمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا وَقَتَلَ النَّفْسَ فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا وَاللَّهِ لاَ يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَإِدْمَانُ الْخَمْرِ إِلاَّ لَيُوشِكُ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ»[١].

وصدق رَضِيَ الله عنه فقد قال ﷺ : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[٢].

ولكنْ ما هي الخمر؟ إنَّه تُوجد في الأسواقِ مشْروباتٌ يسمُّونها مشْروباتٍ روحيَّة؟ فهل هي خمر؟

والجواب أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « لاَ تَذْهَبُ اللَّيَالِي وَالأَيَّامُ حَتَّى تَشْرَبَ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا»[٣].

وعلى ذلك ترجمَ البخاريُّ فقال: بَاب مَا جَاءَ فِيمَنْ يَسْتَحِلُّ الْخَمْرَ وَيُسَمِّيه بِغَيْرِ اسْمِه ثمَّ روى بِصِيغة التعليق عن أَبِي مَالكٍ الأَشْعَرِيُّ وَاللَّهِ مَا كَذَبَنِي

---

(١) صحيح موقوف: [ص.ن:٥٦٨٢]، ن(٨/٣١٥).

(٢) متفق عليه: خ(٥/١١٩/٢٤٧٥)، م(١/٧٦/٥٧)، د(١٢/٤٤٤/٤٦٦٤)، ن(٨/٦٤)، ت(٤/١٢٧/٢٧٦٠)، جه(٢/١٢٩٨/٣٩٣٦).

(٣) صحيح: [ص.جه:٢٧٢٩]، جه(٢/١٢٢٣/٣٣٨٤).

سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ يَعْنِي الْفَقِيرَ لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا فَيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ وَيَضَعُ الْعَلَمَ وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"(١).

فالخمرُ هي الخمرُ وإنْ تغيَّرتْ أسماؤها، وهي كما عرّفها النبيُّ ﷺ: "كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ"(٢).

عَنْ دَيْلَمٍ الْحِمْيَرِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا بِأَرْضٍ بَارِدَةٍ نُعَالِجُ فِيهَا عَمَلاً شَدِيدًا وَإِنَّا نَتَّخِذُ شَرَابًا مِنْ هَذَا الْقَمْحِ نَتَقَوَّى بِهِ عَلَى أَعْمَالِنَا وَعَلَى بَرْدِ بِلَادِنَا قَالَ: هَلْ يُسْكِرُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: "فَاجْتَنِبُوهُ قَالَ: قُلْتُ: فَإِنَّ النَّاسَ غَيْرُ تَارِكِيهِ قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَتْرُكُوهُ فَقَاتِلُوهُمْ"(٣).

فأيُّ شرابٍ اتُّخِذَ من أيِّ جنسٍ كان فأسكر فهو خمر، من العنب، من الشعير، من التفاح، أيُّما شرابٍ أسكَر فهو خمر، والأحكام تدور مع عِلَلها وُجوداً وعدماً، ولا التفات إلى المسمَّيات.

فإنْ قال قائل: أنَّه يشرَبُ ولا يَسكر، فالجوابُ من سيِّد الأنام ﷺ: "مَا أَسْكَرَ مِنْهُ الْفَرْقُ فَمِلْءُ الْكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ"(٤).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وَمَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ"(٥).

---

(١) فتح الباري(١٠/٥١).

(٢) م(٣/١٥٨٨/-٧٥-٢٠٠٣)، ٢/١١٢٤/٣٣٩٠).

(٣) صحيح : [ص.د:٣١٣١]، د(١٠/١٢٤/٣٦٦٦).

(٤) صحيح : [ص.د:٣١٣٤]، د(١٠/١٥١/٣٦٧٠).

(٥) صحيح : [ص.جه:٢٧٣٦]، جه(٢/١١٢٤/٣٣٩٢)، ن مفرقاً(٢٧٩و٣٠٠/٨).

فإنْ قيل: فما حُكْمُ المشروباتِ الأخرى كالحشيش والأفيْون والكوكـايين؟ والجواب: هي والخمر سواء:

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: " نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ "(١)،

" قال الخطَّابي: المفتِّر كلُّ شرابٍ يورث الفُتورَ والرَّخوةَ في الأعضاء والخدرَ في الأطـراف وهو مُقَدِّمةُ السُّـكر، نهى عن شُرْبِهِ لئلا يكونَ ذريعةً إلى السكر.

وحكى العراقيُّ وابن تيميـة الإجماعَ على تحـريم الحشيشـة وأنَّ مـن استحلَّها كفر "(٢).

فإنْ قيل: فما حُكْمُ الدُّخان؟ فالجواب: أنَّ شرابَ الدُّخان خبيث، وقد أحـلَّ اللهُ لنا الطيِّبات وحرَّم علينا الخبائث، وهو مُضِرٌّ بالصِّحةِ واللهُ تعـالى يقـول: ﴿**وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**(١٩٥)﴾ [البقرة]،

ومن عظيم ضرَرِه أنَّه يسبِّب المرضَ الخبيثَ السَّرطانَ وهو داءٌ قاتلٌ والله تعالى يقول:﴿**وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**(٢٩)﴾ [النساء]، وإذا ثبتَ ضرَرُه وانتَفتْ منْفعتُـه فهو حرام، لأَنَّ اللهَ تعالى حرَّم الخمرَ مع ما فيها من منـافعَ لكثْـرةِ ضـرَرِها، والدُّخان كذلك حرامٌ لكثْرة ضرَرِه.

وإنْفاقُ المالِ فيه حرامٌ لأَنَّه إسرافٌ وتبذير، لأَنَّ الإسرافَ هو الإنفاقُ فيما لا ينفع واللهُ تعالى يقول: ﴿**وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**(٣١)﴾ [الأعـراف]، ويقول تعالى: ﴿**وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا** (٢٦)**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَـانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا**(٢٧)﴾ [الإسراء]،

---

(١) حسن : [فتح الباري:١٠/٤٤]، د(١٠/١٢٦/٣٦٦٩)، حم(١٧/١٣١/١٠٨).

(٢) عون المعبود (١٠/١١٢).

والإنسانُ مسئولٌ يومَ القيامة عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، فلا يجوز لمسلم أَنْ يشتريَ الخمرَ والمخدِّرات والدُّخان، ولا يجوز أَنْ يبيعها فإنَّ الاتِّجار في المخدِّرات حرامٌ والكسبَ منه كسبٌ خبيث، بل لا يجوز لمسلمٍ أَنْ يكون عاملاً مساعداً في بيع هذه المحرّمات أو شرائها أو نقلها:

فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "لُعِنَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَشْرَةِ أَوْجُهٍ بِعَيْنِهَا وَعَاصِرِهَا وَمُعْتَصِرِهَا وَبَائِعِهَا وَمُبْتَاعِهَا وَحَامِلِهَا وَالْمَحْمُولَةِ إِلَيْهِ وَآكِلِ ثَمَنِهَا وَشَارِبِهَا وَسَاقِيهَا"(١).

فلا يجوز الاتِّجار في هذه المحرَّمات، ولا يجوز لعاملٍ في محلٍّ بقالةٍ بيعُ هذه المحرَّمات ولا نقلُها ولا حملُها.

بل لا يجوزُ لمسلمٍ أَنْ يجلِسَ في مكان تُشْرَبُ فيه هذه المحرَّمات:

عَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَجْلِسْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا بِالْخَمْرِ"(٢)، فمن جالَسهم فهو وإيَّاهم في الإثم سَواء، لقوله تعالى: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا**(١٤٠)﴾ [النساء].

ومن العجيب أَنَّ أُناساً نحسبهم طيِّبين يُدْعَوْن إلى مجالس الزُور حيث تشرب الخمور فيُجيبون الدَّعوة ويعتبرون ذلك منهم قياماً بواجب، كهؤلاء الذين يُشاركون في الأعراس التي تُراق فيها الخمرُ وتُضرَب فيها المعازِفُ سواءٌ في الفنادق أم في المنازل.

---

(١)صحيح : [ص.جه:٢٧٢٥]، جه(٢/١١٢١/٣٣٨٠) واللفظ له، د(١٠/١١٢/٣٦٥٧).

(٢)حسن : [ص.ت:٢٨٠١]، ت(٤/١٩٩/٢٩٥٣).

ويجب على هؤلاء الطيِّبين أَنْ يعلموا أَنَّ مقاطعةَ هذه الأعراسِ واجبة، وأَنَّ المشاركةَ فيها حرام.

ومن العجيب أَنَّ بعضَ الناس يجامل في هذه الأعراس بإهداء الخمر والمخدِّرات، وإهداءُ الخمرِ حرام:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ إِنَّ رَجُلاً أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَاوِيَةَ خَمْرٍ فَقَالَ لَهُ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَهَا قَالَ لاَ فَسَارَّ إِنْسَانًا فَقَالَ لَهُ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَ سَارَرْتَهُ فَقَالَ: أَمَرْتُهُ بِبَيْعِهَا فَقَالَ: " إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا قَالَ فَفَتَحَ الْمَزَادَةَ حَتَّى ذَهَبَ مَا فِيهَا"[(١)].

فإِنْ قيل: إِنَّ بعضَ المرْضى يُنْصَحُ أحياناً بشُرْبِ الخمر، فهل يجوزُ شُرْبُها للتَّداوي؟ فالجواب:

عَنْ طَارِقِ بْنِ سُوَيْدٍ الْجُعْفِيَّ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْخَمْرِ فَنَهَاهُ أَوْ كَرِهَ أَنْ يَصْنَعَهَا فَقَالَ: إِنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ فَقَالَ: " إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ"[(٢)].

وقال ابنُ مسعود: " إِنَّ اللهَ لمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُم فِيمَا حُرِّم عَلَيْكُم"[(٣)].

فإِنْ قيل: فما الذي يُعينُ على تَرْك الإدْمان؟

فالجواب: مما يُعينُ على تَرْك الإدْمانِ الاعتقادُ الجازِمُ بالبَعْثِ بعد الموتِ وما يَعقُبه من حَشْرٍ ونَشْرٍ وتطايُر صُحُفٍ وعَرْضٍ وسُؤالٍ وحسابٍ وجزاء، فإِنَّ الله لمَّا توعّد المطفِّفينَ قال : ﴿**أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)**﴾ [المطففين]،

---

(١) م(٣/١٢٠٦/١٥٧٩)، ن(٣٠٧و٣٠٨/٧).

(٢) م(٣/١٥٧٣/١٩٨٤)، د(١٠/٣٥٤/٣٨٥٦)، ت(٣/٢٦١/٢١١٩).

(٣) صحيح موقوف : [غاية المرام:٣٠]، خ تعليقا(١٠/٧٨).

ولمَّا توعَّد المرابين قال: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**(٢٨١)﴾ [البقرة]،

ولمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**(٦)**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**(٧)**فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ**(٨)﴾ قال: ﴿ **كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ**(٩)﴾ [الانفطار]،

فمن أراد أَنْ يُقْلِعَ عن الإدْمان فليعلَم أَنَّه إلى الله راجع، وبيْن يَدَيِ الله موقُوف، وأمامَ اللهِ مسئول، فليُعِدَّ للسؤال جواباً، فتقوية هذه العقيدة في القلب من أكبر أسبابِ الإقلاعِ عن الإدْمان، وفي ذلك يقولُ القائل:

أماَ واللهِ لو عَلِمَ الأنامُ لِمَا ... خُلِقوا لَمَا غفَلوا ونَامُوا

لقد خُلِقُوا لأمرٍ لو رأتْه ... عُيونُ قلُوبِهم تاهُوا وهَامُوا

مماتٌ ثم حشرٌ ثم نشرٌ ... وتوبيخٌ وأهوالٌ عِظَامُ

ليومِ الحَشْرِ قَدْ عَمِلَتْ أناسٌ ... فَصلّوا مِنْ مَخافَتِه وصَامُوا

ونَحْنُ إذَا أُمِرْنا أَوْ نُهِينَا ... كأهْلِ الكَهْفِ أيْقَاظٌ نِيَامُ

ومن أسبابِ الإقلاعِ عن الإدْمان: إقامُ الصلاة، فإنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**(٤٥)﴾ [العنكبوت]، **وقيل يا رسول الله : إِنَّ فُلاَنًا يُصَلِّى اللَّيل كُلَّهُ فَإِذَا أَصْبَح سَرَقَ! فقالَ:« سَتَنْهاهُ مَا تَقُولُ»**(١)

ومن الأسباب التي تُعينُ على الإقلاع عن الإدمان: تغييرُ البيئة كما جاء في الحديث:

---

(١) إسناد صحيح : [س.ض: ١/١٦]، حم(٢/٢٠٥/٢٢)، بز(١/٣٤٦/٧٢١)، طح (مشكل الآثار) (١/٦٠٤/٦٠١) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»(١).

* * *

---

(١)حسن : [ص.د:٤٠٤٦]، د(١٣/١٧٩/٤٨١٢)، ت(٤/١٧/٢٤٨٤).

ما يحل وما يحرم من اللهو

قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩)﴾ [البقرة]،

الإنسانُ عبدُ الله وسيِّدُ ما دُونَه من المخلوقات، فعَلَيْه أَنْ يعبُدَ الله كما أرادَ اللهُ وأن يَستعِينَ بخَلْقِ اللهِ على مُرادِ الله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦)﴾ [الذريات]،

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً(٧٠)﴾ [الإسراء]،

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١٣)﴾ [الجاثية].

والإنسانُ رُوحٌ وبَدنٌ قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧)ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨)ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ(٩)﴾ [السجدة].

والبَدنُ مَركِبُ الرُّوح، وكلُّ مركُوبٍ لابُّد أَنْ يُعْطَى من الغِذاءِ والرَّاحةِ والتَّرفيه ما يُعينه على مواصلة السَّيرِ والوصولِ براكبه إلى مَقْصده، وإلاَّ قعدَ عنْ مُواصلَةِ السَّير ولم يبلغْ بصاحِبه غايَته، فإنَّ المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهْراً أبقى .

ولذلك حثَّ الإسلامُ على الاقتصادِ في الطَّاعةِ والعبادةِ ونهى أَنْ يكلِّفَ الإنسانُ نفسَه ما تعجَزُ عنه أو يشقُّ عليها للاستمرار والمواظبةِ عليه:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَال: " اكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا"(١).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فَقَالَ: " مَا هَذَا الْحَبْلُ قَالُوا هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لاَ حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ"(٢).

وأمر الإسلامُ المسلمين أَنْ يُعْطُوا أنفسَهم حظَّها من طيِّباتِ ما أحلَّ اللهُ لهم من المأْكلِ والمشْربِ والملْبس والمنْكح، قال تعالى: ﴿**يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٣٢)**﴾[الأعراف].

وقال تعالى: ﴿**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ(٣)** ﴾ [النساء].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ" وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلْ مَا شِئْتَ وَالْبَسْ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ"(٣).

---

(١) متفق عليه: خ(٣/٣٦/١١٥١)، م(١/٥٤٠/٧٨٢)، د(٤/٢٤٢/١٣٥٥)، ن(٣/٢١٨).

(٢) متفق عليه: خ(٣/٣٦/١١٥٠)، م(١/٥٤٢و٥٤١/٧٨٤)، د(٤/١٩٦/١٢٩٨)، ن(٢١٨و ٣/٢١٩).

(٣) خ(١٠/٢٥٢) تعليقاً، وقال الحافظ: الحديث وصله أبو داود الطيالسي والحارث بن أسامة في مسنديهما. وأما أثر ابن عباس فوصله ابن أبي شيبة في مصنفه والدينوري في المجالس.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَتَزَوَّجْتَ يَا جَابِرُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَبِكْرًا أَوْ ثَيِّبًا؟ قُلْتُ: ثَيِّبًا، قَالَ: فَهَلاَّ بِكْرًا تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ»(١).

وكان النبيُّ ﷺ يُنْكِرُ على الذين يُجْهِدُون أنفسَهم في العبادةِ ويَحْرِمُونَها طيِّباتِ ما أحلّ الله لهم:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ: أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ: آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ وَقَالَ: آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(٢).

وزيادةً في تأنيسِ الصَّحابة كان النبيُّ ﷺ يجلسُ معهم وهم يضحكُون وربَّما مازحهم:

عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: قُلْتُ: لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ أَكُنْتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: نَعَمْ كَثِيرًا، "كَانَ لاَ يَقُومُ مِنْ مُصَلاَّهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ أَوِ الْغَدَاةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَامَ وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فَيَضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُ»(٣).

---

(١) متفق عليه: خ(٩/١٢١/٥٠٧٩)، م(٢/١٠٨٧/١٤٦٧) وهذا لفظه، د(٦/٤٣/٢٠٣٣)، ت (٢/٢٨٠/١١٠٦)، جه(١/٥٩٨/١٨٦٠).

(٢) متفق عليه : خ(٩/١٠٤/٥٠٦٣)، م(٢/١٠٢٠/١٤٠١)، ن(٦/٦٠).

(٣) م(١/٤٦٣/٦٧٠).

عَنْ أَنَس بْنِ مَالك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " لَهُ يَا ذَا الأُذُنَيْنِ"(١)،

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا قَــالَ: " إِنِّــي لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا"(٢).

وهكذا نخلُص إلى حِرْص الإسلامِ على أَنْ يظلَّ المسلمُ طيِّبَ النَّفس نشيطاً بالتَّرويح عن النَّفس وتسليتها بالمُباح لتستعينَ بذلك على أعباءِ الحياةِ ومُواصــلَةِ السَّيْر حتى يُقْضى بها الطريقُ إلى رِضْوانِ اللهِ والجنَّة .

ولكنَّ الإسلامَ حين يَدْعُوا إلى التَّرويح والتَّسليةِ يشْتَرِطُ لذلك شَروطًا :

منها: أَنْ لا يُسْرِفَ المُسلِمُ في اللَّهو واللَّعب بحيث يُضيِّعُ وقتَه، فإِنَّ الوقت أعزَّ ما يملُكه الإنسان، وهو عند المسلمِ أغْلى من المال، وقد عدّ العُلمــاءُ مــن علاماتِ سَلامة القلبِ أَنْ يكونَ أضنّ بوقته من ماله.

ولذلك قيل لأحدهم قِفْ أُكَلِمْك ! فقال: أمسك الشمس، يعني حتى لا تســيرَ فتنتقص من عمري .

وقال الإمامُ أبو الفرج ابنُ الجوزيِّ لابنه وهو يعظه: يا بُنَيَّ! "**مَنْ قَــالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ**"(٣)، فانظرْ إلى مُضَــيِّعِ السَّاعاتِ كم ضيَّع من نخلات.

وقد أخبرَ اللهُ تعالى أن الذين يضيّعون أوقاتَهم في اللَّهو واللعب سيندمون على ذلك عند حُلولِ الموْتِ بساحتهم ويسألون اللهَ أَنْ يمدَّ في عمُرهم ولو قلــيلاً ليتداركوا ما فات ولكنْ هيهاتَ هيهاتَ قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ**

---

(١) صحيح : [ص.ت:١٩٩٢]، ت(٣/٢٤١/٢٠٥٩).

(٢) صحيح : [ص.ت:١٩٩٠]، ت(٣/٢٤١/٢٠٥٨).

(٣) صحيح : [ص.ت:٣٤٦٤]، ت(٥/١٧٤/٣٥٣١)، حب(٥٨٠/٢٣٣٥).

قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾ [المؤمنون]،

ولذلك وصَّى النبيُّ ﷺ باغتنام الحياة كما وصَّى باغتنام الفَراغ فقال: **"اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ حَيَاتَكَ قَبلَ مَوْتِكَ، وشَبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قَبْلَ مَرَضِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفَراغَكَ قَبْلَ شُغْلِك"**[١].

وبيَّن ﷺ أَنَّ من لم يَغْتَنِمْ فراغه خاسر:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ"[٢].

ومنها: أَنْ لا يشغلَه اللَّهْو عن واجب: كأَنْ يشتغِلَ المسْلِمُ باللّهوِ واللَّعبِ عن الصَّلاةِ المفروضَة، أو عن صِلَةِ الرَّحم أو بِرِّ الوالديْن، أو قضاءِ حاجةٍ ولو من حوائج الدنيا، أو أَنْ يشتغلَ باللّهو عن مجالسِ العلم كما يحدُثُ في اللَّيالي التي تُقَامُ فيها مَبارَيات كُرَةِ القَدمِ يقلُّ روّادُ المساجد ويغيبُ النَّاس عن مجالس العلم، أو يشتغلَ الطالبُ باللَّهو واللَّعب عن واجباتِه المدرسَّية .

ومنها: أَنْ لا يُوقِعَ في الحرام: كالكَذِب والغيبة والاختلاطِ والنَّظر المحرَّم ونحو ذلك ، فإِنَّ الناس إذا فرَغُوا من أعمالِهم وجلَسُوا يتسامَرُون قد يكْذِبُ أحدُهم ليُضْحِكَ إخوانَه، **والنبيُّ ﷺ يقول: " وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ"**[٣].

وقد يغتاب أخاه ويسخَرُ منه ويَحْكي أقوالَه وأفعالَه ليُضحِكَ إخوانَه،

---

(١) صحيح : [ص.ج:١٠٨٨]، كم(٤/٣٠٦).

(٢) خ (١١/٢٢٩/٦٤١٢)، ت(٣/٣٧٧/٢٤٠٥)، جه(٢/١٣٩٦/٤١٧٠).

(٣) حسن : [ص.د:٤١٧٥]، د(١٣/٣٣٤/٤٩٦٩)، ت(٢/٣٨٢/٢٤١٧).

والنبيُّ ﷺ يقول: « مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلاً وَأَنَّ لِي كَذَا وكَذَا»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: « أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ، قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»(٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ قَالَ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»(٣).

أَمَّا الاختلاطُ فقد نهى الله تعالى عنه فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ(٥٣)﴾ [الأحزاب]، وأمر بغَضِّ البَصرِ فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣١)﴾ [النور].

ومنها: أَنْ لا تكونَ وسيلةُ اللَّهْوِ محرَّمةً في نفسها: كالمَيْسرِ فإنَّ اللهَ تعالى

---

(١) صحيح: [ص.ت:٢٥٠٢]، ت(٢٦٢٤/٧٢/٤)، د(٤٨٥٤/٢٢١/١٣).
(٢) م(٢٥٨٩/٢٠٠١/٤)، د(٤٨٥٣/٢٢٠/١٣)، ت(١٩٩٩/٢٢٠و٢٢١/٣).
(٣) صحيح: [ص.د:٤٠٨٢]، د(٤٨٥٧/٢٢٣/١٣).

قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(٩١)﴾ [المائدة]،

والمَيْسِرُ "كُلُّ لَعِبٍ بيْن فريقيْن تتحقَّق فيه الخسَارةُ من فريقٍ والرِّبحُ من الفريق الآخر على سبيلِ المصادَفةِ والحظِّ سواءٌ كان اللَّعِبُ بالكُرَةِ أو الطاولة أو الشطرنج أوَ بالكوتشينة أو بالسيجة وما شابه ذلك فكل لَعِبٍ على فلُوسٍ بيْن الفريقين يربَحُها من يَغلِبُ ويخسَرُها من يُغلب فهو قِمارٌ حرام"[1]،

واللَّعَبُ بالطاولةِ والشطرنج ونحوِهما من الضُّمنو والكوتشينة حرامٌ ولو لم يكن على فلوس.

أمَّا تحريم الطاولة فبالنصِّ :

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ"[2]،

وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ"[3]،

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ بَلَغَهَا أَنَّ أَهْلَ بَيْتٍ فِي دَارِهَا كَانُوا سُكَّانًا فِيهَا وَعِنْدَهُمْ نَرْدٌ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ لَئِنْ لَمْ تُخْرِجُوهَا لأُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ دَارِي وَأَنْكَرَتْ

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام (٩٣٠-٢/٩٣٢).

(٢) حسن : [ص.د:٤١٢٩]، د(١٣/٢٨٣/٤٩١٧)، ط(٦٨١/١٧٤٢)،جه(٢/١٢٣٧/٣٧٦٢).

(٣) م(٤/١٧٧٠/٢٢٦٠)، د(١٣/٢٨٣/٤٩١٨)، جه(٢/١٢٣٨/٣٧٦٣).

ذَلِكَ عَلَيْهِمْ»(١).

ومعنى ذلك أنَّه لا يجوز لمسلمٍ أَنْ يأذَن لأحدٍ أَنْ يلعب بالطَّاولة في داره ولو كان ساكناً، فإنْ لم ينْتَهِ أخرجه وطرَدَه، فكيف بالذي يؤِّجر دارَه لتكون مقهى يُلْعَبُ فيه كلُّ ألعابِ الميْسر والقِمار :

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو بن الْعَاصِ قال: «اللاَّعِبُ بالفَصَّيْن قماراً كآكل لَحْمِ خِنْزِيرِ، واللاَّعِبُ بِهِمَا غَيْرَ قِمَارٍ كالْغَامِس يَدَه فِي دَمِ خنزير»(٢)،

وقال ابنُ مسعود: «إِيَّاكُمْ وهَاتَيْنِ الْكَعْبَتَيْنِ الْمَوْسُومَتَيْنِ اللَّتيْن تُزْجَرَانِ زَجْرًا فَإنُهما مِنَ الْمَيْسر »(٣) .

وكان الصَّحابَةُ يُنْكِرُون على من يَلْعَبُ بالطَّاولةِ من أهليهم أو جيرانهم:

فَعَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ «أَنَّهُ كَانَ إِذَا وَجَدَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهِ يَلْعَبُ بِالنَّرْدِ ضَرَبَهُ وكَسَرَهَا»(٤).

«هذه الألعابُ تستغرقُ قلبَ اللاَّعب وعقلَه وفِكْرَه حتى لا يحسَّ بجوُعِه ولا عَطَشه ولا بمن يسلِّم عليه ولا بحال أهله، ولا بغير ذلك من ضرورات نفسه وماله، فضلاً أَنْ يذكُرَ ربَّه أو الصَّلاة، فيثبُتُ بذلك تحريمُ هذه الألعابِ وإنْ لم تكنْ على مال»(٥).

---

(١)صحيح : [ص.خد:٩٦١]، ط(٦٨٢/١٧٤٣).

(٢)صحيح الإسناد موقوف : [ص.خد:٩٦٣].

(٣)صحيح : [ص.خد: ٩٥٨].

(٤)صحيح الإسناد موقوف : [ص.خد:٩٦٠] ، ط(٦٨٢/١٧٤٤) .

(٥) مجموع الفتاوى (٢١٦-٣٢/٢٢٧).

" ومن وسَائلِ اللّهو المحرَّم الاستماعُ إلى الغِناء المصْحُوب بالموسيقى، مهما كان هذا الغِنَاءُ مباحاً في ذاته، كغناءِ العُمَّال لبعث الهِمَّة على العَمل الثقيل، وكالحِدَاء الذي يحدُو به الأعرابُ إبلَهم، وكالشِّعر السَّالم من الفُحْشِ والخَنا، وكغناءِ الأمِّ لابنها لينام، فإنَّ هذا الغِناءَ جائزٌ ما لم تَصْحَبْه الموسيقى، فإنْ وُجدَتْ الموسيقى مع الغناء حَرُم مِنْ أَجْلِها فكيف لو كانت الموسيقى مع غناءٍ مائع يثير الغريزةَ والشَّهوة، ويَصِفُ النِّساءَ ويشبِّب بهنَّ ويدعو إلى الكُفْرِ والفسُوقِ والعصيان؟! "(١).

إنَّ هذا الغناءَ وهذه الموسيقى من مُوجباتِ سخَطِ الرَّب وغَضَبه وعِقَابه:

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيُّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ يَعْنِي الْفَقِيرَ لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا فَيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ وَيَضَعُ الْعَلَمَ وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"(٢).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ "نَهَى عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْكُوبَةِ ، وَهِيَ الطَّبل"(٣).

" ومن وسائل اللَّهو المحرَّمةِ رؤيةُ الأفلامِ والمسلْسَلاتِ والتمثيليَّاتِ عَبْرَ التليفزيون أو الفيديو أو الكمبيوتر، فإنَّ مشاهدة هذه الأفلام ظاهر وإفسادها بين، فهي تدعُو إلى الجريمةِ وإلى الفسقِ والعصيان، وتنشرُ الرذيلةَ بيْن الناسِ وتُشيعُ الفَاحشةَ فيهم هذا مع كوْنِها دائماً مصحوبةً بالموسيقى والغناء"(٤).

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام (٩١٨-٢/٩٢٠).
(٢)صحيح : [تحريم آلات الطرب:٣٨]، خ(١٠/٥١/٥٥٩٠).
(٣)صحيح : [ص.د:٣١٤٣]، د(١٠/١٦٢و١٦١/٣٦٧٨).
(٤) تربية الأولاد في الإسلام(٩٢٣-٢/٩٣٠).

ومن الألعاب المحرَّمة البلاي استيشن: تلك اللُّعبة التي تأخذُ من أوقاتِ الأطفالِ ساعاتٍ طوال يمتنعُون فيها عن الأكل والشُّرب فضلاً عن الصَّلاة، لها مضارُّها السَّيِّئةُ على عقيدةِ الأطفالِ وأخْلاَقِهم وأذْهانِهم وصِحَّتْهم، "ولقد صرَّح بعضُ الأطِّباءِ بأَنَّ هذه اللُّعبةَ وأمثالَها من الألعاب الإلكترونية تُسِّببُ الصَّرع، لأَنَّها تعتمدُ على عُنْصُرِ السُّرْعة والمفاجأة ووجُوبِ أَخْذِ الحيْطَةِ والحذَرِ وسُرْعةِ التصرُّف، مما يجعلَ الطفلَ يتحفَّز طوال مدَّةِ اللَّعَب، وهذا بَدْورِه يؤدِّي إلى التوتَّر والشِّد العَصبِّي والإجهاد.

وقد يحصلُ أَنْ يُخْطِئَ الطفلُ أو يَخْفَقَ في تسجيلِ الهدَفِ أو النَّجاحِ في اللُّعبةِ مما يجعلُه يقوم ببعضِ الحركَاتِ اللاإراديَّة للتعبير عن شُعورِه فيضربُ الطاولَةِ أو يصرخُ بصوتٍ عالٍ أو يسبُّ أو يشتم وجميعُ هذه التصرُّفاتِ اللاإراديَّةِ لها تأثيرَها السَّلبي على حياته من حيثُ التعوُّدُ على هذا السُلوكَ العَصبيِّ غير الصِّحيِّ ومالَه من آثارٍ مرَضيَّةٍ قد ينتج عنها الصَّرعَ أو التشنُّجاتُ التي تحدثُ بسبب الضَّغْطِ على بعض أجزاءِ المخ أو الجهَازِ العصبي.

ولقد وُجدت حالاتٌ طبِّيَةً حديثاً تبيَّن منها أَنَّ الأطفالَ الذين يُمارسوُنَ هذه الألعابَ لفتراتٍ طويلةٍ يتعرَّضون لبعْضِ المواقفِ النفسيَّةِ بعيدةِ الأثرِ مثل الكآبة والعُزْلة والانطواء .

كما أَنَّ لهذه الألعاب آثارَها السيئة عليهم كالقَلقِ والاضطرابِ والفَزعِ في النَّوم حيثُ يحكِي الطفلُ بصوتِه وحركَته ما شاهَده على الشاشَةَ طُوالَ هذه الفترة»(١).

---

(١) مجلة الدعوة السعودية(العدد ١٧٩٣ ربيع أول ١٤٢٢هـ ٢٤مايو ٢٠٠١).

فيا معشرَ الآباء خذُوا على أيدي أبنائكم وراقِبُوهم في جميعِ أحوالِهم حتى في لَعِبهم « **فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[١].

* * *

(١) متفــــق عليــــه :خ(١٣/١١١/٧١٣٨)، م(٣/١٤٥٩/١٨٢٩)، ت(٣/١٢٤/١٧٠٧)، د(٨/١٤٦/٢٩١٢).

الأيمـــان والنـــذور

قال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(٢٢٥)** ﴾ [البقرة]،

وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ(٢٧٠)** ﴾ [البقرة].

والأيْمانُ جمع يَمين، وأصلُ اليمينِ في اللّغة اليد، وأُطْلِقتْ على الحَلِفِ لأَنَّهم كانُوا إذا تحالَفُوا أخذَ كلٌّ منهم بيمين صاحبه.

وهي في الشرع: توكيدُ الشَّيء بذكرِ اسمٍ لله أو صفةٍ له، ولا تَنْعقِدُ اليمينُ إلاَّ بذلك.

وقد نهى النبي ﷺ عن الحلف بغير الله :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَهُوَ يَسِيرُ فِي رَكْبٍ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ فَقَالَ: « أَلاَ إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[1]. لأَنَّ الحَلِفَ فيه معنى التَّعظيم لمن يُحلَف به وأنَّه ذُو مكانة عاليَةٍ ودرَجةٍ رفيعة في القلب، ولا يجوز تعظيمُ غيرُ الله، **ولذلك قال النبي ﷺ : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»**[2].

---

(١) متفق عليه: خ(٦٦٤٦/٥٣٠/١١)، م(١٦٤٦-٣-/١٢٦٧/٣)، د(٣٢٢٣/٧٧/٩)، ت(١٥٧٣ /٤٥/٣).

(٢) صحيح : [ص.ت:١٥٣٥]، ت(١٥٧٤/٤٥/٣).

وقد يعتَذرُ البعضُ عن حَلِفهم بغير الله بأنَّهم يخافون الكَذِبَ، وبأَنَّ اللهَ نهَى عن الحَلِف به فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ(٢٢٤)﴾[البقرة]،

والجوابُ عن الشُّبهة الأولى عن ابن مسعود قال: « **لأَنْ أحلف بالله كاذبا أحبُّ إليّ من أَنْ أحلِفَ بغيْرِ الله صادقاً**»(١).

وأَمَّا الآيةُ فليس معناها ما فَهمُوه من كَوْنها تنهَى عن الحَلِف بالله، وإنَّما معناها كما قالَ ابنُ كثير عن ابن عبَّاسٍ قال: « **لا تجعلنّ عُرْضَةً ليمينك أَنْ لا تَصْنَعَ الخَيْر، ولَكِنْ كَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ واصْنَعِ الْخَيْر**»(٢).

ولا يجوزُ الحَلِفُ بملَّةٍ غيرِ مِلَّةِ الإسلام:

عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ مِلَّةِ الإِسْلَامِ فَهُوَ كَمَا قَالَ»(٣).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنَ الإِسْلَامِ فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا لَمْ يَعُدْ إِلَى الإِسْلَامِ سَالِمًا»(٤).

والأَيْمانُ على ثَلاثة أقسامٍ: اليمينُ اللَّغْوُ،واليمينُ الْغَمُوسُ،واليمينُ المُنْعَقِدةُ:

أَمَّا اليمينُ اللَّغوُ: فهي الحَلِفُ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ اليمين، كقولِ الرَّجلِ لأخيه والله لتأكلنّ فيجيبه لا والله لا آكل، وأيمْانِ الرّكّابِ على دفع الأُجْرة واللهِ لأدفعنَّ،

---

(١) الطبراني في الكبير(٩/٢٠٥/٨٩٠٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢٦٦).

(٣) متفق عليه: خ(١١/٥٣٧/٦٦٥٢)، م(١١٠-١٧٧-/١٠٥/١) وهذا لفظه، د(٩/٨٣/٣٢٤٠)، ت(٣/٥٠/١٥٨٣)، ن(٧/٦)، جه(١/٦٧٨/٢٠٩٨)،

(٤) صحيح: [الإرواء:٢٥٧٦]، د(٩/٨٥/٣٢٤١)، ن(٧/٦)، جه(١/٦٧٩/٢١٠٠).

والله لا تدفع، ونحوُ ذلك، ولا ينعقدُ هذا اليمينُ ولا يؤاخَذ بـــه الحَـــالِفُ، لقولـــه تعالى: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِـــي أَيْمَـــانِكُمْ وَلَكِـــن يُؤَاخِـــذُكُم بِمَـــا كَسَـــبَتْ قُلُوبُكُمْ(٢٢٥)﴾ [البقـــرة]، وقوله تعالى: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِـــن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ(٨٩)﴾ [المائدة].

عن عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا ﴿ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ قَالَ: قَالَتْ: " أُنْزِلَتْ فِي قَوْلِهِ لاَ وَاللَّهِ بَلَى وَاللَّه»[(١)].

أَمَّا اليمينُ الغَمُوسُ: فهي اليمينُ الكاذِبَةُ التي تُهْضَمُ بها الحُقُوقُ وتَضــييع، أو يُقْصَدُ بها الفسْقُ والخِيَانة، وسُمِّيتْ بذلك لأَنَّها تَغْمِسُ صاحِبَها فـــي الإثـــم أو النار، **عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْـــرِئٍ مُسْـــلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ فَقَالَ: لَهُ رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ شَـــيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»[(٢)].**

قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٩٤)**﴾ [النحل]،

قال الطبريُّ: "معنى الآيةِ لا تَجْعَلُوا أيمانَكم التي تحلِفُون بها علـــى أَنَّكـــم تُوفونَ بالعهدِ لمن عاهَدتُموه دَخَلاً أي خديعةً وغَـــدْراً ليطْمَئِنُّـــوا إِلـــيكم وأنـــتم تُضْمِرُون لهم الغَدْرِ»[(٣)].

وهذه اليمينُ مِن الكبائرِ ولا كفَّارة لها لأَنَّ الله يقول: ﴿**وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ**﴾ وهذه يمينٌ غير منعقدة، لأَنَّ المُنْعَقِدَ ما يُمْكِنُ حلّه، ولا يتأتّى في

---

(١) خ (١١/٥٤٧/٦٦٦٣).

(٢) م(١٣٧/١٢٢/١)، ط(١٤٠٧/٥١٥)، ن(٨/٢٤٦).

(٣) تفسير الطبري (١٤/١٦٦).

اليمينِ الغَمُوس البرُّ أصْلاً:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " الْكَبَائِرُ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ"(١)،

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَال رسُولُ اللهِ ﷺ : " خَمْسٌ ليس لَهُنَّ كفَّارةٌ: الشِّرْكُ بالله عزَّ وجلّ، وقَتْلُ النَّفْسِ بغيْرِ حَقٍّ، أوْ نَهْبُ مُؤْمِنٍ ، أَوِ الفِرَارُ مِنَ الزَحْفِ، أوْ يَمِينٌ صَابِرَةٌ يقْتَطِعُ بِهَا مالاً بغَيْرِ حَقٍّ"(٢).

وأَمَّا اليمينُ المنعَقدةُ فهي اليمينُ التي يَقْصِدُها صاحبُها ويصمِّمُ عليها توكيداً لفعلِ شيءٍ أو تركه، فإنْ برَّ بيمينه فلا شيءَ عليه، وإنْ حنثَ فعليه الكفَّارة، وهي المذْكُورةُ في قوله تعالى: ﴿**فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ**(٨٩)﴾ [المائدة]،

ولا يُجْزِئُ الصِّيَامُ إلاَّ بعد العَجْزِ عما قبلَه، وأَمَّا الخِصَالُ السَّابقة فهي على التَّخيير بأيّها كفَّر أجزأتْه.

وإذا حلَف على فعلِ شيءٍ أو تَرْكه ثم حنثَ عن خطأ أو نسيانٍ فلا جُناحَ عليه لقوله تعالى: ﴿**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**(٥)﴾ [الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**(٢٨٦) ﴾ [البقرة]، وفي الحديث، "**قَالَ الله تعالى: نَعَمْ**"(٣)،

---

(١) خ (٦٦٧٥/٥٥٥/١١)، ت(٣٠٣/٥٠١٠/٤)، ن(٨٩/٧).

(٢) حسن : [ص.ج:٣٢٤٧]، حم(٢٢٠/٦٨/١٤).

(٣) م(١٢٥/١١٥/١).

ومن حلَف فقال إنْ شاء اللهُ فقد استثنى فإنْ كان حلَف على فِعْلٍ ولم يفعل أو على تَرْكٍ ولم يترُك فلا جُناحَ عليه:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَنْ حَلَفَ وَاسْتَثْنَى إِنْ شَاءَ رَجَعَ وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ غَيْرُ حَانِثٍ"(١)،

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ نَبِيُّ اللَّهِ لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ: لَهُ صَاحِبُهُ أَوِ الْمَلَكُ قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ، إِلاَّ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلامٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "وَلَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ: لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ"(٢).

ومن حلَف على فِعْلِ شيءٍ أو تَرْكِه ثم تبيَّن له أنَّ الخيْرَ في غيرِه كفَّر عن يمينِه وفعل الخيْر:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ"(٣).

ولا يجوزُ له أَنْ يُصرَّ على البرِّ بيمينه وتَرْكِ الخيْر، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٢٤)﴾ [البقرة]،

قال ابنُ عباس: "لا تجعلنّ عُرْضَةً ليَمينِكَ أَنْ لا تصنَع الخيْرَ، ولكنْ كفِّر عن يمينِكَ واصنَع الخَيْر"(٤)،

---

(١) صحيح: [ص.جه:١٧١١]، جه(٢١٠٥/٦٨٠/١)، ن(٧/١٢)، د(٣٢٤٥/٨٨/٩).

(٢) متفق عليه: خ(٦٦٣٩/٥٣٤/١١)، م(١٦٥٤-٢٣-/١٢٧٥/٣)وهذا لفظه، ن(٧/٢٥).

(٣) م(١٦٥٠-١٣-/١٢٧٢/٣)، ت(١٥٦٩/٤٣/٣).

(٤) تفسير ابن كثير(١/٢٦٦).

وَعَنْ أَبِي هُرَيرَة قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَاللَّهِ لأَنْ يَلِجَّ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ"[(١)].

قال النوويُّ: "معنى الحديثِ أَنَّ مَنْ حلفَ يميناً يتعلَّق بأهلِه بحيثُ يتضرَّرون لعدَم حنْثِه فيه فينْبَغي أَنْ يحنثَ فيفعلِ ذلكَ الشيءَ ويكفِّر عن يمينه، فإنْ قال لا أحنُثُ بل أتورَّع عن ارتكابِ الحِنْثِ خشيةَ الإثم فهو مخطئٌ بهذا القولِ بل استمرارُه على عدَمِ الحِنْثِ وإقامةِ الضَّرر لأهلِه أكثرُ إثماً، ولابُدَّ من تنزيله على ما إذا كان الحِنْثُ لا معصيةَ فيه"[(٢)].

ومعنى كلامِه رحمه الله أَنَّ من حلَف-مثلاً- أَنْ لا يُكلِّم أخاه أوَ لا يدْخُلَ داره، فإنَّ من الخير أَنْ يكفِّر عن يمينه ويكلِّم أخاه ويدخُلَ دارَه، ولا يجوز أَنْ يقول -مثلاً- اصْطَلَحْنا ولكني حَلفتُ أَنْ لا أدخُلَ دارَه ولن أدخُلَها بِرًا بيميني.

والتَّحريمُ يقومُ مقامَ اليمين، كأَنْ يقول: هذا الطَّعامُ حرامٌ عليَّ، أو كلامُ فُلانٍ عليَّ حرام، أو دخُول دارِ فُلانٍ عليَّ حرام، فمَن حرَّم عليه شيئاً فعليه كفَّارة يمين واستحلالُ ما حرَّم على نفسه لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ (٢)﴾ [التحريم]:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْرَبُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا فَوَاطَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَلَى أَيَّتُنَا دَخَلَ عَلَيْهَا فَلْتَقُلْ لَهُ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ قَالَ: لاَ وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَلَنْ أَعُودَ لَهُ وَقَدْ حَلَفْتُ لاَ تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا"[(٣)].

---

(١) متفق عليه خ(٦٦٢٥/٥١٧/١١)، م(١٦٥٥/١٢٧٦/٣).
(٢) شرح مسلم (١٢٣/١١) .
(٣) خ(٤٩١٢/٦٥٦/٨).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا قَالَ: " فِي الْحَرَامِ يُكَفِّرُ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٢١)﴾ [الأحزاب]"(١).

أما النذور فهى جمعُ نَذْرٍ: وأصلُه الإنذارُ بمعنى التَّخويف .

وعرَّفه الرَّاغِبُ بأَنَّه إيجابُ ما ليس بواجبٍ لحدُوث أمر.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾ [الحج]،

وقد مدح اللهُ الموفِينَ بالنَّذر فقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)﴾ [الإنسان].

والنَّذرُ قِسْمان : مُطْلَقٌ ومُقيَّد، فالمُطْلَقُ هو أَنْ يقولَ الرَّجُل: للهِ عليّ نذرٌ أَنْ أُصلِّي الليلَةَ عشر ركعات، أو للهِ عليّ نذرٌ أَنَّ أصومَ من الشَّهر ثلاثةَ أيام، أو للهِ عليّ نذرٌ أَنْ أحجَّ هذا العام، فهذا نذرٌ مطلَقٌ غيرُ مقيد بشرط .

أَمَّا النَّذْر المقيَّد فهو المعلَّق على شرطٍ كأَنْ يقولَ الرجـلُ: إنْ شَفي الله مريضي ذبحتُ ذبيحة، إنْ نجحَ الولدُ صُمْتُ ثلاثةَ أيام، فهذا النَّذر المعلَّقُ خِلاَفُ الأدَب مع الله، لأَنَّ الأدبَ أَنْ تقدَّم الوسائِلُ بينْ يدي المقاصد .

لك حاجةٌ عندَ الله ترجو قضاءها: صُم، أو تصدَّق، أو اذبح ثم قل: اللهمَّ إنِّي أتوسَّل إليك بهذا العملِ إنْ كان خالِصاً لوجْهِكَ وابْتِغاءَ مرْضَاتِك أَنْ تقضيَ حاجتي .

---

(١) متفق عليه: خ(٤٩١١/٦٥٦/٨) ، م(١٤٧٣/١١٠٠/٢) .

أَمَّا تعليقُ الطَّاعةِ على قضاءِ الحاجَةِ فقد نهى عنه النبيُّ ﷺ :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ النَّذْرِ وَقَالَ: « إِنَّهُ لاَ يَرُدُّ شَيْئًا وَلَكِنَّهُ يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»(١)

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: أَوَلَمْ يُنْهَوْا عَنِ النَّذْرِ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ النَّذْرَ لاَ يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلاَ يُؤَخِّرُ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِالنَّذْرِ مِنَ الْبَخِيلِ(٢).

ولا يَصِحُّ النَّذرُ ولا ينعقِدُ إلاَّ إذا كان قُرْبَةً يتقرَّب بها إلى الله، أَمَّا إذا كان معصيةً كأن يقول الرّجلُ: للهِ عليّ نذرٌ إنْ زوَّجت الولدَ أَنْ آتي بفِرْقَةٍ وأعمَلُ فرحًا لم يَعملْه أحد، للهِ عليّ نذرٌ إنْ ختنتُ الولَد أَنْ أعَملَ مَوْلداً ونحو ذلك،

فهذا النَّذر لا يصحّ ولا يجوزُ الوفاءُ به، وعلى صاحبه كفَّارة يمين :

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلاَ يَعْصِهِ»(٣)،

وَعَنْها قَالَتْ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لاَ نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ»(٤).

---

(١) متفق عليه: خ(٦٦٩٣/٥٧٦/١١)، م(١٦٣٩/١٢٦٠/٣)، د(٣٢٦٣/١٠٩/٩)، ن(٧/١٦).

(٢) متفق عليه: خ(٦٦٩٢/٥٧٥/١١)، م(١٦٣٩-٣-/١٦٦١/٣) بدون قول ابن عمر.

(٣)خ(٦٦٩٦/٥٨١/١١)، د(٣٢٦٥/١١٣/٩)، ت(١٥٦٤/٤١/٣)، جـه(٢١٢٦/٦٨٧/١)، ن(٧/١٧).

(٤) صحيح :[الإرواء:٢٥٩٠]، د(٣٢٦٧/١١٥/٩)، ت(١٥٦٢/٤٠/٣)، جه(٢١٢٥/٦٨٦/١)، ن(٧/٢٦).

وأَمَّا من نذَر أمراً مُباحاً : كأَنْ يقولَ نذَرتُ أَنْ أحجَّ ماشياً، أو يقوم في الشمس، ولا يستظلّ، فلا ينعقدُ هذا النَّذر ولا يجب به شيء:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَدْرَكَ شَيْخًا يَمْشِي بَيْنَ ابْنَيْهِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِمَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا شَأْنُ هَذَا قَالَ ابْنَاهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَانَ عَلَيْهِ نَذْرٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « ارْكَبْ أَيُّهَا الشَّيْخُ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكَ وَعَنْ نَذْرِكَ»(١).

ومن نذر طاعةً ثم عجزَ عن الوفاءِ بنَذْره فعليه كفَّارةُ يمين:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ»(٢).

ومن ماتَ وعليهِ نَذْرٌ قضاه عنْهُ وَلِيّهُ :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: اسْتَفْتَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نَذْرٍ كَانَ عَلَى أُمِّهِ تُوُفِّيَتْ قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَاقْضِهِ عَنْهَا»(٣).

ومما يجب التنبيهُ عليه ،والتَّحذيرُ منه أَنَّ من نذَر لله أَنْ يذبَح في مكانٍ ما فإِنْ الوفاءَ لا يلزَمُه إلاَّ إذا كان هذا المكانُ لا يُذْبَحُ فيه لغيرِ الله، أو لا يُعْصَى فيه الله:

عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ، قَالُوا: لاَ، قَالَ: هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ

---

(١) م(٣/١٢٦٤/١٦٤٣).

(٢) م(٣/١٢٦٥/١٦٤٥)، ن(٧/٢٦).

(٣) متفق علية خ(١١/٥٨٣/٦٦٩٨)، م(٣/١٢٦٠/١٦٣٨) وهذا لفظه، د(٩/١٣٤/٣٢٨٣)، ت(٣/٥١/١٥٨٦)، ن(٧/٢١)، جه(١/٦٨٩/٢١٣٢).

مِنْ أَعْيَادِهِمْ، قَالُوا: لاَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَوْفِ بِنَذْرِكَ فَإِنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلاَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»(١).

فلا يجوز لمسلمٍ أَنْ يذبَح للهِ في مكانٍ يُذْبَحُ فيه لغير الله، كما لا يجوز أَنْ يصلِّي لله في وقتٍ يصلَّى فيه لغير الله كما نُهينا عن الصلاةِ عند طُلُوع الشَّمس وعند غُروبها، لأَنَّ عبَّاد الشَّمس يسجدُون لها عند طلُوعها وغرُوبها، فنُهينـا أَنْ نُصلِّيَ لله في هذيْن الوقتَين حتى لا تقعَ عبادتُنا في وقتٍ يُعبدُ فيه غيره الله .

وهذا من باب سدِّ الذَّرائع وتَرْكِ مُشابَهة المشركين، وإذا كان ذلكَ كـذلك عُلِمَ بداهةً أَنْ النَّذر لغيرِ اللهِ شِرْكٌ باللهِ لا يجوزُ لمسلمِ أَنْ يقعَ فيه.

فهذه النُّذُور التي يتقرَّب بها النَّاس إلى أصحابِ المقامـات والأضْـرِحَةِ ابتداءً من الشُّموع وانتهاءً بالذبائح كلُّها شِرْكٌ بالله يُخالفُ عقيدَة التَّوحيـد التـي يدينُ بها المسلمُ لله القائلِ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَـاتِي لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَشَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(١٦٣) ﴾ [الأنعام].

---

(١) صحيح: [ص.د:٢٨٣٤]، د(٣٢٨٩/ ٩/١٤٠).

الوصيّة الواجبة

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٨٢)﴾[البقرة]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(٥٨)﴾[الذاريات]، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ(٣٦)﴾[سبأ]، وقد أمر سبحانه وتعالى نبيَّه ﷺ أنْ يأخذَ من الأغنياء صدقةً للفقراء فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٠٤)﴾[التوبة].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ"(١).

وكَثُر في القرآن الكريم وأحاديث النبيِّ ﷺ الحثُّ على الصَّدقة والتَّرغيبُ فيها، قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٧١)﴾[البقرة]،

وَعَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: "أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ النَّارَ الْمَاءُ"(٢).

---

(١) متفق عليه: خ(٣/٢٧٨/١٤١٠)، م(٢/٧٠٠/١٠١٤)، ت(٦٥٦/٨٥و٢/٨٦)، جه(١/٥٩٠ /١٨٤٢).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢٦١٦]، ت(٤/١٢٥و١٢٤/٢٧٤٩)، جه(٢/١٣١٥و١٣١٤/٣٩٧٣).

إلاَّ أَنَّ الإنسانَ في صِحَّتِه وشَبابه يزداد حِرْصُه ويحضُره الشُّحُّ فيبخلُ عن نفسه، حتى إذا حضرَه الموتُ، ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ(٢٨)﴾ [القيامة]، وعَلِمَ أَنَّه ليس له من ماله إلاَّ ما قدَّم سأل اللهَ أَنْ يمدَّ في عمره ويؤخِّر عنه الموْتَ ليتصدَّق، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١١)﴾ [المنافقون].

ولكنَّه سبحانه تفضَّل على عباده وأَذِنَ لهم في الصَّدقة بثُلث أَموالهم عند موْتهم كما قال النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ عِنْدَ وَفَاتِكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ زِيَادَةً لَكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ» (١).

وقد أمر سُبحانَه بكتابة الوصيَّة بهذه الصَّدقة والإشْهاد عليها فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾ [البقرة].

والوصيَّةُ لغةً : مأخوذةٌ من وصَّى الشيءَ إذا وصلَه، لأَنَّ المُوصي وصلَ ما كان في حياته بعد موْته بتلك الوصيّة.

وهي شرعاً: هِبَةُ الإنسان غيرَه عيْناً أو دَيْناً أو منفعةً على أَنْ يملِكَ الموصَى له الهِبَةَ بعد موْت المُوصِي،والخيرُ في القرآنِ يُطْلَقُ على المالِ الكثير، فقد وصفَ اللهُ تعالى الإنسانَ بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ(٨)﴾ [العاديات].

والخيرُ هو المالِ كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا(٢٠)﴾ [الفجر].

فمن وسَّع اللهُ عليه ورزقَه مِنْ فضْله فالوصيّةُ عليه واجبةٌ لقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيّ فُرِضَ عليكم، وهذا ما أفادَه السِّياقُ السَّابقُ واللاَّحق، فقَبْل

(١) حسن: [ص.جه:٢١٩٠]، جه(٢٧٠٩/٩٠٤/٢)، طح(٤/٣٨٠)، هق(٦/٢٦٩) .

هذه الآيةِ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى(١٧٨)﴾ [البقرة]، وبعدَها قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣)﴾ [البقرة].

ثم أكَّد ربُّنا سُبحانَه فرْضِيَّةَ الوصّية بقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠)﴾ [البقرة].

وقد نزلت هذه الآية قبل آيات المواريث :

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ"(١).

ومعلومٌ أنَّ الوالديْن من أصحاب الفُروضِ الثَّابتة لا يحجبُهما حاجبُ فلا وصيَّةَ للوالديْن، أمَّا الأقربُون فمنْهم مَنْ يَرِثُ ومنْهم من لا يَرِث، فالوارثُ لا وصيَّةَ له، وغيرُ الوارثِ كابنِ الابنِ مع الابن فإنَّه محجوبٌ بعمِّه فلا يرث، فالوصيَّةُ له على جدِّه واجبة، فإنْ وصَّى نُفِذَت وصيَّتُه، وإنْ لم يُوصِ أُعطِيَ ابنُ الابن من مال جدِّه.

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ القدْرَ المأذُونَ به في الوصيَّة بقوله: "**إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ عِنْدَ وَفَاتِكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ زِيَادَةً لَكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ**"(٢).

ولَمَّا دخل النبيُّ ﷺ على سعد بن أبي وقَّاص يعودُه وهو مريضٌ قال: "**يَا رَسُولَ اللَّه بَلَغَنِي مَا تَرَى مِنَ الْوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلاَ يَرِثُنِي إِلاَّ ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: قُلْتُ أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: لاَ الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِير**"(٣).

---

(١) صحيح:[ص.جه:٢١٩٤]، جه(٢/٩٠٥/٢٧١٣)، د(٨/٧٢/٢٨٥٣)، ت(٣/٢٩٣/٢٢٠٣).

(٢) حسن: [ص.جه:٢١٩٠]، جه(٢/٩٠٤/٢٧٠٩)، طح(٤/٣٨٠)، هق(٦/٢٦٩) .

(٣) متفق عليه : خ(٥/٣٦٣/٢٧٤٢)، م(٣/١٢٥٠/١٦٢٧)، د(٨/٦٤/٢٨٤٧)، ن(٦/٢٤٢).

ولذلك قال ابنُ عباس: "وَددْتُ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا -أي نَقصُوا- من الثُلثِ إلى الرُّبعِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: "الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ" (١).

وقد دعا النبيَّ ﷺ إلى المبادرةِ بكتابةِ هذه الوصيَّة فقال: " مَا حَقُّ امْـرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ"(٢).

فإنَّ الموتَ يأتي بغتةً ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ(٣٤)﴾ [لقمان]، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ(٤٨)﴾ [المائدة] وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(١٣٣)﴾ [آل عمران].

عن أنسٍ قال: كانُوا يكتُبونَ في صدُورِ وصـايَاهم: بسْـمِ اللهِ الـرَّحمَنِ الرَّحيم. هذا ما وصّى بهِ فُلانُ بنُ فُلانٍ: يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَه إِلاَّ اللهُ وحدَه لا شَرِيكَ لهُ، وأَنَّ محمَّداً عبْده ورسُولُه، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ(٧)﴾ [الحج]،

وأَوْصَى مَنْ تركَ مِنْ أَهْلِه أَنْ يتَّقُوا اللهَ ويُصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِهِم ويُطِيعُوا اللهَ ورسُولَه إِنْ كانُوا مؤمِنين، وأَوْصاهم بما أَوْصَى بهِ إِبْراهِيمُ بَنِيـهِ وَيَعْقُـوبُ ﴿يَـا بَنِـيَّ إِنَّ اللَّـهَ اصْـطَفَى لَكُـمُ الـدِّينَ فَـلاَ تَمُـوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْـتُمْ مُسْلِمُونَ(١٣٢)﴾ [البقرة]"(٣)

---

(١) متفق عليه: خ(٥/٣٦٩/٢٧٤٣)، م(٣/٢٥٣/١٦٢٩)، ن(٦/٢٤٤)، جه(٢/٩٠٥/٢٧١١)

(٢) متفق عليه: خ(٥/٣٥٥/٢٧٣٨)، م(٣/١٢٤٩/١٦٢٧)، د(٨/٦٣/٢٨٤٥)، ن(٦/٢٣٨)، ت(٢/٢٢٤/٩٨١)، جه(٢/٩٠١/٢٦٩٩).

(٣) صحيح: [الإرواء:١٦٤٧]، قط(٤/١٥٤/١٦)، هق(٦/٢٨٧).

ثم يذكرُ ما وصّى به فيقول: وإنِّي قد وصيَّت لِفُلانٍ من مالي بكذا وكذا ولفُلانةٍ بكذا وكذا، وإنْ كان له أو عليْه ديْنٌ بيَّنه وبيَّن متى يُستَحقُّ، وكذلك إنْ كان له أو عنده أماناتٌ وودائع، ثم يُشْهِدُ على ذلك ذَويّ عَدْلٍ من المسلمين لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ(١٠٦)﴾ [المائدة].

والإضْرارُ في الوصيَّة حرام، لأَنَّ اللهَ تعالى قال : ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ(١٢)﴾ [النساء]، **وقال النبيُّ ﷺ : " لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ"(١).**

عَنْ أَبِي صِرْمَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَنْ ضَارَّ أَضَرَّ اللَّهُ بِهِ وَمَنْ شَاقَّ شَقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ"(٢).

ومن الإضْرَارِ في الوصيَّة الوصيَّةُ بالمالِ كلِّه أو أكثرَ مما أُذِن فيه وهو الثُلث، فقد يُبْتَلى الرَّجُلِ بعقوقِ بنيهِ فينتقمُ منهم بالتصدُّقٍ بمالِه كله.

أو يكونُ للرَّجُلِ أولادٌ من امرأةٍ تُوفِّيتْ أو طَلِّقتْ وله أولادٌ من غيرِها فيميلُ إلى الزَّوجةِ الموجودةِ فيكتُب لها ولأولادِها ويحرِمُ الآخرين، وهذا من الإضرارِ في الوصيَّة وهو حرام.

ومن الإضرار في الوصيَّة تفضيلُ بعْضِ الأولادِ على بعض، وتخصيصُ الذُّكور بالعطيَّة دون الإناث، فهذا حرام لأَنَّ الله تعالى قال: **﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا(٧)﴾** [النساء].

---

(١) صحيح : [ص.جه:١٨٩٥]، جه(٢/٧٨٤/٢٣٤٠).

(٢) حسن : [ص.جه:١٨٩٧]، جه(٢/٧٨٥/٣٢٤٢)،د(١٠/٦٣/٣٦١٨)، ت(٣/٢٢٣/٢٠٠٥).

والإضرارُ في الوصيَّة يُبْطِلُها فإذا ضارَّ الرَّجلُ في وصيَّته بـأيِّ أنـواع الإضرارِ لم يَجُزْ تنفيذُ هذه الوصيَّة، لقوله ﷺ: « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[١].

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[٢].

وَعَنْ عِمْرَانَ ابْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَجُلاً أَعْتَقَ سِتَّةَ مَمْلُوكِينَ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ لَـمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ غَيْرَهُمْ فَدَعَا بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «فَجَزَّأَهُمْ أَثْلاَثًا ثُمَّ أَقْـرَعَ بَيْـنَهُمْ فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً، وَقَالَ لَهُ قَوْلاً شَدِيدًا»[٣].

وعلى من عَلِمَ أَنَّ الوصيَّة التي أَوْصَلَتْ إليه حَقَّ غيره أَنْ يعتَبِرَ الوصـيَّةَ كأن لم تكن ولو كانت مسجَّلةً في الشهرِ العَقاريِّ على هيئة بيْعٍ وشراء، وعليـه أَنْ يردَّ الحقُوقَ إلى أهلها ويقْسِمَ التركةَ كمـا قسَـمها الله ﴿لِلـذَّكَرِ مِثْـلُ حَـظِّ الأُنْثَيَيْنِ (١١)﴾ [النساء].

وعلى مَنْ عَلِمَ بإضرارِ المُوصي أَنْ يُراجِعَه في الوصيَّةِ ويذكِّرَه بتَقْـوى الله والعَدْل، فإنْ رجع وإلاَّ كان لِمَنْ عَلِمَ بهذا الإضرار أَنْ يعدِلَ بيْن الورثَة مـا استطاع لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)﴾ [البقرة].

وإذا عَدلَ المُوصِي في الوصيَّة ثم بُدِّلتْ بعدَه أو غُيِّرَتْ أو أُنكرَتْ فقد باء مَن تلاعَب بالوصيَّة بالإثم لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)﴾ [البقرة].

---

(١) متفق عليه: خ(٢٦٩٧/٣٠١/٥)، م(١٧١٨/١٣٤٣/٣)، د(٤٥٨٢/٣٥٨/١٢)، جه(١٤/٧/١).

(٢) م(١٧١٨/١٣٤٣/٣)، خ تعليقاً (٣٥٥/٤) بزيادة في أوله.

(٣) م(١٦٦٨/١٢٨٨/٣)، د(٣٩٣٩/٥٠٠/١٠)، ت(١٣٧٥/٤٠٩/٢)، ن(٦٤/٤).

ولا يستَحِقُّ الموصَى له الوصيَّةَ إلاَّ بعد قَضاء الدَّين عن المُوصِي فإذا استغرَقتِ الدُّيونُ التَّركةَ، فليس للموصَى له شيء:

عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: "قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالدَّيْنِ قَبْلَ الْوَصِيَّةِ وَأَنْتُمْ تَقْرَءُونَهَا ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ(١١)﴾[النساء]"(١).

ولَمَّا كان الغالبُ على النَّاس في هذا الزَّمان الابتداعُ في الدِّين ولا سيِّما ما يتعلَّق بالجنائز كان ممَّا يجب على الرَّجلِ في الوصيَّة أنْ يُوصي أنْ يُجهَّزَ ويُدْفَن على السُّنةِ كما كان أصحابُ النبيِّ ﷺ يوصُون.

عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي هَلَكَ فِيهِ: "أَلْحِدُوا لِي لَحْدًا وَانْصِبُوا عَلَيَّ اللَّبِنَ نَصْبًا كَمَا صُنِعَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ"(٢)،

كما يجب عليه أنْ يُوصيهم بالصَّبر والاحتِسَابِ والرِّضا بالقضَاء وأنْ يُحذِّرَهم من الفزَعِ والجزَعِ لفِرَاقه، وأنْ ينهَاهم عن مُخَالَفةِ الشَّرع بنحْو لطمِ الخدُود وشقِّ الجيُوب والدُّعاء بدُعاء الجاهليَّة، وأنْ يبرأ ممن فعل ذلك من أهلِه:

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى قَالَ: وَجِعَ أَبُو مُوسَى وَجَعًا فَغُشِيَ عَلَيْهِ وَرَأْسُهُ فِي حَجْرِ امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِهِ، فَصَاحَتِ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْئًا، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: "أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا بَرِئَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ وَالْحَالِقَةِ وَالشَّاقَّةِ"(٣).

---

(١) حسن: [ص.جه:٢١٩٥]، جه(٢/٩٠٦/٢٧١٥)، ت(٣/٢٩٤/٢٢٠٥).

(٢) م(٢/٦٦٥/٩٦٦)، ن(٤/٨٠).

(٣) خ(٣/١٦٥/١٢٩٦) تعليقاً، م(١/١٠٠/١٠٤)، د(٨/٤٠٤/٣١١٤).

كما يجبُ على المُسلِم في وصيَّته أَنْ يحـذِّرَ أهلَه وذَويه من إقامةِ السُّرادقاتِ للعزَاء يومَ الوَفاة، أو في الخميس، أو الأربعين، أو في الذِّكرى السنويَّة فإنَّ هذه كلَّها من بدع للضلالة، فإنْ حذَّر المسلم منها في وصيَّته فقد أعذَر وأنذَر وبَرِئ، وإنْ لم يُحذِّر مِنْها في وصيَّته فعُمِلَتْ شاركَهم في الإثمِ وعُذِّب بذلك.

هذا وإنَّ من رحْمةِ اللهِ بالمسلمين أَنْ أتاح الفُرْصَةَ لأولياءِ الميِّت إنْ ماتَ ولم يتصدَّق أَنْ يتصدَّقوا عنه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّ أَبِي مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً وَلَمْ يُوصِ فَهَلْ يُكَفِّرُ عَنْهُ أَنْ أَتَصَدَّقَ عَنْهُ قَالَ: « نَعَمْ»[(١)].

وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه! إِنَّ أُمِّيَ افْتُلِتَتْ نَفْسَهَا وَلَمْ تُوصِ وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا قَالَ: نَعَمْ»[(٢)].

فمن مات ولم يتصدَّق فتصدَّق عنه وليُّه نفعَتْه، وإنْ كان الأفضلُ له أَنْ يتصدَّق في حياته قبلَ مماته لما في الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه! أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟ فَقَالَ: « أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى وَلاَ تُمْهِلَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلاَنٍ كَذَا وَلِفُلاَنٍ كَذَا أَلاَ وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ[(٣)].

---

(١) م(١٦٣٠/١٢٥٤/٣)، ن(٦/٢٥١).

(٢) متفق عليه : خ(١٣٨٨/٢٥٤/٣)، م(١٠٠٤/٦٩٦/٢)، د(٢٨٦٤/٨٨/٨)، ن(٦/٢٥٠).

(٣) متفق عليه : خ(١٤١٩/٢٨٤/٤)، م(١٠٣٢/٧١٦/٢)، ن(٦/٢٣٧)، د(٢٨٤٨/٦٧/٨).

وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)﴾ [المنافقون].

* * *

وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ [البقرة].

إنَّ من محاسن الإسلام أَنْ شرَع للنَّاس ما تستقيمُ به حياتُهم وتتحقَّقُ به مصالِحُهم، يَجْلِبُ النَّفعَ لهم ورفع الضُّرِّ عنهم، وبالتأمُّل والنَّظرِ يتبيَّن لنا أَنَّ مصالِحَ النَّاس ثلاثةُ أقسام :

ضروريَّة، وحاجيَّة، وتحسينيَّة، فأَمَّا الأمورُ الضرُوريَّة فهي ما تقومُ عليه حياةُ الناس ولابُدَّ منه لاستقامة مصالحهم، وإذا فُقِدَ اختلَّ نظامُ حياتهم ولم تستقم مصالِحهم، وعمَّت فيهم الفَوْضى وظهَرت فيهم المفاسد .

وأمَّا الأمورُ الحاجيّة : فهي ما يحتاج إليه النَّاسُ لليُسْرِ والسَّعةِ واحتِمَالِ مشاقِّ التَّكليف وأَعْباءِ الحياة، وإذا فُقِدَ لا يختلُّ نظامُ حياتِهم ولا تعمُّ فيهم الفَوْضى كما إذا فَقِدُوا الأمرَ الضروريَّ، ولكن ينالُهم الحرَجُ والضِّيق.

وأَمَّا الأمورُ التحسينيَّة: فهي ما يسمَّى بلغةِ العَصْر الكماليَّات، التي إنْ وُجِدَتْ كانت الحياةُ أرغدَ وأسعدَ، وإِنْ فُقِدَت لم تُؤثِّر على سيْرِ الحَياة واستقامتِها

ولقد شرَع الإسلامُ لتحقيق هذه الأمورِ كلِّها أحكاماً في جميع المجالاتِ المختلفة، وما ترك أمراً ضرورياً ولا حاجيًّا ولا تحسينياً إلاَّ وقد شرع له من الأحكام ما يكفُل إيجادَه وتكوينَه، وما يكفُل حِفْظَه وبقاءه.

ولقد وُجِدَ بالاستقراء أنَّ الأمورَ الضروريَّةَ ترجعُ إلى خَمْسةِ أشياء هــي: الدِّين، والنَّفس، والعقلِ، والعِرْض، والمال، فَحِفْظُ هذه الضروريَّاتِ الخَمْسِ لابدَّ منه لاستقامةِ حياةِ النَّاس وتحقيقِ مصالحهم، وإذا فُقِدَ واحدٌ منهــا اختــلَّ نظــامُ الحياةِ ولم تستقمْ مَصَالحُ النَّاس وعمَّت الفوضى، وانتشرت فيهم المفاسد.(١)

والنَّفس كضرورة من ضروريَّات الحياة، شرع الإسلام لإيجادِها الــزَّواج ليتحقَّقِ النَّسْلِ وتكثُرِ النَّفس .

ثم أمر الإسلامُ بحِمَايةِ النَّفس البشريَّة، ونَهى عن الاعتداءِ عليها بالقَتْل فما دُونه، وجعلَ القتَل من أُصُولِ المحرَّمات وقَرَنه بأكبرِها، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِــدَيْنِ إِحْسَــانًا وَلاَ تَقْتُلُــوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَــا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِــالْحَقِّ ذَلِكُــمْ وَصَّــاكُمْ بِــهِ لَعَلَّكُــمْ تَعْقِلُونَ(١٥١)﴾ [الأنعام].

وجعل قَتْلَ النَّفسِ البَريئةِ كَقتْلِ النَّاس أجمعين فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِــكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا(٣٢)﴾ [المائدة].

وتوعَّد القاتلَ بأقْسَى أنواع العقوبات فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِــنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُــوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(٣٠)﴾[النساء]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُــلْ مُؤْمِنًــا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَــهُ وَأَعَــدَّ لَــهُ عَــذَابًا عَظِيمًا(٩٣)﴾ [النساء].

---

(١) انظر " أصول الفقه" . خلاف (١٩٧-٢٠٤) .

وكثُرت الأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ في الحثّ على تعظيم حُرماتِ المسلمين وصيانةِ دمائهم وبيانِ وعيدِ المُخالف:

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ فَلاَ تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا أَوْ ضُلاَّلاً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(١).

عَنْ نَافِعٍ قَالَ: نَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ أَوْ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: «مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكِ»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ، قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ»(٣).

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»(٤).

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»(٥).

---

(١) متفق عليه : خ(٣/٥٧٣/١٧٣٩)، م(٣/١٣٠٥/١٦٧٩).

(٢) حسن : [ص.ت:٢٠٣٢]، ت(٣/٢٥٥/٢١٠١).

(٣) متفق عليه: خ(٥/٣٩٣/٢٧٦٦)، م(١/٩٢/٨٩)، د(٨/٧٧/٢٨٥٧)، ن(٦/٢٥٧).

(٤) خ(١٢/١٨٧/٦٨٦٢).

(٥) صحيح : [ص.جه:٢١٢١]، جه(٢/٨٧٤/٢٦١٩).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ»(١).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الدِّمَاءِ»(٢).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي! فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ، فَيَقُولُ فَإِنَّهَا لِي: وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ إِنَّ هَذَا قَتَلَنِي، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلاَنٍ، فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلاَنٍ فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ»(٣).

وزيادةً في حمَايةِ النَّفسِ البشريَّة شرعَ الإسلامُ القصَاصَ فقال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٧٩)﴾ [البقرة].

« والقِصَاصُ مأخوذٌ من القَصِّ وهو تَتَبُّعُ الأثر، قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ(١١)﴾ [القصص]، أي اتَّبِعي أثرَه، وقال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا(٦٤)﴾ [الكهف]، والمُرادُ به في الآيةِ: تَتَبُّعُ الدَّمِ بالقَوَد وهو القتل»(٤).

« وعَرَّفَ القِصَاصَ ونكَّرَ الحياةَ ليدلَّ على أنَّ في هذا الحكمِ حياةً عظيمة، لأَنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّه إذا قَتَل قُتل ارتدع عن القَتْل ورجَعَ عنه فأحيا نفسَه وغيره، وسَلِمَ صاحبُه من القتل وسَلِمَ هو من القَوَد، فكان في القِصَاصِ سببٌ حياةِ نفسيْن»(٥).

---

(١) صحيح: [ص،ج:٥١٢٣]، ت(١٤١٩/٤٢٧/٢).
(٢) متفق عليه: خ(٦٨٦٦/١٨٧/١٢)، م(١٦٧٨/١٣٠٤/٣)، ت(١٤١٨/٤٢٧/٢)، ن(٨٣/٧).
(٣) صحيح: [ص.ن:٣٧٣٢]، ن(٨٤/٤).
(٤) لسان العرب (٧٤و٧٥/٧).
(٥) الكشاف (١١١/١).

ولذلك كانَ فريضةً من الله، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى(١٧٨)﴾ [البقرة]، أي فُرِضَ.

ولا يكونُ القِصَاصُ إلاَّ في القَتْلِ العَمْد، وذلك أَنَّ القتَل أنواعٌ ثلاثة: عمدٌ، وشِبْهُ عَمْدٍ، وخَطأ .

فالعَمْدُ هو أَنْ يَقْصِدَ المكلَّفُ قَتْلَ إنسانٍ مَعْصُومِ الدَّمِ بما يَغْلِبُ على الظَّنِّ أَنَّه يُقْتَل به .

وشِبْهُ العَمْدِ: هو أَنْ يَقْصِدَ ضَرْبَهُ بما لا يَقْتُلُ عادةً فيموت.

والخَطأ: هو أَنْ يَفْعلَ المكلَّفُ ما يُباحُ له فِعْلُه كَرَمْيِ الصَّيْدِ أو نَحْوِه فيقْتُلَ إنسانًا.

ففي الخَطأ وشِبْه العَمْد الكفَّارةُ على القاتِل والدِّيَةُ على عاقِلَتِه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(٩٢)﴾ [النساء]،

وأَمَّا القَتْلُ العَمْدُ فوليّ المقتُول فيه بالخِيَار بيْن القَوْد والعَفْو على الدِّيَة أو مجَّاناً، لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٨)﴾ [البقرة].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ الله ﷺ : "وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِمَّا أَنْ يُعْطَى يَعْنِي الدِّيَةَ وَإِمَّا أَنْ يُقَادَ"(١).

وليست هذه الدِّيَةُ هي الواجبةَ بالقَتْلِ بل هي بدلُ القِصَاص، ولذا فإنَّ لهم أَنْ يُصَالِحُوا على غَيْرِ الدِّيةِ ولو بالزيادة لقوله ﷺ :

"مَنْ قَتَلَ عَمْدًا دُفِعَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ فَإِنْ شَاءُوا قَتَلُوا وَإِنْ شَاءُوا أَخَذُوا الدِّيَةَ وَذَلِكَ ثَلاثُونَ حِقَّةً وَثَلاثُونَ جَذَعَةً وَأَرْبَعُونَ خَلِفَةً وَذَلِكَ عَقْلُ الْعَمْدِ مَا صُولِحُوا عَلَيْهِ فَهُوَ لَهُمْ وَذَلِكَ تَشْدِيدُ الْعَقْلِ»(٢).

والعَفْوُ مجَّاناً أكثرُ ثواباً وأعْظَمُ أجراً، لقوله تعالى: ﴿**وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**(٢٣٧)﴾ [البقرة]، ولقوله ﷺ : **"وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا"(٣).**

وقد رغَّب ربُّنا سبحانه في العَفْوِ المُطْلَق فقال: ﴿**وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا**(٩٢)﴾ [النساء].

فإنْ عَفَوْ مطلَقاً فقد وقع أجرُهم على الله، وإنْ عَفْو عن القَتْل مقابلَ الدِّيَةِ فعلَيْهم أَنْ يُحْسِنُوا الطَّلبَ وعلى القاتلِ أَنْ يُحْسِنَ الأداء، لقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**(١٧٨)﴾ [البقرة]، ﴿**ذلك تخفيف من ربكم ورحمة**﴾.

حيث خفَّف عنكم رحمةً بكم فجعل لكم قُبولَ الدِّيَةِ في القَتْلِ العَمْدِ بدل القصاص، ولم تكن مشروعَةً لمن قبلكم :

---

(١) متفق عليه: خ(٦٨٨٠/١٢/٢٠٥)، م(١٣٥٥/٢/٩٨٨).

(٢) حسن: [ص.ت:١١٢١]، ت(١٤٠٦/٢/٤٢٣)، جه(٢٦٢٦/٢/٨٧٧).

(٣) م(٢٥٨٨/٤/٢٠٠١)، ت(٢٠٩٨/٣/٢٥٤).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا قَالَ: "كَانَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قِصَاصٌ وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمُ الدِّيَةُ فَقَالَ اللَّهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَالْعَفْوُ أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي الْعَمْدِ قَالَ ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَنْ يَطْلُبَ بِمَعْرُوفٍ وَيُؤَدِّيَ بِإِحْسَانٍ"(١).

فإنْ اصْطَلَحُوا على الدِّيَةِ أو عَفْو عنها ثمَّ قتلُوا فقد اعتَدَوْا. والله تعالى يقول: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٨)﴾ [البقرة]، يعني في الآخرة مع ما ترتَّب على قتله من القصاص كما سبق بيانه.

وقد ذهب بعضُ العُلماء إلى أنَّ مَنِ اعتدَى بعد الصُّلْحِ بالقَتْلِ قُتِلَ قِصَاصاً ولا يُعفَى عنه، وذلك لأنَّ الاعتداءَ بعد الصُّلْحِ يؤدِّي إلى الإسراف في القَتلِ الذي نهَى اللهُ عَنْه في قوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا(٣٣)﴾ [الإسراء].

ومن الإسرافِ في القَتْلِ قَتْلُ غير الجاني، وقَتْلُ الكبيرِ بالصغير، والعظيمِ بالحقير، والجماعةِ بالواحد.

ولا يجب القِصَاصُ إلاَّ إذا توفَّرت هذه الشروط:

١- تكليفُ القاتل، فلا قِصَاصَ على الصغير أو المجنون أو النائم لقوله ﷺ: **" رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاَثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الْمُبْتَلَى حَتَّى يَبْرَأَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَكْبُرَ"**(٢).

---

(١) خ(٤٤٩٨/١٧٦و١٧٧/٨)، ن(٨/٣٧).

(٢) صحيح: [ص.ج:٣٥١٣]، د(١٢/٧٨/٤٣٨٠).

٢ – عِصْمَةُ المقْتُولِ بأَنْ لا يكُونَ مُهْدَر الدَّم بسببٍ من الأسباب المذْكُورة في قوله ﷺ : "**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**"(١)،

٣ – أَنْ لا يكونَ المقْتُولُ ولداً للقاتِل، لقوله ﷺ : "**لاَ يُقْتَلُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ**"(٢).

٤ – أَنْ لا يكونَ المقْتُولُ كافراً والقاتِلُ مُسْلِماً، لقولـه ﷺ : "**لاَ يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**"(٣).

٥ – أَنْ لا يكونَ المقتُولُ عبْداً والقاتِلُ حُرًّا، لقول **الْحَسَنُ** : "**لاَ يُقْتَلُ حُرٌّ بِعَبْدٍ**"(٤).

ويثبتُ القِصَاصُ بأحَدِ أَمريْن: الاعترافُ أو شَهادَةُ رجُلَيْن.

ويُشْتَرطُ لاستيفاءِ القِصَاصِ ثلاثةُ شروط :

١– تكليفُ المستَحقِّ،فإنْ كانَ مُستَحِقُّهُ صَبِيًّا أو مجْنُوناً حُبِسَ الْجَاني إلى تكليفه

٢– اتِّفاقُ المستَحقِّين على القِصَاص، فإنْ عفا بعضُهم سقَط القِصَاص.

٣– أَنْ لا يعتديَ الجاني على غيره، فإذا كان القِصَاصُ قد وجبَ على امـرأةٍ وهي حاملٌ لم تُقْتَلْ حتى تضعَ حَمْلَها وتَسقِيَه اللِّبأ.

---

(١) متفق عليـه: خ(٦٨٧٨/٢٠١/١٢)، م(١٦٧٦/١٣٠٢/٣)، د(٤٣٣٠/٥/١٢)، ن(٩٠/٧)، ت(١٤٢٣/٤٢٩/٢)، جه(٢٥٣٤/٨٤٧/٢).

(٢) صحيح: [الإرواء:٢٢١٤]، ت(١٤٢٢/٤٢٨/٢)، جه(٢٦٦١/٨٨٨/٢).

(٣) خ(٦٩١٥/٢٦٠/١٢)، ت(١٤٣٣/٤٣٢/٢)، ن(٢٣/٨).

(٤) صحيح مقطوع: [ص.د:٣٧٨٧]، د(٤٤٩٤/٢٣٨/١٢).

والأصلُ في القِصَاصِ أَنْ يُقْتَلَ القَاتِلُ بالطريقةِ التي قتلَ بها لأنَّ ذلك مُقْتَضَى المُمَاثَلةِ والمُسَاواة، ولقولِه تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٩٤)﴾ [البقرة]، ولقولِه تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ(١٢٦)﴾ [النحل]،

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك رَضِي اللَّهُ عَنْهُ "أَنَّ يَهُودِيًّا رَضَّ رَأْسَ جَارِيَةٍ بَيْنَ حَجَرَيْنِ فَقِيلَ: لَهَا، مَنْ فَعَلَ بِكِ هَذَا؟ أَفُلاَنٌ أَوْ فُلاَنٌ حَتَّى سُمِّيَ الْيَهُودِيُّ فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أَقَرَّ بِهِ فَرُضَّ رَأْسُهُ بِالْحِجَارَةِ»(١).

والقِصَاصُ من حَقِّ الحاكم، قال القرطبي: "لا خِلاف أَنَّ القِصاص في القتل لا يُقيمُه إلاَّ أولوا الأمر، فَرْضٌ عليهم النُّهوضُ بالقِصاصِ وإقامةِ الحدُود وغيرِ ذلك، لأَنَّ اللهَ سبحانه طالب جميعَ المؤمنين بالقِصاص، ثم لا يتهيّأ للمؤمنين جميعاً أَنْ يجتمعوا على القِصاصِ، فأقامُوا السّلْطانَ مقامَ أنفسِهم في إقامةِ القِصاصِ وغيرِه من الحدود»(٢)

"فحيثُ ثبتَ القِصاصُ عَمْداً عُدْواناً، وجبَ على الحاكمِ الشَّرْعيِّ أَنْ يمكِّنَ وليَّ المقتول من القاتل فيفعلَ فيه الحاكمُ ما يختارُه الوليُّ من القَتْلِ أو العَفْوِ أو الدِّية، ولا يجوزُ للوليِّ التسلُّطَ على القاتلِ من غيرِ إِذْنِ الحاكم، لأَنَّ فيه فسَاداً وتخريباً، فإذا قتلَه دون إِذْنِ الحاكم عزَّره»(٣).

وكما ثبتَ القِصَاصُ في النَّفس فإنَّه ثبتَ كذلك فيما دُونها، لقولِه تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ

---

(١) متفق عليه: خ(١٢/١٩٨/٦٨٧٦)، م(٣/١٢٩٩/١٦٧٢)، د(١٢/٢٦٧/٤٥١٢)، ن(٨/٢٢)، ت(٢/٤٢٦/١٤١٣)، جه(٢/٨٨٩/٢٦٦٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن(٢٤٥و٢/٢٤٦).

(٣) فقه السنة(٢/٤٥٣).

بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٤٥)﴾ [المائدة].

وهذا الحُكْمُ وإنْ كانَ كُتِبَ على مَنْ قَبْلَنا فهو شَرْعٌ لنا لتقريرِ النبيِّ ﷺ له:

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَسَرَتِ الرُّبَيِّعُ عَمَّةُ أَنَسٍ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ فَطَلَبُوا الْعَفْوَ فَأَبَوْا فَعَرَضُوا عَلَيْهِمُ الأَرْشَ فَأَبَوْا فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَ بِالْقِصَاصِ فَقَالَ: أَنَسُ ابْنُ النَّضْرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ تُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ تُكْسَرُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « يَا أَنَسُ كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ قَالَ: فَرَضِيَ الْقَوْمُ فَعَفَوْا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»(١).

ويُشْتَرطُ في القِصَاصِ فِيما دُون النَّفس:

تكليفُ الجانِي، تعمُّد الجِنَاية، وأَنْ يكونَ دَمُ المجنـي عليه مكافِئاً لـدمِ الجاني.

ويُشْتَرطُ في القِصاصِ في الأطراف:

إمكانُ الاستيفاءِ بلا حَيْفٍ، والمُماثَلةُ في الاسمِ والمَوْضِعِ فلا تُقْطَعُ يمينٌ بيسار، ولا العكس، ولا يُؤْخذُ أصليٌّ بزائد، واستواءُ طرَفِ الجاني والمجني عليه في الصِحَّةِ والكمال، فلا يُؤخذُ عُضْوٌ صحيحٌ بأشَلَّ، ولا يدٌ صحيحةٌ بيدٍ ناقصةِ الأصابع.

وأَمَّا الجراح العَمْدُ فلا يجب فيها القصاصُ إلاَّ إذا كان ذلك مُمْكِناً بحيثُ يكونُ مساوياً لجراح المجْني عليه من غير زيادةٍ ولا نقص، فإذا كانت المُمَاثَلةُ والمُساواةُ لا تتحقَّقانِ إلاَّ بمجاوزة القَدْر، أو بمخاطرةٍ، أو إضرارٍ فلا قصاص وإنَّما تجب الدِّية.

---

(١) خ(٢٧٠٣/٣٠٦/٥)، د(٤٥٦٦/٣٣٣/١٢)، ن(٢٧/٨)، جه(٢٦٤٩/٨٨٤/٢).

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ[١٧٨]﴾[البقرة] إثباتٌ لأُخوَّةِ الإيمانِ بين القاتلِ وأولياء المقتول، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [٩] إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ[١٠]﴾ [الحجرات]، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا[٢٨]﴾ [الفتح].

إنَّ القتل وإنْ عَظُمَ خطُره وكَبُرَ وِزْرُه إلاَّ أنَّه ليس كُفْراً يُخْرِجُ القاتلَ من الإيمان، وإنَّ قولَ النبيِّ ﷺ : "**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**"[١]،وقوله ﷺ : "**لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**"[٢]، ليس المرادُ به الكُفْرَ الأكبَر الذي يُخْرِج من المِلَّة، وإنَّما المرادُ أَنَّ هذا الفِعْلَ وهو قتالُ المؤمنين وقَتْلَهم في الأصل فِعْلُ الكافرين الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا[٢١٧]﴾ [البقرة]، فالمرادُ بقوله ﷺ :" **لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا**" أي لا تَقَاتَلُوا فيفعلُ بعضُكم ببعضٍ فِعْلَ الكافرين بالمؤمنين، فإنْ فَعَلْتُم فهو بكم كُفْر، ولا يَخرجُون به من المِلَّة كما قال النبيُّ ﷺ : "**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**"[٣].

فالمؤمنُ إذا قتلَ مُؤْمِناً متعمِّداً فقد ارتكبَ كبيرةً من الكبائر:

إنْ اقْتُصَّ منه أو عُفِيَ عنه فقد برئتْ ذِمَّتُه في الآخرة، وإنْ هَرب من العَدالةِ في الدُّنيا فأمرُه إلى الله إنْ شاء عفا عنهُ وأدخلَهُ الجنة برَحْمَته كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ [٤٨]﴾[النساء]، وإنْ شاء

---

(١) متفق عليه: خ(١/١١٠/٤٨)، م(١/٨١/٦٤)، جه(١/٢٧/٦٩)، ن(٧/١٢٢).
(٢) متفق عليه: خ(١٣/٢٦/٧٠٧٧)،م(١/٨٢/٦٦)،د(١٢/٤٤٢/٤٦٦١)،جه(٢/١٣٠٠/٣٩٤٢).
(٣) م(١/٨٢/٦٧).

عذَّبه في النَّار بعدْلِه ثم يُخْرِجُه منها برحمتِه وشفاعةِ الشَّافعين من أهل طاعته.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا(٩٣)﴾ [النساء]، فالمُرادُ بالخُلودِ خُلودُ المكْثِ لا الدَّوام، لأَنَّ دوامَ العذاب إِنَّما هو للكافرين، وليس لعصاةِ المسلمين، فإنَّهم إذا دَخلُوا النَّار أُخْرِجُوا منها بعد حين تحقيقاً للتَّفريق بين المسلمين والمجرمين، لأَنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥)﴾ [القلم]، ولذلك قال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ(٢)﴾ [الحجر]،

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّار فِي النَّارِ وَمَعهُمْ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ قَالَ الكُفَّارِ لِلْمُسْلِمِينَ أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمُ الإِسْلاَمُ وَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا فِي النَّار؟ قَالُوا كَانَتْ لنا ذنوبٌ فَأُخِذْنَا بِهَا، فَسَمِعَ اللهُ ما قَالُوا فَأَمَرَ بِكُلِّ مَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ فَأُخْرِجُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الكُفَّارِ قَالُوا يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنَخْرُجُ كَمَا خَرَجُوا، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الآيَة ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ(٢)﴾ (١)[الحجر]،

وإذا تاب القَاتِلُ في الدُّنيا تابَ اللهُ عليه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ(١٠)﴾ [البروج]، فعلَّق عذابَهم على عدَمِ التَّوْبة، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣)﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيه

---

(١) صحيح: [الظلال: ٨٤٣]، جامع البيان (١٤/٢)، ك(٢/٣٥٣) .

مُهَانًا (٦٩) إلاَّ مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا(٧١)﴾ [الفرقان]،

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ لاَ فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ»[١]

* * *

---

(١) متفق عليه : خ(٣٤٧٠/٥١٢/٦)، م(٢٧٦٦/٢١١٨/٤).

حقوق الإنسان في الإسلام

قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦)﴾ [البقرة].

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ(٢١٣)﴾ [البقرة]،

عن ابنِ عبَّاس قال: "كان بيْنَ آدمَ ونُوحٍ عشَرَةُ قُرُون كُلُّهُمْ علَى التَّوحِيد"[1]، فجاءتْهم الشَّيَاطينُ فأَخْرَجتْ أكثرَهم من نُورِ الإيمانِ والتَّوحيد إلى ظُلمات الكُفْرِ والشِّرك، فحقَّت عليهم كلمةُ العَذاب، ولَمَّا كان من سُنَّة اللهِ في خَلْقه أَنْ لا يُعذِّبَ أحداً حتى يُنْذِرَه فقد أرسلَ نُوحاً إلى قومِه ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١)﴾ [نوح].

ولكنَّ الملأَ الذين كفَروا من قَوْمه اتَّهموه بالجُنون وأصَرُّوا على الكُفْرِ فأصَرَّ هو على دَعْوَتِهم على تَرْكه، فلم يَجِدُوا إلاَّ سلاحَ القُوَّةِ والبَطْش ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ(١١٦)﴾ [الشعراء]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ(١٢٠)﴾[الشعراء]

ومضَتْ على ذلك سُنَّةُ الكافرين ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ(٤٤)﴾ [المؤمنون]، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ(٥)﴾ [غافر]، وهدَّدوه بالقَتْلِ أَوِ النَّفْي

---

(١) ك(٢/٤٤٢)، بز(٣/٤١/٢١٩٠)، ابن جرير(٢/٣٣٤).

أو الطَّرْد كما قَال تعالى عن قَوْمِ إبراهيم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ(٢٤)﴾ [العنكبوت]،

وقال تَعالى عن قَوْمِ لُوطٍ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ(٥٦)﴾ [النمل]،

ولم يقتصر هذا التَّهديدُ على الأنبياءِ وحْدَهم بل شَملَ أتباعَهم كما قال تعالى عن قومِ شُعَيْبٍ: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا(٨٨)﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ(١٢٧)﴾ [الأعراف]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ(٢٦)﴾ [غافر].

ولم يكن بَنُو إسرائيلَ بأحسَنَ حالاً ممَّن سبقوهم من الكافرين فقد قَتلُوا الأنبياءَ بغيرِ حَقٍّ وسفَكُوا دماءَهم، وهمُّوا بِقَتْلِ عيسى بنِ مريمَ عليه السلام فرفعَهُ اللهُ إليه وأَلْقَى شبَهه على غيرِه فقتَلُوا الشَّبَه وتبجَّحوا بذلك وقالوا : ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ(١٥٧)﴾ [النساء].

ومِنْ أَبْشَع صُورِ الاضْطِهادِ والتَّعذيب لفَرْضِ العقيدة بالقُوَّة على مَنْ يكرَهُها ما ذكَرَه اللهُ تَعالى في سُورة البُروج في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُود (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٨)﴾ [البروج].

فهذا خبرٌ من ربِّنا سبحانَه وهو علاَّم الغُيوب عن مَلِكٍ من مُلُوكِ الأرْض تسلَّط على جماعةٍ من المؤْمنين آمنُوا باللهِ وكَفرُوا بالمَلِك فأمرَ بالأخاديدِ فخُـدَّتْ وأُضْرِمَ فيها النِّيرانَ وقال من لم يَرْجِعْ عن دينِه فأقْحِمُوه فيها.

ولَمَّا أراد اللهُ رحْمَة العالَمينَ بعثَ خاتَمْ النَّبيِّين فأتــاه الــوَحْيُ أوَّل مــرَّةٍ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١)﴾ [العلق]،

"**فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِـدٍ رَضِي اللَّهم عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الـرَّوْعُ فَقَـالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَـلاَّ وَاللَّـهِ مَـا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّـيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَـلِ بْـنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِالْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَـهُ وَرَقَـةُ هَـذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُـونُ حَيًّـا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ قَالَ نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ**"(١)،

وقد كان ما تنبَّأ به ورَقةُ وفي ذلك يقولُ ربُّنا سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُـرُ بِـكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْـرُ الْمَاكِرِينَ(٣٠)﴾ [الأنفال]،

---

(١) متفق عليه : خ(٣/٢٢/١)، م(١٦٠/١٣٩-١٤٢/١/١).

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ (٢٨) ﴾ [غافر] »(١).

وامتدَّ أذَى قُرَيْشٍ إلى المستَضْعَفِينَ من المؤمنين « فَوَثَبَتْ كُلُّ قبيلةٍ على من فيها مِن المسلمين فجَعلُوا يحبِسُونَهم ويُعذِّبونَهم بالضَّرْبِ والجُوعِ والعَطَش، وبِرَمْضَاءِ مكَة إذا اشتَّد الحرّ »(٢).

« عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: « كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَمَّارٌ وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ وَصُهَيْبٌ وَبِلَالٌ وَالْمِقْدَادُ فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ »(٣).

« فلَّما كانَ من العشَاءِ جاءهم أبو جَهْلٍ ومعه حَرْبَةٌ فجعلَ يشْتمُهم ويُوَبِّخُهم ثُمَّ أتَى سُمَيَّةَ فدَفعها بالحَرْبَةِ فماتَت، فكانَتْ أوّل شهيدٍ في الإسلام »(٤)

وهكذا استمرَّ الموقِفُ العَدائِيُّ من المشْركينَ للمؤمنينَ مِنْ يَوْم أَنْ حدَثَ الشِّرْكُ في الأرْضِ وبعثَ اللهُ أوّلَ رسُله نوحًا عليه السلام إلى أَنْ بعث اللهُ خاتَمَ رسُلهِ محمدًا ﷺ، واستمرَّ الحالُ على ما هو عليه حتَّى في العصْرِ الحديثِ

---

(١) خ(٤٨١٥/٥٥٣و٥٥٤/٨).

(٢) السيرة لابن هشام (١/٣٣٩).

(٣) حسن : [ص.جه:١٢٢]، جه(١/٥٣/١٥٠).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/١١٨٠).

عَصْرِ الحضَارَةِ والمدنيَّةِ الذي يتشدَّقُ فيه أهلُه بحقُوقِ الإنسانِ والحُرِّية، حتى في هذا العصرِ ما زالَ الكفَّارُ يبطشون بالأقلّياتِ ويسُومونهم سُوءَ العذاب، ويُكْرِهُونَهم على تَرْكِ دينهم ويمْنَعونَهم من إظهارِ شَعائرِهم، وأسْخَفُ شيءٍ يفْعلُونَه أنَّهم يُكْرِهُونهم على تغيير أسْمائِهم التي تدلُّ على إسلامهم.

أَمَّا الإسْلامُ – وما أدرْاكَ ما الإسْلاَم – فإنَّه قد نادَى بملءِ فيه ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ(٢١٣)﴾ [البقرة]

« إنَّ حريَّة الاعتقادِ وهي أَوَّلُ حُقوقِ الإنسانِ التي يَثْبُتُ له بها وصْفُ إنْسان، فالذي يسلبُ إنساناً حريَّةَ الاعتقاد إنَّما يسلُبه إنسانيَّتَه ابتداءً، ومع حُريَّة الاعتقاد حُرِّيَّة الدَّعْوةِ للعقيدةِ والأمنِ من الأذَى والفِتْنَة، وإلاَّ فهِيَ حُريَّةٌ بالاسمُ لا مدلولَ لها في واقِع الحياة.

والإسلامُ – وهو أَرْقى تَصوُّر للوُجودِ والحَياة وأَقْومُ مَنْهجٍ للمُجْتَمعِ الإنْسَانِيِّ بلا مِراءِ – هو الذي يُنادي بأَنْ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ(٢١٣)﴾ [البقرة]، وهو الذي تبيَّن لأصحابه قبل سِواهم أنَّهم ممنُوعونَ من إكْراهِ النَّاس على هذا الدين»(١).

وقد دعا الإسلامُ إلى احْتِرامِ سِيَادةِ الإنسانِ واحْتِرام حُرِيَّتِه وإرادتِه وحَقَّه في اختيارِ عقيدتِه، وتحديدِ مصيرِه بعدَ أَنْ أرسلَ اللهُ إليه الرُّسلَ وأنزلَ عليه الكتُب ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(١٠)﴾ [البلد].

ووهبَه سبحانه إرادةً صالِحَةً لإيثارِ الخيْرِ أو الشرِّ، والحق أو الباطل، ومنحَه قُدْرَةً صالِحَةً لِفعْل الخيْر أو الشرِّ واتِّباع الحقِّ أو الباطل، وأمر النبيَّ ﷺ أَنْ يبيِّن للنَّاس ما نُزِّل إليهم من ربِّهم ثم يتْرَكَهم أحراراً، يختارُون ما يشاءون

---

(١) في ظلال القرآن (١/٤٢٦).

بمَحْضِ الإرادة والرَّغبةِ من الإيمان والكفر، والاستقامة والانحراف، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾ [التكوير].

«إنَّ قضيَّةَ العقيدة -كما جاء بها هذا الدِّينُ- قضيَّةُ اقْتِنَاعٍ بعد البيانِ والإدْراك، وليستْ قضيَّةَ إكراهٍ وغَصْبٍ وإجْبار، ولقد جاء هذا الدِّينُ يُخاطب الإدْراكَ البشريَّ بكل قواه وطاقاته، يُخاطِبُ العقلَ المفكِّر، والبداهةَ النَّاطقة، ويُخاطِبُ الوُجْدانَ المُنفعِل، كما يخاطِبُ الفطْرةَ المستكنة، جاء هذا الدِّين يخاطبُ الكيانَ البشريَّ كلَّه، والإدراكَ البشريَّ بكل جوانبه في غيرِ قَهْرٍ حتى بالخَارِقَةِ التي قد تُلْجِئُ مُشَاهِدَها إلجاءً إلى الإذعان»(١).

قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]، والمَعْنَى «لعلَّكَ مُهْلِكٌ نفسَك يا نبيَّنا لحِرْصِكَ على إيمانهم وحُزْنِك على كُفْرِهم ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ (٨)﴾ [فاطر]، فلو نشاءُ لأنزلنا عليهم آيةً نضطرهم إلى الإيمان قهرًا. ولكن لا تفعل ذلك لأنَّا لا نريد من أحدٍ إلاَّ الإيمانَ الاختياري»(٢)، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ (٤٢)﴾ [الأنفال].

---

(١) في ظلال القرآن (١/٤٢٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٣٣١).

"وإذا كان هذا الدِّينُ لا يُواجِهُ الحِسَّ البشريَّ بالخارقة الماديَّةِ القاهِرةِ فهو من باب أوْلى لا يواجِهُه بالقوَّةِ والإكراهِ ليعتَنِقَ هذا الدِّينَ تحتَ تأثيرِ التَّهديد أو مُزَاوَلَةِ الضَّغْطِ القاهِرِ والإكراهِ بلا بيانٍ وإقناعٍ ولا اقتناع"(١).

ولذا قالَ اللهُ تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦)﴾ [البقرة]،

والمعنى لا تُكْرِهُوا أحداً على الإسلام فإنَّه دينُ الفطْرَة، ودينُ العقْلِ والحِكْمة، آياتُه بيِّنات، وبراهينُه واضحات، لا يَرْفُضُه إلاَّ السُّفهاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ(١٣٠)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٣)وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(١٤)﴾ [البقرة]،

أَمَّا أولُوا الأحْلاَمِ والنُّهى، وذَوِوا العُقُولِ السَّليمةِ والفِطَرِ المستَقيمَة فإنَّهم إذا عُرِضَ عليهم الإسلامُ قَبِلُوه وآمنُوا به واتَّبعوه مهما كانت دياناتُهم ومهما تنوَّعت ملتهم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٥١) الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢)وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ(٥٣)﴾ [القصص]، وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ

---

(١) في ظلال القرآن (١/٤٢٥).

مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)﴾ [المائدة].

إذنْ فقاعدَةُ الإسلامِ المُطْلَقةُ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ إنَّما دَعْوةٌ وتَبْلِيغ، وهِدَايةٌ وتعليمٌ والنَّاسُ أحرار: إنْ شَاءوا آمنُوا فَنجَّوْا أنفسَهم من خِزْيِ الدُّنيا وعَذابِ الآخرة، وإنْ شاءَوا كَفَروا فَأَوْبقُوا أَنفُسَهم وأهْلَكُوها، وجَلَبوا لهم الخِزْيَ في الدِّنيا والعذابَ في الآخرة، وهذا هو ما قام به النبيُّ ﷺ والمسلمون في وقتِ الغلَبَةِ والنَّصر، والتاريخُ أكبرُ شاهدٍ :

"لَمَّا مكَّن اللهُ تعالى المسلمين من المشْركينَ يومَ بدرٍ فقَتلُوا منهم سبعين وأَسَرُوا سبعين، استشار ﷺ أصحابَه في الأسْرَى فأشار عليه أكثرُهم أَنْ يأخذَ منهم الفِداءَ ويُطلِقَ سَراحَهم ففَعل، ولمْ يُكْرِهْهم على الإسلام، ولم يَقُلْ الإسلامُ أو القتل .

وكان من الأسْرى أبو العاصِ بنُ الرَّبيع زَوْجُ زينبَ بنت رسول الله ﷺ ، فلما بعثَ أهلُ مكَّة في فداءِ الأسْرى أرسلتْ زيْنبُ بمالٍ تَفْتَدي زَوْجها وجعلَتْ في المالِ قِلادةً لها، فلَمَّا رآها النبيُّ ﷺ رقَّ لها وقال لأصحابه: إنْ شئتُم أطلقْتُم أسيرَها ورددْتُم عليها مالَها فافعَلُوا، ففعلُوا، فرجعَ أبو العاصِ إلى مكةَ مُشْرِكاً.

حتى إذا كان قُبيلَ الفَتْحِ خرَج أبو العاصِ تاجراً إلى الشامِ ومعه أموالٌ لقريش، فبيْنَما هو راجعٌ استوْلَتْ عليه سَرِيَّةٌ لرسول الله ﷺ فخيَّرهم فيه وفي ماله، فأطْلَقوا سَراحَه، وردُّوا عليه ماله .

فرجع مرَّة ثانيةً إلى مكَة مُشْركاً، فردَّ أموالَ النَّاسِ ثم نادى: يـا مَعْشَـرَ قُريشٍ هل بَقِيَ لأحدٍ منكم عِنْدي مالٌ لم يأخذه؟ قالوا لا، فجزاك اللهُ خيراً، فقد وجدْنَاك وفيًّا كريماً، فقال أشهدُ أَنْ لا إله إلاَّ الله وأشهد أَنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، واللهِ ما منعني من الإسلامِ عِنْدَه إلاَّ خوفُ أَنْ تظنُّوا أنـي إِنَّمـا أردتُ أَنْ آكـلَ أموالَكم، فلما ردَّها اللهُ عليكم، وفرغْتُ منها أسـلمت، ثـم خـرج حتـى قَـدِمَ المدينةَ»(١).

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِذَاتِ الرِّقَاعِ قَـالَ: كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَجَاءَ رَجُـلٌ مِـنَ الْمُشْرِكِينَ وَسَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُعَلَّقٌ بِشَجَرَةٍ فَأَخَـذَ سَـيْفَ نَبِـيِّ اللَّـهِ ﷺ فَاخْتَرَطَهُ فَقَالَ: لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَتَخَافُنِي قَالَ: لاَ قَالَ: فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: اللَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْكَ»(٢) «فأعطاه السيف فأخذه، ﷺ وقال: من يمنعك مني؟ فقـال كـن خير آخذ فقال ﷺ : تشهد أَنْ لا إله إلاَّ الله وأَنِّي رسول الله؟ قـال لا: ولكنـي أعاهدك على أَنْ لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله(٣)،

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْلاً قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُـلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ فَرَبَطُوهُ بِسَـارِيَةٍ مِـنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَـةُ فَقَـالَ: عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَـاكِرٍ وَإِنْ كُنْـتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ قَالَ مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٣١٣).

(٢) متفق عليه: خ(٦/٩٦/٢٩١٠)، م(٤/١٧٨٦/٨٤٣) .

(٣) سيرة ابن هشام (٣/٢١٦).

وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ: مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ»(١).

فهل أكره رسولُ الله ﷺ ثُمامةَ على الإسلام، ولماذا لم يُسْلِمْ ثُمامَةُ وهو مربوطٌ في السَّاريَةِ؟ إنَّه لو أسْلم وهو مربُوط لقُلْنا أسْلَم ليُطْلِقُوه، أمَّا وقد فكُّوه وأطْلَقُوا سراحَه فإنَّ إسلامَه لا يُمكنُ أنْ يكونَ كَرْهاً، ولكنَّها العُقولُ حين تنزاحُ عَنْها الغِشَاوةُ، وتَذْهبُ عنها الرِّيبة، فتعلَمُ أنَّ الإسلامَ دينُ العَقْلِ والفِطْرةِ فتُسْلِمُ لربِّ العالمين.

ومِنْ شَهادةِ التَّاريخ لكفالةِ الإسلامِ حُرِيَّةَ العقيدة للإنسان ما وعاه التاريخُ وسجَّله عن بعضِ الكفار وهم يعلِّلون دُخُول بعْضِ الكفَّار في الإسلام والفَضْلُ ما شَهِدَتْ به الأعداء:

يقول تُوماس أر نُولد: يتحدَّث عن الحُروب الصليبيَّة:

"لقد اجتذبتْ الدَّعوةُ المُحمديَّةُ إلى أحضانِها من الصَّلبِيين عددًا مذكُورًا حتى في العَهْدِ الأوَّل أيْ في القرنِ الثَّاني عَشَر ولم يقْتَصِرْ ذلك على عامَّةِ

(١) متفق عليه: خ(٤٣٧٢/٨٧/٨)، م(١٧٦٤/١٣٨٦/٣)، د(٢٦٦٢/٣٣٩/٧).

النَّصارى بل إنَّ بعضَ أُمرائهم وقادتِهم انضمُّوا أيضاً إلى المسلمين حتى في ساعات انتصارات المسيحيين .

ويعلِّل تُوماس لانتِشارِ الإسلام بيْن الصَّليبيِّن فيقول: "ويظهَرُ أَنَّ أخلاقَ صَلاحِ الدِّين وحياتَه التي انطَوتْ على البُطولَةِ قد أحدَثَتْ في أذْهانِ المسيحيِّين في عَصْرِه تأثُّراً سِحْريًّا خاصًّا، حتى أَنَّ نفرًا من الفُرْسَانِ المَسيحيِّين قد بلغَ قوَّةُ انجذابهم إليه أَنْ هَجرُوا دِيَانتَهم المسيحيَّةَ وهجَرُوا قومَهم وانضمُّوا إلى المسلمين»[١].

ويقول هِنَري دِي كاسْترِيه: « إنَّ المسلمينَ امتازُوا بالمُسَالَمةِ وبحريَّةِ الأفكار في المُعاملاتِ وبمُحاسَنةِ المُخالفِينَ وهذا يحْمِلُنا على تَصْديق ما قالَهُ رويتسون: إنَّ شيعةَ محمدٍ هم وحدَهم الذين جمَعُوا بيْن المُحاسَنةِ والرَّغْبةِ في انتشارِ دينهم وهذه الرَّغبةُ هي التي دفعتْ العربَ في طريقةِ الفتح، فانتشر القرآنُ خلفَ جُيوشِه المنْتَصِرَة ولم يترُكُوا أثراً للعَسفِ في طريقهم، إلاَّ ما كانَ لابُدَّ منه في كلِّ حَرْبٍ ومقال، ولم يقتُلوا أُمَّةً أبتِ الإسلام »[٢].

ويقول جُوستَافُ لوبون:

« لم تكن القوَّةُ عامِلاً في نَشْر القرآنِ، فقد ترَك العربَ المغلوبينَ أحراراً في أديانهم. وإذا كان بعضُ النَّصارى أسلَمُوا واتَّخذوا اللُّغةَ العربيِّة لغةً لهم فذلك لما يتَّصِفُ به العَربُ الغالِبُونَ من ضُروبِ العَدْل الذي لم يكُن للنَّاس بمثلِه عهد، ولما كان عليه الإسلامُ مِن السُّهولَة التي تعْرِفُها الأديانُ الأخرى.

---

(١) التاريخ الإسلامي د. أحمد شلبي(١٧٩و١٨٠).

(٢) الجهاد د. أحمد الحوفي (١٩٤).

وقد عاملوا أهلَ سُورِيّا ومِصرَ وأسبانيا وكلِّ قُطْرٍ استَوْلَوْا عليه بلُطْفٍ عظيم، تاركينَ لهم قوانينَهم ونُظُمهَم ومُعتقدَاتِهم، ولم يُفْرَضْ عليهم سِوَى جزْيَةٍ زهيدةٍ في مُقَابلِ حِمَايتِهم لهم وحِفْظِ الأمْنِ بيْنَهم .

والحَقُّ أَنَّ الأمَمَ لم تَعْرِفْ فاتحينَ رُحمَاءَ مُتسَامِحينَ مِثْلَ العرب »[1].

وهكذا كَفلَ الإسلامُ للإنسانِ أعظمَ حُقوقِه وهو حُرِيَّةُ الاعتقاد، كَما كفَل له حِفْظَ نَفْسِه وصِيَانَةَ دَمِه وعِرْضِه ومالِه متى سالَم المسلمين، وشدَّد الإسلامُ على المسلمين في ذلك وحذَّرهم من الاعتداءِ على المُسالمين وتوعَّدهم على ذلك بالحِرْمان من الجنَّة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا »[2].

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ آبَائِهِمْ دِنْيَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[3].

ولم يقفِ الإسلامُ عندَ هذا الحدِّ من حِفْظِ حُقُوقِ الإنسان بل أمرَ المسلمينَ أَنْ يُحْسِنُوا إلى من يعيشُ بيْنَ ظَهْرانيْهم من الكافرين المسالمين كما أمرهم بالصَّدَقَةِ على فُقرائِهم قال تعالى: ﴿ **لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**(٨)﴾ [الممتحنة].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) خ(٣١٦٦/٢٦٩/٦).

(٣) صحيح : [ص.د:٢٦٢٦]، د(٣٠٣٦/٣٠٤/٨).

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا قَالَتْ: قَدمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي قَالَ: " نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ "[١] فأنزل الله تعالى الآية ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) ﴾ [الممتحنة]،

وعَنْ سَعِيد بن جُبَيْر قَال: قَالَ ﷺ : "تَصَدَّقُوا عَلَى أَهْلِ الأَدْيان"[٢].

وهكذا كفلَ الإسلامُ حُقُوقَ الإنسانِ، أفَلَيْسَ يحقٌّ لنا نحنُ المُسْلِمينَ أن نفخرَ بديننا ونعتزَّ به ونقول: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ(٤٣) ﴾ [الأعراف].

وهل لِغَيْرِ المسلمين أَنْ يدْرُسُوا الإسلامَ وتاريخَه وماذا قال عنه غيرُ أتْباعه قبل أَنْ يتَّخذُوا منه مَوْقفاً، فضلاً عن أَنْ يتَّهمُوه، إنني على يقين أنَّه، " لاَ يتدبَّرُ إنسانٌ نِعْمَةَ الإيمان، وما تمنَحُه للإدراك البشريِّ من تصوُّرٍ ناصحٍ واضح، وما تمنَحُه للقلبِ البشريِّ من طُمَأْنينةٍ وسَلام، وما تُثيرُه في النَّفس البشريَّة من اهتمامات رفيعةٍ ومشاعِرَ نظيفة، وما تُحقِّقه في المُجتَمع الإنسانيِّ من نِظام سَليمٍ قويم دافعٍ إلى تَنْمِيةِ المُجتَمع وتَرْقِيَةِ الحياة .

إنِّي على يقينٍ أَنَّه لا يتدبَّر إنسانٌ هذا الدِّين على هذا النَّحوْ وقَلْبُه سليمٌ من الحقْدِ والحَسد والجُحود والعِنَاد إلاَّ أقبلَ عليه وآمـنَ بـه لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿ لاإكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوت وَيُؤْمِنْ بِاللَّه فَقَد اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦) ﴾ [البقرة]"[٣].

---

(١) متفق عليه : خ(٢٦٢٠/٢٣٣/٥)، م(١٠٠٣/٦٩٦/٢)، د(١٦٥٢/٨٥و٨٦/٥).

(٢) حسن : [س.ص:٢٧٦٦]، ش(١٧٧/٣).

(٣) في ظلال القرآن (٤٢٦و٤٢٧/١) بتصرف.

الحرب والسلام في الإسلام(*)

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦)﴾ [البقرة].

إنَّ الإسلامَ هو دينُ السَّلام، يدلُّك على هذا أَنَّ اللهَ تعالى سمَّى الإسلامَ سلْماً فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً(٢٠٨)﴾ [البقرة]، أي ادخلُوا في الإسلام كلِّه وخذُوا الدِّين جُملةً، عقيدةً وعبادة وتشريعات ومعاملات، ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا(٣٢)﴾ [الروم]، فآمنوا ببعض الكتاب وكفرُوا ببعض.

وإنَّما سُمِّى الإسلامُ سلْماً لأَنَّ الذي يُسْلِمُ وجهَه لله ويدخلُ في السِّلم كافةً "يدخل في عالمٍ كلُّه سِلْمٌ وكلُّه سلام، عالمٍ كلُّه ثقةٌ واطمئنان، وكلُّه رضىً واستقرار، لا حيْرةَ ولا قلق، ولا شرُور ولا ضلال، سلامٌ مع النَّفس والضمير، سلامٌ مع العقل والمنطق، سلامٌ مع النَّاس والأحياء، سلامٌ مع الوجود كلِّه ومع كلِّ موجود، سلامٌ يَرِفُّ في خبايا السريرة، وسلامٌ يظلِّ الحياةَ والمجتمع، سلامٌ في الأرض وسلامٌ في السماء"(١).

ولقد بلغ من حِرْصِ الإسلام علىالسَّلام أَنَّ اللهَ تعالى جعل جزاءَ المحسنين الحُسْنَى وهي الجَّنة وسمَّاها دارَ السَّلام،وجعل سببَ دخولها إفشاءَ السلام .

(*) هذا العنوان هو عنوان البحث الذي تقدمت به إلى قسم الدعوة بكلية أصول الدين بالقاهرة لنيل درجة الماجستير.

(١) في ظلال القرآن(٢٩٨و٢٩٩/١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ"(١).

ولَمَّا قدم النبي ﷺ المدينة كان أول شيء دعا إليه ورفع صوته به:

"أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلاَمَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ"(٢).

وإفشاءُ السَّلام ليس معناه فقط أَنْ يقول المسْلمُ لأخيه إذا لقيه السَّلام عليكم، ولكنَّ إفشاءَ السَّلام معناه فِعْلُ كلِّ ما يُشيع السلامَ والأمان، والمودَّةَ والوئام، وتَرْكُ كلِّ ما يوقع بين المسلمين العداوةَ والبغضاء ويقضي على السَّلام والأمان.

ومن هنا أمر الإسلامُ بكلِّ خيرِ من شأنه أَنْ يُشيعَ السلاَم والأمان، والمحبَّةَ والوئام، ونهى عن كل شرٍّ من شأنه أَنْ يَقْضِيَ على المحبَّة والوئام والسَّلام والأمان.

ولم تقتصر دعوةُ الإسلام للسَّلام والعملِ على إذاعتِه ونشره على المسلمين فقط بل امتدَّتْ لتشملَ غيرَ المسلمين إذا كَفُّوا أيديَهم ولم يُثْنُوا المسلمين عن دينهم، ولم يصدُّوا عن سبيل الله، وتركوا المسلمينَ يتحرَّكون في الأرض بدينِ الله يدعون عبادَ الله إلى الله.

قال تعالى: ﴿**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**(٦١)﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿**فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**(٩٠)﴾ [النساء].

---

(١) م(١/٧٤/٥٤)، د(١٤/١٠٠/٥١٧١)، ت(٤/١٥٦/٢٨٢٩)، جه(١/٢٦/٦٨).

(٢)صحيح : [ص.ت:٢٤٨٥]، ت(٤/٦٥/٢٦٠٣)، جه(٢/١٠٨٣/٣٢٥١).

وحدث أنْ سريَّةً من سرايا المسلمين قتلتْ رجلاً من المشــركين بعــد أنْ ألقى إليهم السلامَ فعاتبهم اللهُ تعالى على ذلك فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّــهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(٩٤)﴾ [النساء]،

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَقِيَ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلاً فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ فَقَــالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَأَخَذُوهُ فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا تِلْكَ الْغُنَيْمَةَ فَنَزَلَتْ ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

وهكذا تجلى لنا بوضوحٍ أنَّ السلاَم في الإسلامِ هو أصلُ العلاقات:

علاقة الفرد بربّه، وعلاقةِ الفرد بأسرته، وعلاقة الفرد بمجتمعه، وعلاقة المجتمع المسلم بالمجتمعاتِ الدوليَّة، ولكن الذين كفروا أُشْرِبُوا في قلوبهم الحربَ وبُغْضَ الإسلام والمسلمين، وقد ظهر ذلك جلياً من أول ســاعةٍ صــدَع فيهــا الرسولُ ﷺ بالدعوة:

لقد بُعِثَ النبيُّ ﷺ على حين فَتْرةٍ من الرسل فكانت بعثُته رحمةً للعالمين، امتنَّ اللهُ بها على النَّاسِ أجمعين عربيّهم وأعجمِّيهم أميّهم وكتابيِّهم، قال تعــالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُــمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَءَاخَــرِينَ مِــنْهُمْ لَمَّــا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣)﴾ [الجمعة]،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُنْزِلَــتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمْ يَــا رَسُولَ اللَّهِ! فَلَمْ يُرَاجِعْهُ حَتَّى سَأَلَ ثَلَاثًا وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ

ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: "لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ أَوْ رَجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ"[1]،

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ [المائدة].

وكان من المُنتَظر من أهلَ الكتاب أنْ يكونوا أوّل المؤمنين بـه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ (١٥٧)﴾ [الأعراف].

كان من المنتَظر من أهل الكتاب أَنْ يكونُوا أوّل المؤمنين بـالنبيِّ الأُمـيِّ الذي ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ (١٤٦)﴾ [البقرة]، وكانوا مـن قبـلَ مجيئـه يستنصرُون به على أعدائهم من الأوْس والخزْرج ويهدِّدونهم باقتراب ظُهورَ نبيٍّ آخرِ الزمان وأنَّهم سيؤْمِنُون به ويتَّبعونه ويقتُلونهم مثْلَ عاد وإرم .

وكان من المنتظر أيضاً من الأمِّيين من العرب أَنْ يكونُوا أوّل المـؤمنين بالنبيِّ الذي بُعِثَ منهم تكريماً وتشريفاً لهم وقد كانوا قد استاءوا مما عليه أهـل الكتاب من الفساد ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ (٤٢)﴾ [فاطر]، يعنون اليهودَ والنصارى.

كان هذا هو المنتظرَ من أهلِ الكتابِ والأميِّين على حدٍّ سواء، ولكن كيف استقبل هؤلاء وهؤلاء نبيَّ الهدى والرَّحمة؟ قال تعالى مبيِّناً موقفَ أهل الكتاب:

---

(١)متفق عليه:خ(٤٨٩٧/٦٤١/٨)، م(٢٥٤٦/١٩٧٢و١٩٧٣/٤)، ت(٤٠٢٥/٣٨٢و٣٨٣/٥).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩)﴾ [البقرة]، ثم بيّن العلّة المانعتَهم من الإيمان فقال: ﴿بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ(٩٠)﴾ [البقرة]، لقد كانوا يرْجُون أَنْ يكون النبيُّ الخاتَمُ منهم فلَمَّا جاء من بني إسماعيلَ كفرُوا به حسداً من عند أنفسهم ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ(٩٠)﴾ [البقرة].

وأمَّا موقِفُ قريشٍ :

فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(٢١٤)﴾ [الشعراء]، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: " أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ قَالُوا نَعَمْ: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَقَالَ: أَبُو لَهَبٍ تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا فَنَزَلَتْ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢)﴾ [المسد]»(١).

ومضى رسولُ الله ﷺ في دعوتهُ يبلِّغ رسالةَ ربِّه، وهو حريصٌ كلَّ الحرص على هداية النَّاس أجمعين وإخراجِهم من الظُّلمات إلى النُّور وإنقاذِهم من النَّار التي أُعدّت للكافرين، وأخذ الضُّعفَاءُ والمساكينُ يدخلونَ في دينِ الله ويتَّبعون رسولَ الله، وأخذُوا يزدادون يوماً بعد يوم، وحتى وإنْ كانت زيادة

---

(١)متفق عليه : خ(٤٧٧٠/٥٠١/٨)، م(٢٠٨/١٩٣و١٩٤/١)، ت(٣٤٢٢/١٢١/٥).

ضعيفة إلاَّ أنَّها أرقَّت مضاجعَ قريش فحاولوا وقفَ الدَّعوة وصَرْفَ الناس عنها دون جدْوى فلجأوا إلى القُوَّة، لجأوا إلى البَطْشِ والفَتْكِ بالمستضعفين، وانتهى بهم الحالُ إلى اتِّخاذ قرارٍ بالإجماع أَنْ يقتلُوا النبيَّ ﷺ ، فأوحى اللهُ إليه بالهجرة إلى المدينة بعد أَنْ سبقه أكثرُ المؤمنين إليها.

فلَمَّا استقرَّ بها لم يهدأ ولم يطمئن حيثُ أَنَّ قريشًا لم تكفَّ عن مُنَاوشَةِ المسلمين وإثَارةِ الفزَعِ والرُّعب في صفُوفهم فأرسلتْ إليهم تقول: « لا يغرنَّكم أَنَّكم أفلتُّمونا إلى يثْرِب سنأتيكُم فنستأصِلُكم ونُبيدَ خضراءكم في عقر داركم»(١).

وتأكَّد لرسولِ الله ﷺ أَنَّ هذا ليس مجرَّد تهديدٍ وأَنَّ قريشاً قد تُهجامهم بالفعل في أَي ساعةٍ من ليلٍ أو نهار مما جعل الرسولَ ﷺ يسهر الليلَ ويطلب مَنْ يحرسه :

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَهِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقْدَمَهُ الْمَدِينَةَ لَيْلَةً قَالَ: « لَيْتَ رَجُلاً صَالِحًا يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ قَالَتْ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعْنَا خَشْخَشَةَ السِّلَاحِ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا جَاءَ بِكَ فَقَالَ: سَعْدٌ وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ نَامَ»(٢).

ولم يكن هذا السَّهرُ خاصًّا بالنبي ﷺ بل كان المسلمون جميعاً لا يبيتون إلاَّ بالسلاح ولا يُصبحون إلاَّ به، فاقتضت حكمةُ أحكم الحاكمين أَنْ يأذن للنبي ﷺ في الدِّفاع عن أنفُسهم وردِّ الأذى ووقْفِ الاعتداء، فأنزل اللهُ تعالى على نبيِّه قولَه: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴿٣٩﴾ **الَّذِينَ**

---

(١) الرحيق المختوم (١٩٦).

(٢) متفق عليه: خ(٦/٨١/٢٨٨٥)، م(٤/١٨٧٥/٢٤١٠)، ت(٥/٣١٥/٣٨٤٠) واللفظ له.

أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج]،

وقولُه تعالى: ﴿أُذِنَ﴾ يفيد أنَّه لم يُؤْذَن لهم قبلَ ذلك، وإنَّما أُمِرُوا بالعَفْوِ والصَّفْح كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٩) وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤٠)﴾ [البقرة]،

وهذا الإذْن سبقَه أنَّهم ﴿يُقَاتَلُونَ﴾ والتَّعبير بالفعلِ المُضارع يُفيد أنَّهم قُوتلوا ومازَالوا، كما صرَّح بذلك ربُّنا في قوله ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا(٢١٧)﴾ [البقرة]،

كما يفيدُ أنَّ القتال إلى قُبَيْل الإذْن كان من جانبٍ واحدٍ وهو جانبُ المشركين، وهذا منتهى الظلم، ودَفْعُ الظُّلْمِ وردُّ الظالم واجبٌ حتى لا يفسد الحياة، فإنَّ الحياة إنَّما تصلح بالعدل وتفسد بالظلم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩)﴾ [الحج]، ولو شاء لأهلك الظالمين بجُنْدٍ من جنوده ولكنَّه أَذِنَ للمظلومين في الدِّفاع عن أنفسهم لإقامة دينهم ووَعدَهم النَّصرَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ(٤)﴾ [محمد].

ثم وصف المؤمنين بأنَّهم أُخْرِجُوا من ديارهم وأموالِهم بغير ذَنْبٍ اقترفوه ولا جريمةٍ فعلوها، وإنَّما أُخرِجوا لقولِهم ربُّنا الله.

وهو يشيرُ إلى أنَّ من أسباب القتال تمكينَ المسلمين من دينهم وعبادة ربِّهم. وقد جاء هذا الإذنُ وفْقَ سُنَّةٍ من سُنَنِ الله الكونيَّةِ وهو سُنَّة التدافُع التي قال الله فيها: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ(٢٥١)﴾[البقرة]

وقد بيَّن سبحانه بعضَ هذا الفساد بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ(٤٠)﴾ [الحج]، أي ينصر دينَه ونبيَّه وشرعَه بالجهاد في سبيله، أمَّا هو سبحانه فليس بحاجة إلى نصرِ أحدٍ ولذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠)﴾ [الحج]،

ثم ذكر الغايةَ من نَصرِ المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ(٤١)﴾ [الحج]، فأقاموا دينَ اللهِ في أنفسهم ﴿ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ(٤١)﴾ [الحج]، لإقامة دين اللهِ في مجتمعهم.

ونستطيع أَنْ نجمل هذه الأسبابَ التي أدَّت إلى مشروعيَّة الجهاد فيما يلي:

١ - دفعُ الظلم وردُّ العدوان.

٢ - الانتصارُ للنَّفس والانتصافُ للمظلوم.

٣ - تأمينُ الدَّعْوةِ والدُّعاةِ وحمايتُهم لإقامةِ دين الله.

٤ - تحقيقُ السِّيادةِ لأهل الإيمانِ أتباعِ الحقِّ لأنَّهم هم الذين يُصْلِحُون في الأرض ولا يُفْسِدُون، وأهلُ الكفر أتباعُ الشيطانِ يُفْسِدُون في الأرض ولا يُصْلِحُون.

٥ - حمايةُ بيُوتِ الله التي يُذْكَرُ فيها اسمُه من الهدم والتخريب على يد أتباع الشيطان الذين متى تمكَّنوا قتَلُوا وانْتَهكُوا وسلَبوا وهدَموا وسَعَوْا في الأرض فساداً.

٦- إنقاذُ الأقَلِّياتِ المسلمةِ المستَضْعفةِ في بلاد الكُفرِ من أذى الكافرين.

وبعد هذا الإذن جاء الأمرُ بالقتال والتَّرغيبُ فيه والنَّهيُ عن الوَهَن والضَّعْفِ والرِّضا بالدُّنيا وتَرْكِ الجهاد:

ومن ذلك قولُ ربِّنا سبحانه في سورة البقرة : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢)وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٩٥)﴾ [البقرة]،

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ(٢١٤)﴾ [البقرة]،

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ(١٥٤) ﴾ [البقرة]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢١٨)﴾ [البقرة]،

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(١٣)﴾ [الصف]،

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٩)﴾ [التوبة]،

وقال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ(١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٥)﴾ [التوبة]،

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ(١٧١)﴾ [آل عمران]،

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: « أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً فَقَالَ:

هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا قَالُوا أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»(١).

عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ»(٢).

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»(٣).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»(٤).

والذي يُدقِّق النَّظر في هذه النُّصوصِ يرى أَنَّ كَلِمَةَ (في سبيل الله) تكرَّرت فيها كلِّها سواءٌ منها ما كان في القرآن وما كان في السُّنَّة فكلُّها تؤكِّد على أَنْ يكون القِتالُ في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وهذا أدبٌ من آداب الإسلام التي يتحلَّى بها المُجاهد قبلَ القتال، فإنَّ القتالَ لا يكون جهادًا في سبيل الله إلاَّ إذا تحرَّى فيه النيَّة لله .

---

(١) م(١٨٨٧/١٥٠٢و١٥٠٣/٣)، ت(٤٠٩٨/٢٩٨و٢٩٩/٤)، جه(٢٨٠١/٩٣٦/٢).
(٢) صحيح : [ص.ت:١٦٦٣]، ت(١٧١٢/١٦٠/٣)، جه(٢٧٩٩/٩٣٥/٢).
(٣) صحيح : [ص.ت:١٦٥٧]، ت(١٧٠٧/١٠٤/٣)، د(٢٥٢٤/٢١٥/٧)، ن(٢٥و٢٦/٦)، جه(٢٧٩٢/٩٣٣و٩٣٤/٢).
(٤) صحيح : [ص.ت:١٦٣٩]، ت(١٦٩٠/٩٦/٣).

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»(١).

ومن آداب الجهاد قبل القتال دعْوةُ الكافرين إلى الإسلام، فإنْ استجابُوا فقد عَصَمُوا دماءهم وأموالَهم وصاروا لنا إخواناً، وإنْ أَبَـوْا ف ﴿ لا إِكْـرَاهَ فـي الدِّينِ(١٥٦)﴾ [البقـرة]، وعليهم أَنْ يدفعوا الجِزْيَةَ، وهي قَدْرٌ مـن المـال مُقَابِـلَ حِمَايتهم وتوفيرِ الأمْنِ لهم .

فإنْ أجابُوا وإلاَّ كانُوا برَفْضِهم الإسلامَ والجِزْيَة مستكبرينَ وعن سبيلِ الله صادين فوجب قتالُهم.

ومن آداب الجهاد قبل القتال أَنْ لا يُقاتَلَ أَهْلُ عَهْدٍ حتى ينتهي عَهْـدُهم أو يُعْلَمُوا بإنهائه، لقوله تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَـيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ(٥٨)**﴾ [الأنفال]،

قال ابنُ كثير: "يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِـنْ قَـوْمٍ**﴾ قـد عاهدتهم ﴿**خِيَانَةً** ﴾ نقضاً لما بينْك وبيْنَهم من المواثيق والعُهود ﴿**فَانْبِذْ إِلَـيْهِمْ**﴾ أي عهدَهم ﴿ **عَلَى سَوَاءٍ**﴾ أي أعلِمْهم بأَنَّك قد نقضتَ عهدَهم حتى يبقى عِلْمُـكَ وعِلْمُهم بأنَّك حَرْبٌ لهم وهم حَرْبٌ لك، وأنَّه لا عَهْدَ بيْنَك وبيْنَهم على السَّـواء ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ حتَّى ولو في حقِّ الكفار لا يُحِبُّها أيضاً"(٢).

---

(١) متفق عليه: خ(٢٨١٠/٢٧و٢٨/٦)،م(١٩٠٤/١٥١٣/٣)،ت(١٦٩٧/١٠٠/٣)، ن(٢٣/٦)، د(٢٥٠٠/١٩٣/٧)، جه(٢٧٨٣/٩٣١/٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٣٢٠/٢) .

عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَرَ قَالَ كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلَادِهِمْ حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ غَزَاهُمْ فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ أَوْ بِرْذَوْنٍ وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لَا غَدْرَ فَنَظَرُوا فَإِذَا عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلَا يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ»(١).

فإذا بدأ القتالُ فلا يكونُ الضَّرب كيفما اتفق، رَمْيٌ بلا وِجْهَةٍ ولا هَدَفٍ، وتخريبٌ بلا قصدٍ، وإنَّما قتالٌ بالضَّوابطِ الشرعيَّة والآدابِ الإسلاميَّة، ومنها ما ذكَره اللهُ تعالى في قوله: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**(١٩٠)﴾ [البقرة]،

« أي قاتلُوا في سبيلِ الله ولا تعتَدوا، ويدخلُ في ذلك ارتكابُ ما نُهِيَ عنه من المُثْلَةِ والغُلولِ وقَتْلِ النِّساءِ والصبيانِ والشُّيوخِ والرُّهبانِ وأصحابِ الصوامع، وأصحابِ الأسرَّةِ البيضاء والمنازل، وتحريقِ الأشجارِ وقَتْلِ الحيوان **عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: « اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»**(٢)(٣).

وهكذا أمر اللهُ ورسولُه باحترام المدنيِّينَ والمحافظَةِ عليهم وصِيَانةِ دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

---

(١)صحيح : [ص.ت:١٥٨٠]، ت(١٦٢٩/٧١/٣)، د(٢٧٤٢/٤٣٩/٧).

(٢) م(١٧٣١/١٣٥٧/٣)، ت(١٦٦٦/٨٥/٣)، د(٢٥٩٥/٢٧١/٧)، جه(٢٨٥٨/٩٥٣/٢).

(٣) ابن كثير(٢٢٦/١).

ومن أروع آداب الإسلام في الجهاد أَنَّه لو نَشَبَتِ الحرْبُ بيْن المسلمين وبعْضِ الكافرين وكان بيْنَهم أفرادٌ في بلادِ المسلمين مقيمين أو مسافرين فإِنَّ لهم الأمنَ والأمانَ حتى يَرْجِعُوا إلى ديارهم ولا يجوزُ للمسلمين الاعتداءُ عليهم بالقَتْلِ ولا مُصادَرَةُ أموالهم، بل يجب على المسلمين أَنْ يؤمِّنُوهم على أنفُسِهم ما أقاموا بيْنَهم أو يَرْجِعُوا إلى ديارهم قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ(٦)﴾ [التوبة].

قال الطَّبري: "يقول تعالى ذكرُه لنبيِّه: وإنْ استأمَنك يا نبيًّنا من المشركين الذين أمرتُك بقتالِهم بعدَ انسلاخِ الأشهُرِ الحُرُمِ أحدٌ ليسمعَ كلاَم الله منك ﴿فَأَجِرْهُ﴾ يقول فأمِّنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ وتتلوه عليه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي رُدَّه بعد سَماعه كلاَم الله إِنْ هو أبى أَنْ يُسْلِمَ ولم يتَّعِظْ بما تلوتَه عليه من كلامِ الله فيؤمَّن إلى مأمنه إلى حيثُ أَمِنَ منك وممَّن في طاعتك حتى يَلْحَقَ بدارهِ وقومِه من المشركين»[١].

فإذا وضَعتِ الحرْبُ أوزارَها لَم تنْتَهِ الآدابُ الإسلاميَّة بل تمتدُّ لتشملَ قتلى المشركينَ وأسراهم.

ومنها: أنَّه لا يجوز للمسلمين أَنْ يُمثِّلوا بقتلى المشركين بقَطْعِ أَنْفٍ أو أُذُنٍ أو شَرْمِ شَفَةٍ أو قَطْعِ يدٍ أو رِجْلٍ ونحوِ ذلك لقولِه ﷺ: "**وَلاَ تَمْثُلُوا**»[٢].

ومنها: أَنَّه يجب على المسلمين أَنْ يَدْفِنُوا قتْلَى المشركين، لأَنَّ دَفْنَ الآدميِّ واجبٌ ولو كان كافراً، ولذا كان ﷺ يَدْفِنُ قتلى المشركين.

---

(١) الجامع (١٠/٧٩).

(٢) م(١٧٣١/١٣٥٧/٣)، ت(١٦٦٦/٨٥/٣)، د(٢٥٩٥/٢٧١/٧)، جه(٢٨٥٨/٩٥٣/٢).

ومنها: أَنَّ الكافرين لو أرادوا أَخْذَ قتلاهم أُذِنَ لهم فيهم بلاَ ثمن وعلى ذلك بوَّب البُخارِيُّ في صحيحه "بابُ طَرْحِ جِيَفِ المشْركينَ في البئـر ولا يُؤْخَـذُ لهم ثمن"

قال الحافظُ في الفتح: "قولُه ولايؤخذ لهم ثمن" أشار به إلى ماروى عن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَرَادُوا أَنْ يَشْتَرُوا جَسَدَ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبِيعَهُمْ إِيَّاهُ، وقال لا حاجةَ لنا بثَمنِه ولا جَسَده، وقال ابنُ هشامٍ: بلَغنا عن الزُّهْرِيّ أَنَّهم بذلُوا فيه عشرةَ آلاف" (١).

وهكذا كان المسلمون يُحْسنُون إلى المشركين أمواتاً كما أحسـنوا إلـيهم أحياء، ولو حاول المسلمون أنْ يستغِلُّوا الفُرصَة لِكَسْبِ أكثرَ ما يُمْكِنُ كَسْبُه مـن المال لجَمَعُوا من جِيَفِ المشركين مالاً عظيماً، ولكنَّهم لم يكونُوا يوماً طُلاَّبَ دُنيا ولا عُشَّاق مال.

ومنها الإحسان إلى الأسْرى: لقد ضربَ الصَّحابةُ المثلَ الأعْلى في مُعامَلة الأسرى وإكرامِ النُّزلاء حتى مدحَ اللهُ سبحانه فـي كتابـه علـى ذلـك فقـال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا(٨)إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا (٩)إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًـا قَمْطَرِيـرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيـرًا(١٢) مُتَّكِئِـينَ فِيهَـا عَلَـى الأَرَائِـكِ لاَ يَـرَوْنَ فِيهَـا شَمْسًـا وَلاَ زَمْهَرِيرًا(١٣)﴾ [الإنسان]،

ولقد سجَّل التَّاريخُ على صفحاتِه شهادَة إنْصَافٍ من أسيرٍ من أسْرَى بـدرٍ اعترَف فيها بفضْلِ المسلمين وكَرَمِهم وإيثارِهم.

---

(١) فتح الباري(٦/٢٨٣).

قال ابنُ إسحاق: "كان أبو عزيز بنُ عُميْر أخو مُصْعَب بن عُمَيْر لأبيه وأُمِّه في الأسارى، قال أبو عزيزٍ فكنتُ في رَهْطٍ من الأنصار حين أقْفَلُوا بي من بدرٍ فكانوا إذا قدَّموا غداءَهم وعشاءَهم خصُّوني بالخُبْزِ وأكلُوا التَّمْرَ، لوصيَّةِ رسولِ الله ﷺ إيَّاهم بنا، ما يقعُ في يد أحدِهم كِسْرَةُ خُبْزٍ إلاَّ نفحَني بها، فأستَحِي فأردُّها فيردُّها عليَّ لا يمسُّها»(١).

الله أكبر، ما هذه الآداب؟ وما هذه الأخلاق؟ حِرْصٌ على نَجاةِ الكفَّار من النَّار قبلَ القتال، ورحمةٌ بهم في القتال، وإحسانٌ إليهم بعد انتهاءِ القتال، إحسانٌ إلى القتيل، وإحسانٌ إلى الأسرى، ومحافظةٌ على المدنيِّين، فهل يعرف الكفُّارُ شيئاً من هذه الآداب؟ لا والله، وتاريخُهم أكبر شاهدٍ على عدَمِ محافظتهم على المدنيين، وعَدَمِ إحسانهم إلى المأسورين، والقبور الجماعية في سَيْنَاءَ وغيرِها أكبرُ شاهدٍ على قَسْوةِ اليهودِ وسُوءِ حُكْمِهم وفسادِ قلوبهم، وما يفعلونَه في فلسطين اليوم من ضَرْبِ المدنيِّين العُزْلِ وقتلِ الشُّيوخِ والعجائز والنِّساء والصِّبيان والأطفالِ بالمدافع والدبابات والصواريخ، وقتلُهم الراكعين الساجدين وتدنيسُهم المساجدَ وتمزيقُهم المصاحف أكبرُ شاهدٍ على انحرافهم عن التَّوراة التي يزعمون التمسُّكَ بها، وصدقَ اللهُ العظيم إذ يقول: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ** (٦٨)﴾ [المائدة]،

وإنْ تَعْجَبْ فعَجَبٌ قولُهم إنَّ هذه الهجَماتِ الوحشيَّةَ البربريَّةَ إنَّما هي للدِّفاع عن النفس، أي دفاع هذا؟ وما هو الهُجُوم الذي تَمَّ حتى يُدفَعَ بالقنابل والدَّبابات والصَّواريخ إنَّما هو هجومٌ بالحجارة حِجارَةِ الأطفال والصِّبيان .

---

(١) البداية والنهاية (٣٠٦و٣/٣٠٧).

وما أجمل ما ذكره الشيخُ محمدٌ الغزاليُّ فيما يُشْبِهُ هذا الهُجومَ وذاكَ الدِّفاعَ عن قولِ بعضِ جُنودِ الإنجليز الذين كانوا يُحارِبُون في أفريقيا لإخمادِ ثَوْرةِ الأفريقيين الذين يُطالِبُون بجلاءِ الإنجليز عن بلدهم يقول الشيخ رحمه الله:

«قال جُنْدِيٌّ إنجليزي لأخيهُ يَصِفُ الأفريقيِّين إنَّهم وحُوش، تصوَّر أنَّ أحدَهم عضَّني وأنا أقتلُه؟»[١].

عجيبٌ حقاً: أَنْ يعضَّ المقتولُ القاتلَ، كيف يعضُّه، إنَّها وحشَّيةٌ، وكذلك اليهودُ يقتلُون الأطفَال بالدَّبابات والصَّواريخ ويصِفُون قَذْفَ الأطفالِ لهم بالحجارة بأنَّها أعمال إرهابيَّة ووحشيَّة ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠)﴾ [البروج].

* * *

(١) فقه السيرة (٢١٤).

الناسخ والمنسوخ

قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (١٠٧)﴾ [البقرة]،

قال الطبريُّ: "معنى ذلك عِنْدَنا: ما نُبَدِّلُ من حُكْمِ آيةٍ فنغيِّرُه، أو نَتْرُكُ تبديلَه فَنُقِرُّه بحاله، نأتِ بخيرٍ منها لكم من حُكْمِ الآية التي نسَخنا فغيَّرنا حُكْمَها،

إمَّا في العاجلِ لخِفَّته عليكم، وذلك كالذي كان من المؤمنين من فَرْضِ قيامِ اللَّيل ثم نُسِخَ ذلك فوُضِعَ عنهم، فكان ذلك خيرًا لهم في عاجِلهم لسُقُوطِ عبءِ ذلك وثِقَلِ حِمْلِه عنهم .

وإمَّا في الآجل لعِظَمِ ثوابه من أجْلِ مَشقَّة حَمْله، وثِقَل عِبْئِه على الأبدان، كالذي كان من صيام أيامٍ معدُودات في السَّنة، فنُسِخَ وفُرِضَ عليهم صَوْم شَهْرٍ كاملٍ في كل حَوْل، فكان فَرْضُ صَوْمِ شهرٍ كاملٍ كلَّ سَنةٍ أثقلَ على الأبدان من صيام أيامٍ معدُودات، غير أَنَّ ذلك وإنْ كان كذلك فالثَّوابُ عليه أجزل، والأجرُ عليه أكثر لفَضْلِ مشقَّته على مكلفيه من صَوْمِ أيام معدوات، فذلك وإنْ كان على الأبدانِ أشقَّ فهو خيرٌ من الأوَّل في الآجل لفَضْلِ ثوابه وعِظَم أجْره، الذي لم يكن مثلُه في صَوْم الأيام المعدُودات"(١).

"ثم أرشد سبحانه وتعالى عبادَه إلى أَنَّه المتصرِّفُ في خَلْقِه بما يشاء فله الخَلْقُ والأمر، وهو المتصرف، فكما خلقَهم كما يشاء، ويُسْعِدَ من يشاء، ويُشْقِي

---

(١) الجامع(١/٤٨٠).

من يشاء، ويُصِحُّ من يشاء، ويُمْرِضُ من يشاء، ويَنْصُر من يشاء، ويخذُل من يشاء، كذلك يحكُم في عباده بما يشاء، فيُحِلُّ ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء، ويُبيحُ ما يشاء، ويحْظُر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا مُعَقِّب لحُكْمِه و ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**(٢٣)﴾ [الأنبياء]، ويختبر عبادَه وطاعتَهم لرسُلِه بالنَّسخ فيأمرُ بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلَمُها ثم ينْهَى عنه لما يعلمه، فالطَّاعةُ كلُّ الطَّاعةِ في امتثال أَمْرِه واتِّباع رُسُلِه في تصديقِ ما أَخْبَرُوا، وامتثال ما أَمرُوا، وتَرْك ما عنْه زَجَرُوا.

وفي هذا المقام ردٌّ عظيمٌ وبيانٌ بليغٌ لكُفْرِ اليهودِ وتزييفِ شُبْهَتِهم لعنَهم اللهُ في دَعْوى استحالةِ النسخ»(١).

قال الطبريُّ: "فتأويلُ الآيةِ إذًا أَلَمْ تعلَم يا رسولَنا أَنَّ لي مُلْكَ السمواتِ والأرض وسُلْطانَهما دون غيري، أحكُم فيهما ما أشاء، وآمُر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنْهَى عما أشاء، وأنسخُ وأبدِّل وأُغيِّر من أحكامي التي أحكُم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأُقِرُّ منها ما أشاء.

وهو وإنْ كان خطابًا من الله عزّ وجلّ لنبيِّه ﷺ على وجه الخَبَرِ عن عظَمتِه فإنَّه منْه جلّ ثناؤه تكذيبٌ لليهودِ الذين أنْكَروا نَسْخَ أحكامِ التَّوراة، وَجَحدُوا نبوّة عيسى، وأنكروا محمدًا ﷺ لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غيّر اللهُ من حُكْمِ التوراة، فأخبرَهم الله أَنَّ له مُلْكَ السمواتِ والأرْضِ وسُلْطَانهما، فإنَّ الخَلْقَ أهلُ مملَكتِه وطاعتِه، عليهم السَّمْعُ والطَّاعةُ لأمرِه ونَهْيِه، وإنَّ له أَمْرَهم بما شاء ونَهْيَهم عما شاء، ونَسخَ ما شاء، وإقرارَ ما شاء، وإنساءَ ما شاء من أحكامه، وأمرِه ونَهْيِه.

---

(١) ابن كثير (١٥٠و ١٥١/١).

ثم قال لنبيِّه ﷺ وللمؤمنينَ معه: انْقَادُوا لأَمْرِي، وانْتَهوْا إلى طاعَتِي فيما أنسخُ وأترُك، ولا يَهُولنَّكم خلافُ مُخَالِفٍ لكم في أمْرِي ونَهْيِي، ونَاسِخِي ومَنْسُوخي، فإنَّه لا قيِّمَ بأمرِكم سواى، ولا ناصرَ لكم غيري، وأنا المُنفردُ بوَلايتِكم والدِّفاع عنكم، والمُتوحِّدُ بنُصرَتِكم بعزّى وسُلْطاني وقُوَّتي على من ناوأكم وحادّكم، ونصبَ حَرْبَ العَداوةِ بيْنه وبينْكم، حتى أُعْلِيَ حُجَّتَكم، وأَجْعلَها عليهم لكم»[١].

فلا تَتَّخِذُوا من دونِ الله ولياً ولا تتخذوا من دون الله نصيراً، فإنَّ النَّصرَ من عندِ الله ولله العزَّةُ جميعاً، فمن استَنْصَره نصرَه، ومن استَغْنى به أعزَّه، ولذلك قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠)﴾[فاطر]، أي فليطْلُبْها منه سبحانه فهو مالِكُها وواهِبُها، وقال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾[آل عمران]،

ولقد عاب اللهُ سبحانه على أقوامٍ اتَّخذُوا الشَّياطينَ أولياءَ من دون الله رجاءَ أَنْ ينصرُوهم ويُعِزُّوهم فقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾[مريم]،

وقال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾[النساء]،

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)﴾[يس]،

---

(١) الجامع(١/٤٨٣).

وقد كان ما أخبر اللهُ به يومَ بدرٍ ويومَ بني النضير وفي ذلك يقولُ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)﴾ [الأنفال]،

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ (١٢)﴾ [الحشر]،

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾ [الأحقاف]،

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾ [هود]،

فيا عبادَ الله المؤمنين اللهُ مولاكم ولا مولَى لهم، واللهُ ناصرُكم ولا ناصرَ لهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥)﴾ [النساء]،

وقال تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ(٧٨)﴾ [الحج]،

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ(٤١)﴾ [الحج]،

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(٨٧)﴾ [الأعراف].

وهذه الآيةُ مع آية النَّحْلِ وهي قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٠١)﴾ [النحل]، هاتانِ الآيتانِ هما الأصلُ في ثُبوتِ النَّسخ ووُقُوعه في القُرآنِ الكريم . قال القُرْطبي: "مَعْرِفَةُ هذا البابِ أكيدةٌ وفائدتُه عظيمة، لا يَسْتَغْنِي عن معرفتِه العُلماءُ، ولا يُنْكِرُه إلاَّ الجهلةُ الأغْبياءُ، لما يترتَّب عليه من النَّوازِلِ في الأحكام، ومعرفَةِ الحلالِ من الحرام .

روى أبو البُخْتُريّ قال: دخلَ عليٌّ المَسجِدَ فإذا رجلٌ يخوِّفُ الناس، فقال ما هذا؟ قالوا رجلٌ يذكِّر النَّاس، فقال ليس رجلٌ يذكِّر النَّاسَ ولكنَّه يقول أنا فلانٌ ابنُ فلانٍ فاعرفوني، فأرسلَ إليه فقال: أتَعْرِفُ النَّاسخَ والمنْسُوخ؟ فقال لا، قال فاخْرُجْ من مسجدِنا ولا تذكِّر فيه .

قال: والنَّسخُ في كلام العرب على وجْهَيْن: أحدُهما: النَّقل، كَنَقْلِ كتابٍ من آخر، ومنْه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩)﴾ [الجاثية] أي نأمرَ بنسخه وإثباته، وهذا لا مدخل له في هذه الآية.

والثاني: الإبطالُ والإزالةُ وهو المقصودُ هنا، وهو مُنْقَسِمٌ في اللّغة على ضربَيْن: أحدهما: إبطالُ الشَّيء وزَوالُه وإقامةُ آخرَ مقامَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا(١٠٦)﴾ [البقرة]،

والثَّاني: إزالةُ الشيءِ دُونَ أَنْ يقومَ آخرُ مقامَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ(٥٢)﴾[الحج]، أي يُزِيلُه فلا يُتْلَى ولا يَثْبُتُ في المُصْحَف»[١].

وهذا تفسيرُ النسخ لغة، وأمَّا النَّسخ شَرْعاً: فمعناه «رَفْعُ الحُكْمِ الشَّرْعيِّ بدليلٍ شَرْعِيٍّ متأخِّرٍ عنه، ويُسمَّي هذا الدليلُ بالنَّاسخِ، ويُسَمَّى الحُكْمُ الأوَّلُ بالمنسوخ، ويُسَمَّى الرَّفْعُ بالنسخ»[٢].

وقد تضمَّنتْ سُورةُ البقرةِ كثيراً من النَّاسخ والمنسوخ:

ومن ذلك أمرُ الصَّلاةِ والصِّيام:

عَنْ مُعَاذٍ أُحِيلَتِ الصَّلَاةُ ثَلَاثَةَ أَحْوَالٍ وَأُحِيلَ الصِّيَامُ ثَلَاثَةَ أَحْوَالٍ فَأَمَّا أَحْوَالُ الصَّلَاةِ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَهُوَ يُصَلِّي سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ(١٤٤)﴾ [البقرة] قَالَ فَوَجَّهَهُ اللَّهُ إِلَى مَكَّةَ قَالَ فَهَذَا حَوْلٌ قَالَ وَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ وَيُؤْذِنُ بِهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى نَقَسُوا أَوْ كَادُوا يَنْقُسُونَ قَالَ ثُمَّ إِنَّ رَجُلاً مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ وَلَوْ قُلْتُ إِنِّي لَمْ أَكُنْ نَائِمًا لَصَدَقْتُ إِنِّي بَيْنَا أَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إِذْ رَأَيْتُ شَخْصًا عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ فَاسْتَقْبَلَ

---

(١) القرطبي(٦٢/٢).

(٢) أصول الفقه زيدان(٣٨٨).

الْقِبْلَةَ فَقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مَثْنَى مَثْنَى حَتَّى فَرَغَ مِنَ الأَذَانِ ثُمَّ أَمْهَلَ سَاعَةً قَالَ ثُمَّ قَالَ مِثْلَ الَّذِي قَالَ غَيْرَ أَنَّهُ يَزِيدُ فِي ذَلِكَ قَدْ قَامَتِ الصَّلاَةُ قَدْ قَامَتِ الصَّلاَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِّمْهَا بِلاَلاً فَلْيُؤَذِّنْ بِهَا فَكَانَ بِلاَلٌ أَوَّلَ مَنْ أَذَّنَ بِهَا قَالَ وَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ قَدْ طَافَ بِي مِثْلُ الَّذِي أَطَافَ بِهِ غَيْرَ أَنَّهُ سَبَقَنِي فَهَذَانِ حَوْلاَنِ قَالَ وَكَانُوا يَأْتُونَ الصَّلاَةَ وَقَدْ سَبَقَهُمْ بِبَعْضِهَا النَّبِيُّ ﷺ قَالَ فَكَانَ الرَّجُلُ يُشِيرُ إِلَى الرَّجُلِ إِنْ جَاءَ كَمْ صَلَّى فَيَقُولُ وَاحِدَةً أَوِ اثْنَتَيْنِ فَيُصَلِّيهَا ثُمَّ يَدْخُلُ مَعَ الْقَوْمِ فِي صَلاَتِهِمْ قَالَ فَجَاءَ مُعَاذٌ فَقَالَ لاَ أَجِدُهُ عَلَى حَالٍ أَبَدًا إِلاَّ كُنْتُ عَلَيْهَا ثُمَّ قَضَيْتُ مَا سَبَقَنِي قَالَ فَجَاءَ وَقَدْ سَبَقَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِبَعْضِهَا قَالَ فَثَبَتَ مَعَهُ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلاَتَهُ قَامَ فَقَضَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُ قَدْ سَنَّ لَكُمْ مُعَاذٌ فَهَكَذَا فَاصْنَعُوا فَهَذِهِ ثَلاَثَةُ أَحْوَالٍ وَأَمَّا أَحْوَالُ الصِّيَامِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَقَالَ يَزِيدُ فَصَامَ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ رَبِيعِ الأَوَّلِ إِلَى رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَصَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْهِ الصِّيَامَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ(١٨٣)﴾ [البقرة] إِلَى هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ(١٨٤)﴾ [البقرة] قَالَ فَكَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ وَمَنْ شَاءَ أَطْعَمَ مِسْكِينًا فَأَجْزَأَ ذَلِكَ عَنْهُ قَالَ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ الآيَةَ الأُخْرَى﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ(١٨٥)﴾ [البقرة] قَالَ فَأَثْبَتَ اللَّهُ صِيَامَهُ عَلَى الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ وَرَخَّصَ فِيهِ لِلْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ وَثَبَّتَ الإِطْعَامَ لِلْكَبِيرِ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ فَهَذَانِ حَوْلاَنِ قَالَ وَكَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَأْتُونَ النِّسَاءَ مَا لَمْ يَنَامُوا فَإِذَا نَامُوا امْتَنَعُوا قَالَ ثُمَّ إِنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ صِرْمَةُ ظَلَّ يَعْمَلُ صَائِمًا حَتَّى أَمْسَى فَجَاءَ إِلَى أَهْلِهِ فَصَلَّى الْعِشَاءَ ثُمَّ نَامَ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ حَتَّى أَصْبَحَ

فأَصبَحَ صَائمًا قَالَ فرَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ جَهِدَ جَهْدًا شَدِيدًا قَالَ مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَهِدْتَ جَهْدًا شَدِيدًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي عَمِلْتُ أَمْسِ فَجِئْتُ حِينَ جِئْتُ فَأَلْقَيْتُ نَفْسِي فَنِمْتُ وَأَصْبَحْتُ حِينَ أَصْبَحْتُ صَائِمًا قَالَ وَكَانَ عُمَرُ قَدْ أَصَابَ مِنَ النِّسَاءِ مِنْ جَارِيَةٍ أَوْ مِنْ حُرَّةٍ بَعْدَ مَا نَامَ وَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ (١٨٧)﴾ [البقرة] وَقَالَ يَزِيدُ فَصَامَ تِسْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ رَبِيعٍ الأَوَّلِ إِلَى رَمَضَانَ»(١).

ومن النَّاسخ والمَنْسُوخ في سُورة البقرة آيةُ الوصيَّة وهي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠)﴾.

فإنَّ الوصيَّة للوالديْن والأقْربِينَ الوَارثِينَ منسوخَةٌ بآية المواريث ولذلك قال ﷺ : **" إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»**(٢).

كما كانتِ الوصيَّةُ واجبةً للمرأة على زوجها لمدَّة سَنةٍ بعد الوفاة فنُسِخَتْ كذلك بآية المواريث .

كما كانت عِدَّةُ المتوفَّى عنها زَوْجُها سنةً كاملة فَنُسِخَتْ بأربعةِ أشهرٍ وعشرٍ، وفي ذلك يقولُ ربُّنا سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٤٠)﴾ [البقرة]،

---

(١) صحيح : [ص.د:٥٠٦و٥٠٧]، د(٥٠٢و٥٠٣/١٨٦-٢/٢٠٠)، حم(٢٣٥/٨٣-٢/٢٣٧ و ٢٣٩/٣-٩/٢٤٤).

(٢) حسن : [ص.جه:٢١٩٤]، جه(٢٧١٣/٩٠٤/٢)، د(٢٨٥٣/٧٢/٨)، ت(٢٢٠٣/٢٩٣/٣).

فَنُسخْت الوصيَّةُ بآيةِ المواريث، ونُسِخَت العدَّةُ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٣٤)﴾ [البقرة] .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ(٢٤٠)﴾ [البقرة] **فَنُسِخَ ذَلِكَ بِآيَةِ الْمِيرَاثِ بِمَا فَرَضَ لَهُنَّ مِنَ الرُّبُعِ وَالثُّمُنِ وَنُسِخَ أَجَلُ الْحَوْلِ بِأَنْ جُعِلَ أَجَلُهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»**(١).

والذي يُدَقِّقُ النَّظَرَ في النَّسْخِ الواقعِ في القرآنِ الكريم يرَى أَنَّه ينقسِمُ إلى ثلاثة أقسام:

الأول: نَسْخُ التِّلاوةِ والحُكْم معاً.

الثاني: نَسْخُ التِّلاوَة مع بقاءِ الحُكم.

الثالث: نَسْخُ الحُكْمِ وَبقاءُ التلاوة.

أَمَّا المَنْسُوخُ تلاوةً وحُكْماً فلا تجوزُ تِلَاوتُه ولا العملُ به، لأَنَّه قد نُسِخَ بالكُلِيّة، وذلك كقول **عَائِشَةَ "كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ»**(٢)،

قال الرَّازي: "فالجُزْءُ الأوَّلُ مَنْسُوخُ الحُكْمِ والتِّلاوة، والجُزْءُ الثاني وهو الخَمْسُ منسوخُ التِّلاوةِ باقي الحُكْمِ عند الشافعيَّة .

---

(١) حسن : [ص.د:٢٠١٢]، د(٦/٣٩٩/٢٢٨١).

(٢)م(١٤٥٢/١٠٧٥/٢)، د(٦/٦٧/٢٠٤٨)، ت(١١٦٠/٣٠٨/٢)،جه(١٩٤٢/ ٦٢٥/١)بمعناه.

وأَمَّا منسوخُ التِّلاوةِ مع بقاء حُكْمِه فهو كما رُوِيَ : آيةٌ كانتْ في سُورة النور: الشَّيخُ والشَّيْخَةُ إذا زَنَيا فارْجمُوهُما البتَة نَكالاً من الله والله عزيزٌ حكيم، وفي هذا يقول عمرُ: لَوْلاَ أَنْ يقولَ النَّاس زادَ عُمرُ في كتابِ الله لكتبتُها بيدي.

أَمَّا الثالث: وهو نَسْخُ الحُكْمِ وبقاءُ التِّلاوة فهو كآيةِ عِدَّة المُتوفَّى عنها زَوْجُها، وكآيةِ الصَّدَقةِ قبلَ مُنَاجَاة رسُولِ الله ﷺ »(١).

ويتَّضِحُ من هذه الأمثلةِ للنَّاسِخ والمَنْسُوخِ أَنَّ النَّسخَ إِنَّما يتعلَّق بآياتِ الأحكام دُون غَيْرِها مِنَ القَصصِ والأخْبار، وما يتعلَّق بفَضائلِ الأعْمالِ، ولذلك قال الطبريُّ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٠٦)﴾ [البقرة]

يعني جلَّ ثناؤه ما ننسخْ من آيةٍ إلى غيرِها فنبَدِّله ونُغَيِّره، وذلكَ أَنْ يحوِّلَ اللهُ الحلالَ حراماً، والحرامِ حلالاً، والمُباحَ محْظُوراً، والمَحْظُورَ مباحاً، ولا يكونُ ذلك إلاَّ في الأمْرِ والنَّهي والحَظْرِ والإطلاقِ والمَنْع والإباحة، فأَمَّا الأخبارُ فلا يكونُ منها ناسخٌ ولا منسوخ»(٢).

وغنيٌّ عن التَّنبيه أَنَّ النسخَ إنَّما كان في حياةِ النبيِّ ﷺ ، والقرآنُ ينْزِلُ "وأَمَّا بعد مَوْته ﷺ واستقرارِ الشَّريعةِ فأجْمَعَتِ الأمَّة أَنْ لا نسخ»(٣).

"ولمعرفةِ النَّاسِخ طُرُقٌ منها:

---

(١) آيات الأحكام للصابوني (١٠٣و١٠٤/١)، مناهل العرفان(١١٠و١١١/٢)، البغوي(١٣٥و ١/١٣٦)، القرطبي(٢/٦٦)، البرهان في علوم القرآن(٣٥-٢/٤١).

(٢) الجامع (١/٤٧٥).

(٣) القرطبي (٢/٦٦).

أَنْ يكون في اللَّفظ ما يدلُّ عليه، كقوله ﷺ **"قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ"**(١)،

ومنها: أَنْ يُصَرِّحَ الرَّاوي بالنَّسخ كقولِ جابر: **"كَانَ آخِرَ الأَمْرَيْنِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَرْكُ الْوُضُوءِ مِمَّا غَيَّرَتِ النَّارُ"**(٢).

ومنها: أَنْ يذكُرَ الرَّاوي التاريخَ مِثْلَ أَنْ يقول: سَمِعْتُ عامَ الخَنْدَق، وكان المنسوخُ معلومً قبله.

أو يقول: نُسِخَ حُكْم كَذا بكذا.

وأَنْ تُجْمِعَ الأُمَّة على حُكْمٍ أَنَّه منسوخ. والإجماعُ لا يَنسخ ولا يُنسخ ولكن يدلُّ على ناسخ»(٣) .

* * *

---

(١)صحيح : [ص.ت:١٠٥٤]، ت(١٠٦٠/٢٥٩/٢).

(٢)صحيح : [ص.د: ١٧٧]، د(١٩٠/٣٢٧/١)، ن(١٠٨/١).

(٣)حسن : [ابن كثير: ١/٢٣]، حم(١٦٠/٦٩و٧٠/١٨) وروى ابن ماجة والحاكم منه إلى قوله:" وأظمأت نهارك" : جه(٣٧٨١/١٣٤٢/٢)، ك(٥٥٦/١) .

فضل القرآن وأهله

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٢١)﴾ [البقرة]،

إنَّ القرْآنَ الكريمَ هو حَبْلُ اللهِ المتين، وهو النُّور المبين، وهو الصِّراطُ المستقيم، عصمَةٌ لمن تمسَّك به، ونَجاةٌ لمن اتَّبعه ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ(١)﴾ [هود]،

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١)لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢)﴾ [فصلت]،

فيه نبأُ ما قبلَكم، وخبرُ ما بعدَكم، وحُكْمُ ما بيْنَكم، هو الفَصْلُ ليسَ بالهَزْل، منْ تَركَه مِنْ جبَّارٍ قصَمه الله، ومن ابْتَغى الهُدَى في غَيْرِه أضلَّه الله، وقد تكفَّلَ اللهُ تعالى لمن قرأَ القرآنَ وعَمِلَ بما فيه أَنَّ لا يضلَّ في الدُّنيا ولا يشقَى في الآخرة فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى(١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى(١٢٦)﴾ [طـه].

فالقرآنُ الكريم ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ(١٨٥)﴾ [البقرة]،

والقرآنُ الكريم نُورٌ ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٦)﴾ [المائدة]،

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا(١٧٤)﴾ [النساء]،

والقرآنُ الكريم شِفَاءٌ لما في الصُّدور من الرَّيْبِ والشَّك والكُفْرِ والنفاق قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ(٥٧)﴾ [يونس]،

والقرآنُ الكريمُ هو الرُّوح التي تحيا بها الأرْوَاح، فالأرْوَاح سِرّ حياةِ الأبْدان، والقرآنُ سرّ حياةِ الأرْواح، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا(٥٣)﴾ [الشورى]،

فمن أخَذ بالقرآنِ فهو حيٌّ، ومن رفضَ القرآنَ فهو مَيِّتٌ وإنْ كانَ يدبُّ على وَجْه الأرض، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٢٢)﴾ [الأنعام].

ولقد أمر اللهُ تعالى رسُولَه والمؤمنينَ بتِلاَوَةِ القُرآنِ الكريم فقال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ (٤٥)﴾ [البقرة].

وأمر النبيَّ ﷺ أنْ يصدع بهذا الأمرِ بقوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١)وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءَانَ(٩٢)﴾ [النمل].

وقد شَهِدَ اللهُ تعالى لقرَّاءِ القرآنِ بالإيمانِ فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ(١٢١)﴾ [البقرة].

وللمفسِّرينَ في تَأْويلِ حقِّ التِلاَوةِ أقْوَالٌ: " أوّلها: أنهم تدبَّروه فعَمِلوا بمُوجبِه حتى تمسّكوا بأحكامِه من حلالٍ وحرامٍ وغيرِهما.

وثانيها: أنَّهم خضعُوا عندَ تلاوتِه وخشعوا عند قراءته في صَلاتهم وخَلَواتِهم.

وثالثها: أنَّهم عَمِلُوا بمُحْكَمِه، وآمَنُوا بمُتَشابِهِه، وتوقَّفُوا فيما أشكَل عليْهم منه وفوَّضُوه إلى الله.

ورابعها: أنَّهم يقرَؤونَه كما أنْزَل الله، ولا يُحَرِّفُون الكَلِمَ عن مَواضِعه، ولا يتأوَّلونه على غَيْر حق.

وخامسها: أنْ تُحْمَلَ الآيةُ على كلِّ هذه الوجوه لأنَّها مُشْتَرَكَة في مَفْهُومٍ واحد، وهو تَعْظِيمُها والانقيادُ لها لفظاً ومعنى، فوجبَ حَمْلُ هذا القَدْرِ المشْتَرك تكثيراً لفوائدِ كلامِ الله تعالى»[١].

"عن ابن عباسٍ قال: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ⁽¹²¹⁾﴾ [البقرة]، يتَّبِعُونه حقَّ اتِّباعه، ثم قرأ ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا⁽²⁾﴾ [الشمس].

وَعن ابن مسعودٍ قال:﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أنْ يُحِلَّ حلالَه ويُحرِّم حرامه، ويقرأه كما أُنْزل، ولا يُحرِّف الكَلِمَ عن مَواضِعه، ولا يتأوَّل منه شيئاً غيرَ تأويله»[٢].

وقد بيَّن اللهُ أنَّ الذين يقْرَءون القُرآنَ يُتَاجِرُون مع الله بالتِّجَارةِ الرَّابحة والرَّائجةِ التي لا تَكْسُد ولاَ تخْسَر فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ⁽²⁹⁾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ⁽³⁰⁾﴾ [فاطر]،

وأيُّ تجارةٍ أَربْحُ من أَنْ يكسبَ الجُنَيْه عَشْراً، إنَّ قارِئَ القرآن يُعْطَى بكلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حسناتٍ واللهُ يضاعِفُ لمن يشاء:

---

(١) الرازي (٣٥/٤).

(٢) الدر المنثور (١/٢٧٢).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لاَ أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ"(١)،

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: " أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نُحِبُّ ذَلِكَ قَالَ: أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثٍ وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ"(٢)،

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : "يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب، يقول لصاحبه هل تعرفني؟ أنا الذي كنت أسهر ليلك، وأظمئ هواجرك وإنَّ كل تاجر من وراء تجارته وأنا لك اليوم من وراء كل تاجر، فيعطى الملك بيمنه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا تقوم بهما الدنيا وما فيها، فيقولان: يا رب أنى هذان فيقال بتعلم ولدكما القرآن"(٣).

ولقد كَثُرَتْ الأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ في الحَثِّ على قِرَاءةِ القُرْآنِ والتَّرغيبِ فيها:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ

---

(١) صحيح : [ص.ت:٢٩١٠]، ت(٣٠٧٥/٢٤٨/٤).

(٢) م(٨٠٣/٥٥٢/١)، د(١٤٤٣:٣٢٨/٤).

(٣)

عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»(١)، أي السَّحَرَةُ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ فَيَرْضَى عَنْهُ فَيُقَالُ لَهُ اقْرَأْ وَارْقَ وَتُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً»(٢)،

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : « عليك بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلاَمِ وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلاَوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ وَذِكْرُكَ فِي الأَرْضِ»(٣).

هذا وإنَّ لتلاوةِ القُرْآنِ آداباً كلَّما التزَم بها القارئُ ازدادَ أجْراً وثواباً:

وأوّل ذلك أَنْ يُخْلِصَ نيَّته لله، وأَنْ يَبْتَغِيَ بالقراءةِ الأجرَ والثَّواب لا الرِّياء والسُّمْعة، فإنَّ تلاوةَ القُرآن قُرْبَةٌ مِنْ أعْظَمِ القُرَب، وعبادةٌ من أجلِّ العِبادات، إنْ لم تكنْ خالصةً لله كانتْ وبالاً على صاحبها .

فقد أمر الله بالإخلاص ونهى عن الرياء فقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢)أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ(٣)﴾ [الزمر]،

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ(٤)الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ (٥)الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ(٦)﴾ [الماعون]، فكان الرِّياء بالصَّلاةِ سببًا لجَلْبِ اللَّعنة للمصلِّين، وكذلك الرِّياء بالقراءة:

---

(١) م(٨٠٤/٥٥٣/١).

(٢) حسن: [ص.ت:٢٩١٥]، ت(٣٠٧٦/٢٤٨/٤).

(٣) حسن: [ص.ج:٢٥٤٠]، حم(١٩/٣٢/٤٦).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»(١).

ومن هنا استحبَّ بعضُ العُلماء الإسْرارَ بالقراءة ليكون أبعدَ من الرِّياء، لقوله ﷺ : « الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ»(٢).

ويَنْبَغِي إذا أرادَ القراءةَ أَنْ يُنَظِّفَ فَاهُ بالسِّواك ونَحْوِه:

فَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: أَمَرَنَا بِالسِّوَاكِ وقَالَ: إِنَّ العَبْدَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي أَتَاهُ مَلَكٌ فَقَامَ خَلْفَهُ يَسْمَعُ الْقُرْآنَ وَيَدْنُو، فَلاَ يَزَالُ يَسْتَمِعُ وَيَدْنُو حَتَّى يَضَعَ فَاهُ عَلَى فِيهِ، فَلاَ يَقْرَأُ آيَةً إِلاَّ كَانَتْ فِي جَوْفِ الْمَلَكِ»(٣).

---

(١) م(٣/١٥١٣/١٩٠٥).

(٢) صحيح : [ص.د:١١٨٤]، د(٤/٢١٣/١٣١٩)، ت(٤/٢٥٢/٣٠٨٦)، ن(٥/٨٠).

(٣) صحيح لغيره : [س.ص:١٢١٣]، هق(١/٣٨).

ويُستَحَبُّ أنْ يقرأ على طَهارة :

عَنْ الْمُهَاجِرِ بْنِ قُنْفُذٍ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَبُولُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ حَتَّى تَوَضَّأَ ثُمَّ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: " إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَذْكُرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ عَلَى طُهْرٍ أَوْ قَالَ عَلَى طَهَارَةٍ"(١).

قال النوويُّ: فإنْ قَرأ مُحْدِثاً جاز، والأحاديثُ فيه كثيرةٌ معروفةٌ ومنها:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: " كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ"(٢).

ويُستَحبُّ أَنْ تكونَ القِراءةُ في مكانٍ نظيفٍ مُخْتار، ولهذا استحبَّ جماعةٌ من العُلماء القراءةَ في المسجد لكوْنه جامِعاً للنَّظافةِ وشَرفِ البُقْعةِ.

ويُستَحبُّ للقارئ في غَيْرِ الصَّلاة أنْ يستَقْبِلَ القِبْلَةَ، ويجلسَ مُتَخَشِّعاً بسكينةٍ ووَقار، مُطْرِقاً رأسَه، فهذا هو الأكمل، ولو قرأ نائماً أو مُضْطجعاً أو في فراشه أو على غيرِ ذلك من الأحوالَ جاز وله أجرٌ ولكن دُون الأوّل، قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآَيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٩١)**﴾ [آل عمران]،

وثبتَ في الصَّحيح **عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَّكِئُ فِي حِجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ"(٣)،**

---

(١) صحيح : [ص.د:١٣]، د(١/٣٣/١٦)، جه(١/١٢٦/٣٥٠)، ن(١/٣٧).

(٢) م(١/٣٨٢/٣٧٣)، د(١/٣٤/١٨)، ت(٥/١٣١/٣٤٤٤).

(٣) متفق عليه : خ(١/٤٠١/٢٩٧)، م(١/٢٤٦/٣٠٢)، د(١/٤٤٢/٢٥٧)، ن(١/١٩١).

فإذا أراد الشُّروعَ في القِراءة استعاذَ كما أمرَ الله ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٩٨)﴾ [النحل]،

وفي الاسْتِعَاذَةِ قبلَ القِرَاءة فوائد:

منها: "أَنَّ القرآنَ شِفَاءٌ لما في الصُّدور، والشَّيطانُ أصْلُ الدَّاء بما يُلْقِي في القُلُوبِ من الوسَاوسِ والشَّهواتِ والإراداتِ الفاسدة، فأُمِرَ القارِئُ قبلَ تَناوُلِ الدواء بطَرْدِ مادَّة الداء.

ومنها أَنَّ القرآنَ مادَّةُ الهُدى والعِلْم والخَيْر في القلبِ كما أَنَّ الماءَ مادَّةُ الإنْبات، والشَّيطانُ نارٌ يَحْرِقُ النبات، فكلما أحسَّ بنَبات الخَيْرِ في القلْبِ سعى في إفْساده وإحْراقه، فأُمِرَ القارِئُ بالاستعاذةِ باللهِ عزّ وجلّ منه لئلا يُفْسِدَ عليه ما يحصُل له بالقرآن.

ومنها: أَنَّ الملائكةَ تدنُو من القارئ وتستمعُ له والشَّيطان ضِدَّ الملائكة وعدُوهم فأُمِرَ القارئ أَنَّ يطلبَ من اللهِ مُبَاعَدَة عدوِّه منه حين يحضُره خاصَّةُ ملائكته، فإِنَّ الملائكة لا تجْتَمِعُ والشَّياطينُ في مكانٍ واحد»(١).

والاسْتِعاذَةُ تتحقَّق بقولِ القارئ أعوذُ باللهِ من الشَّيطان الرجيم، ولو قال: أعوذُ باللهِ السَّميعِ العليمِ من الشَّيطانِ الرَّجيم من هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه كان أحسن.

فإذا شرَع في القِراءة فليكنْ شَأْنُه الخُشُوعَ والتدَّبُر عندَ القِراءة، فإنَّه المقصودَ الأعظمَ والمطلوبَ الأكبر، وبه تنشَرِحُ الصُّدور، وتستَنيرُ القُلوب، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ(٨٢)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ(٢٩)﴾ [ص]، وقد كان النبيُّ ﷺ يقرأ آية واحدة يردِّدُها،

---

(١) إغاثة اللهفان(١/٩٢).

وكذلك فعلَ أصحابُه.

وينبغي أَنْ تكونَ قراءته ترتيلاً كما أمر اللهُ تعالى : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً(٤)﴾ [المزمل]،

وأَنْ يكون هَمُّه الفَهْمَ والتدَبُّرَ لا السُرْعَة والعَجلَة وكثرةَ المقروء:

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّها سَأَلت عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَلَاتِه قَالَتْ: « مَا لَكُمْ وَصَلَاتَهُ ثُمَّ نَعَتَتْ قِرَاءَتَهُ فَإِذَا هِيَ تَنْعَتُ قِرَاءَةً مُفَسَّرَةً حَرْفًا حَرْفاً »(١)،

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ: « رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ أَوْ جَمَلِهِ وَهِيَ تَسِيرُ بِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ أَوْ مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ قِرَاءَةً لَيِّنَةً يَقْرَأُ وَهُوَ يُرَجِّعُ »(٢)،

وعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: سُئِلَ أَنَسٌ كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: « كَانَتْ مَدًّا ثُمَّ قَرَأَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ [الفاتحة] يَمُدُّ بِبِسْمِ اللَّهِ وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ »(٣).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا ذَكَرَتْ أَوْ كَلِمَةً غَيْرَهَا قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً»(٤).

فعلى القارئِ أَنْ يهتمَّ بالتَّرتيل وأَنْ يتأنَّى في القِرَاءة ليتدبَّر ويَعِيَ ويفْهمَ عن اللهِ مُرادَه، ومتى وجَدَ قلبَه في آيةٍ فلا مانِعَ من أَنْ يقفَ عِنْدَها ويردِّدَها،

---

(١) صحيح: [ص.د:٣٣٧٩]، د(٣٩٨٢/٣٤/١١)، ت(٣٠٩١/٢٥٤/٤).

(٢) متفق عليه: خ(٥٠٤٧/٩٢/٩)، م(٧٩٤/٥٤٧/٢)، د(١٤٥٤/٣٤٠/٤).

(٣) خ(٥٠٤٩/٩١/٩)، د(١٤٥٢/٣٣٩/٤)، ن(١٧٩/٢).

(٤) صحيح: [ص.د:٣٣٧٩]، د(٣٩٨٢/٣٤/١١)، ت(٣٠٩١/٢٥٤/٤).

فذلك خيرٌ له من أَنْ يُسْرِع في القراءةِ وأَنْ يكونَ هَمُّه كَثْرَةَ المقْروء لا تدَّبرَه.

عن ابن عباس قال: "لأَنْ أقرأ سورة أرتلها أحب إليّ من أَنْ أقرأ القرآن كله"، وعن مجاهد أَنَّه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمرانِ والآخر البقرة وحدها وركوعهما وسجودهما وجلوسهما واحد سواء؟ فقال: "الذي قرأ البقرة وحدها أفضل".(١)

ولقد نُهِيَ عن الإفْراط في الإسْراع:

عن ابن مسعود أَنَّ رجلاً قال له: إِنِّي أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال: ابن مسعود هذَّاً كهذِّ الشعر، إِنَّ أقواماً يقرءون القرآن لا يجاوز تروقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرشح فيه تقع.

ولذلك نهَي النبيُّ ﷺ عن الخَتْم في أقلَّ مِنْ ثلاثٍ وقال: "**لَمْ يَفْقَهْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلاَثٍ**"(٢)،

ويُسْتَحَّبُ إِذا مرَّ بآيةِ رحْمةٍ سأَل اللهَ تعالى مِن فضْله، وإذا مرَّ بآيةِ عذابٍ أَنْ يستعيذَ بالله من الشرِّ ومن العذاب، وإذا مرَّ بآية تسبيح سبَّح.

وينبغي أَنْ يتأمَّل آياتِ الوعيدِ ويكرِّرَها ويقفَ عندها ليُثيرَ في قَلْبه الخَوْفَ والحُزْن، ويُثيرَ في عيْنه البُكاءَ من خشْيَة الله، فإِنَّ البُكَاءَ عندَ القراءةِ من هَـدْيِ النَّبيِّين، وهُو شعَارُ عبادِ الله الصَّالحين قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّـهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًـا**(٦٩)﴾ [النساء]،

---

(١) الإحياء (١/٢٧٧) .

(٢) صحيح: [ص.د:١٢٤٢]، د(١٣٨١/٢٧٢/٤)، جه(١٣٤٧/٤٢٨/١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧)وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨)وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا(١٠٩)﴾[الإسراء]،

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٨٣)﴾[المائدة]،

وفي هذه الآيةِ إشارَةٌ إلى صِفَةِ البُكاء وأَنَّه تَـذْرِفُ العَيْنُ دُون صَوْتٍ وصِيَاحٍ حتى لا يَشْعُرَ جيرانُ القارئِ ببُكائه كما ثبت عن النبيِّ ﷺ حين قال لابن مسعود: "**اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ** ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا(٤١)﴾ **قَالَ لِي كُفَّ أَوْ أَمْسِكْ فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ**"(١).

قال الغَزَاليُّ: " البُكاءُ مُستَحَبٌّ مع القراءَةِ وعندَها، وطريقُه في تَحْصيله أَنْ يُحْضِرَ قلبَه الحُزْنَ بأَنْ يتأمَّل ما فيه من التَّهديد والوعيدِ الشَّديد والمَواثيقِ والعُهود، ثم يتأملَّ تقصيرَه في ذلك، ولو لم يحْضُرْه حُزْنٌ وبكاءٌ كما يحضُر الخَواصَ، فليَبْكِ على فَقْدِ ذلك فإِنَّه من أعظم المصائب".(٢)

ويستحبُّ أَنْ يحسِّنَ صوتَه بالقراءة، لقوله ﷺ:"**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**"(٣)

وقوله ﷺ : " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ وَزَادَ غَيْرُهُ يَجْهَرُ بِهِ"(٤)،

---

(١) متفق عليه:خ(٥٠٥٥/٩٨/٩)، م(٨٠٠/٥٥/١)، ت(٥٠١٤/٣٠٤/٤)،د(٣٦٥١/١٠٢/١٠).

(٢) الإحياء (١/٢٧٧) .

(٣) صحيح : [ص.د:١٣٠٣]، د(١٤٥٥/٣٤١/٤)، ن(١٧٩و١٨٠/٢)، جه(١٣٤٢/٤٢٦/١).

(٤) متفق عليه: خ(٧٥٢٧/٥٠١/١٣)، م(٧٩٢/٥٤٥/١).

قال جمهورُ العلماء: معناه لم يُحَسِّن صَوْتَه، فتحسينُ الصَّوْتِ بالقراءةِ مستَحبٌّ ما لم يخرُجْ عن حدِّ القراءةِ بالتمطيط، فإنْ أفرَط حتى زادَ حَرْفاً أو أخفاه فهو حرام.

وأَمَّا القراءةُ بالأَلْحَان فقد قال الشافعيُّ أكرَهُها.

وقال الماوَرْديُّ: القراءةُ بالأَلْحانِ المَوْضُوعةِ إنْ أَخْرَجتْ لفظَ القُرآنِ عن صِبْغَتِه بإدْخالِ حَركاتٍ فيه أو إخراجِ حركاتٍ منه أو قَصْرِ ممدُودٍ أو مَدِّ مقْصُورٍ أو تمطيطٍ يخْفَى به بعضُ اللَّفظِ وتلبيسُ المَعْنى فهو حرامٌ يَفْسُقُ به القارئ ويأثمُ به المُسْتَمِع لأنَّه عدَل عن نَهْجِه القويم إلى الاعوجاج والله يقول: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(٢٨)﴾[الزمر]، وإنْ لم يُخْرِجْه اللَّحْنُ عن لفظه وقراءته على ترتيله كان مباحاً.

وينبغي للمؤمنِ أَنْ يُكْثِرَ من القراءة باللَّيل والنهار، وأَنْ يكون اعتناؤه بقراءةِ القرآن في اللَّيل أكثر، لأمْرِ اللهِ رسولَه والمؤمنينَ بذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢)نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣)أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً(٤)﴾[المزمل]،

فقام ﷺ والمؤمنُون معه امتثالاً لأمْرِ ربِّهم حتى نزلَ التَّخفيف ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ(٢٠)﴾ [المزمل]،

وفضيلةُ القراءَة بالليل تحصُل ولَوْ بالقليل، وقد قال النبيُّ ﷺ: "**مَنْ قَامَ بعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ**"(١)،

ويستَحبُّ لمن تعوَّد القيامَ بالليل أَنْ يُواظِبَ عليه ولا يتْركَه لأَنَّ النبيَّ ﷺ قال لابنِ عُمَر: " **لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ**"(٢)،

فإنْ غلَبته عينُه ليلةً ما فليقْرَأ ورْدَه بالنَّهار لقوله ﷺ: "**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**"(٣)،

"ويستَحبُّ الإكثارُ من تلاوةِ القرآنِ في شَهْرِ رمضانَ لأنَّه ابتُدِئ نُزولُه فيه، ولهذا كان جبريلُ يعَارِضُ به النبيَّ ﷺ في كلِّ سَنَة في شَهْرِ رمضانَ فلَمَّا كانت السَّنةُ التي تُوفِّي فيها عارضَه به مرتيْن "(٤)،

وينبغي للمؤمن أَنْ يحفظَ من القرآنِ ما استَطاع فإنَّ فَضْلَ الحفْظِ غيرُ فَضْلِ القراءة فقد قال النبيُّ ﷺ: "**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**"(٥).

فعلى قَدْرِ ما في صَدْرِ المؤمنِ من القُرآن تكونُ درجتُه في الجنَّة، فذُو الرُبعِ أدنى من ذي الثلث، وهو أدنى من ذي الثلثين، والذي استظهرَ القرآنَ كلَّه

---

(١) متفق عليه: خ(٣/٣٧/١١٥٢)، م(١١٥٩-١٨٥-/٨١٤/٢)، د(٤/٢٧٤/١٣٨٥).

(٢) صحيح: [ص.جه:١٠٩٦]، جه(١/٤٢٢/١٣٣١)، ن(٣/٢٥٣).

(٣)م(١/٥١٥/٧٤٧)،ت(٢/٤٧/٥٧٨)،د(٤/١٩٧/١٢٩٩)،ن(٣/٢٥٩)، جه(١/٤٢٦/١٣٤٣).

(٤) فضائل القرآن لابن كثير (٣٧).

(٥) حسن صحيح: [ص.د:١٣٠٠]، د(٤/٣٣٨/١٤٥١)، ت(٤/٢٥٠/٣٠٨١).

فَوْقَ الجميع ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ(١١)﴾ [المجادلة]،

وقال النبيُّ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»(١)،

وعلى الحافظِ أَنْ يتعاهَد القُرآنَ بالمُرَاجَعةِ كي يثْبُتَ في صَدْرِه ولا يتفلَّتَ منه فقد قال ﷺ : « إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ، وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ »(٢).

هذه هي آدابُ التِّلاوة، أَمَّا حاملُ القُرآنِ فعليه أَنْ يتأدبَّ بآدابِ القُرآنِ ويتخلَّق بأخلاقه حتى يكونَ قُرْآنًا يمْشِي بين الناس، فقد سُئِلَتْ عائشَةُ عن خُلُق رسولِ الله ﷺ فَقَالَتْ للسائل: « أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُلْتُ: بَلَى قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»(٣).

« وعن ابنِ مَسْعودٍ قال: ينبغى لحاملِ القُرآنِ أَنْ يُعْرفَ بلَيْله إذ النَّاس نائمون، وبنَهارِه إذ النَّاسُ مُفْطِرون، وبحُزْنه إذ النَّاس يفرَحُون، وببُكائه إذ النَّاسُ يضْحَكون، وبصَمْته إذ النَّاسُ يخُوضون، وبخُشوعه إذ النَّاس يخْتَالون، ولا ينْبغِي لحامِلِ القرآنِ أَنْ يكون جافياً ولا غافلاً ولا صخَّاباً ولا حديداً.

وقال الفُضَيْلُ: حَامِلُ القرآنِ حَامِلُ رايةِ الإسْلام لا يَنْبَغي أَنْ يلْغُو مع من يلْغُو، ولا يسْهُو مع مَنْ يسهو، ولا يلْهو مع من يلْهو، تعظيماً لله تعالى، ولا يَنْبغِي أَنْ يكونَ له عند أحدٍ حاجة، بل ينبغي أَنْ تكون حوائجُ النَّاس إليه»(٤).

---

(١) م(١/٥٥٩/٨١٧).

(٢)متفق عليه : خ(٩/٧٩/٥٠٣١)، م(١/٥٤٣/٧٨٩)واللفظ له، ن(٢/١٥٤).

(٣) م(١/٥١٢-٥١٤/٧٨٩)، د(٤/٢١٩-٢٢٢/١٣٢٨)، ن(٣/١٩٩-١٢١).

(٤) مختصر منهاج القاصدين (٥١).

والقراءةُ خارجَ الصَّلاةِ من المُصْحَفِ أفضلُ من القراءة عن ظَهْرِ قَلْبٍ، لأَنَّ النَّظر في المصحف عبادةٌ مطلوبةٌ فتَجْتَمِع القراءةُ والنَّظر، وكان كثيرٌ من الصَّحابة يقرءون من المُصْحف ويكرَهُون أَنْ يخرُجَ يومٌ ولم ينظروا في المصحف .

أمَّا القراءةُ من المُصْحَفِ في الصَّلاة ففيها تفصيل:

ففي الفريضةِ لم يُنْقَلْ عن النبيِّ ﷺ ولا عن الصَّحابة أَنَّهم قرَءوا من المُصْحَف في الفريضة، وإنَّما قال ﷺ : «**يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ**»[1]، فالأقرأُ يؤُمُّ وإِنْ كان صبياً:

عَنْ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ قَالَ: «لَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ وَاللَّهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ حَقًّا فَقَالَ: صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ»[2].

وأَمَّا القِرَاءَةُ من المُصْحَف في النَّافلة فاختَلفَ السَّلفُ في قيام رمضان:

فعن عائشة أَنَّها أعْتَقَتْ غُلاماً لها فكان يؤمها في المصحف.

ورخَّص فيه الحَكَمُ وابنُ سيرين وعَطاء، وقال الحَسنُ: لا بأْسَ أَنْ يؤمَّ في المُصْحفِ إذا لم يجدْ يعني مَن يَقْرأ ظاهراً .

---

(١) م(٦٧٣/١/٤٦٥)، ت(٢٣٥/١/١٤٩)، د(٥٧٨/٢/٢٨٩)، ن(٢/٧٦)، جه(٩٨٠/١/٣١٣).

(٢) خ(٤٣٠٢/٨/٢٢)، د(٥٨١/٢/٢٩٣)، ن(٢/٨٠).

وكره القراءةَ من المُصْحَف مجاهدٌ والنَّخَعي وعطاءُ والحسنُ وابنُ المسيّب وحمّاد وقتادة»[١].

وبالغ ابنُ حَزْم فقال ببُطْلان صَلاةِ الذي يقرأُ من المُصْحَف، وقال أبـاحَ ذلك قومٌ، والمرجوع عند التنازُع إليه هو القرآن والسنة، وقد قال ﷺ : "**إنَّ في الصلاة لشغلا**»[٢]، فصحَّ أنَّها شاغِلَةٌ عن كلِّ عمَلٍ لم يأتِ فيه نصٌّ بإباحته»[٣].

فالرَّاجح أنَّ القراءَة من المُصْحَفِ في القيام مكرُوهَة، وقد ترتَّب عليها من مُحْدَثات الأمُور ما لا يُخْتَلفُ في بدْعَته وهو إيجادُ الحَامِلِ الكبيرِ في القِبْلَة وعَلَيْه مُصْحَفٌ قد غطَّاه التُّرابُ لأنَّه لا يُفْتَح إلاَّ في رمضان، فالحاملُ هذا بِدْعَة لم تكن في مسجدِ رسُول الله ﷺ ولا في المساجدِ في القُرون المفضَّلة .

وربَّما ترتَّب على إباحةِ القراءةِ من المُصْحَف تهـاوُنُ الحفَظـةِ بتعاهُـدِ القُرآنِ ومُرَاجَعتِه، مما أدَّى إلى نِسيانه، ولو أنَّ كل إمام عَلِمَ أنَّه سيؤمُّ النَّاس في القيامِ عن ظَهْرِ قَلْبٍ لاهتمَّ بالقرآن ومُراجعته.

واعتذارُ النَّاس عن القراءةِ من المُصْحَف في رمضَان بأنَّهم يُريـدون أنْ يَخْتِمُوا اعتذارٌ غيرُ مَقْبُول، لأنَّ الخَتمَة في القيام ليستْ سُنَّة، لأنَّه من المعلُوم أنَّ النبيَّ ﷺ لم يَقُمْ رمضانَ كلَّه في الجماعة، فلم يكن هنـاك سُـنَّةٌ فـي القـراءة ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ(٢٠)﴾ [المزمل]، ولو أنْ يردِّد الإمامُ سورةً أو آيةً كلَّ ليلةٍ، وقدَّمُوا الحفَظَة ولو كانوا صِغاراً، وأخِّروا غيرهم .

* * *

---

(١) ش (٣٣٨ و ٣٣٩ / ٢) .

(٢) متفق عليه : خ(١٩٩٩/٧٢/٣)، م(٥٣٨/٣٨٢/١)، د(٩١١/١٩١و ١٩٢/٣) .

(٣) المحلى(٤/٤٦).

حقيقة الدنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ(٢٢٠)﴾ [البقرة]،

خلق اللهُ تعالى آدمَ ثم خَلَق له حوَّاء ليسكُنَ إليها، وأسْكَنهما الجنَّة، ثمَّ أخرجَهما منها بسبب ارتكابهما ما نهاهما عنه، وأهبَطهُما وعدوَّهما إبليسَ إلى الأرض، وأعلَمهم ساعةَ نُزولهم أَنَّهم إليه راجعون ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى(٣١)﴾ [النجم]،

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٣٦) فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٣٩)﴾ [البقرة].

ولما كانت الدُّنيا حُلْوةً خَضِرةً تُبْهِر النَّاظرين، وكانت الآخِرَةُ غيْباً لا يراها أحدٌ من الجِنَّة والنَّاس أجمعين، وكان اللهُ بالنَّاس رءوفاً رحيماً فقد جلّى لهم فى القرآن الكريم حقيقةَ الدُّنيا والآخرةِ « لعلَّهم يتفكرون في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها»[١]،

---

(١) الدر المنثور (١/٦١١).

فيعملون للدنيا بقَدْر مُكْثِهم فيها، ويعملون للآخرة بقَدْر خُلودِهم فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [يونس]،

وقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥)﴾ [الكهف]،

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾ [الحديد]،

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت]،

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾ [آل عمران].

وأخبر سبحانه أَنَّ الدُّنيا مَهينَةٌ حقيرَة، وأنَّه لهوانها عليه قد يَبْسُطُها للكافر ويُمْسِكُها عن المؤْمن قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ

أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤)وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(٣٥)﴾ [الزخرف]،

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٦٠)﴾ [القصص]،

وحذَّرنا ربُّنا سبحانه من فتْنَة الدُّنيا وخوَّف منها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(٥)﴾ [فاطر]؛

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(٣٣)﴾ [لقمان]،

ودعا سبحانه إلى إيثار الآخرةِ على الدُّنيا وبيّن أنه سيؤتي كلَّ إنسانٍ ما أراد من الدُّنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٣٦)﴾ [الشورى]،

وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦)وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(١٧)﴾ [الأعلى]،

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ(٢٠)﴾ [الشورى]،

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩)كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا(٢١)﴾ [الإسراء]،

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ(١٤٥)﴾ [آل عمران]،

ودعا الذين يريدون الحياة الدنيا أَنْ يطلُبُوها بطاعة الله والحرص على الآخرة فقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا(١٣٤)﴾ [النساء]،

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٤٨)﴾ [آل عمران].

ومع هذا البيان وذاك التَّحذير فقد اتَّخذ قَوْمٌ دينَهم لَهْواً ولَعِباً وغرَّتْهم الحياةُ الدُّنيا فحرَصوا عليهَا حِرْصاً جعلَهم يشْتَرُون الدُّنيا بالآخرة ويَسْخَرُون من الذين آمنوا إذا نَصحُوهم أو وَعظُوهم كما قال تعالى:﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ(٨٦)﴾ [البقرة]،

وقد حكمَ اللهُ عليهم بالضَّلال بسبب تصرُّفِهم هذا وتوعَّدهم بالنار فقال تعالى:﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢)الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ(٣)﴾ [إبراهيم]،

وقال تعالى:﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآَخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي

الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٠٩)﴾ [النحل]،

وقال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠)الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(٥١)﴾ [الأعراف]،

وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤)ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ(٣٥)﴾ الجاثية]،

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢١٢)﴾ [البقرة]،

"فأخبر سُبحانَه أَنَّ الذين كفَروا زُيِّنَتْ لهم الحياةُ الدُّنيا، فرَضُوا بها واطْمَأنُّوا فصارَتْ أهواؤهم وإراداتُهم وأعمالُهم كلُّها لها، فأقْبلُوا عليها وأكبُّوا على تَحْصيلها وعظَموها وعظَّموا مَن شَاركهم فيها، واحتَقَرُوا المؤمنينَ واستهزءوا بهم﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا(٧٣)﴾ [مريم]،

وقال تعالى:﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥)﴾ [سبأ]،

وهذا من ضَعْفِ عُقُولِهم وقصر نظرهم، فإِنَّ الدُّنيا دارُ ابتلاءٍ وامتحانٍ وسيحصلُ الشَّقاءُ فيها لأهلِ الإيمان والكفران، فلا عِبْرَةَ بما يُصيبُ النَّاسَ في الدُّنيا من خَيْرٍ أو شَرٍّ، وإنَّما الشَّأن كُلُّ الشَّأنِ والتَّفضيل الحقيقيُّ في الدَّار الباقية، فلهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، فيكون المُتَّقون في أعلى

الدَرجات متمتِّعينَ بأنواعِ النَّعيم والسُرورِ والبَهْجَة والحُبور، والكفَّار تحتَهم في أسفلِ الدَّركات معَذَّبين بأنواعِ العذَاب والإهانة، والشَّقاءِ السَّرْمَدِي الذي لا مُنْتَهى له، ولَمَّا كانتِ الأرْزَاقُ الدَّنيويَّةُ والأُخْرَوِيَّةُ لا تحصلُ إلاَّ بتقديرِ الله ولن تُنَالَ إلاَّ بمشيئتِه قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فالرِّزْقُ في الدُّنيا يحصل للمُؤْمِن والكافرِ وفي الآخرة يحظَى به المؤمنُ دُونَ الكافرِ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّه الَّتِي أَخْرَجَ لعبَاده وَالطَّيِّبَات منَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَة كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣٢)﴾ [الأعراف]»(١).

ولذلك كان من تمام فَضْلِ اللهِ على المُؤْمنين أَنْ هداهم للحِرْص على خَيْرَي الدُّنيا والآخرة، فسألوا اللهَ أَنْ يرزقَهم في الدُّنيا والآخرة ومدحَهم اللهُ على ذلك ووعدهم أَنْ يُؤْتِهم ما سَأَلُوا فقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ منْ عَرَفَات فَاذْكُرُوا اللَّهَ عنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِه لَمِنَ الضَّالِّينَ(١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ(٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٢٠٢)﴾ [البقرة]،

إِنَّ الحِرْصَ على الدُّنيا وحَدَها يحْرِمُ الإنسانَ ثوابَ الدُّنيا والآخرة، بينما الحِرْصُ على الآخرة يحقِّقُ للإنسانِ ثوابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثَوابِ الآخرة، فالحِرْصُ على الآخرة لا يمنَعُ الدُّنيا ولا يستَلْزِم تَرْكَها، ولذلك قال عُلماءُ بني إسرائيلَ لقارون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا(٧٧)﴾ [القصص]،

---

(١) السعدي(٢٥٩و٢٦٠) بتصرف.

ونهى اللهُ المؤمنينَ عن حرْمان أنْفُسِهم من طيِّبات الدُّنيا فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [المائدة].

ولَمَّا همّ بعضُ الشَّباب بخَصْيِ أنفُسِهم ليتبتَّلوا إلى ربِّهم نهاهم النبيُّ ﷺ وأمرَهم بالزَّواج "فليستِ الزَّهادَةُ في الدُّنيا بتحْريمِ الحلالِ ولا إضاعةِ المالِ، ولكنَّ الزَّهادَة في الدُّنيا بأَنْ تكونَ بما في يدِ الله أوثقَ منك بما في يدك، وأَنْ تكون حالُك في المُصيبةِ وحالُك إذا لم تُصَبْ بها سواء، وأَنْ يكونَ مادحُك وذامُّك في الحقِّ سواء»[١].

وقد كَثُرَتِ الأحاديثُ في ذمِّ الدُّنيا وذَمِّ الحِرْصِ عليها:

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ[٢].

وَعَنْ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ»[٣]،

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ: "أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ قَالَ:

---

(١) جامع العلوم والحكم(٢٥٤).

(٢)صحيح : [ص.ت:[٢٣٧٦]، ت(٢٤٨٢/١٦/٥).

(٣) م(٢٨٥٨/٢١٩٣/٤)، ت(٢٤٢٥/٣٨٤/٤)، جه(٤١٠٨/١٣٧٦/٢).

أَتُحبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ قَالُوا: وَاللَّه لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فيه لأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ فَقَالَ: فَوَاللَّه للدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّه منْ هَذَا عَلَيْكُمْ»(١).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدلُ عنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافرًا منْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»(٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «الدُّنْيَا سجْنُ الْمُؤْمنِ وَجَنَّةُ الْكَافرِ»(٣).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالك قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا منْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقيَامَة فَيُصْبَغُ في النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بكَ نَعيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّه يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا في الدُّنْيَا منْ أَهْلِ الْجَنَّة فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الْجَنَّة فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بكَ شدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّه يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شدَّةً قَطُّ»(٤).

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : «مَنْ كَانَت الآخرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غنَاهُ في قَلْبِه وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهيَ رَاغمَةٌ وَمَنْ كَانَت الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه وَفَرَّقَ عَلَيْه شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْته منَ الدُّنْيَا إلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ»(٥).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللَّه ﷺ : «أَلاَ إنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فيهَا إلاَّ ذكْرُ اللَّه وَمَا وَالاَهُ وَعَالمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»(٦).

---

(١) م(٤/٢٢٧٢/٢٩٥٧).
(٢)صحيح : [ص.ت:٢٣٢٠]، ت(٤/٣٨٣/٣٤٢٢)، جه(٢/١٣٧٦/٤١١٠و١٣٧٧).
(٣) م(٤/٢٢٧٢/٢٩٥٦)، جه(٢/١٣٧٦/٤١٠٩).
(٤) م(٤/٢١٦٢/٢٨٠٧).
(٥)صحيح : [ص.ت:٢٤٦٥]، ت(٤/٥٧/٢٥٨٣).
(٦)حسن : [ص.ت:٢٣٢٢]، ت(٣/٣٤٨/٢٤٢٤)، جه(٢/١٣٧٧/٤١١٢).

فيا عباد الله! "إِنَّ الدُّنْيَا ارْتَحَلَت مُدْبِرَةً وَارْتَحَلَت الآخِرَةُ مُقْبِلَةً وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ وَلاَ عَمَلٌ"(١)، وليس بعد الحساب إلاَّ الجزاء ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة]،

وقد أقسم اللهُ سبحانه على وُقوعِ الجَزاءِ لكلٍّ وفْقَ عملِه فقال تعالى: ﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾ [الطور].

وفي نعيمِ الجَنَّةِ يقول اللهُ تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة]،

وقال تعالى في عَذابِ النار: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦)﴾ [الفجر]،

ويقولُ اللهُ تعالى في وَصْفِ الجَنَّة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾ [محمد]،

---

(١) خ(١١/٢٣٥٠) تعليقاً موقوفاً على عليّ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠)أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا(٣١)﴾ [الكهف]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥)هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ(٥٦)لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ(٥٧)سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ(٥٨)﴾ [يس]،

وقال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤)الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(٣٥)﴾ [فاطر]،

وفي وَصْفِ النَّار يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا(٢١)لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢)لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣)لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا (٢٤)إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥)جَزَاءً وِفَاقًا(٢٦)﴾ [النبأ]،

وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١)فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢)وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣)لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ(٤٤)﴾ [الواقعة]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣)طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤)كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥)كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧)ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨)ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ(٥٠)﴾ [الدخان]،

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠)وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٥١)﴾ [الذرايات]،و﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(٤٧)﴾ [الشورى]،

وبيعُوا دُنيَاكُم بآخرَتكم تَرْبحوهما جميعاً، ولا تبيعوا آخِرَتَكم بدُنياكم فتَخْسَرُوهما جميعاً، وإيَّاكم ومُصاحَبَةَ أهلِ الدنيا فإنَّ الله تعالى نهى عن مُخالَطتهم فقال:﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(٢٨) ﴾ [الكهف]،

وقال تعالى:﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٢٨)﴾ [النجم]،

ولَمَّا تطلَّعتْ نِسَاءُ النبيِّ ﷺ إلى الدنيا وسألْنَه أَنْ يُوَسِّع عليهنَّ في النَّفقةِ أمره الله تعالى أَنْ يخيِّرَهُنَّ بيْنَ حياة الشَّظف والزُّهد وبيْن الطَّلاق فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨)وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا(٢٩)﴾ [الأحزاب]،

ومن قبْلِ ذلك زارَ الخليلُ إبراهيمُ عليه السلام مكَّةَ "**يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ فَشَكَتْ إِلَيْهِ: قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِه فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَد قَالَتْ: نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ قَالَتْ: نَعَمْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ قَالَ: ذَاكِ**

أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ اللَّحْمُ قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ قَالَتِ: الْمَاءُ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ قَالَ فَهُمَا لاَ يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلاَّ لَمْ يُوَافِقَاهُ قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ قَالَتْ: نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ»[(١)].

ولذلك عدَّ العُلماءُ مِنْ شُروطِ الصَّاحِب أَنْ لا يكونَ حريصًا على الدنيا:

« لأَنَّ الطِبَاعَ مجبُولةٌ على التشبُّهِ والاقْتداء، بلِ الطَّبْعُ يسرِقُ من الطَّبْع من حيثُ لا يدْري صاحبُه، فمُجالَسةُ الحريصِ على الدُّنيا تُحرِّك الحِرْصَ، ومُجالسَةُ الزاهدُ تَزِّهد في الدنيا، فلذلك يُكْره صُحْبَةُ طلاَّبِ الدُّنيا وتُستَحبُّ صُحْبَةُ الرَّاغبين في الآخرة»[(٢)].

* * *

---

(١) خ(٣٣٦٤/٣٩٦و٣٩٧/٦).

(٢) إحياء علوم الدين(٢/١٧٣).

إنَّ الله تعالى يبغض كل عالم بالدنيا جاهل بالآخرة

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)﴾[البقرة]،

"لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أَنَّ الذين يشْهَدُون مَشاعِرَ الحجِّ فريقان: كافرٌ وهو الذي يقولُ ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا (٢٢٠)﴾[البقرة]، ومُسْلِمٌ وهو الذي يقول: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)﴾[البقرة]،

بَقِيَ المُنَافِقُ فذكرَه في هذهِ الآية وشرَح صِفَاتِه وأفعالَه، والغَرَضُ من ذلك كلِّه أَنْ يبعثَ العبادَ على الطريقِ الحَسَنةِ فيما يتَّصِل بأفعال القُلوب والجَوارح، وأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ المَعْبُودَ لا يُمْكِنُ إخفاءُ الأمُورِ عنه"[1]،

والإعجابُ هو الاستِحْسَان، "يقال أعْجَبُه الشَّيءُ إذا راقَه واستَحْسَنَه ورآه عجَباً، أي طريفاً غيرَ متبذِّل، والخِطَاب عام، فيشملُ النبيُّ ﷺ وكلَّ من يصلُح للخطاب .

وفي قوله: "**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**" وجهان:

أحدهما أَنَّ من الناس فريقاً يُعْجِبُك قولُه وأنتَ في هذه الحياةِ الدُّنيا لأَنَّك

---

(١) الرازي(٥/٢١٣).

تأخذُ بالظَّاهر، وهو مُنَافِقٌ، يُظْهِرُ خلافَ ما يُضْمِر، ويقولُ ما لا يفعل، فهو يعتَمِدُ على خَلاَبة اللِّسَانِ في غشِّ مُعاشريه وأقرانه يُوهِمُهم أَنَّه مؤمنٌ صادقٌ ونصيرٌ للحَقِّ والفضيلة، وخَاذِلٌ للباطلِ والرَّذيلة، مُتَّقٍ لله في السرِّ والعلَن، مجتنبٌ للفواحش ما ظهرَ منها وما بطن، لا يريد للنَّاس إلاَّ الخيْر، ولا يسعى إلاَّ في سبيل النفع، ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ(٢٠٤)﴾[البقرة]،أي يَحْلِفُ باللهِ أَنَّ ما في قلبه مُوافِقٌ لِمَا يقول ويدّعي .

وفي معنى الحَلِف أَنْ يقولَ اللهُ يعلَمُ أو يشهد بأَنَّه أحبَّ كذا، وأراد كذا، وهذا القولُ آكدُ من اليمين، وهو لا يصدُرُ إلاَّ عن المنافقين الذين ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا(٩)﴾[البقرة]،

فإنَّ أحدَهم يُبالِغُ في الخَلابةِ والتَّودُّدِ إلى النَّاس بالقَوْل ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ(٢٠٤)﴾[البقرة]، أي وهو في نفسِه أشدُّ النَّاس مُخاصمةً وعداوةً لمن يتودَّدُ إليهم وهو أشدَّ خُصمائهم .

واللَّدد شِدَّة الخُصومة، وقيل: إنَّ الخِصَامِ بمعنى الجِدَال، أي وهُو قَوِيُّ المُعارَضةِ في الجَدل، لا يَعْجَزُ أَنْ يجْتَلِبَ النَّاس ويَغُشَّهم بما يُظْهِرُ من المَيْلِ إليهم وإسْعادِهم في شُئونهم ومصالحهم»[(١)].

وفي هؤلاءِ يقولُ الشاعِرُ الحكيم:

يلقاكَ يحْلَفُ أَنَّه بِكَ واثِقٌ ... وإذاَ توارَى عَنْكَ فهو العقْرَبُ
يُعْطِيكَ من طَرَفِ اللِّسانِ حَلاَوَةً ... ويرُوغُ مِنْكَ كَما يرُوغُ الثَّعْلَبُ

"والوجْهُ الثاني في قوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا(٢٠٤)﴾[البقرة]، أَنَّ الظَّرْفَ مُتَعَلِّقٌ بالقولِ الذي قبلَه، أي يُعْجِبُك قولُه إذا تكلَّم في شُئونِ الحياةِ الدُّنيا

---

(١) مختصر المنار (١٦٤، ١٦٥/١).

وأحْوالِها، وطُرقِ جَمْعِ المال وإحرازِ الجاه فيها، لأَنَّ حُبَّها قد ملكَ عليه أمـــرَه، والمَيلَ إلى ذاتِها وشَهواتِها قد استَحْوَذَ على قلبه، وصار هو المُصرِّفَ لشُـــعورِه وميْلِه، فينطلقُ لسانُه في كلِّ ما يستَهْوِي أصحابَ الجاه والمال، ويســـتميلُ أهـــلَ السِّيادَةِ والسُّلطانِ، ولكنَّه إذا تكلَّم في أمْرِ الدِّين جاء بالخَطل والحَشْو، ووقعَ فـــي التخبُّطِ واللَّغو»(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِـــنَّ أَكْثَـــرَ النَّـــاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُـــمْ غَـــافِلُونَ(٧)﴾ [الـــروم]، وقد أمر الله تعالى بالإعراض عنهم فقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَـــنْ مَـــنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٢٩)﴾ [النجم]،

«ليس لهم عِلْمٌ إلاَّ بالدُّنيا وأنْسابِها وشُئونِها وما فيها، فَهُمْ حُذَّاقٌ أذْكياءُ في تحصيلِها ووجُوهِ مكاسِبها وهم غافِلُون في أمورِ الدِّين وما يَـــنْفَعُهم فـــي الـــدَّار الآخرة كأَنَّ أحدَهم مُغَفَّل لا ذِهْن له ولا فكرة .

قال الحسنُ البصريُّ: واللهِ ليبلُغُ مِنْ أحدِّهم بدُنْياه أَنَّه يَقْلِبُ الـــدِّرْهِمَ علـــى ظُفْرِه فيُخبرُك بوَزْنِه وما يُحْسِنُ يُصلِّي»(٢)،

وفي هؤلاءِ وأمثالِهم يقولُ النبيُّ ﷺ :

«**إنَّ الله يبغض كل عالم بالدنيا جاهل بالآخرة**»(٣).

ثم بيَّن الله تعالى فسادَ عَملِه وإفْسادَه في الأرضِ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِـــدَ فِيهَـــا وَيُهْلِـــكَ الْحَـــرْثَ وَالنَّسْـــلَ وَاللَّـــهُ لاَ يُحِـــبُّ

---

(١) مختصر المنار(١٦٤و١٦٥/١).

(٢) ابن كثير(٤٢٧/٣).

(٣) صحيح: [ص.ج: ١٨٧٥] .

الْفَسَادَ(٢٠٥)﴾ [البقرة]،

يعني أَنَّ « هذا الذي يُعْجِبُك حديثُه، وتُعْجِبُكَ ذَلاقةُ لسانه، وتُعْجِبُك نَبَرُةُ صَوْته، ويُعْجِبُكَ حديثُه عن الخيْر والبرِّ والصَّلاح، يتناقضُ ظاهِرُه وباطنُه، ويتناقضُ مظْهَرُه ومخْبَرُه، إنَّه يُتْقِنُ الكَذِبَ والتَّمويه والمُدَاهنة، حتى إذا جاء دَوْرُ العَمَلِ ظهَر المخْبوءُ وانكشفَ المستُور، وفُضِحَ بما فيه من حقيقةِ الشرِّ والبَغْيِ والحِقْد والفساد .

إنَّه يُعْطيك لينَ الكلام وإذا أعرض عنكَ وانصرفَ انصرفَ إلى الشرِّ والفساد في قَسْوةٍ وجَفْوةٍ ولَدَدٍ، تتمثَّل في إهْلاكِ كلِّ حيٍّ من النَّباتِ والحيَوانات، مما يدلُّ على ما يَعْتَمِلُ في كيانِ هذا الإنسانِ من النَّكدِ والحِقْدِ والشرِّ والغَدْرِ والفَساد، والذي يحاولُ دائماً أَنْ يستتر بذلاَقة لسانه ونُعومَة الدِّهان والتَّظاهُرِ بالخيْر والبرِّ والسَّماحة والصَّلاح .

﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ(٢٠٥)﴾ [البقرة]، ولا يُحِبُّ المُفْسِدين الذين يَسْعَوْن في الأرضِ فساداً، والله لا يَخْفَى عليه حقيقةُ هذا الصِّنْفِ من الناس، ولا يُعْجِبُه من هذا الصِّنف ما يُعْجِبُ النَّاس الذين تخدُعُهم الظَّواهر وتَخْفَى عليهم السرائر»[١].

« ولَمَّا كان الإفسادُ يصْدُر تارةً عن الجَهْلِ وسُوءِ الفَهْم، وأحياناً عن فَسادِ الفِطْرَةِ وسُوءِ القصد، وكان من يعملُ السُّوءَ بجهالةٍ سريعَ التَّوبةِ مُبادِراً إلى قَبُولِ النصيحةَ، وكان شأنِ الآخَرِ الإصرارُ على ذَنْبه كالمُستَهْزِئ بربِّه، ذكرَ منْ صِفَةِ المُفْسِدِ ما يميِّز بينه وبين المخطئ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ(٢٠٦)﴾ [البقرة]»[٢]، إذا قيل له « على نَهْج العِظَةِ ﴿اتَّقِ

(١) في ظلال القرآن(١/٢٩٥).

(٢) المنار(١/١٦٦).

اللَّهَ(٢٠٦)﴾ [البقرة] في النِّفاق، واحذَرْ سُوءَ عاقبَته، أو فِي الإفْسادِ والإهلاكِ وفي اللَّجاج بالباطل ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ(٢٠٦)﴾ [البقرة]، أي حَمَلَتْه الأَنَفةُ وحَمِيَّةُ الجاهليَّةِ على الفعْلِ بالإثْم وهو التكبُّر، أو المعنى أَخذَتْه الحَمِيَّة للإثْمِ الذي في قَلْبِه فمنَعه من قَبولِ قَوْلِ النَّاصح»[١]، "واستَكْبَر أَنْ يُوجَّه إلى التَّقوى، وتعاظَمَ أَنْ يُؤْخَذ عليه خطأٌ وأَنْ يوجَّه إلى صَواب، وأَخَذَتْه العِزَّة لا بالحقِّ ولا بالعَدْل ولا بالخيْر، ولكن بالإثم، فاستعزّ بالإجرامِ والذَّنب والخَطيئةِ ورَفَع رَأْسَه في وجْه الحقِّ الذي يذكَّر به وأمامَ الله بلا حياءٍ منه، وهو الذي كان قبلُ يُشْهِدُ الله على ما في قَلْبه ويتظاهر بالخيْر والبرِّ والإخلاصِ والتجرُّد والاستِحْياء ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ(٢٠٦)﴾ [البقرة]، فيها الكِفَايةُ له ولأمثاله من الغاوين وجُنودِ إبليسَ أجمعين ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ(٢٠٦)﴾ [البقرة]، والمِهَادُ هو الفِراش، ومَنْ كانَتِ النَّارُ فِراشَه فبئسَ الفِراشُ فِراشُه»[٢].

"ولَمَّا أتمَّ سُبحانَه وتعالى الإخبارَ عن هذا الفريقِ من النَّاس الضَّالين أتْبَعهُ بذِكْر قَسيمه المُهْتَدِي، ليبعثَ العبادَ على تجنُّبِ صِفَاتِ الفَريقِ الأوَّل والتَّخلُّقِ بنعُوت الثاني فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ(٢٠٧)﴾ [البقرة]، أي يبيعها ببذلها في طاعة الله ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّه(٢٠٧)﴾ [البقرة]، أي طلبِ رضاه ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ(٢٠٧)﴾ [البقرة]، حيثُ أرشدَهم لما فيه رضاه وأَسْبَغ عليهم نِعمه ظاهرةً وباطنةً مع كُفْرِهم بها وتَقْصيرِهم في حقِّ الله»[٣].

"فهَمُّه العملُ الصالِحُ وغايتُه رضا الله، فهو قليلُ الكَلِم كثيرُ العَمَل، لا يتكلَّم بلسانيْن ولا يُقابلُ النَّاس بوجهيْن، ولا يُؤْثِرُ على ما عِنْدَ الله عَرَض الدُّنيا

---

(١) القاسمي(٣/١٧٠).

(٢) في ظلال القرآن(١/٢٩٦).

(٣) القاسمي(٣/١٧٠).

وما عند كُبَرائها ومُتْرَفيها من القُصور ومَتاع الزينة والغُرور.

ولقد ذكر اللهُ تعالى هذا الشِّراءَ في آياتٍ أخرى تَشْرَحُ هذه الآيات وتفسِّرها، وتُبيِّن أَنَّ المؤمنين باعُوا وأَنَّ الله قد اشترى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١١١)﴾ [التوبة]،

فنَفْسُ المُؤْمِنُ لله لا للشَّهوة واللَّذة البهيميَّة والمكر الشيطاني، فمن آثر شَهْوتَه على مَرْضَاة ربّه، والتزَام حدُودَه، والمحافظة على هدف دينه، فلا وزن له في سوق هذا البيع ولا قيمة»[١].

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى(٣٧)وَءاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٣٨)فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى(٣٩)وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى(٤٠)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(٤١)﴾ [النازعات]

وفي هذه الآيات دُروسٌ وفوائدٌ:

منها: "**إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**"[٢]،

فعلى الناس أَنْ لا يغترُّوا بزُخْرُفِ القَوْلِ حتَّى يوافقَه عملٌ صالح.

ومنها: ذمَّ الذين تُخالفُ أفعالُهم أقوالَهم، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ(٣)**﴾

---

(١) المنار(١/١٦٨).

(٢) م(٢٥٦٤-٣٤-/١٩٨٧/٤).

[الصف]،

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلاَنُ مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ "(١)،

وعنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت من هؤلاء يا جبريل، قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون "(٢).

ومنها: ذمَّ الذين يُظْهِرُون الصَّلاح وأفئدَتُهم منه هواء:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ "(٣)،

وَعَنْ عَمَّارٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ "(٤).

ومنها: ذمَّ اللَّددِ في الخُصومة:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ

---

(١) متفق عليه : خ(٣٢٦٧/٣٣١/٦)، م(٢٩٨٩/٢٢٩٠/٤).

(٢) صحيح : [ص.تغ:١٢٥]، حب(٣٥/٣٩).

(٣) متفق عليه: خ(٦٠٥٨/٤٧٤/١٠)، م(٢٥٢٦/١٩٥٨/٤)، ت(٢٠٩٤/٢٥٢/٣)، د(٤٨٥١/ ١٣/٢١٩).

(٤) صحيح : [ص.د:٤٠٧٨]، د(٤٨٥٢/٢٢٠/١٣).

(٥) متفق عليه : خ(٢٤٥٧/١٠٦/٥)، م(٢٦٦٨/٢٠٥٤/٤)، ت(٤٠٥٩/٢٨٢/٤)، ن(٢٤٧و ٨/٢٤٨).

الْخَصِمُ»(٥).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(١).

«فشِدَّةُ الخُصومَةِ من صِفَاتِ المُنَافِقينَ لأَنَّهم يُحِبُّون الدُّنيا فيُكْثِرُون الخِصَامَ عليها»(٢).

ومنها: ذَمُّ المُفْسِدينَ في الأرْض بالمعاصِي وأكبرُها الشِّرْكُ ودَعْوَةُ النَّاس إليه، وكلُّ عاملٍ بمعصية فهو مُفْسِدٌ في الأرضَ لأَنَّ الأرض لا تصلُحُ إلاَّ بالطاعة.

ومنها: ذَمُّ الذين يعتَدُون على زُرُوع النَّاس وبَهائِمهم بالقَتْل والحَرْق انتقاماً منهم لَما بيْنَهم من الخُصُومةِ أو حَسَداً من عِنْدَ أنفسهم، فهو داخِلُ في عُمومِ قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ** (٢٠٥)﴾ [البقرة].

ومنها: ذمُّ من يغْضَبُ إذا أُمِرَ بطاعةِ الله أو نُهِيَ عن معْصيتَه، فإنَّ الله توعَّد على ذلك فقال: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**(٢٠٦)﴾ [البقرة].

«قال الحاكِمُ: هذه الآيةُ تدلُّ على أَنَّ مِنْ أَكْبَرِ الذُّنوبِ عِنْدَ اللهِ أَنْ يُقَالَ

---

(١) متفق عليه : خ(١/٨٦/٣٤)، م(١/٧٨/٥٨)، د(١٢/٤٤٣/٤٦٦٣)، ت(٤/١٣٠/٢٧٦٨)، ن (٨/١١٦).

(٢) الألوسي(٢/٩٥).

(٣) القاسمي(٣/١٧١).

لِلْعَبْدِ اتَّقِ اللهَ فيقولُ عليكَ نفسَك، وقال الزَّمَخْشَرِيَّ: ومِنْه ردّ قَوْلِ الواعظ»(٣).

ولذلك كانَ السَّلَفُ الصَّالح إذا قيلَ لأحدِهم اتَّقِ اللهَ خرّ ساجداً:

«عن سُفيانَ قال: قالَ رجُلٌ لمَالكٍ بن بِقول: اتَّقِ الله فوضَع خَدَّه على الأرض تواضُعاً لله،

وعن الحسن أَنَّ رجلاً قال لعُمر: اتَّقِ الله، ثم ذهب، فقال عمرُ: ما فينَا خيْرٌ إنْ لم تقُلْ لنا، وما فيهم خيرٌ إنْ لم يقولُها لنا»(١)،

«وذُكِرَ أَنَّ يَهودِياً كانتْ له حاجةٌ عند هارونَ الرَّشيدِ فاختلفَ إلى بابهِ سنةً فلم تُقْضَ حاجُته، فوقف يوماً على الباب، فلَمَّا خرجَ هارُون سعَى ووقَف بيْنَ يَديْه وقال: اتَّقِ الله يا أميرَ المؤمنين، فنزلَ هارُون عن دابّته وخرّ ساجداً، فلَمَّا رفعَ رأسَه أمرَ بحاجَتِه فقُضِيَت، فلَمَّا رجَع قيل له يا أميرَ المُؤْمِنين نَزلْتَ عن دابّتك لقولِ يهوديٍّ فقال لا، ولكن تذكَّرتُ قولَ الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ(٢٠٦)﴾ [البقرة]»(٢).

ومنها: حثُّ المُسْلِم على التخلِّي عن صِفَاتِ الكافرين والمُنافقين، والتحلِّي بصفاتِ المؤمنين الصادقين

«فَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(٣).

* * *

---

(١) الدر المنثور(١/٥٧٥).

(٢) القرطبي(٣/١٩).

(٣) حسن صحيح: [ص.د:٣٤٠١]، د(٤٠١٠/٧٢و١١/٧٣)، جه(٣٦٠٧/١١٩٢و٢/١١٩٣).

فضل الذكر والشكر

قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة]،

يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]،

فَنِعَمُ الله كثيرةٌ ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ (٥٣)﴾ [النحل]،

والنِّعَمُ نوْعان: دينيَّةٌ ودُنويَّة، ومن النِعَمِ الدُّنيويَّةِ ما ذكَّرَ اللهُ تعالى به عبادَه في هذه الآيات، ومِنَ النِّعم الدِّينية ما ذكَّرنا اللهُ به في آيةِ البقرة .

وقد جمع اللهُ بيْن النَّوعَيْن في التَّذكير بنِعَمِه والامتنانِ بها فقال سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن]،

وقد أمر اللهُ تعالى بشُكْرِه على ما أنعَم به من النِّعمِ الدُّنيويَّةِ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)﴾ [البقرة]،

وقال عن داودَ عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠)﴾ [الأنبياء]،

وأمر سبحانه بشكره على نعمه الدينيَّة فقال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة]،

قال ابنُ كثير: "يُذكِّر تعالى عبادَه المؤمنينَ ما أنعمَ به عليهم من بعثةِ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ إليهم يتلُو عليهم آياتِ الله بيِّنات ليخرجَهم من الظُّلماتِ إلى النور، ويُزكِّيهم أي يُطهِّرُهم من رذائلِ الأخْلاقِ ودَنَس النُّفُوسِ وأفْعَالِ الجاهليَّة، ويُعلِّمُهم الكتابَ والحِكْمَةَ وهي السنَّةُ ويعلِّمهم ما لم يكونُوا يعلمون، فكانُوا في جاهليَّةٍ فانتَقلُوا ببَركةِ رسالَته ويُمْنِ سفارَته إلى حالِ الأوْلياءِ وسجَايا العُلَماء، فصارُوا أعمقَ النَّاس علماً، وأبرَّهم قلُوباً، وأقلَّهم تكلُّفاً، وأصدقَهم لَهْجةً، ولقد امتَّن اللهُ عليهم بهذه النِّعمة فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ (١٦٤)﴾ [آل عمران]،

وذمَّ من لم يعْرفْ هذه النِّعمة فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾ [إبراهيم]، قال ابنُ عباس: يعني بالنِّعمة محمداً ﷺ ولهذا ندَب اللهُ تعالى المؤمنينَ إلى الاعترافِ بهذه النِّعمةِ ومقابلتها بذكره وشكره فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ "(١).

" أمَّا الذِّكر فقد يكونُ باللِّسانِ، وقد يكونُ بالقلبِ، وقد يكونُ بالجوارح، فذِكْرُهم إيَّاه باللِّسان أنْ يحمَدُوه ويُسبِّحوه ويُمجِّدوه ويقرَؤوا كتابَه .

وذِكرُهم إيَّاه بقلُوبهم أنْ يتفكَّروا في الدَّلائِل الدَّالةِ على ذاتِه وصفَاتِه، وفي الدلائل الدَّالةِ على كيفيةِ تكاليفهِ وأحكامهِ وأوامرِه ونواهيه ووعدِه ووعيده، فإذا

(١) ابن كثير (١٩٥و١٩٦/١).

عرَفُوا كيفيَّةَ التّكليفِ وعرَفُوا ما في الفِعْلِ وما في الوَعْدِ وما في التَرْكِ وما في الوعيدَ سُهل عليهم فِعْلُه، وأَنْ يتفكَّروا في أسرارِ مخلُوقاتِ اللهِ تعالى حتى تعبُر كلَّ ذرَّةٍ من ذرّاتِ المخْلُوقاتِ مُذكِّرةً له أَنَّه فاطرُ الأرض والسموات .

وأَمَّا ذِكْرُهم إيَّاه تعالى بجوارحهم فهو أَنْ تكونَ جوارِحُهم مستغرِقَةً في الأعمال التي أُمِرُوا بها، وخاليةً من الأعْمالِ التي نُهُوا عنها.

ولَمَّا كانتِ الصَّلاةُ تجمَعُ الذِّكْرَ باللِّسان والقلبِ والجوارحِ سمَّاها اللهُ تعالى ذكْراً فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ(٩)﴾ [الجمعة]، فصار الأمرُ بقوله: ﴿ فَاذْكُرُونِي﴾ متضمِّناً جميعَ الطَّاعات، ولهذا رُوِيَ عن سعيدِ بن جُبَيْر أَنَّه قال: اذْكرُونِي بطاعَتي، فأجملَه حتى يدخُلَ في الكل »(١).

« وهكذا تبيَّن أَنَّ الذِّكْر لا ينْحَصِرُ في التَّسبيح والتَّحميد والتَّهليل والتَّكبير، بل كلُّ عاملٍ لله بطاعةٍ فهو ذاكرٌ لله كما قال سعيدُ بن جُبَيْر، وقال عطاءٌ: مَجالِسُ الذِّكْرِ مجالس الحلال والحرام كيف تَشْتَرِي وتبيع؟ وتُصَلِّي وتصوم، وتَنْكِحُ وتُطَلِّق»(٢).

ولقد أمر اللهُ تعالى بذِكْرِه فقال:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(٤١)﴾ [الأحزاب]،

وحذَّر من الغَفْلَة والنِّسْيان فقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ (٣)﴾ [المنافقون]،

وبيَّن سبحانه أَنَّ الذِّكْرَ سببُ الفلاح وأَنَّ الغفلةَ والنِّسيانَ سببُ الخُسران:

---

(١) الرازي(١٥٨و١٥٩/٤).

(٢) الأذكار للنووي(١٠)

فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)﴾ [الجمعة]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٣)﴾ [المنافقون]،

ووعد الذاكرينَه بذِكْرهم فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ(١٥٢)﴾ [البقرة]، وفي الحديث القُدُسيِّ: قال النبي ﷺ: **يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»(١).**

وتوعَّد سبحانه أهلَ الغَفْلَةِ والنِّسيان بنِسْيَانهم فقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي غفَلُوا عن ذِكْره وتركُوا طاعَته فتركهم من فضله ورحمته .

وقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ(١٩)﴾ [الحشر]، أي فلم يقدِّمُوا لها خيراً ينفعُهم يومَ يلْقَوْنه، ولذلك يقول قائلُهم يومَ القيامة: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(٢٤)﴾ [الفجر]،

وقد نهى اللهُ تعالى عن طاعةِ مَنْ كان بهذه الحال فقال لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(٢٨)﴾ [الكهف]،

ونهى أولياءَه المؤمنينَ عن التشبُّه بهم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(١٩)﴾ [الحشر]،

وفضائلُ الذِّكْرِ كثيرةٌ لا تنحصر:

---

(١) متفق عليه: خ(٧٤٠٥/٣٨٤/١٣)، م(٢٦٧٥/٢٠٦١/٤)، ت(٣٦٧٣/٢٣٨/٥)، جه(٣٨٢٢/ ١٢٥٥/٢).

منها: "أنَّه سببٌ للمَغْفِرَة كما قال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(٣٥)﴾ [الأحزاب].

ومنها: أنَّ الذَّاكرينَ هم أولوا الألباب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران].

ومنها أنَّهم في أعلا درجاتِ الفِرْدَوْس وهي دَرجة السَّابقين المقرَّبين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ: جُمْدَانُ فَقَالَ: "سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ: قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»(١).

ومنها: أنَّ مجالِسَ الذِّكْرِ هي مجالِسُ الرَّحمة والبَركة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: " لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ حَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»(٢).

وهذا الذِّكْرُ كما قال عَطاء: كيف تَشْتَري وتبيع؟ وتصومُ وتصلّي؟ وتَنْكِحُ وتُطلِّق؟، وهي مجالِسُ العِلْم لما في الحديثِ من رواية أخرى:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »(٣).

---

(١) م(٤/٢٠٦٢/٢٦٧٦).

(٢) م(٤/٢٠٧٤/٢٧٠٠)، ت(٥/١٢٨/٣٤٣٨).

(٣) م(٤/٢٠٧٤/٢٦٩٩)،د(٤٩٢٥/٢٨٩و ٢٩٠/١١)، ت(٤٠١٥/٤/٢٦٥)،جه(١/٨٢/٢٢٥).

فقولُه ﷺ : "**يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ**" تفسيرٌ لقولِه ﷺ في الرِّواية الأولى "**يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ**" .

وقد شبَّه النبيُّ ﷺ الذَّاكِرَ بالحيِّ، والغافِلَ بالميِّت، وشبَّه بيْتَ الذَّاكر ببَيْتِ الحيّ، وبيتَ الغَافلِ ببيْتِ الميِّت وهو القَبْر:

فَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ"[١]،

وفي رواية: "**مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لاَ يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**"[٢].

فجعل بيتَ الذَّاكر بمنزلة بيْت الحي، وبيتَ الغافلِ بمنْزِلَة بيْت الميِّت وهو القبر، وفي اللفظ الأوَّل جعلَ الذاكِرَ كالحيِّ في بيُوت الأحياء، وجعلَ الغافِلَ كالميِّت في بيُوت الأموات، ولا ريبَ أَنَّ أبدانَ الغافِلينَ قبورٌ لقلوبُهم، وقلُوبُهم فيها كالأمواتِ في القُبور كما قيل:

فنِسْيَانُ ذِكْرِ اللهِ مَوْتُ قلُوبِهِمْ وأجْسَامُهم قبلَ القُبورِ قُبورُ

وأَرْواحُهم في وَحْشَةٍ من جُسومِهم وليسَ لَهُمْ حتَّى النُّشُورِ نُشُورُ"[٣].

فبِذِكْرِ الله تحيا القلوب، وبنِسْيانه تمُوت، وبِذِكْرِ الله تطمئِّن القلوب، وبنسْيانِه تَنْزَعِجُ وتقلَق، فإنَّ في الإنسانَ ثغرات، لكل ثغرة سُدّة، فالجُوع ثَغْرَةٌ سُدَّتُها الطعام، والظمأ ثَغْرَةٌ سدَّتُها الشَّراب، والفَرْجُ ثَغْرةٌ سُدَّتُها النِّكاح، وفي القَلْبِ ثَغْرَةٌ لا يسدُّها إلاَّ ذِكْرُ الله فإنْ سُدَّت به وإلاَّ عاش الإنسانُ في قَلَقِ

---

(١) خ(١١/٢٠٨/٦٤٠٧).

(٢) م(١/٥٣٩/٧٧٩).

(٣) تهذيب مدارج السالكين(٤٦٣-٤٦٧).

وضَجَر، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(٢٨)﴾[الرعد]،

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى(١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦)وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى(١٢٧)﴾[طه].

هذا وقد جاء ذِكْرُ النِّعمَةِ على وجْهِ الخُصوصِ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ(٣)﴾[فاطر]،

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ(١١)﴾[المائدة]،

والمُرادُ من هذا الذِّكر أَنْ يُفْضِيَ إلى الشُّكر، وقد اختَلفتْ عِبَاراتُ العُلماءِ في معنى الشُّكر، وخُلاصَةُ القول: أَنَّ الشُّكرَ يكونُ بالقَلْبِ واللِّسانِ والجوارح .

أَمَّا الشُّكرُ بالقَلْب فهو الاعتقادُ والاعتِرافُ، والمحبَّةُ والانقيادُ والخُضوع، بمعنى أَنْ يكونَ القلبُ مُعْتَقِداً ومُعْتَرِفاً بأَنَّ ما بالعبدِ من نعمةٍ فمن الله وحْدَه لا شريكَ له، وأَنْ يكونَ بذلك مُحِبًّا للمُنْعِمِ محبَّةً تستلزِمُ الخُضوعَ والانقيادَ والتَّسليمَ لأمره.

وأَمَّا شُكْرُ اللِّسان فهو الاعترافُ بالنِّعمة والتحدُّث بها والثَّناء على الله من أَجْلِها، كما قال تعالى: [الضحى]،

وقال ﷺ : "التَّحدُّثُ بِنِعْمَةِ الله شُكْر، وتَرْكُها كُفْر"(١).

---

(١) حسن: [ص.ج:٣٠١١]، وانظر تخريجه وتحقيقه في « الصحيحة» ، (٦٦٧) .

وأمَّا الشُّكْرُ بالجَوارِحِ فهو أنْ يستَخْدِمِ نِعْمَةَ اللهِ في طاعةِ الله، فلا يمتدُّ نظرَه إلى ما حرَّم الله، ولا تسمعُ أذنُه ما حرَّم الله، ولا ينْطِقُ لسانُه بما حرَّم الله، ولا تمتدُّ يدُه إلى ما حرَّم الله، ولا تَسْعى رِجْلُه إلى ما حرَّم الله، ولا ينْطَوِي صَدْرُه على ما حرَّم الله، وهكذا .

«عن أبي حازمٍ أنَّ رجلاً قال له ما شُكْر العيْنَيْن؟ قال: إنْ رأيتَ بهما خيرًا أعْلَنْتَه، وإنْ رأيتَ بهما شرًّا سترتَه، قال: وما شُكْرُ الأُذنيْن؟ قال إنْ سمعت بهما خيراً وَعَيْتَه، وإنْ سَمِعْتَ بهما شرًّا أخْفيتَه، قال: فما شُكْرُ اليديْن؟ قال لا تَأْخُذْ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقاً لله عزّ وجلّ فيهما، قال فما شُكْرُ البَطْن؟ قال: أنْ يكون أسفلُه طعاماً وأعلاه عِلْماً، قال: فما شُكْرُ الفَرْج؟ قال كما قالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾ [المؤمنون]، قال: فما شُكْرِ الرِّجلَيْن؟ قال: أنْ تَسعى إلى ما يحبُّه الله وأنْ تَقْعُدَ بهما عن السَّعْيِ في سخط الله.

فأمَّا مَنْ شكَر بلسانِه ولم يشكُرْ بجميع أعضائه فمَثَلُه كمثَلِ رجُلٍ له كِسَاءٌ فأخذَ بطرَفِه ولم يَلْبَسْه فلم ينْفَعْه ذلك من الحرِّ والبرْدِ والثَّلج والمطر»[١]،

ولقد أثنى اللهُ على الشاكرين ومدَحهم فقال تعالى عن نُوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ [الإسراء]، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ (١٢١)﴾ [النحل]،

وبيَّن سبحانه أنَّ نفعَ الشُّكْرِ عائدٌ على الشَّاكر نفسه فقال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ (٤٠)﴾ [النمل]،

---

(١) الدر المنثور (١/٣٧٠).

«فشُكْرُ العبدِ إحسانٌ منه إلى نفسه دُنْيا وأُخْرى، فإنَّه إنَّما هو مُحْسِنٌ إلى نَفْسِه لا إنَّه مُكافِئٌ به نِعَمَ الرَّب، فالربُّ تعالى لا يستطيع أحدٌ أَنْ يكافِئَ نِعَمه أبداً ولا أقلَّها ولا أدناها، فإنَّه تعالى هو المُنْعِم المتفضِّلُ الخالِقُ للشُّكْرِ والشَّاكر، وما يُشكَرُ عليه، فلا يستطيعُ أحدٌ أَنْ يُحْصِي ثناءً عليه، فإنَّه المُحْسِنُ إلى عبدِه بنَعمِه، وأحسنَ إليه بأَنْ أَوْزَعَه شُكْرَها، فشُكْرُه نِعْمَةٌ من الله أنعمَ بها عليه تحتاجُ إلى شُكْرٍ آخر، وهلُمَّ جرًّا»(١).

ولذلك رُوِيَ «أَنَّ مُوسى قال: يا ربِّ! كيف لي أَنْ أشكُركَ وأصْغَرُ نِعْمَةٍ وضعْتَها عندي من نعمك لا يُجازِي بها عَملِي كله؟ فأتاه الوَحْيُ: أَنْ يا موسى الآن شَكَرْتَني»(٢).

وإنَّما يُحْسِنُ العبدُ إلى نفسه بشُكْرِ ربِّه لأَنَّه بالشُّكْرِ يحافِظُ على النِّعمة قال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ(١٤٥)﴾ [آل عمران]، في الدُّنيا بالزِّيادَة كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ(٧)﴾ [إبراهيم]، وفي الآخرة بالحُسْنَى وزيادة.

ولذلك كانَ الشاكرون «أطيبَ النَّاس نفُوساً وأشرَحَهم صُدُوراً، وأقرَّهم عيوناً، فإنَّ قُلوبَهم ملآنةٌ من حَمْده والاعتراف بنعمه والاغتباط بكَرَمه والابتهاجِ بإحْسَانه، وألْسنَتَهم رطبةٌ في كلِّ وقتٍ بشُكْره وذِكْره، وذلك أساسُ الحَياةِ الطَّيبَة ونعيمِ الأرْواح وحُصولِ جميع اللَّذائذِ والأفْراح.

وقلوبُهم في كلِّ وقتٍ متطلِّعةٌ إلى المزيد، ورجاؤهم في كلِّ وقتٍ بفَضْلِ ربهمْ يَقوى ويَزيد، فلو عَلِمَ العِبَادُ ماذا أُعِدَّ للشَّاكرينَ من خيْرات لاستَبقُوا إلى فضيلةِ الهُدى العُليا، ولو شَاهَدُوا أحوالَهم في السُّرورِ والابْتِهَاج لعَلِمُوا أَنَّهم في جنَّة الدنيا»(٣).

---

(١) تهذيب مدارج السالكين(٣٨٧).

(٢) الدر المنثور(١/٣٦٩).

(٣) الرياض النضرة: السعدي(٤٨).

وكما أمر اللهُ تعالى بالشكر، وبيَّن أنَّ نفْعَه عائدٌ على الشاكرين فقد نهى عن الكُفْرِ وبيَّن أنَّ ضرَرَه عائدٌ على الكافرين بزَوال النعمة في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(٧)﴾ [إبراهيم]،

وقال تعالى: ﴿تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٧)﴾ [الزمر]،

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(١١٢)﴾ [النحل]،

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦)ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ(١٧)﴾ [سبأ]،

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ(٢٩)﴾ [إبراهيم].

فيا عبادَ الله ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ واستعينُوا به على ذِكْرِه وشُكْرِه فإنَّ الاستعانَةَ باللهِ على شُكْرِ اللهِ دَأْبُ النّبيّين والصَّالحين قال تعالى عن سُليمان: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ(١٩)﴾ [النمل]،

وقال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(١٥)﴾ [الأحقاف]،

فالاستعانةُ بالله على عبادة الله قرينةُ العبادة، ولذلك علَّم اللهُ أهلَ الصَّلاة أنْ يقول المصلِّي في كل قراءة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥)﴾ [الفاتحة]،

فكما يجب على المكلَّفِ أنْ يعبُدَ اللهَ يجب عليه أنْ يستعينَ باللهِ على القيام بعبادته، فإنَّ الإنسانَ ليس له من نفسِه إلاَّ الخُذْلان، والسعيدُ من اعترَف بعجْزِه واعترفَ لله بقُدرَته، واعترفَ بضَعْفِه واعترفَ لله بقوَّته، وعَلِمَ أنْ لا حولَ له ولا قوةَ إلاَّ بالله، ولا تحوُّلَ لأحدٍ عن معْصيةِ الله إلاَّ بمعُونة الله ولا قُدْرةً لأحدٍ على إقامةِ دينِ الله والثَّبات عليه إلاَّ بتوفيق الله، ولذلك قال النبيُّ ﷺ لمعاذ: **"يَا مُعَاذُ وَاللَّه إِنِّي لأَحبُّكَ وَاللَّه إِنِّي لأَحبُّكَ فَقَالَ أُوصيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ"**(١).

ألاَ وإنَّ مما يتعيَّن علينا هذه الأيامَ أنْ نشكُرَ الله على ما هدانا إليه في هذا الشَّهرِ من الصِّيام والقُرْآن وصالِحِ الأعْمالِ ثم نعْمَةَ العُمرِ والصِّحة حتى بلغنَا الكمالَ وقد قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥)﴾ [البقرة]،

فاشكُروا اللهَ على ما هداكم إليهِ في ذلك الشَّهْرِ وبادِرُوا إلى إخراج زكاةِ الفِطْر تطهيرًا لصومكم من اللَّغو والرَّفث، واعْلَموا أنَّ رسولَ الله ﷺ فرضَها:

---

(١) صحيح [ص.د:١٣٤٧]، حم(٤/٥٤/٧٧٤)، د(٤/٣٨٤/١٥٠٨)، ن(٣/٥٣).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: " فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ فَمَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ"(١).

واعْلَموا أَنَّ أفضلَ أوْقاتِها ما نَصَّ عليه ربُّنا سبحانه في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)﴾ [الأعلى]، فقد نزلت الآيتان في زكاة الفِطره وصلاةِ العيد، فَطيبُوا بها نفساً وأدوُّها عن أنفسكم وأهليكم وأولادكم ومَنْ تجبُ عليكم نفقتُه ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾ [سبأ]، ولا تتأخَّرُوا بها عن صلاةِ العيد فقد قال ﷺ : **"فَمَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ"(١).**

* * *

---

(١)حسن : [ص.جه:١٤٨٠]، جه(١٨٢٧/٥٨٥/١)، د(٥/٣/١٥٩٤).

وبشر الصابرين

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧)﴾ [البقرة]،

"لَمَّا فرَغ ربُّنا سبحانه وتَعالى من الأَمْرِ بالشُّكْرِ شرَعَ في بَيانِ الأمْرِ بالصَّبْرِ والإرْشَادِ إلى الاستِعَانَةِ بالصَّبر والصَّلاة، فإنَّ العَبْدَ إمَّا أَنْ يكونَ في نِعمةٍ فيشكُرَ عليها أو في نِقْمَةٍ فيصبرَ عليها، كما جاء في الحديث:

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"(١).

وقد بيَّن سبحانه وتعالَى أَنْ أجْودَ ما يُستَعانُ به علَى تحمُّلِ المصَائب الصَّبرُ والصَّلاة كما قال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ ، وفي الحديثِ أَنَّ رسول الله ﷺ : "**كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى**"(٢)(٣).

---

(١) م(٢٩٩٩/٢٢٩٥/٤).

(٢)حسن : [ص.د:١١٧١]، د(١٣٠٥/٢٠٢/٤).

(٣) تفسير ابن كثير(١/١٩٦).

« لأَنَّ الصَّلاة عِمَادُ الدِّين ونور المؤمنين، وهي الصِّلَةُ بين العبْدِ وربِّــه، فإِنَّ كانتْ كاملةً، واجتمعَ فيها ما يلزَمُ اجتمَاعُه وما يُسَنُّ، وحصلَ فيها حضُــورُ القَلْبِ الذي هو لُبُّها، واستشعرَ العبدُ بدخُولِه فيها دخولَه على ربِّه ووقُوفَه بــيْنَ يديْه موقِفَ العبدِ الخادِمِ المتأدِّب، واستحضرَ كلَّ ما يقومُ به ويفعلُه، واستَشْــعَرَ في مُناجَاةِ ربِّه ودُعَائِه، لا جَرِمَ أَنَّ هذه الصَّلاَةَ من أكْبرِ العَــوْنِ علــى جميــعِ الأمُور، لأَنَّ هذا الحُضُورَ في الصَّلاةِ يُوجِبُ في قَلْبِ العَبْدِ داعياً إلــى امتثــالِ أوامرِ اللهِ واجْتِنَابِ نواهيه»(١).

ولذلك كان السَّلَفُ الصالحُ رضوانُ الله عليهم إذا أصابَتْهم مصيبةٌ فَزِعُــوا إلى الصَّلاة اقتداءً برسولِ اللهِ ﷺ وكانوا يتواصَوْن بذلك:

«عن ابنِ عبَّاس أَنَّه كان في مسيرٍ له، فنُعِيَ إليه ابنٌ له، فنــزلَ فصــلَّى ركعتَيْن، ثم استرجَع وقال: فَعَلْتُ كما أمرَنا اللهُ فقــال: ﴿وَاسْــتَعِينُوا بِالصَّــبْرِ وَالصَّلاَةِ(٤٥)﴾ [البقرة]،

وعن أُمِّ كُلْثومٍ بنتِ عُقْبةَ قالت: غُشِيَ على عبدِ الرَّحمن بن عَوْفٍ غَشْــيَةً فظنُّوا أنَّه أفاضَ نفسَه فيها فخرجتْ امرأتُه أمُّ كُلْثومٍ إلى المسْجِد تســتعينُ بمــا أُمِرَتْ به من الصَّبر والصَّلاة، فلَبِثُوا ساعةً وهو في غَشْيَتِه ثم أفاق.

وعن عُبادةَ بن محمَّدٍ بنِ عُبادةَ بن الصَّامت قال: لَمَّا حضرَتْ عُبادَة الوفاةُ قال: أُحرِّجُ على إنسان منكم يبكي، فإذا أُخْرِجَتْ نفســي فتوضَّــئُوا وأحْسِــنُوا الوُضوء، ثم ليدْخُلْ كلُّ إنسانٍ منكم مَسْجِداً فيصلِّي، ثم يستغفرُ لعُبادةَ ولنفسِه فإنَّ اللهَ تبارك وتعالى قال: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾، ثم أسْــرِعُوا بــي إلــى حفرتي»(٢).

---

(١) السعدي(١٧٧و١٧٨/١).

(٢) الدر المنثور(١٦٣و١٦٤/١).

ولقد عَلِمَ اللهُ تعالى حين كلَّف رسولَ الله ﷺ بإنْذارِ قَوْمه أنَّ هذا الإنْذارَ سيُكلِّفه كثيراً من الوقْت والجُهْد فقرَن الأمرَ بالصَّبْر بالأمْر بالإنذار فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ [المدثر]،

وأمره أيضاً بالصَّلاة لنفْسِ الغرَض فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل]،

كما عَلِمَ سبحانَه وتعالَى أَنَّ الطريقَ طويلٌ وشَاقٌ فكان بيْنَ الْحِينِ والْحِينِ يأمر نبيَّه ﷺ بالصَّبر وينْهاه عن الاستِعْجال فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥)﴾ [غافر]،

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]،

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾ [يونس]،

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨)﴾ [الطور]،وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (٣٥)﴾ [الأحقاف]،

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨)﴾ [القلم]. "قال الإمامُ أحمدُ: الصَّبْرُ في القُرآنِ في نَحْوِ تسعينَ موضعاً"[١].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين(٣٥١).

"وهو لُغةً الحَبْس، يقال صَبَرَ نفسَه على ذلك الأمرِ أي حبسَها، ومنه قولُه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ(٢٨)﴾ [الكهف]، أي احْبِسْ نفسَك معهم.

واصطِلاحاً: حَبْسُ النَّفْسِ على ما يقتضيه العَقْلُ والشَّرْعُ أو عمَّا يقتضيان حَبْسَها عنه:

وقيل: هو حَبْسُ النَّفْسِ عن الجَزَعِ والتَّسخُّط، وحَبْسُ اللِّسان عن الشَّكْوى، وحَبْسُ الجَوارِح عن التَّشويش.

وقيل: هو خُلقٌ فاضِلٌ من أخْلاقِ النَّفس يمتنعُ به مِنْ فِعْل ما لا يحسُنُ ولا يجملُ وهو قُوَّةٌ من قُوى النَّفس التي بها صَلاحُ شأنُها وقوامُ أمْرِها"(١).

"وهو ثلاثةُ أنْواع: صبرٌ على طاعةِ الله، وصبرٌ عن معصيةِ الله، وصبرٌ على ابتلاءِ الله"(٢).

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا(١٣٢)﴾ [طه]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا(٢٤)﴾ [الإنسان]،

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ(٣١)﴾ [محمد]،

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أي بقليل من ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ أي ذَهابِ بَعْضِها ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ كمَوْتِ الأصْحَابِ

---

(١) نضرة النعيم(٢٤٤١و٢٤٤٢/٦).

(٢) تهذيب مدارج السالكين(٣٥٣).

والأقارب والأحباب ﴿ وَالثَّمَرَاتِ(١٥٥) ﴾ [البقرة]، أي لا تَغلُّ الحدائقُ والمزارعُ كعادتها»(١).

قال عزّ الدِّين بنُ عبدِ السلام: "للمصائبِ والبلايا والمحن والرَّزايا فوائدُ تختَلِفُ باخْتِلافَ النَّاس:

منها: معرفَةُ عزّ الربُّوبيَّة وقَهْرِها وذُلِّ العبُوديَّةِ وكَسْرِها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ [البقرة]، اعترَفُوا بأَنَّهم مُلْكُه وعبيدُه وأَنَّهم راجعون إلى حُكْمِه وتدبيرِه وقضائِه وتقديرِه لا مفرَّ لهم منه ولا محيدَ لهم عنه.

ومنها: الإخلاصُ لله تعالى إذ لا مرجِعَ في الشَّدائد إلاَّ إليه ولا مُعْتَمَد في كَشْفِها إلاَّ عليه ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ(١٧)﴾ [الأنعام]، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ(٦٥)﴾ [العنكبوت].

ومنها: الإنَابةُ إلى اللهِ تعالى والإقبالِ عليه ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ(٨)﴾ [الزمر].

ومنها: التَّضرُّع والدُّعاء ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا(١٢)﴾ [يونس].

ومنها: رحمةُ أهلِ البلاءِ ومساعَدتُهم على بلواهم، فالنَّاس مُعافًى ومُبْتَلًى، فارْحَمُوا أهلَ البَلاء، واشْكُروا اللهَ على العافية.

ومنها: مَعْرِفَةُ قَدْرِ نِعمةِ العافيةِ والشُّكرُ عليها، فإنَّ النِّعم لا تُعرف أقدارُها إلاَّ بعد فقدها.

---

(١) تفسير ابن كثير(١/١٩٧).

ومنها: ما في طيِّها من الفوائدِ الخفيَّة ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا(١٩)﴾ [النساء]، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ(٢١٦)﴾ [البقرة]،

ومنها: أَنَّ المصائِبَ والشَّدائد تمنَعُ من الأَشَرِ والبطَرِ والفَخْرِ والخُيَلاء والتكبُّر والتَّبخْتُر، فإنَّ نمرودَ لو كان فقيراً فاقدَ السَّمْعِ والبَصرِ لَمَا حاجّ إبراهيمَ في ربِّه، ولكن حملَه المُلْك على البطَر، ولو ابتُلِيَ فِرْعَوْن بمثْلِ ذلك ما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى(٢٤)﴾ [النازعات]»[1].

وللابتلاء حِكَمٌ وأسرَارٌ:

ومن حِكَمِ الابْتلاءِ تمييزُ الصَّادقين من الكاذبين، والمؤمنينَ من المنافقين، والصابرينَ من الجازعين، والرَّاجين من السَّاخطين، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ (٢)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣)﴾ [العنكبوت]،

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّه فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّه جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّه وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠)وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ(١١)﴾ [العنكبوت]،

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(١١)﴾ [الحج].

---

(١) القاسمي(٣٢٩-٣٣٥/٢)

وقد أرشد اللهُ تعالى عبادَه إلى الصَّبْر عند نزُولِ البلاء فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة]، "أيّ بشِّرْهم بأَنَّ لهم أجرَهم بغير حساب، ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ(١٥٦)﴾ [البقرة]، وهي كلُّ ما يُؤلِم القلبَ أو البدنَ أو كِلَيْهما، ﴿ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ(١٥٦)﴾ [البقرة]، أيّ مملوكون لله مدبَّرون تحتَ أمْرِه وتصريفه، فليس لنا من أنفُسِنا وأموالِنا شيء، فإذا ابتلانا بشيءٍ فقد تصرَّف أرْحَمُ الرَّاحمين بمماليكه وأموالِهم، فلا اعتراضَ عليه، بل من كمَالِ عُبوديَّةِ العبدِ عِلْمُه بأَنَّ وقُوعَ البليَّةِ من المالك الحكيمِ الذي هو أرْحَمُ بعبدِه من نفسه، فيوجَب له ذلك الرِّضا بمن الله والشُّكْرَ له على تدبيره لَمَا هو خيرٌ لعبْدِه وإنْ لم يَشْعُر بذلك، ومع أنَّنا مملُوكون لله **ف** ﴿إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ البقرة]، يومَ المعادِ فمُجازٍ كلَّ عاملٍ بعملَه، فإنْ صَبَرْنا واحتَسَبْنا وجَدْنا أجْرَنا موفُوراً عنده، وإنْ جَزِعْنا وسَخِطْنا لم يكن حظُّنا إلاَّ السَّخط وفَوات الأجر"(١).

فالخيرُ كلُّ الخَيْرُ في الصَّبر "**وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ**"(٢).

وللصَّبر أسبابٌ ينبغي لمن ابتُلِي أَنْ يستَنْزِلَ الصبر بها :

منها: "ملاحَظةُ حُسْنِ الجزاء، فعلى حسَبِ مُلاحَظتِه والوُثُوقِ به ومُطَالعَته يخفُّ حِمْلُ البلاء، وما أقدَم أحدٌ على تحمُّل مشقَّةٍ عاجلةٍ إلاَّ لثمرةٍ مؤجَّلة"(٣).

---

(١) السعدي(١٨١و١٨٢/١).

(٢) متفق عليه: خ(١٤٦٩/٣٣٥/٣)، م(١٠٥٣/٧٢٩/٢).

(٣) تهذيب مدراج السالكين(٣٥٩).

ومن جزاءِ الصَّبْر: "أنَّه عُنْوانُ الصِّدْق والتَّقوى قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٦)﴾ [البقرة]،

وأَنَّه سببُ محبَّةِ الله قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦)﴾ [آل عمران].

وسببُ المَعيَّة قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(٤٦)﴾ [الأنفال]، وهي مَعِيَّةٌ خاصةٌ تتضمَّن حِفْظَهم ونصرَهم وتأييدَهم، ومَن كان في معيَّةِ الله لم يخْشَ من الأهوالِ وإنْ كانت كالجبال"[١].

ومنها: إيجابُ الجزاءِ لهم بأحْسَنِ الأعمال ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٦)﴾ [النحل].

ومنها: إيجابُه سُبحانه الجزاءَ لهم بغَيْرِ حساب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(١٠)﴾ [الزمر].

ومنها: إطلاقُ البُشْرَى لهم ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة].

ومنها: ضَمانُ النَّصر والمدَدِ لهم ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ(١٢٥)﴾ [آل عمران].

ومنها: أنَّه يُورثُ صاحِبَه درجَةَ الإمَامةِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ(٢٤)﴾ [السجدة].

ومنها: أنَّ الصَّبْرَ يُبَلِّغ الصّابرَ أعْلَى دَرجاتٍ حُسْنِ الخُلُق قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٣٥)﴾ [فصلت].

---

(١) فتح القدير (١/١٥٨).

ومنها: أَنَّ الصَّبْرَ سببُ التَّمكِين في الأَرْض ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ(١٣٧)﴾ [الأعراف].

ومنها: أَنَّ الصَّبْرَ سببُ الفَوْزِ بالجنَّةِ والنَّجاةِ من النَّار ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣)سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ(٢٤)﴾ [الرعد]. ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا(٧٥)﴾ [الفرقان]، ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا(١٢)﴾ [الإنسان]»(١).

ومنها: أَنَّ الصَّبْرَ موجبٌ لِثَناءِ الرّب على العَبْدِ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ(١٥٧)﴾ [البقرة]، وصلاةُ اللهِ على العَبْدِ هي الثَّناءُ عليه في الملأِ الأَعْلى كما في الحديث:

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ: لِمَلاَئِكَتِه قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِه، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي: فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»(٢).

ومنها: أَنَّ الصَّبْرَ سببٌ لرَحْمَةِ الله ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ (١٥٧)﴾ [البقرة]، وأَنَّه عُنْوانُ الهداية ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧)﴾ [البقرة].

ومنها: أَنَّ الصَّبرَ سببُ الرِّضا « فإِنَّ المصائِبَ تَنْزِلُ بالبَّرِ والفَاجر، فمن سَخِطَها فله السَّخط، وخُسْرانُ الدُّنيا والآخرة، ومن رَضِيَها فله الرضا:

---

(١) مدارج السالكين(٣٥١و٣٥٢).

(٢)حسن : [ص.ت:١٠٢١]، ت(١٠٢٦/٢٤٣/٢).

عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاَءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[١].

والرِّضا أفضلُ من الجنَّة وما فيها لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ(٧٢)﴾ [التوبة]، أي أكْبَرُ من جنَّاتِ عَدْنٍ ومساكِنها الطيّبة»[٢].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا »[٣].

ومن أسباب الصبر: الدُّعاء: **قال النبي ﷺ :« وَمَنْ تَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ**»[٤]،

إنَّ مَن يدعُو اللهَ ويسألُه الصَّبَر يُصَبِّره الله، ولذلك كان الصَّالحُون من الأُمم والأقوام يلجأونَ إلى الله تعالى عندَ البلاءِ بسؤال الصَّبر، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(١٤٧)﴾ [آل عمران]،

---

(١) حسن : [ص.ت:٢٣٩٦]، ت(٤/٢٧/٢٥٠٧)، جه(٢/١٣٣٨/٤٠٣١).

(٢) القاسمي(٢/٣٣٩).

(٣) متفق عليه : خ(١١/٤١٥/٦٥٤٩)، م(٤/٢١٧٦/٢٨٢٩)، ت(٤/١١٦/٢٧٣٢).

(٤) متفق عليه : خ(٣/٣٣٥/١٤٦٩)، م(٢/٧٢٩/١٠٥٣).

وقال تعالى:﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(٢٥١)﴾ [البقرة]،

وقال تعالى:﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١١٨)فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ(١٢٠)قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١٢١)رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ(١٢٢)قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(١٢٣)لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ(١٢٤)قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ(١٢٥)وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ(١٢٦)﴾ [الأعراف]،

ومن أسباب الصَّبر: " انتظارُ الفَرج، فإنَّ انتظارَه ومُطالَعتَه وترقُّبَه يخفِّفُ حِمْلَ المشقَّة ولا سيِّما عند قُوَّة الرِّجاء أو القَطْع بالفرج"[١].

فإنَّ الله تعالى قال:﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥)إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(٦)﴾ [الشرح]،

وقال تعالى:﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا(٧)﴾ [الطلاق]،

وبيَّن سبحانه أَنَّ الخيْرَ يأتي بعدَ اليأس فقال تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ(٢٨)﴾ [الشورى]،

---

(١) مدارج السالكين(٣٥٩).

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(١١٠)﴾ [يوسف]،

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ(٢١٤)﴾ [البقرة]،

وقد قالُوا: اشْتَدي أزمةُ تَنْفَرجي، فإذا ابتُلِي المسلمُ فليعْلَم أَنَّ هذا الابتلاءَ أمرٌ عارِضٌ ما له من قرار، وأَنَّه إلى زَوال، فليكُنْ قَويَّ الأملِ عظيمَ الرَّجاء في اللهِ عزَّ وجلّ فعلَى قَدْرِ الأملِ يتحقَّق الرَّجاء، ولذلك رأينا يعقُوبَ عليه السلام ابيضَّت عيناهُ من الحُزْنِ على فَقْدِ يُوسفَ إلاَّ أَنَّه لم يَفْقد الأملَ من لقائه ولذا قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ(٨٧)﴾ [يوسف]،

وكانت النَّتيجةُ أَنْ رحَّب يوسفُ بإخوته وكشفَ لهم عن هوِّيته وعفا عنهم ودعا الله أَنْ يغفرَ لهم وأمرَهم أَنْ يذهَبُوا بقَميصه فيُلْقُوه على وجْهِ أبيه ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ(٩٩) أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(١٠٠)﴾ [يوسف].

ولقد لَبِثَ أَيُّوبُ في البلاء ثمانيةَ عشَر عاماً ومع ذلك لم ييْأَسْ من الشفاء ودعَا الله عزّ وجلّ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ(٨٤)﴾ [الأنبياء].

ومن أسباب الصَّبْر: "تهوينُ البلية"[١]، وهو ما نُعبِّر عنه نحنُ بالعاميَّة: من شاف بَلْوَة غيره هانَتْ عليه بَلْوتُه، فبالنَّظرِ إلى المُبْتَلين تجدُ أَنَّ كثيراً منهم أشدُّ منك بلاءً وأعظمُ منك كُرْبَة، وبالنَّظر إلى كَثْرةِ النِّعم ترى أَنَّ هذا البلاءَ قطرةٌ في بحر فيهونُ عليك الصَّبر.

* * *

---

(١) مدارج السالكين(٣٥٩).

لماذا نعتز بالإسلام

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾ [البقرة].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٣)﴾ [فصلت]، أي لا أحدَ أحْسَنُ قولاً ولا أحسَنُ عملاً ولا أحسَنُ ديناً ممن دعَا إلى الله وعَمِلَ صالحاً وقال إنني من المسلمين، فهو مهتدٍ في نفسه، وهادٍ لغيْره، وصالحٌ في نفسِه، مُصْلِحٌ لغيره، وهو مُحْسِنٌ فيما بينَه وبيْن ربِّه، وداعٍ النَّاسَ إلى الإحسان فيما بيْنَهم وبيْن ربِّهم، فدينُه أحسنُ الأدْيان، وعملُه أحسنُ الأعمال، ودعْوَتُه إلى هذا الإحسان هي دَعْوَةُ الحق،فلا أحدأحْسَنُ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا(١٢٥)﴾ [النساء]،

ولذلك فهو معتَزٌّ بدينه، فخورٌ به مستَمْسِكٌ به، وهذا الاعتِزَازُ بالدِّين والافتخارُ به يجعلُ صاحبَه عزيزاً دائماً، ثابتاً شامخاً، مُهاب الجانب، محسُوبٌ له ألف حِسَابٍ وحِسَاب، فلا يَطْمَعُ فيه الأعداءُ فضلاً عن أَنْ ينالُوا منه أو من دينه، وهذا ما حدثَ بالفِعْل في الشُهورِ الأخيرة حين تطاولَ رئيسُ وُزَراءِ إيطاليا على الإسلام وزَعَم أَنَّ حضارةَ الغَرْب تفوقُ حضارةَ الإسلام، فبادرَ السيّدُ رئيسُ الجمهوريَّة ثم السَّادةُ الوُزَراءُ كوزيرِ الخارجيَّةِ وأمينِ جامعةِ الدُّول العربيَّةِ بادَرُوا جميعاً إلى إنْكَارِ ذلك الزَّعم وطَالَبُوا المذْكُورَ بالاعتِذَارِ عن قَوْلِه والتَّراجُعِ عنه فلم يَجِدْ المذْكُور بُدّاً من التَّراجُع، ولولا الله ثم ذلك الموقفُ المشْكُور الذي يُحفَظ للسيِّد رئيسِ الجمهوريَّة والسَّادة الوُزَراءِ لتمادَى المذْكُور

في غيِّه وضَلاله، وصدَق اللهُ العظيم إذ يقول: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(١٣٩)﴾ [آل عمران]،

فما دُمْنا مؤمنينَ مسْلمينَ مستَمْسكين بديننا معتَزِّين به فنَحنُ أعِـزَّةٌ بعِـزَّة الله، ونحنُ الأعْلَونَ لأننا عبادُ الأعْلى، فعزَّتُنا من عِزَّته، وعُلُوُّنا من عُلُوِّه، بفضل معيّته التي قال فيها ﴿فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ(٣٥)﴾ [محمد].

فإنْ قال قائل: ولماذا هذا الاعتزازُ كلُّه بالإسلام والمسلمين؟

فالجواب: إنَّنا نَعْتَزُّ بالإسلامِ لأَنَّه الدِّين الذي اتَّفقَتْ عليه جميعُ الأنبياء من أوّل الرسل نُوحٍ عليه السلام إلى خاتَمِ النبيِّين محمدٍ ﷺ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(١٣)﴾ [الشورى]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا(١٦٣)﴾ [النساء]،

فالإسلامُ هو دينُ جميعِ الأنْبِيَاء قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ (٧١)فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٧٢)﴾ [يونس]،

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾ [البقرة]،

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤)﴾ [يونس]،

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)﴾ [آل عمران]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١)﴾ [النمل].

فالإسلامُ دينُ جميع الأنبياء، والأنبياءُ هم أفْضَلُ الخَلْقِ على الإطلاق فَدينُهم أَحْسَنُ الأديْان، ومِلَّتُهم أحسنُ المِلَل وطريقُهم أقومُ الطُّرق لا يَضِلُّ عنها إلاَّ هالك، ولا يَرْغَبُ عنها إلاَّ سفيه كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ [البقرة].

ولقد سأل إبراهيمُ ربَّه ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآَخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء]، فاستجابَ اللهُ له فوضَع محبَّته في قُلوبِ جميعِ النَّاس على اخْتِلاف مِلَلِهم ونِحَلهم حتى تنازَعُوا جميعاً واختَلفُوا وادعى كُلٌّ أنَّه أوْلَى بإبراهيمَ وأحقُّ به، فقال تعالى وقوله الحق: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ [آل عمران]،

فنَحْنُ نعتزُّ بالإسلام لأنَّه دينُ الأنْبِياء ودينُ أبينَا إبراهيمَ عليه السلام، ونحنُ نعتزُّ بالإسلامِ لأنَّه أصلُ حضَارَتِنا، وإذا كانَتِ الحضارَةَ والتقدُّم تُقاسُ بما تُحقِّقُ للإنسان من سَعادَةٍ ورفاهيَّة فإنَّ حضارةَ الإسلامِ هي أعظمُ الحضَارات، لأنَّ الإسلامَ كفَلَ للمسلم سعادَةَ الدنيا والآخرة، وكفَلَ له ما يرفِّه بدنَه ويُريُح قَلْبَه، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً(٩٧)﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(٢٨)﴾ [الرعد]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ(١١)﴾ [التغابن].

فالمؤمنُ هادئُ البالِ مُطْمئِنُّ القلب، مُرْتَاحُ الضَّمير، يمشي في هذه الدنيا وهو يعلَم أنَّه لن يصيبَه إلاَّ ما كتبَه اللهُ له، فإنْ أصابَتْه سرَّاء شكر، وإنْ أصابَتْه ضرَّاء صبر، شِعَارُه في هذه الحياة:

يا ربّ :ما مسنى قَدَرٌ بكره أو رضا إلا اهتديت بـه إليـك طريقا
أمض القضاءَ على الرِّضا مِنِّى بـه إنى وجدتـك فى البـلاء رفيقـا

نحن نعتزُّ بالإسلامِ لكَوْنه عُنْوانَ الهُدى كما قال تعالى:﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ(١٢٥)﴾ [الأنعام].

ونحن نعتزُّ بالإسلام لكَوْنِه موجبًا للفلاح قال تعالى:﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥)﴾ [البقرة].

ونحن نعتزُّ بالإسلام لأنَّ اللهَ ارتضاه لنا دينًا كما قال تعالى:﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا(٣)﴾ [المائدة].

ونحن نعتزُّ بأمَّةِ الإسلام لأنَّها خيْرُ الأُمم وأفضلُها، أُمَّةٌ اصطفاها اللهُ

واجتباها كما قال تعالى:﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا(٢)﴾ [فاطر].

وقال تعالى:﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ(٧٨)﴾ [الحج].

ونحن نعتزُّ بأُمَّةِ الإسلام لأَنَّ اللهَ جعلَها خيرَ أُمَّةٍ كما قال تعالى:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ(١١٠)﴾ [آل عمران]،﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا(٢٨)﴾ [الفتح].

ونحن نعتزُّ بأُمَّةِ الإسلام لأَنَّ اللهَ جعلَها وسَطًا والوَسَطُ دائِمًا خَيْرٌ من الأطراف، فمن تطرَّف وخرَج عن الوسطيَّة حُرِمَ هذه الخيْرِيَّة، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا(١٤٣)﴾ [البقرة]. فلا إفْراطَ ولا تَفْريط، ولا ظُلْم ولا إجْحاف، ولا غُلُوَّ ولا تقصير.

ونحن نعتزُّ بأُمَّةِ الإسلام لأَنَّ اللهَ جعلَها أُمَّةَ أَحبَّ الأنبياء أُمَّةَ محمَّدٍ ﷺ ، وقدِ امتنَّ اللهُ عليهم بهذه النِّعْمَةِ وأمرَهم أَنْ يشكُروه عليها فقال تعالى:﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ(١٥٢)﴾ [البقرة].

ونحن نعتزُّ بأُمَّةِ الإسلام لأَنَّ الله فضَّلها بتفضيلِ رسُولِها فجعلَها شُهداء على النَّاس في الدُّنيا والآخرة، واللهُ العَظيمُ الحكَمُ العَدْل لا يَقْبلُ شهادةً إلاَّ من عَدْل، ولذلك فسَّر النبيَّ ﷺ الوَسطَ في الآية بأَنَّه العَدْل فقال:" الوسط العدل"، فشهادةُ المسلمين على بعضِهم البَعْضِ مقبولَةٌ عِنْدَ الله وكذا شهادَتُهم على غيرِهم:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ : "وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ قَالَ عُمَرُ: فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ فَقُلْتَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقُلْتَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا

وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ(١).

ويومَ القيامَةِ يستَشْهِدُ الرسُلَ بهذه الأُمَّةِ على كونهم بَلَّغوا رسالةَ ربِّهم :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ فَيَقُولُ هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ **فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ** ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا(١٤٣) ﴾[البقرة]، **وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ"**(٢).

ونحن نعتَزُّ بكَوْننا مسلمين لأَنَّ الإسلامَ علَّمنا أَنْ نُحِبَّ الخيرَ للناس أجمعين وأَنْ نَدْعُوَهم إليه وندلَّهم عليه، وأَنْ نصبِرَ على مشاقِّ ذلك وصِعَابه، بل ونَصْبِرَ على أذاهم وندفَعَ السَّيِّئةَ بالحَسنة حتى يُصيبَهم الخيرُ ويقبلوه .

فأيُّ النَّاس أنفعُ للنَّاس من المسلمين، وهم يعملون على إخْرَاج النَّاس من الظُلُمات إلى النور، بل ويعملون على بَعْثِهم من المَوْت إلى الحياة، لأَنَّ غَيْرَ المؤمنين أمواتٌ يتخبَّطون في الظلمات فإذا آمنوا فقد أنقذَهم اللهُ مما كانوا فيه كما قال الله تعالى: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا(١٢٢)**﴾[الأنعام]،

---

(١) متفق عليه: خ(١٣٦٧/٢٢٨/٣)، م(٩٤٩/٦٥٥/٢) واللفظ له، ت(١٠٦٤/٢٦١/٢)، ن(٤٩و٥٠/٤)، جه(١٤٩١/٤٧٨/١).

(٢) خ (٤٤٨٧/١٧١و١٧٢/٨)، ت(٤٠٤٠/٢٧٥/٤).

فهل تكونُ المساعَداتُ الماديِّةُ مهما بلَغتْ ولو حسنت النوايا فيها في الفضل والنفع والإحسان كهذا الإحسان.

ونحن نعتَزُّ بالإسلام والمسلمين لأَنَّ اللهَ هدانا لما أضلَّ عنه غيرَنا، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٢١٣)﴾ [البقرة].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ"(١).

ونحن نعتَزُّ بكَوْنِنا مسلمينَ لأَنَّ الله هدانا ثم عَصَمَنا من الاجْتِمَاع على الضَّلال:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ"(٢).

ونحن نَعتَزُّ بكَوْننا مسلمين لأَنَّ اللهَ عصَمَنا من إضْلالِ الكافرين قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٠٩)﴾ [البقرة]،

---

(١) متفق عليه : خ(٢/٣٥٤/٨٧٦)، م(٢/٥٨٥/٨٥٥)، ن(٨٥-٣/٨٧).

(٢) صحيح : [ص.ت:٢١٦٧]، ت(٣/٣١٥/٢٢٥٥).

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا(٢١٧)﴾ [البقرة]، وهذا الشَّرْط شَرْطُ تعجيز يفيدُ نَفْيَ رجُوعنا عن ديننا وإنْ قاتَلُونا كما قال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٦٩)﴾ [آل عمران].

وقد أخبرَ سُبحانه بأَنَّهم يَئِسُوا مِنْ كُفْرِنا فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ(٣)﴾ [المائدة]،

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : "لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ"(١)،

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ"(٢)،

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ"(٣)،

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي

---

(١) م(١٩٢٠/١٥٢٣/٣)، د(٤٢٣٢/٣٢٢-٣٢٤/١١)، ت(٢٣٣٠/٣٤٢/٢).

(٢) م(١٩٢٤/١٥٢٤و١٥٢٥/٣).

(٣)صحيح :[ص.د:٢١٧٠]، د(٢٤٦٧/١٦٢/٧).

إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[١].

فالحمْدُ لله حَمْداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه، ولو اجتمع علينا العالَمُ كلُّه ما كانوا ليَقْضُوا علينا، فنحن باقون بإذْنِ الله ما بَقِيَت الدُّنيا لأَنَّ الأرضَ لله يُورِثُها من يشاءُ من عِبَادِهِ وقد قال: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ(١٠٥)﴾ [الأنبياء].

وقد أوْرَثَنا ما أَوْرَثَنا والبقيَّةُ تأتي كما قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠)وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا(٢١)﴾ [الفتح]،

وقال ﷺ : "لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمْرُ ما بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهار، ولا يَتْرُكُ اللهُ بيْتَ مدَرٍ ولا وَبَرٍ إلاَّ أدْخَلَهُ اللهُ هذا الدِّين بعزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذليل، عِزاً يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإسلامَ وأهْلَه وذُلاً يُذِلُّ اللهُ بهِ الكُفْرَ»[٢].

ونحن نعتزُّ بكَوْنِنا مسلمين لأَنَّ اللهَ ضاعَفَ لنا الأجرَ والثَّواب على صَالِحِ العمل مع قلَّةِ الوقت، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢)لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ(٣)﴾ [القدر]،

---

(١) م(٤/٢٢١٥/٢٨٨٩)، ت(٣/٣١٩/٢٢٦٧)، د(١١/٣٢٢/٤٢٣٢).

(٢)صَحيح : [س.ص:٣]، حب(١٦٣١و١٦٣٢/٣٩٣و٣٩٤)، حم(١/٩٠/٤٦).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا إِلَى صَلاَةِ الْعَصْرِ ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ أَيْ رَبَّنَا أَعْطَيْتَ هَؤُلاَءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلاً قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا: لاَ، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»(١).

ونحن نعتزُّ بكوننا مسلمينَ لأَنَّ اللهَ سَوْفَ يقدِّمنا في الحساب يومَ القيامة على سائر مَنْ سبَقُونا من الأمم كما قال ﷺ : « نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمِ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»(٢)،

وقال ﷺ : « نَحْنُ آخِرُ الأُمَمِ وَأَوَّلُ مَنْ نُحَاسَبُ، يُقَالُ أَيْنَ الأُمَّةُ الأُمِّيَّةُ وَنَبِيُّهَا، فَنَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ»(٣).

ونحن نعتزُّ بكوْننا مسلمين لأَنَّنا جميعاً في الجنَّة بفَضْلِ الله ورحمته دُون غَيْرِنا كما قال ﷺ : « مَا مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ بَعْضُها في النَّار وبَعْضُها في الجنَّة إِلاَّ أُمَّتي كلُّها في الجنة»(٤).

---

(١) خ(٥٥٧/٣٨/٢) واللفظ له، ت(٣٠٣٥/٢٣٠/٤).

(٢) متفق عليه: خ(٨٧٦/٣٥٤/٢)، م(٨٥٥/٥٨٥/٢)، ن(٨٥-٨٧/٣).

(٣) م (٨٥٦/٥٨٦/٢) ، ن(٨٧/٣) .

(٤) صحيح: [ص.ج:٥٥٦٩].

نحن نَعْتَزُّ بكَوْننا مسلمينَ لأَنَّنا أكثرُ أهْلِ الجنَّة كما قال ﷺ : " **أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ**"(١).

يعني أَنَّنا ثُلُثا أهْلِ الجنَّة، مع كَثْرَة الأُمم كما قال ﷺ: " **إِنَّكم تُتِمُّون سَبْعين أمَّةً أنْتُم خيرُها وأكرَمُها على الله**"(٢)، فَمِنَ التِّسعَة والسِّتِّين ثُلثُ أهلِ الجنَّة ومنا الثُلثان.

وبعدُ: أفلَيْسَ مِنْ حقِّنا بعدَ بيان فَضْلِنَا أَنْ نعتزَّ بدينِنا وأَنْ نُكْثِرَ مِنْ شُكْرِ ربِّنا، فقولُوها جميعا **أسلمنا لله رب العالمين**، و ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**(٤٣)﴾ [الأعراف].

* * *

---

(١) صحيح : [ص.ت:٢٥٤٦]، ت(٢٦٧٠/٨٨و٨٩/٤)، جه(٤٢٨٩/١٤٣٤/٢).

(٢) م (٨٥٦/٥٨٦/٢) ، ن(٨٧/٣).

الوسطية في الإسلام

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا(١٤٣)﴾ [البقرة].

"الوَسَط اسمٌ لما بيْن طَرَفَي الشَّيء"(١)، "وقد يُطْلَقُ على ما لَه طرَفانِ مَذْمُومانِ كالجُودِ بيْن البُخْل والسَّرَف.

وقد يُطْلَقُ على ما لَه طَرفٌ محمودٌ وآخرُ مَذْموم كالجَوْدَة والرَّداءةِ، تقول في الشَّيء: هذا وسَطٌ بيْن الحَسنِ والرَّديء.

فالوَسَطُ الخيَّار، فوَسَطُ الوادي خَيْرُ مكانٍ فيه، ويُقَالُ فُلانُ وسَطٌ في قوْمِه، إذا كان أوْسَطَهم نسَباً وأرْفَعهم مَجْداً، وقد جاء في صِفَةِ نبِّينا ﷺ أنَّه كان من أوْسَطِ قَوْمِه أيْ خِيارهم، وقد جعلَ اللهُ أُمَّته وسَطاً أي خِياراً.

والمقصود بالتوسُّط أَنْ يتحرَّى المُسْلِمُ الاعتدالَ ويبْتَعِدَ عن التطرُّف في الأقْوالِ والأفْعال بحيثُ لا يَغْلُو ولا يقصِّر، ولا يُفرْط ولا يُفرِّط "(٢).

فإنَّ الإفْرَاطَ والتَّفريطَ مذمُومانِ وقد نهىَ اللهُ عنهما وذمَّ أهلَهما، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا(١١٢)﴾ [هـود]،

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ "هَاتِ الْقُطْ لِي" فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ: "بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ

---

(١) لسان العرب (٧/٤٢٨).

(٢) نضرة النعيم (١٣٥٢و١٣٥٣/٤).

الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»(١).

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّه حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ(٣١)﴾ [الأنعام].

وقد نهى اللهُ تعالى عن طاعةِ هؤلاءِ وأمر بمخالفتهم فقال تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(٢٨)﴾ [الكهف].

فمتى ابتعدَ الإنسانُ عن الإفراطِ والتَّفريط فقد اعتدلَ على أوْسَطَ الطريق واستقامَ على الصِراطِ المستقيم كما أمر الله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ(١٥٣)﴾ [الأنعام].

وقد أمر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنينَ أنْ يسألوه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧)﴾ [الفاتحة]،

فالمغضوبُ عليهم وهم اليهودُ فرّطوا وقصَّروا، والضَّالين وهم النَّصارى غَلَوْا وأَفْرَطُوا وتشدَّدوا حتى ابْتَدَعُوا، والصِّراطُ المستقيمُ الذي هدى اللهُ إليه النبِّيين والصِّديقينَ والشُّهداءَ والصَّالحين هو العَمَلُ بالعِلْمِ في غَيْرِ إفْرَاطٍ ولا تفريط، وقد أنعم الله على أمة محمدٍ ﷺ بالهدايةِ إلى هذا الصِّراطِ المستقيمِ فكانُوا بذلك أُمَّةً وسطاً، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّه الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٤٢)وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا(١٤٣)﴾ [البقرة]،

فالوسَطِيَّةُ تعني اتِّباعَ الصِّراطِ المُسْتَقيم والثَّباتَ عليه والحَذَرَ من المَيْلِ إلى أَحَدِ جانِبَيْه، ولقد ضربَ النبيُّ ﷺ لذلكَ مثلاً محسُوساً:

---

(١) صحيح: [ص.ن:٣٠٥٧]، ن(٥/٢٦٨)، جه(٢/١٠٠٨/٣٠٢٩).

فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخطَّ خطًّا وَخطَّ خطَّيْنِ عَنْ يَمِينِه وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الأَوْسَطِ فَقَالَ: " هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (١٥٣)﴾[الأنعام]"[(١)].

قال ابن القيِّم: "وهذا الصِّراطُ المستقيمُ الذي وصَّانا الله تعالى باتِّباعه هو الصِّراط الذي كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُه، وهو قَصْدُ السَّبيل، وما خرَج عنه فهو من السُّبلُ الجائرة لكنَّ الجَوْرَ قد يكونُ جُوْراً عظيماً عن الصِّراط وقد يكونُ يسيراً، وبيْن ذلك مراتبُ لا يُحْصِيها إلاَّ الله، وهذا كالطَّريق الحِسِّي فإنَّ السَّالِكَ قد يَعْدِلُ عنه ويجوُر جَوْراً فَاحِشاً وقد يجُور دُون ذلك،

فالميزانُ الذي تُعْرَفُ به الاستِقَامةُ على الطريق والجَوْرُ عنه هو ما كان رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه عليه، والجائرُ عنه إمَّا مُفْرِّطٌ ظالم، أو مجْتَهِدٌ متأوِّل، أو مُقَلِّدٌ جاهِل، وكلُّ ذلك قد نَهى اللهُ عنه فلم يَبْقَ إلاَّ الاقْتِصَادُ والاعْتِصَامُ بالسُّنَّةِ وعَلَيْهما مدَارُ الدِّين"[(٢)].

وقد كَثُرَتْ الآياتُ القرآنيَّةُ والأحاديثُ النبويَّةُ في الأمرِ بالوسَطيَّة والحَثِّ عليها ومَدْحِ أَهْلِها قال تعالى: **﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(٢٩)﴾** [الإسراء]،

وقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا(٦٧)﴾** [الفرقان]،

---

(١) صحيح: [ص.جه:١١]، جه(١/٦/١١)، حم(١/١٨٧/٥).

(٢) إغاثة اللهفان (١/١٣١).

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١)﴾ [الأعراف]،

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ(٨٨)﴾ [المائدة]،

وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(٥٥)﴾ [الأعراف]،

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ(٢٠٥)﴾ [الأعراف]،

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً(١١٠)﴾ [الإسراء]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا(٩٠)﴾ [الأنبياء]،

عَنْ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ: خَرَجْتُ ذَاتَ يَوْمٍ لِحَاجَةٍ فَإِذَا أَنَا بِالنَّبِيِّ ﷺ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيَّ فَأَخَذَ بِيَدِي فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي جَمِيعًا فَإِذَا نَحْنُ بَيْنَ أَيْدِينَا بِرَجُلٍ يُصَلِّي يُكْثِرُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "أَتُرَاهُ يُرَائِي فَقُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَتَرَكَ يَدِي مِنْ يَدِهِ ثُمَّ جَمَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يُصَوِّبُهُمَا وَيَرْفَعُهُمَا وَيَقُولُ عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا فَإِنَّهُ مَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ يَغْلِبْهُ»(١).

---

(١) إسناده صحيح: [الظلال: ٩٥]، حم(١٩/١٥/١٦)، حب(١/٣١٢)، هق(٣/١٨).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: ذُكرَ لِرَسُولِ اللَّـهِ ﷺ : « يَجْتَهِدُون في العِبَادَةِ اجْتِهَادًا شديدًا فقال: تلْكَ ضَرَاوَةُ الإسْلامِ وشِرَّتُه، ولِكُلِّ ضَرَاوَةٍ شِرَّةٌ، ولِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرة، فمن كَانَتْ فَتْرَتُه إلى اقْتِصَادٍ وسُنَّة فلام ما هو، ومَنْ كانَتْ فَتْرَتُهُ إلى المَعاصِي فَذَلِكَ الهَالِك»(١).

وعَنْ مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِه وثُلُثٌ لِشَرَابِه وثُلُثٌ لِنَفَسِه»(٢).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: « كُنْتُ أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَتْ صَلاتُهُ قَصْدًا وَخُطْبَتُهُ قَصْدًا»(٣).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(٤).

---

(١) إسناد صحيح : [الظلال:٥١]، حم(١٩/١٢/٣)، حب(١٧٠/٦٥٣).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢٣٨٠]،ت(٤/١٨/٢٤٨٦)، جه(٢/١١١١/٣٣٤٩)،حب(٣٢٨/١٣٤٨).

(٣) م(١/٥٩١/٨٦٦)، د(٣/٤٥٠/١٠٨٨)/ ت(٢/٩/٥٠٥)، ن(٣/١١٠).

(٤) متفق عليه: خ (٩/١٠٤/٥٠٦٣)، م(٢/١٠٢٠/١٤٠١)، ن(٦/٦٠).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أُرَاهُ رَفَعَهُ قَالَ: « أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا »(١).

عَنْ حُمَيْدٍ الْحِمْيَرِيِّ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ لَقِيتُ رَجُلاً صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا صَحِبَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَمْتَشِطَ أَحَدُنَا كُلَّ يَوْمٍ أَوْ يَبُولَ فِي مُغْتَسَلِهِ»(٢).

"وعن ابْنِ مَسْعُودٍ قال: الاقْتِصَادُ في السنَّة خيرٌ من الاجْتهادِ في البِدْعة.

وعن أُبيٍّ بن كعبٍ قال: عَليْكُم بالسَّبيل والسُّنة، فإنَّه ليسَ مِنْ عبدٍ على سبيلٍ وسُنَّةٍ ذكَر الرَّحمن ففاضَتْ عَيناهُ من خَشْيَةِ الله فتمسَّه النار، وإنَّ اقتِصَاداً في سبيلٍ وسُنَّة خيرٌ من اجتهادٍ في إضلال»(٣).

والذي يُمْعِنُ النَّظر في هذه النُّصوص يَرى أَنَّها تدلُّ على أَنَّ وسَطيَّة الإسلامِ عامَّةٌ جامِعَةٌ شامِلةٌ للعقيدةِ والأحْكَامِ والعبَاداتِ والمُعامَلاتِ والأَخْلاقِ والعَاداتِ والعَواطِفِ، وفي ذلك يقول الإمامُ الطَّحاوي: "ودينُ الله في الأرضِ والسَّماء واحد، وهو دينُ الإسلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ(١٩)﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا(٣)﴾ [المائدة]، وهو بيْن الغُلُوِّ والتَّقْصير، وبيْن التَّشبيه والتَّعطيل، وبيْن الجَبْر والقَدر، وبيْن الأمْنِ والإياس»(٤).

---

(١) صحيح : [ص.ت:١٩٩٧]، ت(٢٠٦٥/٢٤٣/٣).

(٢) صحيح : [ص.ن:٢٣٢]، ن(١/١٣٠)، د(٢٨/٥٠/١).

(٣) تلبيس إبليس(٨).

(٤) العقيدة الطحاوية : تعليق الألباني:(٦٠و٦١).

ويقول ابنُ تيْمِيَة: "المسلمونَ وسَطٌ في أنبْياءِ اللهِ ورُسلِه وعباده الصَّالحين لم يغلو فيهم كما غَلَتِ النَّصارى ولم يَجْفُوا كما جَفَتِ اليَهود.

وهم وسطٌ في شرائِع دينِ الله، فلم يُحَرِّمُوا على اللهِ أَنْ يَنْسَخَ ما شاءَ ويَمْحُوَ ما شاء، ويُثْبِتَ ما شاء كما قالَتْه اليهود، ولاجوَّزوا لأكابرِ عُلمائِهم وعُبَّادِهم أَنْ يُغيِّروا دينَ اللهِ فيأمرُوا بما شاءَوا وينهوا عما شاءوا كما يفعله النصارى .

وهم كذلك وسَطٌ في بابِ صِفَاتِ اللهِ تعالى، فإنَّ اليَهُودَ وصَفُوا اللهَ تعالى بصفاتِ المَخْلُوقِ النَّاقصة، والنَّصارى وصَفُوا المخلُوقَ بصفاتِ الخَالِق المُخْتَصَّةِ بـه.

وأَمَّا أهلُ السُّنةِ والجَماعة فوسَطٌ في بابِ الأسماءِ والصِّفَات بيْن أَهْلِ التَّعطيل الذين يُلْحِدُون في أسماءِ الله وآياتهِ ويُعَطِّلُونَ صفاتِه، وبيْن أهْل التَّمثيلِ والتَّشبيهِ الذين يَضْرِبُون له الأمثالَ ويُشَبِّهونَه بالمَخْلُوقات، وأَمَّا هم فيُؤمِنُون بما وصفَ اللهُ به نفسَه وما وصفَه به رسولُه ﷺ من غَيْرِ تحريفٍ ولا تَعْطيل ولا تكييفٍ ولا تمثيل.

وهم وسَطٌ في سائرِ أبوابِ السُّنة ووسَطِيَتُهم فيها راجعةٌ لتَمَسُّكِهم بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ ، وما اتَّفق عليه السابِقُون الأوَّلُون من المهاجرينَ والأنْصَارِ والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ رضِيَ اللهُ عنهم أجمعين"(١).

إنَّ الوسطيَّةَ من خَصائصِ هذه الأُمَّة وهي سببُ خَيْرِيَّتِها، ولا تزالُ الأُمَّةُ بخَيْرِ ما حافَظَتْ على هذه الخَاصيَّةِ التي تتميَّزُ بها خاصية الوسطيَّةِ التي تُمثِّلُ الاعتدالَ والاستقامةَ على صِراطِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فإذا خرَجتْ عن الوسَطِ إلى أحَدِ

(١) مجموع الفتاوى (٣٧٠-٣/٣٧٥) باختصار.

جانبَيْه ففرّطَتْ أو أَفْرَطَتْ فقد هلَكت، فإنَّ التَّطرُّف مَهْلَكة، التَّطرُّف لا يخْتَصُّ بالغُلُوِّ والإفراط، وإنَّما الغلُوُّ والإفرَاطُ تطرُّف، والتَّقْصِيرُ والتَّفرِيطُ تَطرُّفٌ أيضاً، وكِلاَهُما مَهْلَكَةٌ للفَرْدِ والمُجْتَمع.

فالَّذِي يُفَرّط في حقِّ اللهِ ويُقْصِّرُ في القِيَامِ به مُتَطَرِّف، سواءٌ تَركَ الصَّلاةَ أو منعَ الزَّكاةَ أو تركَ صِيَامَ رمضانَ أو تَركَ الحَجَّ مع القُدْرَةِ عليه فهذا إنْسَانٌ متطرِّفٌ إذا ضيَّع حقَّ اللهِ كان لغَيْره من الحقوقِ أشدَّ تضييعاً، فهو لا يبرُّ أبويْه، ولا يصل رَحِمَه، ولا يُكْرِمُ اليتيمَ، ولايحضُّ على طعام المسكين، مُنْتَهِكٌ للأعراض، سالِبٌ للأمْوال، مُزْهِقٌ للأرْواح، فهو شرٌّ ووبَالٌ على المجتمع.

كما أَنَّ الذي يتطرَّف إلى جِهَةِ الغُلُوِّ والتَّشدُّد والتَّزمُّت يُوجِبُ ما لَيْس بواجب، ويُحَرِّم ما لَيْسَ بمحرَّم، ويكفِّر المسلمينَ ويُفَسِّق الصَّالحين، فيسْتَحِلُّ دِماءَهم وأمْوالَهم، ويخرُج على حُكَّامهم وأُمرائهم، فيثيرُ الفَوْضَى ويَسْعَى في الأرضِ فساداً ﴿**وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**(١٠٤)﴾ [الكهف].

"وكِلاَ الطَرفيْنِ يُخَالِفُون صريحَ الآياتِ والأحاديثِ التي تَنْهَى عن التَّفْريط والإفراط كليْهما وتدْعو إلى التَّوسُّطِ والاعْتدال، والواجبُ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ أَنْ ينأى عن التَّفريطِ وأَنْ يُبعد نفسَه عن الإفْراطِ حتى يكونَ من هؤلاءِ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**(١٤٣)﴾ [البقرة]، وليعلَمَ أَنَّ الفضائلَ كلَّها منوطةٌ بعدمِ التَّفريط والإفْراط في الأمُور كلها"(١)،

"ولقد أحسنَ مَنْ قال: إذا خرجَ الشَّيءُ عن حَدّه انقلبَ إلى ضِدِّه، فالشَّجاعةُ إذا لم تُضْبَطْ صارَتْ تهوُّراً، والجُودُ إذا لم يُضْبَطْ صار إسْرافاً، والتَّواضُعُ إذا لم يُضْبَطْ صارَ ذِلَةً ومَهانةً وخُنُوعاً، وهكذا، وخَيْرُ الأُمُورِ

---

(١) نضرة النعيم (٩/٤٢٣١).

أوساطها كما قال الحسَنُ البَصرْيِ»[١].

وقال وهبُ بن مُنَبِّه: «إنَّ لكلِّ شيءٍ طرفيْن ووسطًا فإذا أَمْسَكَ بأحدَ الطَّرَفَيْن مالَ الآخر، فإذا أمْسَك بالوَسَطِ اعتدَلَ الطَّرفَانِ فعلَيْكُم بالوسَطِ من الأشياء»[٢].

وقال ابنُ القيِّم: «منْ كَيْدِ الشَّيطانِ العَجيْبِ أَنَّه يُشامِ النَّفسَ حتَّى يعلَمِ أيَّ القوَّتيْن تَغْلِبُ علَيْها: أقوَّةُ الإقْدام أم قُوَّةُ الانْكِفَاف والإحْجام والمهَانة، وقد اقتطَع أكثرُ النَّاس إلاَّ أقلَّ القليل في هذيْن الواديين: وادِي التَّقصير ووادِي المُجَاوَزَةِ والتَّعدي، والقليلُ منهم جداً الثَّابِتُ على الصِّراط الذي كان عليهِ رسولُ الله ﷺ وهو الوسَط»[٣].

نسأل الله تعالى أنْ يثبِّتنا على صِراطِه المسْتقيم وأنْ يَعْصِمَنا من التطرُّفِ عنه إلى الإفْرَاط أو التَّفريط.

* * *

---

(١) لسان العرب (٨/٤٨٣).

(٢) نضرة النعيم (٤/١٣٦٣).

(٣) إغاثة اللهفان (١١٥و١١٦/١).

العدالة فى الإسلام

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا(١٤٣)﴾ [البقرة].

"أي كَما هديْناكم إلى قِبْلةٍ هي أوسَطُ القِبَل وأفضَلُها ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

والشُّهداء جمعُ شهيدٍ وأصلُه الشَّاهدُ للشيءِ والمُخْبِر له عن عِلْمٍ حصَلَ بمشاهَدةِ بصَرٍ أو بَصيرة، ولَمَّا كان المُخْبِرُ عن الشَّيء والمُبيِّن لحالِه جاريًا مجرَى الدليلِ على ذلك سُمِّيتْ الدِّلالَةُ على الشيء شاهِداً، وكذلك المُخْبِرُ به، فكلُّ من عَرَفَ حالَ شيءٍ وكشَفَ عنه كان شاهِداً عليه"[١].

وأعظم شُروطِ قَبُولِ الشَّهادة العدَالةُ كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ(٢)﴾ [الطلاق]، فلَمَّا اختار اللهُ هذه الأُمَّةَ ليكونوا شُهدَاء على النَّاس عدّلهم فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال النبيُّ ﷺ : " **الْوَسَطُ الْعَدلُ**"[٢]،

" والْعَدْلُ من النَّاس هو المَرْضِيُّ السِّيرةِ المُسْتَقِيمُ الطَّريقة. فهو بَيْن العَدْلِ والعَدَالةِ أيْ أنَّهُ مرضًا ومَقْنَعٌ فِي الشّهادةِ "[٣].

" وقال الفُقُهاءُ: إنَّ العدَالةَ مقيَّدةٌ بالصَّلاح في الدِّين وبالاتِّصافِ بالمُروءة، أَمَّا الصَّلاحُ في الدِّين فَيتمُّ بأداءِ الفَرائضِ والنَّوافلُ واجْتِنَاب المُحَرَّمات والمكرُوهاتِ، وعدمِ ارْتِكَابِ كبيرةٍ أو إصْرارٍ على صغيرة.

---

(١) القاسمي (٢/٢٨١) بتصرف.

(٢) خ (١٧١/٤٤٨٧ و ٨/١٧٢) .

(٣) نضرة النعيم (٧/٢٧٩٠).

أمَّا المُروءةُ فهي أَنْ يفعلَ الإنسانُ ما يَزِينُه ويترُكَ ما يَشِينُه من الأقْوَالِ والأفْعال»[١].

قال القاسِميُّ : "فإنْ قيلَ هل الأُمَّةُ كُلُّها شُهودٌ أم بعضُهم؟ فالجواب: وكلُّهم مُمْكِنٌ أَنْ يكونوا شُهداءَ، وذلك بشريطَةِ أَنْ يُزَكُّوا أنفُسَهم بالعِلْم والعمَلِ الصَّالح، فمن لم يُزَكِّ نفسَه لم يكنْ شاهِداً ومَقْبُولاً ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(٩)﴾ [الشمس]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ(١٣٥)﴾ [النساء]، والقِيامُ بالقِسْطِ مُرَاعَاةُ العَدالة، وهي بالقَوْلِ المُجْمَلِ ثلاثٌ :

عدَالةٌ بيْن الإنسانِ ونَفْسِه، وعدالةٌ بيْنَه وبيْن الناس، وعدَالةٌ بيْنَه وبيْن الله عزّ وجل"»[٢].

فأَمَّا عَدْلُ الإنْسانِ فيما بيْنَه وبيْن اللهِ فيكونُ بالقِيَامِ بحقِّ الله عليْه في العِبَادةِ وإخْلاصِها له سبحانه، وإفرادِه سبحانه بها :

عَنْ مُعَاذٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ: لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ! هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا»[٣].

---

(١) فقه السنة (٣/٣٣٥).

(٢) القاسمي (٢/٢٨٤).

(٣)متفق عليه : خ(٦/٥٨/٢٨٥٦)، م(١/٥٨/٣٠)، ت(٤/١٣٥/٢٧٨١و١٣٦)، جـه(٤٢٩٦/ ١٤٣٥و١٤٣٦/٢).

"والعبَادةُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرْضاه من الأقْوَالِ والأعْمالِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ، فالصَّلاةُ والزَّكاة والصِّيام والحجُّ وصِدْقُ الحديث وأداءُ الأمانةِ وبرُّ الوالديْن وصِلَةُ الأرحام .

والوفاءُ بالعهود، والأمرُ بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وجهادُ الكفَّار والمنافقين، والإحسانُ إلى الجار واليتيمِ والمِسكين وابنِ السَّبيل والمملوكِ من الآدميِّين والبهائم، والدُّعاء والذِّكر والقِراءةُ وأمثالُ ذلك من العبادة،

وكذلك حُبُّ اللهِ ورَسُولِه، وخَشْيَةُ اللهِ والإنَابةُ إليه، وإخلاصُ الدِّين له، والصَّبر لحُكْمِه والشُّكر لنعمه، والرِّضا بقضائه، والتوكُّل عليه، والرَّجاء لرحْمَتِه، والخَوْفَ من عذابه، وأمْثالُ ذلكَ من العبادة"(١).

واللهُ تعالى لا يَقْبَلُ من العباداتِ إلاَّ ما كان خالصاً له، ولذلك أمرَ بالإخلاصِ ونهى عن الشِّرك فقال تعالى:﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ(٢)أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ(٣)﴾ [الزمر]، وقال تعالى:﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ(٦٥)﴾ [غافر]، وقال تعالى:﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(١١٠)﴾ [الكهف]،

وقال تعالى:﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا(٣٦)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٥١)﴾ [النحل]،

وبذلك أَرسلَ اللهُ الرُّسلَ وأنزلَ الكُتُبَ قال تعالى:﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ(٣٦)﴾ [النحل]،

وقال تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥)﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى:﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ(٢)﴾ [النحل].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤٩و١٥٠/١٠).

فمن عبدَ اللهَ ولم يُشْرِكُ به شيئاً فقد عدلَ فيما بيْنَه وبيْن الله، ومن عبدَ غَيْرَ الله فقد ظَلَم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٥٤)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣)﴾ [لقمان]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ(٧٢)﴾ [المائدة].

وأَمَّا عَدْلُ الإنسانِ فيما بيْنَه وبيْن نَفْسِه "فيكونُ بحَمْلِها على المَصالِح وكفِّها عن القَبائح، ثم بالوقُوفِ في أحْوالها على أعْدَلِ الأمْرَيْن منْ غَيْرِ تجَاوُزٍ أو تقصير، فإِنَّ التَّجاوُزَ فيها جَوْرٌ والتَّقصيرَ فيها ظُلم، ومن ظَلَم نفسَه فهو لغَيْرِه أظلم، ومن جار عَليْها فهو على غيْرِه أجْور"[1].

فمن ترك الواجبات فقد ظلم نفسه، ومن انتهك المحرمات فقد ظلم نفسه ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ(١)﴾ [الطلاق].

ولذلك لَمَّا أكل الأبوانِ من الشَّجرة المحرَّمة ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٢٣)﴾ [الأعراف].

ولَمَّا قتل موسى القِبْطِيَّ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ(١٦)﴾ [القصص].

ولَمَّا هاجر يونسُ من غير إذْنِ الله قال: ﴿أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(٨٧)﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى في التَّرغيب في التَوبةِ والحضِّ عليها: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا(١١٠)﴾ [النساء]،

---

(١) نضرة النعيم (٧/٢٧٩٣).

وقال في مَعْرِضِ المَدْح ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(١٣٦)﴾ [آل عمران]،

وعَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لِرَسُولِ اللَّه ﷺ عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِه فِي صَلاَتِي قَالَ: "قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّك أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"[1].

وأَمَّا عَدْلُ الإنسانِ فيما بيْنَه وبيْن النَّاس "فقد سبقَ الإسْلاَم في أَمْرِه بالعَدالَة وَحَثِّه عليها كُلَّ نُظُمِ العَدالةِ الحديثة، حيثُ جعلَ العَدْلَ أساسَ نِظَام الخَليقَةِ كلِّها، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨)وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(٩)﴾ [الرحمن].

فالإسلامُ قد جعلَ العَدْلَ فَوْقَ كلِّ شيء، فهو يَزِنُ بالقسطَاسِ المُسْتَقِيم بيْنَ الكافِر والمُسْلم، والعَدُوِّ والمُوالي والمُعَاهِد، فهم جميعاً في نظَرِه أمامَ العدَالةِ سواء، يقولُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠)﴾ [النحل]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ(٥٨)﴾ [النساء] هكذا على الإطلاق ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ على اختلافِ المِلَلِ والنِّحل والدِّيانات والأجناس ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ(٥٨)﴾ [النساء]، ولا تَمِيلُوا إِلَى

---

(١) متفق عليه : خ(٢/٣١٧/٨٣٤)، م(٤/٢٠٧٨/٢٧٠٥)، ت(٥/٢٠١/٣٥٩٢)، ن(٣/٥٣)، جه(٢/١٢٦١/٣٨٣٥).

مُسْلمٍ لإسْلامه ولا على كافرٍ لكُفْره، ولا تَميلُوا إلى وَليٍّ لوَلايَته وعلى مُعَادٍ لعداوته، ولا تميلُوا إلى غَنيٍّ لغناه ولا على فقيرٍ لفقْره، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(١٣٥)﴾ [النساء]،

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨)﴾ [المائدة]،

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى(١٥٢)﴾ [الأنعام]»(١).

وقد تكرَّر الأمرُ للنبيِّ ﷺ بالعَدْل بيْن مَنْ يتحاكَمُ إليه من أهْل المِلَل الأُخْرى قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٤٢)﴾ [المائدة]،

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ(٤٨)﴾ [المائدة]،

ويقولُ تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ(٤٩)﴾ [المائدة]،

ويقولُ الله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ(١٥)﴾[الشورى]، وإنْ كذَّبْتموني

---

(١) الرسالة الخالدة (٨٤).

وكَفَرتُم بى، فالعَدْلُ الذي يسْعَى الإسلامُ لإقامته "ليسَ عَـدْلاً بـيْن المسـلمين بعضِهم وبعضٍ فحَسْب، ولا عَدْلاً مع أهْلِ الكتابِ دُونَ سائرِ النَّاس، وإنَّما هـو حَقٌّ لكلِّ إنسان يوصف " إنساناً " فهذه الصِّفَةُ – صَفةُ النَّاس– هي التي يترتَّب عليها حَقُّ العَدْل في المَنْهج الرَّبانيِّ. وهذه الصِّفَةُ يلْتَقي عليها البَشـرُ جميعـاً: مؤمنين وكفاراً، أصدقاءَ وأعداء، سُوداً وبيضاً، عرباً وعجماً.

والأمَّةُ الإسلاميَّةُ قَيِّمَةٌ على الحُكْمِ بيْن النَّاسِ بالعَدْل متـى حكَمـتْ فـي أمْرِهم. هذا العَدْلَ الذي لم تعرِفْهُ البشريَّة قط –على هذه الصُّورة– إلاَّ على يـدِ الإسلام، وإلاَّ في حُكْم المسلمين، وإلاَّ في عهد القيادة الإسلاميَّة للبشريَّة، والذي افتَقَدتّه من قبل ومن بعد هذه القيادةُ فلم تَذُقْ له طعماً قطُّ في مِثْل هذه الصُّـورةِ التي تُتَاحُ للنَّاس جميعاً لأَنَّهم ناسٌ لا لأيَّةِ صِفَةٍ أُخرى زائدةٍ عن هـذا الأصـلِ الذي يُتْرك فيه الناس"(١).

فالشريعةُ الإسلاميَّةُ في هذه الناحية ناحية العَدالَةِ بيْن النَّاس على اختلاف مِلَلِهم ونِحَلِهِم وألْوانِهم وأجْنَاسِهم تَسْتَحِقُّ من جميعِ النَّاس آمَنُوا به أمْ لم يُؤْمِنُـوا نظرةً صادقةً، فإنها لا تزالُ سابقةً في زَمنِنَا في هذا الشأن، وانْظُرْ إلـى أقـوَالِ بعض أئمَّةِ المسلمين قبل مِئَاتِ السِّنين:

يقول ابنُ القيِّم: إنَّ الله سبحانه وتَعالى أرسلَ رُسُلَه وأنزلَ كُتُبه ليقومَ النَّاسُ بالقِسَط وهو العَدْل الذي قامَتْ به الأرضُ والسَّموات، فإذا ظهَرت أماراتُ العَدْلِ وأسفَر وجهُه بأيِّ طريقٍ كان فثم شرع الله .

ويقول الإمامُ الشاطبي: إنَّ أحْكَامَ الشَّريعةِ ما شُرِعَتْ إلاَّ لمصلَحَةِ النَّـاس وحَيْثُما وُجِدَت المَصلَحَةُ فثمَّ شرْعُ الله"(٢).

---

(١) في ظلال القرآن (٢/٤١٤).

(٢) الرسالة الخالدة (٨٥).

هذه هي العَدالةُ عندَ المُسلمين، "ولم تكنْ يوماً ما مُجـرَّد مُثُـلٍ عُلْيـا أو وصَايا يَفْخَرُون بها دُون مُمارَسَةٍ أو تطبيق، وإنَّما كانتْ واقعاً عاشَتْه هذه الأُمَّةُ مع رسولِ الله ﷺ ومارسَتْه وطبَّقتْه في واقع حيَاتها مع البَعيدِ والقَريبِ والعـدُوِّ والصَّديق، والمُسْلمِ والكافر:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ بَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَكَانَ فِيهِ مِزَاحٌ بَيْنَا يُضْحِكُهُمْ فَطَعَنَـهُ النَّبِـيُّ ﷺ فِـي خَاصِرَتِهِ بِعُودٍ فَقَالَ: أَصْبِرْنِي فَقَالَ: "اصْطَبِرْ قَالَ: إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصًا وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَمِيصِهِ فَاحْتَضَنَهُ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ قَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ"(١)،

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ حِبُّ رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُـمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِـيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّـهِ لَـوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"(٢)،

وعَنْ ابن أَبي حَدْرَد الأَسْلَميِّ أَنَّه كان عَلَيْه ليهُودِيٍّ أَرْبعُ دَراهِـمَ فَـأتَى النبيَّ ﷺ فقال يَا مُحَمَّدُ إنَّ لِي على هذا أرْبعةَ دَراهِمَ وقَدْ غلَبني علَيْهـا فقـال النبيُّ ﷺ : "أَعْطِه حَقَّه، قَالَ والَّذي بعثَك بالحَقِّ ما أقْدِرُ علَيْها، قَال أَعْطِه حَقَّه، قالَ والَّذي نَفْسِي بيَدِه ما أَقْدِرُ علَيْها، قَدْ أَخْبَرْتُه أَنَّك تَبْعَثُنا إلى خَيْبر، فـأرْجُو

---

(١)صحيح الإسناد : [ص.د:٤٣٥٢]، د(١٤/١٣٤/٥٢٠٥).

(٢)متفق عليه : خ(١٢/٨٧/٦٧٨٨)،م(٣/١٣١٥/١٦٨٨)،ت(٢/٤٤٢/١٤٥٥)،ن(٧٤و٨/٧٥) د(١٢/٣١/٤٣٥١)، جه(٢/٨٥١/٢٥٤٧).

أَنْ تُغنِّمَنا شيئاً فأَرْجِعُ فأَقضيه، قال أَعْطِه حقَّه، قال: وكانَ النبيُّ ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يُراجَع، فخرجَ ابنُ أبي حَدْرَدَ إلى السُّوقِ وعلى رَأْسِه عِصَابَةٌ وهُو مُتَّزِرٌ بِبُرْدٍ، فنَزعَ العِمَامةَ عَنْ رَأْسه فاتَّزر بِهَا ونزَع البُردَة فقَال اشْتَرِ مِنِّي هذه البُردَةَ فباعَها منْهُ بأرْبعَةِ درَاهم»[١].

وهكذا رسَّخ ﷺ أصولَ العدَالة في المسلمين بتطبيقها على نفسِه وأهْلِه وعامَّةِ المسلمين وإيصالِ الحَقِّ لأهله ولو كانوا كافرين، فلَمَّا تُوفِّي ﷺ لم يأْلُ الخلفاءُ من بعده جهداً في حِمَايةِ أُصولِ العدالَة التي وضَعها وحِرَاستِها حتى تعمَّ جميعَ الناس:

عَنْ سَعِيد بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ اخْتَصَمَ إِلَيْه مُسْلِمٌ وَيَهُودِيٌّ فَرَأَى عُمَرُ أَنَّ الْحَقَّ لِلْيَهُودِيِّ فَقَضَى لَهُ فَقَالَ: لَهُ الْيَهُودِيُّ وَاللَّه لَقَدْ قَضَيْتَ بِالْحَقِّ فَضَرَبَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالدِّرَّة ثُمَّ قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ: « إِنَّا نَجِدُ أَنَّهُ لَيْسَ قَاضٍ يَقْضِي بِالْحَقِّ إِلاَّ كَانَ عَنْ يَمِينِه مَلَكٌ وَعَنْ شِمَالِه مَلَكٌ يُسَدِّدَانِه وَيُوَفِّقَانِه لِلْحَقِّ مَا دَامَ مَعَ الْحَقِّ فَإِذَا تَرَكَ الْحَقَّ عَرَجَا وَتَرَكَاهُ»[٢].

وعَنْ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: « إِنِّي وَجَدْتُ مِنْ فُلاَنٍ رِيحَ شَرَابٍ فَزَعَمَ أَنَّهُ شَرَابُ الطِّلاَءِ وَأَنَا سَائِلٌ عَمَّا

---

(١) حم(١٥/٩٣/٣٠٦)، طس(٥/٥٧/٤٥١٢)، طص(١/٢٣٤)، وقال الهيثمى فى "المجمع" (٤/١٣٣) : رجاله ثقات ، إلا أن محمد بن أبى يحيى لم أجد له رواية عن الصحابة فيكون مرسلا صحيحا .

(٢) ط(٥٠٩/١٣٩٨) ، وقال الأرناؤوط فى تحقيق " جامع الأصول " (١٠/١٧٠): " وفى سماع ابن المسيب من عمر خلاف ، والأكثر على أنه لم يسمع منه ، قال الحافظ فى "التهذيب" (٤/٨٧): وقد وقع لى حديث بإسناد صحيح لا مطعن فيه ، فيه تصريحه لسماعه من عمر " .

شَرِبَ فَإِنْ كَانَ مُسْكِرًا جَلَدْتُهُ فَجَلَدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِي اللهُ عَنْهُ الْحَدَّ تَامًّا»(١)، وعن حُصَيْن بنِ المُنْذِرِ قالَ: شَهِدتُ عُثمانَ بنَ عفَّانَ أُتِيَ بالوَلِيدِ بنِ عُقْبَة، وهو قَرِيبٌ له، قد صلَّى الصُّبْح ركعتيْن ثم قالَ: أزِيدُكم؟ فشَهِدَ حُمْرانُ ورجلٌ آخرُ أحدُهما حمران: أنَّه شرب الخَمْرَ، وشَهِدَ آخر أنَّه رآه تقيَّأ، فقال عثمانُ: إنَّه لم يتقيَّأْ حتى شَرِبَها، وقال قُمْ يا عليّ فَاجْلِدْه»(٢).

ولو ذهبنا نتتبَّع هذه الأمثلةَ الرَّائعةَ في عَدالة المسلمين وحِرْصهم على إقامة العَدْل بين الناس لطال بنا الوقتُ ولكنَّها تذكرةٌ للمؤمنين وتنبيهٌ للغافلين أنَّ هذه عدالة الأمة التي جعلها الله الأمَّة الوسط لتحكم بين الناس بالحقِّ التي فرضه اللهُ عليها ولتكون شاهدةً على الأمم التي سبقتها.

ف ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ(٤٣) ﴾ [الأعراف].

* * *

(١) صحيح الإسناد : [ص.ن:٥٧٢٤]، ن(٨/٣٢٦)، ط(٦٠٧/١٥٣٠).

(٢) م(١٧٠٧/١٣٣١و ٣/١٣٣٢)، د(٤٤٥٦/١٨٠-١٢/١٨٢)، جه(٢٥٧١/٢/٨٥٨) . وانظر الوسطية في القرآن الكريم (٩٤-١٠٠).

كيف نكون من أهل السنة والجماعة؟

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾ [البقرة].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قَالَ عَدْلاً ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ "(١).

وقد ترجم البخاريُّ باباً في "كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة" سمَّاه باب ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ وما أمر به النبيُّ ﷺ بلزُوم الجماعة، وهم أهلُ العلم. ثم أسند الحديثَ المذكور.

قال الحافظ: ومُرادُه بيان أَنَّ الخطابَ في قوله ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ وإِنْ كان عاماً إِلاَّ أَنَّ المرادَ به الخاصُّ، لأَنَّ أهلَ الجهل ليسوا عُدولاً، لأَنَّ العِلْمَ شرْطٌ في قبُول الشَّهادة، كما قال تعالى : ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٨٦)﴾ [الزخرف]، فالجاهلُ لا يُسْتَشْهَدُ به ولا تُقْبَلُ شهادتُه إذا شَهِد، وكذلك المبتدع ليس عدلاً فلا تُقبل شهادته،فتبيَّن أَنَّ المراد بالوصفِ المذكورِ أهْلُ السنَّة والجماعة وهم أهلُ العلم الشَّرعيِّ، لأَنَّ النبيَّ ﷺ عدّلهم فقال: "**يَحْمِلُ هذا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدولُه**"(٢).

---

(١) خ(١٣/٣١٦/٧٣٤٩)، ت(٤٠٤٠/٢٧٥/٤).

(٢)صحيح : [تحقيق المشكاة:٢٤٨] .

ولذلك ترجمَ البُخاريُّ ترجمةً أُخرى في الكتاب المذكور فقال: "**بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : "لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ**»[١].

وبذلك صرَّح التِّرمذيُّ أيضاً فبوَّب في كتاب الفتن "باب لزوم الجماعة" **ثم أسند عَنْ عُمَرَ قَالَ: قَالَ ﷺ "مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ**»[٢].

ثم قال الترمذيُّ: **وَتَفْسِيرُ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ هُمْ أَهْلُ الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ وَالْحَدِيثِ قَالَ: وَسَمِعْت الْجَارُودَ بْنَ مُعَاذٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحَسَنِ يَقُولُ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ مَنِ الْجَمَاعَةُ ؟ فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قَالَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَقَالَ: عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْمُبَارَكِ وَأَبُو حَمْزَةَ السُّكَّرِيُّ جَمَاعَةٌ**»[٣].

وإذ قد اتَّفق أولئك الأكابرُ على أنْ الطائفةَ المنْصُورة، والفرْقَةَ النَّاجيةَ، وأهلَ السُّنة والجماعةِ هم أهْلُ العِلْم الشَّرْعِيِّ فليُعلَم أنْ أعلَم العُلَماءِ بالشَّريعة هم أصحابُ النبيِّ ﷺ، وذلك بشهادةِ اللهِ عزّ وجلّ لهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا(٢٨)﴾ [الفتح]،

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ(١٦)﴾ [محمد]، يعني المنافقين ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ(١٦)﴾ [محمد]، يعني الصحابة ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا(١٦)﴾ [محمد].

وقال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٦)﴾ [سبأ]،

---

(١) خ(١٣/٢٩٣).

(٢)صحيح :[ص.ت:٢١٦٥]،ت(٣/٣١٥/٢٢٥٤).

(٣)ص. ت :(٤٥٨و ٢/٤٥٩).

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ(٥٤)﴾ [الحج]،

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ(٤٩)﴾ [العنكبوت].

وإذ قد شَهِدَ اللهُ لأَصحاب رسوله أَنَّهم أوتوا العِلْم واتَّفقت كَلِمَةُ الأكابر على أَنَّ المرادَ بالجماعةِ أهلُ العلم، فقد ظهرَ أَنَّ الجماعةَ هم أصحابُ رسولِ الله ﷺ ، وقد صرَّح بذلك رسولُ الله ﷺ حيث قال: " **أَلاَ إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**»(١)،

ثم فسَّر الجماعةَ فقال في روايةٍ أخرى " **إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»(٢).

ما أنا عليه وأصحابي في العقيـدةِ والأحكـام، والعبـاداتِ والمعـاملات والأخلاقِ والآداب، والسياسةِ والاقتصاد، والحربِ والسِّلم، والـولاء والبـراء والدَّعوة إلى الدين على بصيرة، وإنَّما يتمُّ ذلك بأَنْ يُحَكِّم المُسْلِمَ القُرْآنَ والسُّنَّةَ على نفسِه في كلِّ شيءٍ حتى يكون شعارُه ما أمر اللهُ به رسولَه ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(١٦٣)﴾ [الأنعـام]، وحتى يكونَ كما

---

(١)حسن : [ص.د:٤٨٤٣]، د(٤٥٧٣/٣٤١و٣٤٢/١٢).

(٢)حسن : [ص.ت:٢٦٤١]، ت(٢٧٧٩/١٣٥/٤).

قال الثَّوري: إنْ استطعتَ ألاَّ تَحُكَّ رأْسَك إلاَّ بأثرٍ فافعل»[١].

فمن أراد بحْبُوحَةَ الجنَّة فليلزم الجماعة، ومن أراد أنْ يُزَحْزَحَ عن النَّار فعليه أنْ يستمسك بهذه العبارة وهي "**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**".

ولقد وعي السابقون الأوَّلون هذه الحقيقةَ فاستمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ، حتى "مضت القرونُ الثلاثةُ الأولى، والأُمَّةُ فيها على نَسَقٍ واحدٍ في التَّفكير والسُّلوك والاعتقاد والعمل، ولا يختلف اثنان عليه إلاَّ ما يكون من سلوك في الوصول إلى النَّتيجة الواحدة، التي لا تختلف قطُّ مع هذا النَّسق الواحد، لهذا استحقَّت ثناء ربِّها سبحانه في مواطنَ عديدةٍ من كتابه، كقوله تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**(١٠٠)﴾ [التوبة]»[٢]،

ولقد أثنى عليها نبيُّها ﷺ في قوله: "**خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَالَ عِمْرَانُ لاَ أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً**»[٣].

"وما كان للأمَّةِ أنْ تتفَّرق على هذا النَّسق الواحد لو أنَّها ظلَّت تَعْتَصِمُ بحبْل الكتاب والسنة، تستهدي بهما، وتلتَزِم العملَ بهما، وتدعُو إليهما، لكنَّها اختلفَت وتفرَّقت وتناثرت رَغْمَ تحذيرِ اللهِ ورسولهِ لها من التفرُّق والاختلاف»[٤].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/١٤٢/١٧٤).

(٢) مجتمعنا المعاصر(٩٥).

(٣)متفق عليه : خ(٥/١٥٩و٢٦٥١/٢٥٨)، م(٤/١٩٦٤/٢٥٣٥)، ت(٣/٣٣٩/٢٣٢٠)، ن(٧/١٨و١٧)، د(١٢/٤١١-٤٠٩/٤٦٣٢).

(٤) مجتمعنا المعاصر (٩٦).

يقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَتَفَرَّقُوا(١٠٣)﴾[آل عمران]، ثم يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١٠٧)﴾ [آل عمران]، قال ابنُ عبَّاس : يومَ تبيضُّ وجوهُ أهلِ السُّنة والجماعة، وتسودُّ وجوهُ أهل الخلاف والفرقة.(١)

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١)مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(٣٢)﴾ [الروم]،

ولقد أخبر النبيُّ ﷺ عن وُقوع هذا الاختلافِ والتَّفرُّقِ وبيَّن أَنَّ المَخْرجَ منه هو العَوْدَةُ إلى "**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**"،

عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ: قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا فَقَالَ: " أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"(٢).

فقرَن ﷺ سُنَّةَ الخلفاءِ بسُنَّته، وأمر باتِّباعِها كما أمر باتِّباع سُنَّته، وبالغ في الأمر بها حتى أمر بأَنْ يُعضَّ عليها بالنواجذ، وهذا يتناول ما أَفْتَوْا به وسنُّوه

---

(١) ابن كثير (١/٣٩٠) .

(٢)صحيح : [ص.د:٣٨٥١]، د(١٢/٣٥٨/٤٥٨٣).

للأُمة وإنْ لم يتقدَّم من نبيهم فيه شيئ، وإلاَّ كان ذلك سنته، ويتناول ما أفتى به جميعُهم أو أحدُهم أو بعضُهم لأنَّه علَّق ذلك بما سنَّه الخلفاءُ الراشدون ومعلومٌ أنهم لم يَسنُّوا وهم خلفاء في آنٍ واحدٍ فعُلِمَ أَنَّ ما سنَّه كلٌّ واحدٍ منهم في وقتهِ فهو من سُنَّةِ الخلفاء الراشدين»(١).

والذي يُمْعِنُ النَّظرَ في القرآنِ الكريم يستخرجُ منه الكثيرَ من الآيات التي تأمر باتِّباع النبيِّ ﷺ وأصحابِه، ومنها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي(٣١)﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٨)﴾ [الأعراف]،

فأمر باتِّباعه ﷺ وعلَّق الهدايةَ عليه، وقد أخبر سبحانه أَنَّ الصَّحابة اتَّبعُوا النبيَّ ﷺ في العُسْر واليُسْر والمَنْشَط والمَكْره، فهم إذاً مهتدون، قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١١٧)﴾ [التوبة]، ومن كان مهتدياً في نفسه وجب اتِّباعُه إلى الهدى إذا ما دعا إليه قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(٢١)﴾ [يس]،

ومنها قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ(١٥)﴾ [لقمان]، وإنَّما الصَّحابَةُ مهتدون لإنابتهم إلى الله القائل: ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(١٥)﴾ [الشورى]، فوجب اتِّباع سبيلهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(١١٩)﴾ [التوبة]، قال غيرُ واحدٍ من السلف هم أصحابُ محمد ﷺ .

---

(١) إعلام الموقعين(٤/١٤٠).

ولقد كان السلف من الصحابة والتابعين يوصُون باتِّباع السَّابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين:

يقول ابنُ مسعود: "إنَّ الله نظر في قُلوب العبادِ فوجد قلبَ محمدٍ خيرَ قلوب العباد فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد محمدٍ ﷺ فوجد قلوبَ الصحابة خيرَ قلوب العبادِ فاختارهم لصُحْبَة نبيِّه ونُصْرَة دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح.

ويقول: من كان متأسِّياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنَّهم كانوا أبرَّ هذه الأُمة قلوباً، وأعمقَها علماً، وأقلَّها تكلُّفاً، وأقومَها هَدياً، وأحسنَها حالاً، قومٌ اختارهم اللهُ لصُحْبَة نبيِّه وإقامةِ دينه فاعْرَفُوا لهم فضلَهم واتبعوهم فإنَّهم كانوا على الهدى المستقيم"(١).

"وعن سُفيانَ بن عُيَيْنَة قال: سمعتُ عاصِماً الأحولَ يحدِّث عن أبي العالية قال: عليكم بالأمر الأَول الذي كانوا عليه قبلَ أَنْ يتفرَّقوا.

قال عاصم: فحدَّثْتُ الحسنَ فقال: قد نصحَك واللهِ وصدقَك.

وقال الأوزاعي: اصبرْ نفسَك على السنَّةِ، وقِفْ حيث وقَفَ القوم، وقُلْ بما قالوا، وكُفَّ عما كفُّوا، واسلُكْ سبيلَ سَلَفِكَ الصَّالح، فإنَّه يَسعُك ما وَسِعَهم"(٢).

"وقال عمرُ بن عبد العزيز: قِفْ حيثُ وقفَ القوم وقُلْ كما قالوا، واسْكُتْ كما سكتوا، فإنَّهم عن عِلم وقَفوا، وبصيرة قد كفُّوا، وهم على كَشْفِها كانوا أقوى، وبالفضلِ لو كان فيها أحرى.

---

(١) إعلام الموقعين(١٣٨و١٣٩/٤).

(٢) تلبيس إبليس(٨و٩).

وقال أيضاً: سنَّ ﷺ لوُلاةِ الأمر بعده سُنناً، الأخذُ بها تصديقٌ لكتاب الله واستكمالٌ لطاعته وقوَّةٌ على دينه، ليس لأحدٍ تغييرُها ولا تبديلُها ولا النظرُ في رأي مَنْ خالفهم، فمَنِ اقْتدَى بما سَنُّوا فقد اهتدى، ومن استنصرَ بها منصور، ومن خالف واتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين ولاَّه اللهُ ما تولَّى وأصلاه جهنّم وساءت مصيراً .

وقال الشَّعبِيُّ: عليك بآثار مَنْ سلف وإِنْ رفضَك الناس، وإيَّاك وآراءَ الرجال وإنْ زَخْرَفُوها لك بالقول»[١].

وقال الشافعِيُّ في تعظيم الصَّحابة: «هم فَوْقَنا في كُلِّ عِلْمٍ واجتهادٍ وورع وعقلٍ وأمرٍ اسْتُدْرِك به علم، وآراؤهم لنا أحمدُ وأوْلى بنا من آرائنا، ومَنْ أدركنا ممن نَرْضَى أو حُكِيَ لنا عنه ببلَدنا صارُوا فيما لم يعلَمُوا فيه سُنَّةً إلى قولهم إنْ اجتمعوا أو قَوْلِ بعضِهم إنْ تفرَّقوا، وكذا نقول، ولم نَخْرج من أقوالهم كلِّهم»[٢]،

وإذ قد تبيَّن لنا وجوبُ اتِّباع الصَّحابة ولزُوم جَماعتِهم فليُعلَم أَنَّ المرادَ بلزُوم جماعتهم لزُومِ مَنْهجِهم وطريقِهم في فَهْمِ الدِّين والعَملِ به، كما قال الإمامُ الشافعي: «ليس للزُومِ جماعتِهم معنى إلاَّ ما عليه جَماعتُهم من التَّحلِيل والتَّحريم والطَّاعة فيهما، فمن قال بما يقولُ به جماعةُ المسلمين فقد لَزِمَ جماعتَهم، ومن خالفَ ما يقولُ به جماعةُ المسلمين فقد خالفَ جماعتَهم التي أُمر بلزومها»[٣]،

ومَثَلُ ذلك مَثَلُ الطَّالب الذي يَنْتَسِبُ إلى إحدى الكليَّات انتساباً ولا ينْتَظِمُ بيْن طُلاَّبها، وإنَّما يأخُذ المَنْهجَ ويدرسُه ثم يُمْتَحَنُ فيه فإنْ نجحَ مُنِحَ الشَّهادةَ كما

---

(١) إعلام الموقعين (١٥١و١٥٢/٤).

(٢) المصدر السابق (١٢٢/٤).

(٣) الرسالة (١٣١٩و١٣٢٠/٤٧٥).

يُمْنَحُها المُنتَظِمُون، وهو لم يجْتَمِعْ بهم أثناءَ الدِّراسة ولم يَعْرِف أعيانهم وإنَّما التزم منهجهم.

وهكذا مَنْ أراد أنْ يكون من أهلِ السُّنة والجماعة، والفِرْقة النَّاجية، والطَّائفة المنْصورة، فليلزم المنهجَ الذي كانت عليه الجماعةُ الأولى جماعةُ الرسول ﷺ وأصحابه، فمن التزم مَنْهجَهم كان منهم وإنْ لم يصْحَبْهم، وفي ذلك يقول القائل في أهل الحديث جماعةِ المسلمين:

أهلُ الحديثِ هُمْ أهلُ النبيِّ   وإنْ لم يصْحَبُوا نفْسَه أنفاسَه صَحِبُوا

ولقد كان هذا المعنى مستقراً في نفُوس الصَّحابة والتابعين لهم بإحسان، ولذلك لَمَّا سُئِل **عَبْدَ اللَّه بْنَ الْمُبَارَك مَنِ الْجَمَاعَةُ فقَالَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ: قَالَ: فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، فَقَالَ: عَبْدُ اللَّه بْنُ الْمُبَارَكِ: وَأَبُو حَمْزَةَ السُّكَّرِيُّ جَمَاعَةٌ قَالَ: أَبُو عِيسَى وَأَبُو حَمْزَةَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَيْمُونٍ وكَانَ شَيْخًا صَالِحًا وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا فِي حَيَاتِهِ عِنْدَنَا** »[1].

وقال أبو شامة: "حيث جاء الأمرُ بالجماعة فالمرادُ به لزُومُ الحقِّ واتِّباعُه، وإنْ كان المتمسِّك به قليلاً، والمخالِفُ له كثيراً .

قال ابنُ القيم: لأَنَّ الحقَّ هو الذي كانت عليه الجماعةُ الأولى من عهد النبيِّ ﷺ وأصحابه، ولا نظرَ إلى كَثْرةِ أهل البدع بعدهم.

وقال عمرو بنُ ميمون: صَحِبْتُ معاذاً فما فارَقْته حتى واريتُه في التُّراب بالشَّام، ثم صحبتُ بعدَه أفقهَ النَّاس عبدَ الله بنَ مسعود فسمعتُه يقول: عليكم بالجماعة، فإنَّ يدَ الله على الجماعة. ثم قال: يا عمرُو بنَ ميمون تدري ما الجماعة؟ الجماعةُ ما وافقَ الحقَّ وإنْ كنتَ وحدك، وفي رواية: الجماعةُ ما وافقَ طاعةَ الله عزّ وجلّ.

---

(١) ص.ت (٤٥٨و٤٥٩/٢).

قال نُعيم بن حماد: يعني إذا فسدَتِ الجماعةُ فعليك بما كانتْ عليه الجماعةُ قبل أَنْ تَفْسُد، وإِنْ كنتَ وحَدك، فإنَّك أنتَ الجماعةُ حينئذ.

وكان محمد بن أسلم الطوسي الإمامُ المتَّفقُ على إمامته أَتْبَع الناس للسُّنة في زمانه، حتى قال: ما بلغني سُنَّةٌ عن رسول الله ﷺ إلاَّ عملْتُ بها، ولقد حَرِصْتُ على أَنْ أطوفَ بالبيْتِ راكباً فما مُكَنْتُ من ذلك.

فسُئِل بعضُ أهلِ العلم في زمانه عن الجماعة فقال: محمد بن أسلم الطوسي هو الجماعة.

قال ابنُ القيم: وصدَق والله، فإنَّ العصرَ إذا كان فيه عالمٌ بالسُّنة داعٍ إليها فهو الحُجَّةُ وهو الإجماعُ وهو الجَماعة، وهو سبيلُ المؤمنين التي مَنْ فارقَها واتَّبع سواه ولاّه اللهُ ما تولَّى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً»[١].

وما أحسنَ هذه الكلماتِ التي كتبها الأستاذُ سيِّد قُطب في مقدِّمة سُورةِ الأنعام قال: "يجبُ أَنْ يعرِفَ أصحابُ هذا الدِّين جيِّداً أَنَّه كما أَنَّ هذا الدِّينَ دينٌ ربَّانيٌّ فإِنَّ مَنْهَجه في العملِ مَنْهَجٌ ربانيٌّ كذلك، وإِنَّه لا يُمْكِنُ فَصْلُ حقيقةِ هذا الدِّين عن مَنْهجِه في العمل.

ويجبُ أَنْ يُعرَفَ أَنَّ هذا المنهجَ أصيلٌ، وليس منهجَ مرْحلَةٍ ولا بيئةٍ ولا ظُروفٍ خاصَّة بنشأةِ الجماعةِ المسلمةِ الأولى، وإِنَّما هو المنهجُ الذي لا يقوم بناءُ هذا الدِّين إلاَّ به.

ومن واجبِ أصحابِ الدَّعوة أَنْ يرفُضُوا إملاءَ أي منهجٍ غريب، وأَنْ يتحرَّكوا بدينهم وفْقَ منهج هذا الدين، وأَنْ يعلموا أَنَّ المنهجَ في الإسلام يُساوِي الحقيقة، ولا انْفِصَام بينهما، وأَنَّ كلَّ منهجٍ غريبٍ لا يُمْكِنُ أَنْ يُحَقِّقَ الإسلامَ في

---

(١) إغاثة اللهفان(٦٩و١/٧٠) بتصرف.

النهاية، فالتزامُ المَنْهَجِ ضروريٌّ كالتزام العقيدة وكالتزام النظام في كل حركةٍ إسلامية، لا في الحركة الإسلامية الأولى كما يظنُّ بعض الناس»(١).

فيا أصحابَ الدَّعوات وأتباعَ الجماعات «**اتَّبِعُوا ولا تَبْتدِعُوا فقد كُفِيتُم**»

كلمةٌ جامِعَةٌ ووصيَّةٌ مباركةٌ وصَّاكم بها الصحابيُّ الجليلُ عبدُ الله بن مسعود، وفيها يقول الدُّكتور عبدُ الحليم محمود: «كَلمةٌ موجزةٌ كأنَّها إعجازٌ من الإعجازات وهي كلمةُ حقٍّ وصِدْق، ثَرِيَّةٌ بالمعاني الطَّويلة العريضة، يُبَرْهِنُ آخرُها على أوَّلها، والنَّهْيُ في وسَطِها يُبرْهِنُ عليه أيضاً آخرُها، أي: «**اتَّبِعُوا فقد كُفِيتُم**»، والكافي هو اللهُ سبحانه وتعالى الذي أَوْحى الشَّرْعَ والأصولَ والقواعد، وطبَّق رسولُ الله ﷺ كلَّ ذلك وبيَّنه، فكان تطبيقُه مقياساً وبياناً ومرجعاً يرجع إليه المُخْتلِفون.

« **ولا تَبْدِعوا فقد كُفيتم**» إنَّ الذي يبتدعُ هو من لا كِفَايةَ له، ولكنَّ اللهَ سبحانه وتعالى بعد أَنْ أعلى الدِّين وأتمَّ النِّعمة فليس هناك من مجال ولا من حاجةٍ إلى الابتداع، لقد كفانا اللهُ ورسولُه ﷺ كلَّ ما أهمَّنا من أمر الدِّين ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**(٣)﴾ [المائدة].

ثم يقولُ رحمه الله في فضل الاتباع: أن إقامةِ منهج الاتِّباع هو الخُلاصة الجوهريةُ لتجاربى الخاصة بالطريق الذي ينبغي أَنْ يسلكه المسلم في حياته، وإذا سار فيه المسلمُ فرْداً أو سار فيه المجتمعُ مجْتمعاً فإنَّ الله سبحانه وتعالى يكتبُ له الهدوءَ والطُّمأنينةَ والسَّعادة لأَنَّه في جوٍّ ربَّاني وفي رعايةِ الله سبحانه وتعالى وعنايته.

---

(١) في ظلال القرآن (٩٣-٣/٩٦) بتصرف.

وإنَّ منهج الاتباع يقي الجوَّ الإسلاميَّ الانحرافَ الفِكْريَّ ثم إنَّه ينشُر رعايةَ الله وتوفيقَه وحمايتَه ونصرَه، ويجب نشرُه في جميع الأجواء الإسلامية لأنَّه المنهج الإسلامي ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾ [آل عمران]»(١).

هذا، وإنَّ مما يجب التَّنبيهُ عليه أَنَّ هذه الجماعةَ جماعةَ أهلِ العلم تَخْتَلِفُ عن جَماعةِ العَدالة، فإنَّ الجماعة جَماعتان: جماعةُ العِلْم وجماعةُ العدالة»(٢).

فجماعةُ العِلْم هي التي بيَّناها ولزُومها يتمُّ بلزُوم منهجها، ولا يلْـزَمُ لها بيعةٌ ولا يجب بها سمعٌ ولا طاعة، وإنَّما البَيْعَةُ واجِبةٌ للإمام الذي يُقيمُه المسلمون لهم ليقيمَ لهم العدلَ ويحقّق الأمن، فبَيْعةُ هذا الإمام واجبةٌ وطاعتُه في المعروف واجبة، والخرُوج عليه حرام، وقد جاءت الأحاديث تأمر بلزوم جماعته وتُحذِّر من مفارقته:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»(٣).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ حُجَّةَ لَهُ وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»(٤).

والمرادُ بالجماعة هي جماعةَ العَدالة، والمُرادُ بالبَيْعةِ بَيْعةُ أمير المؤمنين، وقد بَيَّنتْ هذا المعنى الرِّواياتُ الأخرى المصرِّحةُ بالإمارة والسلطة:

---

(١) الفلسفة (٣٤و٣٥و٤٧).

(٢) العارضة(٩/٩).

(٣) م(١٨٤٨/١٤٧٦/٣)، ن(٧/١٣٣).

(٤) م(١٨٥١/١٤٧٨/٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ تَكْثُرُ قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا قَالَ: فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»[١]،

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَرْوِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ»[٢].

فالبَيْعةُ والسَّمعُ والطَّاعة إنَّما تكون للإمام، أَمَّا جماعةُ العِلْم فمَنْ كان على مثْلِ ما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُه فهو من جماعة العلم ولو كان وحده، دون أَنْ يَنْخَرِط في أيِّ جماعةٍ من الجماعات، ولا يلزم أَنْ يرفعَ رايةً ولا شِعاراً، ولا أَنْ يبايعَ أميراً،

يقول شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: "ليس للمعلِّمين أَنْ يحزِّبوا النَّاس ويفعلوا ما يُلْقِي بينهم العداوةَ والبغضاءَ بل يكونوا مثْلَ الإخْوة المُتَعاونين على البرِّ والتقوى كما أمر الله عزّ وجلّ، وليس لأحدٍ منهم أَنْ يأخذ على أحدٍ عهداً بمُوافقَته على كلِّ ما يُريده ومُوالاةِ مَنْ يواليه، ومُعادَاةِ مَنْ يُعاديه، بل مَن فعلَ هذا كان من المعتدين»[٣].

* * *

(١) متفق عليه : خ(٣٤٥٥/٤٩٥/٦)، م(١٨٤٢/١٤٧١/٣).

(٢) متفق عليه : خ(٧٠٥٣/٥/١٣)، م(١٨٤٩/١٤٧٨/٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥و١٦/٢٨).

فضل كفالة اليتيم

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٢٠)﴾ [البقرة].

اليتامى جمعُ يتيمٍ وهو من فقد أباه صغيراً، والأبُ بالنسبة لصِغَاره شيءٌ عظيمٌ جداً في هذه الحياة، وله دَوْرُه الذي لا يقومُ به غيرُه في تربْيتهم والقيامِ بمصالحهم، فهو الذي يَشْقَى ليستريحوا، ويجوع ليشبَعوا، ويسهرُ ليناموا، يكسوهم الجديدَ دائماً ويرضى لنفسِه بالخَلَقِ البالي، ولذا كان مَوْتُه مصيبةً كبرى ورزيةً عُظمى، تُفْقدُ الأولادَ الحنانَ والعطفَ والرَّحمة، وتُذْهِبُ من وجوههم الفَرْحةَ والبَسمة، وتُذيقُهم ذُلَّ اليتم.

ولَمَّا كان "**الْمُؤْمِنُونَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**"(١)، فقد أوجبَ الإسلامُ على المسلمين كفالةَ اليتيم، كفالةً تُعوِّضُه ما فقدَه من الحنَانِ والعطفِ والرَّحمة، وتُدْخِلُ على قلبه البَهْجةَ والفَرْحةَ وتجعلُه لا يشعرُ بفَقْدِ أبيه وهو يجد من يكفلُه ويُؤْويه، ويُنْزِلُه من نفسِه منزلَةَ بنيه.

وقد جعل اللهُ تعالى لليتامى حقاً في المال العام وحقاً في المال الخاص، ومن موارد المال العام الغنائمُ والفَيْء، وقد جعل اللهُ فيهما لليتامى حقاً فقال سبحانه ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ(٤١)**﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى**

---

(١) متفق عليه: خ(٦٠١١/٤٣٨/١٠)، م(٢٥٨٦/١٩٩٩/٤).

رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ(٧)﴾ [الحشر].

وجعل سبحانه وتعالى لليتامى حقاً في صدقات الأغنياء فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ(٢١٥)﴾ [البقرة]

وجعل سبحانه وتعالى إيتاءَ اليتيم من الصدقات من البرِّ الذي هو عُنوان التَّقوى فقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٧)﴾ [البقرة]،

وحضَّ سبحانه على إطْعام اليتيم فقال تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢)فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٣)يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦)﴾ [البلد]،

ومدح المُطْعمين اليتامَى ووعدَهم بالجنَّة فقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا (٩)إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا(١٠)فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا(١١)وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا(١٢)﴾ [الإنسان].

ونهى سبحانه وتعالى عن إهانة اليتيم فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ(٩)﴾ [الضحى]،

وجعل قهرَه ودَفْعَه وطرْدَه عُنوانَ التَّكذيب بيوم الدِّين، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢)﴾ [الماعون]، وقال متوعداً: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧)﴾ [الفجر].

وأرشد سبحانه وتعالى من يخافُ على أولادِه الضَّياعَ مِن بعدْ إلى أنْ يُحافِظَ على يتامى غيرِه ويرْعاهم، فإنْ ماتَ وتَركَ أولادَه قَيَّض الله لهم من يرعاهم فكما تدين تُدان والجزاءُ من جِنْس العمل و ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن]،

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩)﴾ [النساء]، أي يتَّقوا اللهَ في ذُرِيَّة غيرِهم فلا يهينُوهم ولا يدُّعوهم، ولا يُسيئوا إليهم القول، بل يقولوا لهم قولاً معروفاً، وحينئذ يتولى الله أولادَهم بعدَهم إنْ ماتوا وتركوهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ (٣١)﴾ [فصلت]، وقال تعالى في قصة الخَضِر ومُوسى لَمَّا بنى الخَضرُ الجدارَ بلا أجرٍ قال تعالى على لسان الخَضر: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾ [الكهف].

وقد رغَّب النبيُّ ﷺ في برِّ اليتيم وإطعامه وبيَّن أنَّ ذلكَ من أسباب نَيْل المقاصد وإدْراك الحاجات ولِينِ القلب:

عن أبي الدرداء قال: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ يَشْكُو قَسْوَةَ قَلْبِه فقال ﷺ: "أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ وتُدْرِكَ حَاجَتك؟ ارْحَمِ اليَتِيمَ، وامْسَحْ عَلَى رَأْسِه، وَأَطْعِمْهُ

مِنْ طَعَامِك، يَلِينُ قَلْبُكَ وتُدْرِكُ حَاجَتك»(١).

كما بيَّن ﷺ أَنَّ كفالَة اليتيم ترفَعُ درجةَ الكفيل في الجنَّة إلى درجة النَّبيِّين فقال ﷺ : « **أَنَا وكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى**»(٢).

قال ابنُ بطال: « حقٌّ على من سَمِعَ هذا الحديثَ أَنْ يعمل به ليكونَ رفيقَ النبيِّ ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضلُ من ذلك»(٣).

هذا إذا كان اليتيمُ فقيراً لا مالَ له، فإِنْ كان له فعلى كفيله أَنْ يتَّقِيَ اللهَ في ماله وأَنْ يصونَه ويرعاه ويحفَظه من الضَّياع، فإِنَّ الله تعالى شدَّد في مال اليتيم فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا(١٠)**﴾ [النساء]،

ولذلك عدّ النبيُّ ﷺ أكْلَ مال اليتيم من كبائر الذُّنوب المُهْلِكة فقال:

« **اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ**»(٤).

عَنْ ابْنِ عَبَّاس قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ(١٥٢)﴾ [الأنعام]، **وَ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ﴾ الآيَةَ انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِه، وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِه، فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ**

---

(١) حسن لغيره : [ص:تغ:٢٥٤٤].

(٢) خ(٦٠٠٥/٤٣٦/١٠)، ت(١٩٨٣/٢١٥/٣)، د(٥١٢٨/٦٠/١٢).

(٣) فتح الباري(٤٣٦/١٠).

(٤) متفق عليه : خ(٢٧٦٦/٣٩٣/٥)، م(٨٩/٩٢/١)، د(٢٨٥٧/٧٧/٨)، ن(٢٥٧/٦).

فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ (٢٢٠)﴾ [البقرة]. **فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِ**(١).

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ (٢٢٠)﴾[البقرة]، جِوابٌ شَافٍ كافٍ، جامعٌ مانع، "يجمعُ النَّظر في صلاحِ مصالِح اليتيم بالتَّقويم والتَّأديب وغيرِهما، لكي ينشأ على عِلْمٍ وأدبٍ وفضل، لأَنَّ هذا الصُّنْعَ أعظمُ تأثيرًا فيه من إصلاح ماله بالتجارة، ويدخل فيه أيضاً إصلاحُ مالِه كي لا تأكلَه النَّفقةُ من جهة التجارة، ويدخلُ فيه أيضاً معنى قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ (٢)﴾ [النساء]"(٢)، و "إصلاحُ مبتدأ وخيرٌ خبر"(٣)، "وهو يتناول حالَ المتكفِّل: أي هذا العملُ خيرٌ له من أنْ يكون مقصِّراً في حقِّ اليتيم ويتناول حالَ اليتيم أيضاً: أي هذا العملُ خيرٌ لليتيم من حيثُ أَنَّه يتضمَّنُ صلاحَ نفسِه وصلاحَ ماله، فهذه كلمةٌ جامعةٌ لجميع مصالِح اليتيم والولّي"(٤).

وإصلاحُ مالِ اليتيم بأنواع التِّجارة واضح، وإصلاحُ نفسِه وتهذيبُه وتأديبُه قد يتحرَّج منه الكفيلُ فيُهْمِلُ اليتيمَ ويُدلِّلُه ولا يقوّمه فيفسد، تحرجاً من ضربِه، وهذا التَّحرُّج في غيْرِ موضعه ولا مبرِّر له، فإِنَّ الله أذِنَ في إصْلاحهم ولو أدَّى إلى ضربهم،

"ولذلك قال أسماءُ بنُ عُبيْد لابن سيرين: عندي يتيم، قال: اصْنَعْ به ما تَصْنَعُ بولدِك، اضْرِبْه ما تَضْرِبُ ولدك.

---

(١) حسن: [ص.د:٢٤٩٥]، د(٢٨٥٤/٧٣/٨)، ن(٧/٢٥٦).

(٢) الرازاي(٥٤/٦).

(٣) البحر المحيط(٢/١٦١).

(٤) محاسن التأويل(٣/٢١٧).

وعن شُمَيْسة العَتَكيَّة قالت: ذُكِرَ أَدَبُ اليتيم عِنْدَ عائشةَ رضي الله عنها فقالت إِنِّي لأضرِبُ اليتيمَ حتى ينبسط»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ(٢٢٠)﴾ [البقرة]: لقد ازداد خوفُهم من الوعيد الذي نزلَ فيمن أكلَ أموالَ اليتامى ظُلماً فعزَلُوا طعامَه من طعامهم، وشرابَه عن شرابهم، فأباح اللهُ لهم الخُلْطة التي يُراد بها الإصلاحُ ورخَّص لهم فيما يُصيبُونه من طعام اليتيم وشرابه بسببها فقال: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ "والمعنى: إِنَّهم إخْوانُكم في الدِّين فينبغي أَنْ تنظُروا لهم كما تنظُرون لإخوانكم من النَّسبِ من الشَّفقةِ والتلطُّفِ والإصْلاح لذواتهم وأمْوالهم»[٢].

ثم حذَّر سبحانه من سُوء النِّية التي قد تجعل الخُلطاءَ يبغي بعضُهم على بعض فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ(٢٢٠)﴾ [البقرة] "والمُصْلِحُ هو من يأتي بالإصلاح عَملاً، والمُفْسِدُ هو من يأتي بالإفساد فِعْلاً"»[٣].

والمعنى "إِنَّكم إذا أظهرتم من أنفسكم إرادةَ الإصلاح فإذا لم تُريدُوا ذلك في قلوبكم بل كان مرادكم منه غرضاً آخر فاللهُ مطَّلِعٌ على ضمائركم عالمٌ بما في قلوبكم، وهذا تهديدٌ عظيم، والسَّببُ أَنَّ اليتيمَ لا يُمْكِنُه رعايةُ الأفضلِ لنفسه، وليس له أحدٌ يراعيه، فكأنَّ الله تعالى قال: لَمَّا لم يكن له أحدٌ يتكفَّل بمصالِحه فأنا ذلك المتكفِّل وأنا المطالبُ وليَّه.

وقيل المعنى: واللهُ يعلمُ المُصلِحَ الذي يلي من أمر اليتيم ما يجوزُ بسبب الانتفاع بما له ويعلمُ المُفْسِدَ الذي لا يلي من إصلاح أمرِ اليتيم ما يجوز له

---

(١) صحيح الإسناد : [ص.خد:١٠٤و١٠٥].

(٢) البحر المحيط (٢/١٦٢).

(٣) المنار(١/١٩٨).

بسبب الانتفاع بماله، فاتَّقوا أنْ تتناولوا من مال اليتيم شيئاً من غيْرِ إصلاحٍ منكم لَمَّا لهم»[١].

«وكثيراً ما ينسب العلم إلى الله تعالى على سبيل التحذير، لأَنَّ مَنْ عَلِمَ بالشيء جازى عليه، فهو تعبيرٌ بالسَّبَبِ عن المُسبَّب»[٢].

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(٢٣٥)﴾ [البقرة]، وقال : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(٢٨)﴾ [آل عمران]، وقال : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا(٢٥)﴾ [الإسراء]،

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ(٣٠)﴾ [آل عمران]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤٠)﴾ [فصلت]،

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٦١)﴾ [يونس]،

---

(١) الرازي (٦/٥٦).
(٢) البحر المحيط (٢/١٦٢).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧)﴾ [المجادلة]،

فمَنْ عَلِمَ أَنَّ اللهَ يراه ويطَّلع عليه، ويعلَم ما في نَفْسِه من نَوايا وإراداتٍ كيف يعصيه؟

ولذلك قال رجلٌ لبعْضِ الصَّالحين عِظْني، فقال له: إذا عَمِلْتَ فتذكَّر رُؤيةَ الله لك، وإذا تكَلَّمت فتذكَّر سَمْعَ الله لك، وإذا سكتَّ فاعْلَم أَنَّ الله عليمٌ بذات الصدور. فإذا توفَّر هذا العِلْمُ للإنسان أمْسَكَ عن مَعْصِيَة الرحمن.

فيا أيها الإنسان:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تقلْ خلَوتُ ولكن قُلْ عليّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلَ ساعةً ولا أَنَّ ما تُخْفِي عليه يغيبُ

ولَمَّا رخَّص الله تعالى لكافل اليتيم أَنْ يُخَالِطَه بالمعروف وكانت رُخْصَةً خفَّف الله بها عنهم امتنَّ عليهم بها وذكَّرهم بقُدْرته على إحراجهم وتكليفهم ما يشقُّ عليهم فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ(٢٢٠)﴾ [البقرة]، "الإعناتُ الحَمْلُ على مشقَّة لا تُطاق، يقال أعنتَ فلانٌ فلاناً إذا أَوْقعَه فيما لا يستطيع الخُروج منه، وتعنَّته تعنُّتاً إذا لَبس عليه في سؤاله.

وأصل العَنتِ من المشقَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ(١٢٨)﴾ [التوبة]، أي شديدٌ عليه ما شقَّ عليكم"(١)، والمعنى: ولو شاء اللهُ لحرَّم ما أحلَّ

---

(١) الرازي(٥٦/٦).

لكم من مُخالطة اليتامى فجَهدكم ذلك وشقَّ عليكم، ولم تقْدِرُوا على القيام باللازم لكم من حقِّ الله تعالى، والواجبِ عليكم في ذلك من فَرْضه، ولكنَّه رخَّص لكم فيه، وسهَّله عليكم رحمةً بكم ورأفة»[1]، وهذه سُنَّةُ الله في تشريعه لخَلْقه ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ(٦)﴾[المائدة]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ(٧٨)﴾[الحج]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ(١٨٥)﴾[البقرة]، ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٢٨٦)﴾[البقرة]، وقد ثبت في الصحيح أَنَّ الله تعالى قال نعم، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ(١٦)﴾[التغابن]:

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»[2].

فالدِّين يُسْرٌ لا عُسْرَ فيه، سَمْحٌ لا مشقَّة فيه ولا حرَجٌ فيسِّروا ولا تُعسِّروا، واعلموا "**أَنَّ الله يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَما يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُه** »[3]،

ثم ختم ربُّنا سُبْحانه الآيةَ بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٢٠)﴾[البقرة]، قال الزمخشري: " ﴿عَزِيزٌ﴾: أي غالبٌ يقْدِرُ على أَنْ يُعْنِتَ عبادَه ويُحْرِجَهم ولكنَّه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يكلِّف إلاَّ ما تتسع فيه طاقتهم»[4].

---

(١) الطبري(٢/٣٧٤).

(٢) م(٢/٩٧٥/١٣٣٧)، ن(١١٠و١١١/٥).

(٣) صحيح: [الإرواء:٥٦٤]، حب(٢٢٨/٩١٤).

(٤) الكشاف(١/١٣٣).

"وفي وصفه تعالى بالعزَّة وهي الغَلبةُ والاستيلاء إشارةٌ إلى أنَّه مخْـتَصٌ بذلك لا يُشارِكُ فيه، فكأنَّه لَمَّا جعل لهم ولايةً على اليتامى نبهَّهم على أنَّهـم لا يَقْهَرُونهم ولا يُغالِبُونَهم ولا يستَوِلُونَ عليهم استيلاءَ القاهر، فإنَّ هذا الوَصْفَ لا يكون إلاَّ الله، وفي وصْفِه تعالى بالحِكْمةِ إشارةٌ إلى أنَّه لا يُتعدى مـا أَذِنَ هـو تعالى فيهم وما أموالهم، فليس لكم نظرٌ إلاَّ بما أَذِنَتْ فيـه الشـريعةُ واقتَضـتْه الحكمةُ الإلهيَّة إذ هو الحكيمُ المُتْقِنُ لَمَا صنع وشرَع فالإصْلاحُ لهم ليس راجعـاً إلى نظرِكم وإنَّما هو راجعٌ لاتِّباع ما شرع في حقهم"[(١)].

* * *

(١) البحر المحيط (٢/١٦٣).

الراجون رحمة الله

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢١٨)﴾[البقرة]،

إنَّ الله هو الرحمن الرحيم، ورحمتُه واسعةٌ كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ(١٥٦)﴾[الأعراف]،

وقد توسَّلت الملائكةُ إليه سبحانه بسَعة رحْمتِه أَنْ يغفرَ للتَّائبين فقالوا كما حكى ربُّ العالمين: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٧)﴾ [غافر].

ولقد دخل أعرابيٌّ المسجدَ النَّبوي فقال: **اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلاَ تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: " لِلأَعْرَابِيِّ لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّه»**(١)،

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " لَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ»(٢).

ولقد كان ﷺ يصوِّر لأصحابه رحمةَ الله بما يقرِّبها من الأذْهانِ والأفْهام فكان يقول: **"جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِها خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ »**(٣).

---

(١) خ(١٠/٤٣٨/٦٠١٠)،ت(١/٩٩/١٤٧)، د(٢/٣٩/٣٧٦)، جه(١/١٧٦/٥٢٩)، ن(٣/١٤).

(٢) خ(١١/٣٠١/٦٤٦٩)، ت(٥/٢٠٩/٣٦١٠).

(٣) متفق عليه : خ(١٠/٤٣١/٦٠٠٠)، م(٤/٢١٠٨/٢٧٥٢)، جه(٢/١٤٣٥/٤٢٩٣).

وعَنْ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ ﷺ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعي قَدْ تَحْلُبُ إذ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ : "أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ قُلْنَا لاَ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ فَقَالَ: للَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا"(١).

ولقد طمَّع اللهُ عبادَه في رحْمَته ونهاهم عن اليَأسِ منها فقال : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣)﴾ [الزمر]. وبين سبحانه أَنَّ اليائسين منها هم الكافرون فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ(٨٧)﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٣)﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنْ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(١٣)﴾ [الممتحنة] ، وفى آية البقرة التى معنا وبيَّن سبحانه أن الراجين رحمة الله هم ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ ، فمن كان يرجو رحمة الله فلابد أن يؤمن بالله، لأن الإيمان هو أصل الدخول فى رحمة الرحمن ، كما قال تعالى : ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي(١٥٦)﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١)﴾ [المؤمنون] والفلاح هو الفوز بما يرجون والنجاة مما يهربون ، ويتحقق بالنجاة من النار والفوز بالجنة ، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ(١٨٥)﴾ [آل عمران]، فاستفتح السورة بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١)﴾ [المؤمنون]، وختمها بقوله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(١١٧)﴾ [المؤمنون].

---

(١) متفق عليه : خ(٥٩٩٩/٤٢٦/١٠)، م(٢٧٥٤/٢١٠٩/٤).

فالإيمانُ بالله من أعظَم الأسْباب التي يأخذُ بها الرَّاجون رحمةَ الله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦)﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣)﴾ [آل عمران].

ولَمَّا حكى سبحانه عن أهل النَّار أَنَّهم سَوْف يسألونَه الخُروجَ منها فأجابهم بأَنَّهم لن يخْرَجوا لأَنَّهم كانوا يسْخَرُون من المؤمنين فقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾ [المؤمنون].

والإيمان يزيدُ وينقص، يزيد بالطَّاعة وينقص بالمعصية، فمنْ كان إيمانُه تامًّا كاملاً دخل الجنة مع أوَّل الداخلين، ومن كان إيمانُه ناقصاً فأمْرُه إلى الله إنْ شاء عفا عنه وأدخلَه الجنَّةَ برحمته كما قال عزّ وجلّ في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾ [النساء]، وإنْ شاء عذَّبه في النار بعَدْلِه ثم يُخْرِجُه منها برَحمته وشفَاعةِ الشَّافعين من أهل طاعته كما في الحديث عن النبي ﷺ :

« إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: لَهُ اشْفَعْ لِذُرِّيَّتِكَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام فَإِنَّهُ خَلِيلُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ فَيُؤْتَى مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام فَإِنَّهُ

رُوحُ اللَّهِ وكَلِمَتُهُ، فَيُؤتَى عِيسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَأُوتَى فَأَقُولُ أَنَا لَهَا فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ الآنَ يُلْهِمُنِيهِ اللَّهُ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ لِي: انطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ لِي يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ لِي انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فِي الرَّابِعَةِ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ لِي يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ لَكَ أَوْ قَالَ لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي لأَخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ»(١).

وهكذا ظهر لنا أَنَّ الإيمانَ أعظمُ أسبابِ النَّجاة من الخُسْران كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١)إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]، ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨)يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

(١) متفق عليه: خ(٧٥١٠/٤٧٣/١٣)، م(١٩٣-٣٢٦-/١٨٢/١).

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)﴾ [التغابن].

ومن الأسباب التي تُرجى بها رحمةُ الله الهِجْرة، وهي تَرْكُ الدِّيار والأوطان التي لا يستطيع المؤمنُ فيها إعلانَ إيمانه وإظهارَ شعائر دينه، وقد كانت في أوّل الأمْرِ واجبةً من مكةَ وما حولها إلى المدينةِ حيث هاجر النبيُّ ﷺ لنُصْرَتِه وإعزازِ دينه وتكثير سواد المؤمنين وتقوية شوكتهم،

وقد رغَّبهم اللهُ فيها فقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)﴾ [النساء]،

ومدَح المُهاجرين وشَهدَ لهم بالصِّدق فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨)﴾ [الحشر]،

ووعدهم بالدِّفاع عنهم ونَصْرِهم والتَّمكين لهم في الأرْض فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج].

وذمَّ القاعدين عن الهِجْرة مع القُدْرَة عليها والعَجْزِ عن إقامة دين الله بين ظَهْراني المُشْركين فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨)فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا(٩٩)﴾ [النساء].

فلَمَّا نصرَ اللهُ رسولَه وأظهرَ دينَه قال النبيُّ ﷺ: "**لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ولَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**"(١).

وهذا نَفْيٌ لوجوبِ الهجرة من مكَة بعد فَتْحها لأَنَّها صارت دارَ إسلام بعد أن كانت دارَ شِرْك، وليس نفياً عاماً، فالهِجْرةُ على مَنْ آمن من الكفار في دار الكفر إلى دار الإسلام واجبةٌ إلى قيام الساعة، ولذلك قال النبي ﷺ: "**أنا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ**"(٢)،

وقال ﷺ: "**لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**"(٣).

ومن الأسباب التي تُرجى بها رحمةُ الله الجهاد:

وهو مأخوذٌ من مادة (ج هـ د) التي تدلُّ على الوُسْع والطَّاقة، أو التَّعَبِ والمشقَّة، يقال جاهَد يُجاهِد مُجاهَدةً، إذا بذَل وُسْعَه واستفرَغَ طاقَته في الأمر، وتحمَّل من أجله المشقَّة .

---

(١) متفق عليه: خ(٦/٣٧/٢٨٢٥)،م(٢/٩٨٦/١٣٥٣)، ت(٣/٧٤/١٦٣٨و٧٥)، ن(٨/١٤٦)، د(٧/١٥٧/٢٤٦٣)،

(٢) صحيح: [ص.د:٢٣٠٤]، د(٧/٣٠٣/٢٦٢٨)، ت(٣/٨٠/١٦٥٤)، ن(٨/٣٦).

(٣) صحيح: [ص.د:٢١٦٦]، د(٧/١٥٦/٢٤٦٢).

وهو أعمُّ من القتال، ولذلك ذُكِرَ في السُّور المكيَّة كقوله تعالى للنبيِّ ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا(٥٢)﴾ [الفرقان]،

وقال تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٦)﴾ [العنكبوت]،

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩)﴾ [العنكبوت]،

ومعلومٌ أنَّ جهادَ الكفَّار باليد لم يكن مأذوناً للمؤمنين فيه وهم في مكة، ولذلك قال الرَّاغِبُ: "الجِهَادُ والمُجاهَدةُ استِفْراغُ الوُسْعِ في مُدافَعةِ العدوِّ.

والجهادُ على ثلاثةِ أضْرُبٍ: مُجاهَدةُ العدوِّ الظَّاهر، ومجاهدةُ الشَّيطان، ومجاهَدةُ النَّفس، وتدخل ثلاثتُها في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ(٧٨)﴾ [الحج]»[١].

وقال الحافظ ابنُ حجر: «الجهادُ لغةً: المشقَّة، وشرعاً بَذْلُ الجُهْدِ في قتال الكفار، ويُطْلَق أيضاً على مُجاهَدة النَّفس والشَّيطان والفُسَّاق»[٢].

وقال ابنُ القيِّم: "لَمَّا كان جهادُ الأعْداءِ في الخَارِج فَرْعاً على جهادِ العَبْدِ نفسَهَ في طاعةِ الله، كما قال ﷺ: « **المُجَاهَدُ مَن جَاهَد نَفْسَه في طاعَةِ الله، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَر ما نَهى اللهُ عنه**»[٣]، كان جهادُ النَّفس مقدَّماً على جهاد العدوِّ في الخارج وأصلاً له، فإنَّه من لم يُجاهِدُ نفسَهَ أولاً لِفْعلَ ما أُمِرَتْ به وتَرْكِ ما نُهيتْ عنه، ويُحارِبُها في الله لم يُمْكِنْه جهادُ عدوِّه في الخارج، فكيف

---

(١) المفردات(١٠١).

(٢) الفتح(٦/٣).

(٣) إسناده صحيح: [س.ص:٥٤٩]، حم(١/١٠٩/٨٨).

يُمْكنُه جهادُ عدوِّه والانتصافُ منه، وعدوُّه الذي بين جنبيْه قاهرٌ لـــه، متسـلِّط عليه، لم يُجاهِدْه ولم يحاربْه في الله، بل لا يُمْكِنُه الخروجُ إلى عدِّوه حتى يُجاهِدَ نفسَه على الخروج .

فهذان عَدُوَّان قد امُتحِنَ العبدُ بجهادهما وبيْنهمـا عــدوٌّ ثالــثٌ لا يُمْكِنُــه جهادُهما إلاَّ بجهاده، وهو واقفٌ بينهما يُثَبِّط العبدَ عن جهادهما ويُخْذِّلُه ويَرْجِفُ بِه، ولا يزال يخيِّل له ما في جهادهما من المشاقِّ وتَرْك الحُظوظِ وفَوَاتِ اللَّذاتِ والمُشْتَهيات، ولا يُمْكِنُه أَنْ يجاهِدَ ذيك العدويَّن إلاَّ بجهاده، فكــان جهــادُه هــو الأصلَ لجهادِهما، وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِـذُوهُ عَدُوًّا(٦)﴾[فاطر]،

فهذه ثلاثةُ أعداءٍ أُمِرَ العبْدُ بمحاربتها وجهادها، وهي الــنَّفس والشَّــيطان والكفَّار والمنافقين:

فجهاد النَّفس أربعُ مراتب: إحداها أَنْ يجاهِدَها على تعلُّم الهُدى ودين الحقِّ الذي لا فلاَح لها ولا سعادَة في معاشِها ومعادِها إلاَّ به .

الثانية: أَنْ يجاهِدَها على العَملِ به بعدَ عِلْمه، وإلاَّ فمجرُّد العِلْمِ بلا عمــلٍ إِنْ لم يضرَّها لم ينفعها .

الثالثة: أَنْ يجاهِدَها على الدَّعوة إليه، وتعليمِ من لا يعلمُه، وإلاَّ كان مــن الذين يكتمُون ما أنزلَ اللهُ من البينات والهدى .

والرابعة: أَنْ يجاهِدَها على الصَّبْرِ على مشاقِّ الــدَّعْوة وأذَى المــدعوِّين وتحملِّ ذلك كلِّه لله.

وأَمَّا جهادُ الشَّيطان فمرتبتان: إحداها: جهادُه على دَفْعِ ما يُلْقِي إلى العبــدِ من الشُّبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهادُه على دَفْع ما يُلْقِي من الإرادات الفَاسِدَة والشَّهوات، فبالأُولى يكونُ اليقين، وبالثانية يكون الصَّبر، وبهما ينال الإمامةَ في الدِّين قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ(٢٤)﴾ [السجدة]،

وأَمَّا جهادُ الكفَّار والمُنافقين فأربعُ مراتبَ: بالقلْبِ واللِّسان والمال والنفس، وجهادُ الكفار أخصُّ باليد، وجهادُ المُنَافقين أخصُّ باللسان .

وأَمَّا جهادُ أربابِ الظُلْم والبِدَع والمُنْكرَات فثلاثُ مراتب: الأولى باليد، فَإِنْ عجز انتقلَ إلى اللسان، فإنْ عجَز جاهد بقَلْبه، فهذه ثلاثَ عشْرَةَ مرتبةً من الجهاد «**مَنْ مَاتَ ولَمْ يَغْزُ ولَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَه بِالغَزْوِ مَاتَ علَى شُعْبَةٍ مِنَ النفاق**»(١)،

ولا يتُّم الجهادُ إلاَّ بالهِجْرة، ولا الهِجْرةُ ولا الجهادُ إلاَّ بالإيمان، والرَّاجُون رحمةَ الله هم الذين قامُوا بهذه الثلاثة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢١٨)﴾ [البقرة]»(٢).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(١١٠)﴾ [النحل]،

وقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٩) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ

---

(١) م(١٩١٠/١٥١٧/٣)، د(٢٤٨٥/١٨١/٧)، ن(٦/٨) .

(٢) زاد المعاد(٥-٣/١١).

وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ [التوبة]،

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾ [الأنفال]،

عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِه فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَاد، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّه أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّه أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»(١)،

وعَنْ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: " أَنَا زَعِيمٌ لِمَنْ آمَنَ بِي وَأَسْلَمَ وَهَاجَرَ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّة وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّة وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّة وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى غُرَفِ الْجَنَّة مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَلَمْ يَدَعْ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا يَمُوتُ حَيْثُ شَاءَ أَنْ يَمُوتَ »(٢).

---

(١) صحيح [ص.ن:٣١٣٤]، ن(٢١و٢٢/٦).

(٢) صحيح [ص.ن:٣١٣٣]، ن(٢١/٦).

وعن قتادة قال: "خِيارُ هذه الأُمَّة جعلَهُم اللهُ تعالى أهلَ رجاءٍ كما تَسْمَعُون»(١)،

"وإنَّما أثبت لهم الرَّجاءَ دون الفَوْزِ بالمُرْجُو فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ(٢١٨)﴾ [البقرة]، ولم يقل: ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ(٧١)﴾ [التوبة]،

للإشارة إلى أَنَّ العملَ غيرُ مُوجبٍ للفَوْزِ، إذ لا استحقاقَ به ولا يدلُّ دلالةً قطعيَّةً على تحقُّق الثواب، إذ لا علاقَة عقليَّةً بينهما، وإنَّما تفضُّلٌ منه تعالى، لا سيِّما والعبرةُ بالخَواتيم، فلعلَّه يَحْدُثُ بعدَ ذلك ما يُوجب حُبُوطَ العمل، كما وقعَ لبعْضِهم والعياذ بالله، فلا ينبغي الاتِّكالُ على العمل»(٢)، ولذلك قال النبيُّ ﷺ : "**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: لاَ وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(٣).

ومَن أجل ذلك كان الأبرارُ الأخيارُ يجتهدون في طاعةِ الله على خَوْفٍ من الله كما وصفهم الله تعالى بقوله:

[المؤمنون]،

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قَالَتْ: عَائِشَةُ أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ قَالَ: "لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ»(٤)

---

(١) الدر المنثور(١/٦٠٥).

(٢) الألوسي(٢/١١١).

(٣) متفق عليه: خ(١٠/١٢٧/٥٦٧٣)، م(٢٨١٦/١٢٦٩و٢١٧٠/٤).

(٤) صحيح [ص.ت:٣١٧٥]، ت(٥/٩/٣٢٢٥)، جه(٤١٩٨/١٤٠٤/٢).

وعن الرَّبيع بن أنس قال: "هؤلاء خيارُ هذه الأُمَّةِ ثم جعلَهم اللهُ أهلَ رجاء، إنَّه مَنْ رجَا طَلَب، ومَنْ خاف هَرب"(١)، "والرَّجاء معه خَوْف، كما أَنَّ الخَوْفَ معه رجاء"(٢).

فالذي يرجُو بلُوغَ الأمل يخاف أَنْ لا يُدْرِكَه، والذي يخاف أَنْ لا يُدْرِكَ يرجُو أَنْ يبلُغ، فالرَّجاءُ والخَوْفُ قرينان، وهما جَناحَان يطيرُ بهما المسافرُ إلى ربِّه، فيعملُ بطاعَةِ الله على نُورٍ من الله يرجُو رحمةَ الله، ويَتْرِكُ معصيةَ الله على نُورٍ من اللهِ يخْشَى عقابَ الله، وكانَ حقاً على الله أَنْ يبلِّغ الرَّاجين ويؤمِّن الخائفين:

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنِّي أَرْجُو اللَّهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ"(٣).

"وقد ختم ربُّنا سبحانه الآيةَ بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢١٨)﴾ [البقرة]، فقدَّم المَغْفِرَة على الرَّحمة لأَنَّ درءَ المَفاسدِ مُقَدَّمٌ على جَلْبِ المصالح"(٤)،

ولولا مغفرتُه ما أدْخَلهم في رَحْمَته، ولذلك قال تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٣٥)﴾ [الزمر]،

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(١٣٦)﴾ [آل عمران]،

---

(١) الدر المنثور(١/٦٠٥).

(٢) القرطبي(٣/٥٠).

(٣) حسن: (ص.ت:٩٨٣]، ت(٢/٢٢٧/٩٨٨)، جه(٢/١٤٢٣/٤٢٦١).

(٤) الألوسي(٢/١١١).

وفي الحديث: "إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ ﴿هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)﴾ [هود]"[١].

* * *

(١) متفق عليه : خ(٥/٩٦/٢٤٤١)، م(٤/٢١٢٠/٢٧٦٨).

حاسبوا أنفسكم قبل أنْ تحاسبوا

قال تعالى: ﴿لِلَّه مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ مَنْ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّه وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّه وَمَلاَئكَته وَكُتُبِه وَرُسُله لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد مِنْ رُسُلِه وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِه وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْت مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٢٨٦)﴾[البقرة]،

هذه هي خَواتِيمُ سُورة البقرة، وأولاهنَّ قد تضمَّنت من الأسْرارِ والأحْكامِ الشَيء الكثيرَ الموجبَ للوقُوفِ عندَها وتأمُّلِها.

قال العُلماء في بيان سرِّ خَتْم السُّورة بهذه الآية: "إنَّ الله تعالى ضَمَّن السُّورةَ أشياءَ كثيرةً من عِلْم الأصول وهو التَّوحيدُ والنُّبوة والمعاد، وأشياءَ كثيرةً من عِلْم الفُروعِ وهي الصَّلاة والزَّكاة، والصَّوم والقِصاص، والحجِّ والجهاد، والحيْضُ والطَّلاق، والعِدَّة والخُلْع، والإيلاء والرَّضاعة، والرِّبا والبَيْع، وكيفيةُ المُداينة، فناسبَ تكليفُه إيانا بهذه الشرائع أنْ يَذْكُرَ أنَّه تعالى مالكُ ما في السموات وما في الأرض، فهو يُلزِم مَنْ شاء من مملوكاته بما شاء من تعبُّداته وتكليفاته، وليسَ لأحدٍ أنْ يقولَ المالُ مالي أتصرَّف فيه كيفَ أشاء، بل المالُ مالُ الله، وهو نفسُه عبدُ الله، فيجبُ على عبدِ الله أنْ يتصرَّف في مالِ الله وِفْقَ مُراد الله، فإنْ خالفَ ذلكَ وأنْفقَ المالَ، في غير مرضاة الله أخذه الله"(١).

---

(١) انظر تفسير الرازي (٧/١٣٤)، البحر المحيط(٢/٣٥٩).

" أمَّا مناسبةُ الآية لَمَا قبلَها فإنَّ ما سبَقها هو قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٢٨٣)﴾ [البقرة]، فلَمَّا أخبرَهم بعِلْمه بأعمالِهم ذكَر لهم ما يَجْري مَجْرَى الدَّليل على إحاطةِ علِمه بهم فقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ(٢٨٤)﴾ [البقرة]،

إذا كان ما فيهما مُلْكَه وهو خَالِقُه فلابُدَّ للخَالِقِ أَنْ يُحيط علماً بما خلَق، وأَنْ لا يكونَ أحدٌ أعلمَ بخَلْقه منه"[1]، كما قال تعالى: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٤)﴾ [الملك].

واللاَّم في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ لامُ المِلْك، وهي تُفيدُ أَنْ كلَّ شيءٍ في السموات وفي الأرض مِلْكٌ لله تعالى.

وقد كَثُر في القرآن الكريم تقريرُ هذه الحقيقةِ وهي أَنَّ الكَوْن وما فيه مِلْكٌ لله وأنَّ الله يتصرَّف فيه كيف يشاء.

ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى(٦)﴾ [طه]،

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ(١١٦)﴾ [البقرة]،

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢٧)﴾ [آل عمران]،

---

(١) المصدر السابق.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٥٠)﴾ [الشورى]،

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١)﴾ [الملك]،

فالمَالِكُ في الحقيقةِ هو الله، والمَلِكُ هو الله:

وما المالُ والأهْلُونَ إلاَّ وَدائِعُ ولابُدَّ يوماً أَنْ تُرَدَّ الودَائِعُ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الأُخْرَى ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ"(١).

فكونُوا عبادَ الله أُمنَاءَ على ما في أيديكم من مال الله، واستَخْدِمُوه في طاعة الله، وإيَّاكم أَنْ تخُونوا الله بإنْفَاق ماله في مَعْصيته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٨)﴾ [الأنفال].

عَنْ خَوْلَةَ الأَنْصَارِيَّةِ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ(٢٨٤)﴾ [البقرة]، فالإبداءُ والإخفاءُ بالنِّسبة له سبحانه سواء، لأَنَّ عِلْمَه بالأشياءِ سبقَ

---

(١) م(٢٧٨٨/٢١٤٨/٤)، د(٤٧٠٦/٥٧و٥٨/١٣)، واللفظ له.

(٢) خ(٣١١٨/٢١٧/٦).

وجُودَها، بخلافِ عِلْم غيْره، فإنّه لا يعلم الشيءَ إلاَّ بعد وُجوده، وإذا أُخفي خَفِيَ عليه وغاب عنه.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"(١)،

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" (٢).

فهو سبحانه يعلَم ما كانَ وما يكُون وما سيكُون، ويعلمُ المَعْدُوم لو كان كيْف كان يكون، ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**(١٢)﴾[الطلاق].

ولذلك لا فَرْق عنده سبحانه بيْن من أَخْفَى ومن أسرّ، ومن أبْدى ومن أظهر، قال تعالى: ﴿**وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**(١٣)﴾[الملك]،

وقال تعالى: ﴿**سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ**(١٠)﴾[الرعد]،

وقال تعالى: ﴿**أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**(٥)﴾[هـود].

---

(١) صحيح: [ص.د:٣٩٣٣]، د(٤٦٧٥/٤٦٧و٤٦٨/١٢)، ت(٢٢٤٤/٣١٠و٣١١/٣).
(٢) م(٢٦٥٣/٢٠٤٤/٤)، ت(٢٢٤٥/٣١١/٣).

وقد أفادت الآيةُ أَنَّ الله سيُحاسِبُ العبادَ على ما أَخْفَوْا في صدُورهم كما يُحاسِبُهم على ما أظْهَرُوا من أعمالهم.

فالقلوبُ مأمورةٌ منهيَّةٌ كالجوارح، ومما أُمِرَت به، من الأعمال : المحبَّة والإنابة، والإخلاصُ والخشْيَة، والإيمانُ باللهِ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

ومما نُهيت عنه من الأعمال الكفر والتَّكذيب، وبغُضُ اللهِ ورسوله، والاستكبارُ عن متابعته، والحِقْد والحَسد، والرِّياء والنفاق.

فمن أسرّ الإيمانَ ومحبَّة اللهِ ورسولِه يُحاسِبُه الله، ومن أسرّ الكُفْر وبُغْضَ اللهِ ورسولِه، وبُغْضَ أوليائِه يُحاسِبُه الله، والمؤمنُ إذا أسرّ ما يُبْغِضُه اللهُ من الرِّياء والحِقْدِ والحَسد ونَحْوِ ذلك يُحاسِبُه الله.

وبهذا يُعْلم أَنَّ الأعمالَ ظاهرةٌ وباطنة، وأَنَّ الباطنَة أعظمُ خطراً من الظاهرة، بل إنَّ الأعمالَ الظَّاهرة لا يُعْتَدُّ بها دُون عَملِ الباطن، فمن أظْهَر الصَّلاة والصِّيامَ ومتابعةَ الرسول ﷺ وقلبُه مَنْطَوٍ على الكُفْرِ باللهِ ورسوله، وبُغْضِ اللهِ ورسُوله، والاستكبارِ عن عبادةِ الله ومُتابعة رسوله لا يُعْتَدُّ بظاهِر أعماله .

والمُؤْمِنُ الذي يحبُّ اللهَ ورسولَه من قَلْبه إذا عَمِلَ بجَوارِحه أعمالاً لم يَعتقِدْها القلبُ ولم يَنْوِها لم يؤاخذ بها.

فالنَّائم قد يتكلَّم ويفعل، وقد يفعلُ الإنسانُ ما حُرِّم عليه ناسياً، فهذا لا يؤاخذ بظاهِر عمله، مادام قلبُه لم يَعتَقِدْه ولم يَنْوِه.

وما يُلْقَى في قَلْبِ المؤمنِ من هواجسَ ووساوسَ لا يُؤاخَذ بها ما لم يعتَقِدْها كما في الحديث : **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ**

تَجَاوَزَ لأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ»(١).

وقولُه تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ يَشَاءُ(٢٨٤)﴾ [البقرة] يعني: فيَغفِرُ اللهُ بفضله لمن يشاء من أهلِ مغْفرَته ممَّن وعدَهم بذلك كما قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا(٢٥)﴾ [الإسراء]،

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى(٨٢)﴾ [طـه]،

وكما في الحديثِ القدسي: " **يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»**(٢).

وأهلُ الكبائر الذين أصرُّوا ولم يستَغْفِرُوا أمْرُهم إلى الله، إنْ شاء غفرَ لهم وعفَا عنهم بفَضْله، وإنْ شاء عذَّبهم في النَّار بعَدْله ثم يُخْرِجُهم منها برحمتِه وشفاعة الشَّافعين من أهلِ طاعته.

فمجرَّد المُحَاسَبةِ لا يقتَضِي المُؤاخذَة كما في الحديث:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ! حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»(٣).

---

(١) متفق عليه: خ(٦٦٦٤/٥٤٨و٥٤٩/١١)، م(١٢٧/١١٦و١١٧/١)، ت(١١٩٤/٢٣٨/٣)، ن (١٥٦و١٥٧/٦)، د(٢١٩٤/٢٩٣و٢٩٤/٦)، جه(٦٥٨/٢٠٠/١).

(٢) حسن :[ص.ت:٣٥٤٠]، ت(٣٦٠٨/٢٠٨/٥).

(٣) متفق عليه: خ(٢٤٤١/٩٦/٥)، م(٢٧٦٨/٢١٢٠/٤).

وهذه الآيةُ مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٢٩)﴾ [آل عمران]،

ومثلُ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤٠)﴾ [المائدة].

وقولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٨٤)﴾ [البقرة]، يَدْخُلُ فيه المحاسبةُ والمَغْفِرَةُ والمُؤاخذة.

وقد دلَّت هذه الجُملَةُ على كمال قُدْرةِ الله عزَّ وجلَّ، ودلَّت ما قبلَها على كمالِ مُلْكِه ومَلَكُوته، وكمالِ عِلْمِه وإحاطتِه، والمَوْصُوفُ بهذه الصفات لابُدَّ أَنْ يكون إلهاً ويجب على كل عاقلٍ أَنْ يدين له بالعُبوديَّة والمحبَّة، وأَنْ يخضعَ لأوامره ونواهيه خَوْفاً من مُحَاسَبته ومُؤاخَذته.

ولقد ثَقُلَتْ هذه الآيةُ على أصحابِ رسُولِ الله حين أُنْزِلَتْ عليه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلاَةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا** ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ **فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ** ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ **قَالَ: نَعَمْ** ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ **قَالَ: نَعَمْ** ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ **قَالَ نَعَمْ**»(١).

وهذه بركَةُ السَّمْعِ والطَّاعةِ للهِ ورسولِه مهما بدا الأمرُ ثقيلاً والتَّكليفُ شاقاً، فمن وطَّن نفسَه على السَّمع والطَّاعة وسُرْعَة الاسْتِجَابة والمُبادَرةِ إلى العمل والتَّطبيق والتَّنفيذ مهما كان الثَّمن كان جزاؤه عظيماً، وفي ذلك يقولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا(٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا(٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا(٦٩)﴾ [النساء].

وهذه الآياتُ الخواتيم لها فضلٌ عظيمٌ :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ: "أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ"(٢).

---

(١) م(١٢٥/١١٥و١١٦/١).

(٢) م(٨٠٦/٥٥٤/١).

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»(١).

وَعَنْ النُّعْمَانِ ابْنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَلاَ يُقْرَأَانِ فِي دَارٍ ثَلاَثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ»(٢)

* * *

---

(١) متفق عليه: خ (٩/٥٥/٥٠٠٩) ، م (١/٥٥٥/٨٠٨) ، ت (٤/٢٣٤/٣٠٤٣) ، د(٤/٢٧٤/١٣٨٤)، جه(١/٤٣٦/١٣٦٩).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢٨٨٣]، ت(٤/٢٣٥/٣٠٤٤).

شمولية الإسلام

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)﴾ [البقرة]،

هكذا عِشْنَا مع سُورة البقَرة حَوْليْن كاملَيْن، وقد رأيْنا من خلالَها أنَّ الإسلامَ هو دينُ الفطْرة، وأنَّه عقيدةٌ وعبادةٌ ومعاملة، عقيدةٌ تَصِلُ الإنسانَ باللهِ عزَّ وجلَّ ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)﴾ [الشورى]،

وعبادةٌ يؤدِّيها الإنسانُ وفاءً بحقِّ الله الذي خلقَه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصرَه، يرجُو بها رضوانَ الله والجنَّة، ويخاف إنْ تركَها عقابَ اللهِ والنار، فهو دائماً كما وصفَ اللهُ أولياءه ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ (٩)﴾ [الزمر]،

وهو مع ذلك مُحْسِنٌ في مُعاملة النَّاس كما أمره اللهُ عزَّ وجلَّ، شِعَارُه دائماً ﴿لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ [البقرة] ،

فالعَدْلُ عِنْدَه أساسُ المُعاملة، وهو مع ذلك قد يَعْفُو عمن ظلَمه، ويصلُ من قطعه، ويحلُم على من يجهل عليه، لأَنَّ الإسلامَ أمرَه بالإحسان فيما بيْنه وبيْن الله وفيما بيْنَه وبيْن الناس، وأخبرَه أَنَّ الله يُحِبُّ المُحْسنين، وأَنَّ الله يَجْزي المحسنين بالإحسانِ إحساناً كما قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾ [يونس].

وفي هذا الدرس الأخير تجئ هذه الآيةُ حاملةً هذا الأمرَ الإلهيَّ للمؤمنين بعد ما عرفوا حقيقةَ الدِّين أنْ يدخلوا في الدِّين كلِّه، وبأنْ يأخذوا الدِّين جملةً وأنْ لا يجعلوه عِضين، يأخذون منه ما يشاءون ويتركون ما يشاءون ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً(٢٠٩)﴾ [البقرة]،

قال جماعةٌ من السَّلف: معنى ذلك ادْخلوا في الإسلامِ جميعِه وكلِّه ولا تتركوا منه شيئاً.

وأوَّل مفاهيم هذه الدَّعوة أنْ يستَسْلِمَ المؤمنونَ لربِّهم في ذَواتِ أنفسهم وفي الكبير والصغير من أمْرِهم استسلاماً مطلقاً حتى لا تبقى بعد ذلك بقيةٌ ناشِذَةٌ من نِّيةٍ أو عملٍ، أو رغبة أو رهبة، لا تستَسْلم لله ولا ترضى بقضائه وحكمه، استسلاماً تصحبُه الطَّمأنينةُ، ويوافقه الرِّضا لكل ما قدَّر الله تبارك وتعالى،

وأصل السِّلْم الخُضُوعُ والانقياد، قال الله تعالى في حقِّ إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١٣١)﴾ [البقرة]، ولذلك لما رأى إبراهيمُ عليه السلام في المنام أنَّه يذبحُ ولدَه وحيدَه إسماعيلَ استسلم لأمْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ورَضِيَ بقضائه، وبادر إلى الامتثال والطاعة، ولكنَّه أراد أنْ يَعْرِضَ الرُّؤيا على ولده لا ليستشيرَه في الإجابة والامتثال والطاعة، ولكنَّه عرَضها ليُشاركَه ولدُه في الإسلام والخُضوع والانقياد فيشاركه أيضاً في الأجر والثواب ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ(١٠٢)﴾ [الصافات]،

وطرحَ إبراهيمُ إسماعيلَ وأخذ السِّكين ليذبح وبذلك حصل الخضوعُ والانقيادُ الذي أراده الله تبارك وتعالى، فعبَّر الله عن خُضُوعهما وانْقيادِهما بالإسلام فقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣)وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤)قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٠٥)﴾ [الصافات].

فمعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا ادْخُلوا في السِّلم كافة، أي استَسْلِمُوا لله تبارك وتعالى اسْتِسْلاماً مُطْلَقاً، وأطيعوا اللهَ عزَّ وجلَّ في كلِّ ما أمركم به بأَنْ تمْتَثِلوه وتَفْعلُوه، وفي كلِّ ما نهاكم عنه بأَنْ تَتْركُوه وتَجْتَنِبُوه، ولا تَتَّبِعُوا خُطوات الشَّيطان فيما يدْعُوكم إليه من الفُسوق والعِصْيان عن أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ بتَرْك ما به أمر، أو فِعْل ما عنه نهى وزجر.

ادْخُلوا في السِّلم كافةً، استَسْلِمُوا لله عزَّ وجلَّ وأطيعوه طاعةً مطلقةً، واقْبَلُوا منه كلَّ ما شرع لكم من العقيدة والعبادة، والأخلاق والمعاملة، والجهاد والاقتصاد، والسياسة والاجتماع، ونحو ذلك من كلِّ ما شرع اللهُ تبارك وتعالى،

لا تأخذُوا العقيدةَ وتتركوا العبادة، لا تأخذُوا العقيدَة وتتركُوا العمل، فإنَّ العملَ الصَّالحَ عنوانُ سلامةِ العقيدة، إنَّ العقيدَة إنْ سلِمَتْ وصَحَّتْ أنْتَجتْ ولابُدَّ وأثْمرَت العملَ الصالح. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾ [إبراهيم]،

فإذا صَحَّتِ العقيدةُ في القلبِ صلَحَ العمل على الجوارح، ولذلك اقترن العَملُ الصَّالحُ بالإيمانِ في كثيرٍ من آيِّ القرآن الكريم، وشَهِدَ اللهُ للموفَّقين الذين جمعوا بين العقيدةِ الصَّحيحة والعملِ الصَّالح ببلوُغ حقيقةِ الإيمان فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾ [الأنفال]، ثم كرَّر هذه الحقيقة فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾ [الأنفال]،

كما شهد سبحانه لأرباب العَمل الصَّالح بالصِّدق في العَقيدة فقال تعــالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِــأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(١٥)﴾ [الحجرات]،

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِــنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِــي الرِّقَــابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَــدُوا وَالصَّــابِرِينَ فِــي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُــونَ(١٧٧)﴾ [البقرة]،

فالعملُ الصَّالِحُ هو الذي يدلُّ على صِدْق الهُدى وصحّة العقيدة ولذلك قال النبي ﷺ : "قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ"(١)، فإِنَّ الاستقامَة عنوانُ صِدْقك في قولــك آمنْتُ بالله، فإذا لم يكن ثَمَّ عملٌ صالحٌ ففي صحَّةِ العقيدة نظر وحَوْلَها علامــاتُ استفهام كثيرة .

فلابُدَّ مع العقيدة من العمل الصالح، ولابُدَّ مع العمل الصالح من العقيــدة السليمة، فلا يجوزُ لمُسْلمٍ أَنْ يقول: من قال لا إله إلاَّ الله دخلَ الجنة، ويتَّكِلُ على هذا ويَدَُع العمل .

ولا يجوز لمسلمٍ أَنْ يجتهدَ في العمل ويُهْمِلَ العقيدة ولا يُبالي بما يقعُ فيه من الشِّرك الأكبرِ الذي يُنافي العقيدة، فإِنَّ العملَ الصَّالح لا يُسْمِنُ ولا يُغْني من جوع إذا لم تَصْحَبْه العقيدةُ السَّليمة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢)فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤)يَتِيمًــا ذَا

---

(١) م(١/٦٥/٣٨).

مَقْرَبَةٍ (١٥)أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(١٧)﴾ [البلد]،

فلابُدَّ مع العمل الصَّالح من سلامةِ العقيدة، ولابُدَّ مع الاجتهاد في العبادة من الحِرْص على التوحيد حتى يظلَّ خالِصاً نقياً لا تشوبُه شائبةُ الشِّرك، إنَّ الله بيَّن في كتابه أنَّ الشرك يُحْبِطُ عملَ العاملين ولو كانوا نبيِّين فقال تعالى بعد أَنْ ذكرَ كوكبةً من الأنبياء: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٨٨)﴾ [الأنعام]،

ثم خاطبَ نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٦٥)﴾ [الزمر]،

ولذلك قال بعضُ المفسِّرين في قولِه تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ(٣)﴾ [الغاشية]، قالوا: كان أصحابُ هذه الوُجوه يعملُون للهِ بالطَّاعة والعِبَادةِ حتى كان يمسُّهم النَّصب والتَّعب من كثْرةِ العمل وطُول العبادة، ولكنَّهم كانوا أَشْرَكوا بالله عزَّ وجلّ فلم يُغْنِ عنهم عملُهم ولم تُغْنِ عنهم عبادتُهم وكانُوا من أهلِ النار.

فاحْرِصْ أيُّها المسلمُ على سلامةِ عقيدتك وصَفائها ونقائها وكُنْ على حذرٍ من كلِّ ما يشوبُها، كُنْ على حَذَرٍ من الشِّرك باللهِ عزَّ وجلَّ.

واعْلَمْ أنَّ من الشِّركِ الأكبرِ الذي لا يغفره الله أبداً أَنْ يتَّخِذَ الإنسانُ من دون الله ولياً يحبُّه كحُبِّ الله فيرجُوه، ويخافُه، ويخضَعُ له وينقاد ويستسلم كما يُذلُّ نفسَه لله، فهذا كلُّه لا يجوز.

وكما لا يجوز الرُّكوعُ والسُّجودُ لغيرِ الله لا يجوز الذَّبحُ والنَّذر لغَيْر الله فإنْ اللهَ تعالى قال: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢)﴾ [الكوثر]، وأمر اللهُ رسولَه أَنْ يقولَ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(١٦٣)﴾ [الأنعام]،

فلابُدَّ من سلاَمة العقيدة ، ولابُدَّ من صالح العمل، فمن جمَعهمَا فاز ونجى ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر].

وكما أَنَّه لابُدَّ من سلامة العقيدة وصالح العمل، كذلك لابُدَّ أَنْ تكون معامُلاتُك كلُّها خاضعةً للأحكام الشرعية، ولابُدَّ أَنْ تكونَ الشَّريعةُ هي المُهَيمْنَةُ على جميع حياتنا العملية .

وإِنَّ من شرِّ ما ابتُليتْ به الأمَّة عَزْلَ الدِّين عن الحياة، وعدَم تحكيمِ شَرْع الله وتزايدَ الأَلْسِنَة بقولها: هذه نَقْرَةٌ وهذه نَقْرَةٌ، يعني الصَّلاةُ شيء، والبَيْعُ شيء، الصَّلاة شيءٌ، والنِّكاحُ والطَّلاق شيء، الصَّلاة شيء والحَرْب والسِّياسَة شيء، فهم يُصلّون ويصُومون لأَنَّ الصلاةَ والصَّوم عبادة لله، أَمَّا كيف تبيع؟ وكيف تشتري؟ وكيف تتزوَّج؟ وكيف تُطلِّق؟ وكيف تُعاملُ الأولياءَ والأعداء أعداء الدين فما للدِّين والحياة؟ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ (٨٧)﴾ [هود]،

وهذه والله رِدّة عن الدِّين وخُروجُ عن شَرْعِ ربِّ العالمين، ولابُدَّ أَنْ تكون مُعاملاتُ المُسْلِم كلُّها بيعاً وشراءً ونكاحاً وطلاقاً ونحوُ ذلك وِفْقَ شريعةِ الله، ومَنْ خالَف دخل النار.

خذ مثلاً قولَ الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ (٢٧٥)﴾ [البقرة]، لماذا أحلَّ الله البيعَ لأَنَّ الإنسانَ قد يتطلَّع إلى ما في يد الغير ويَرْغَب فيه ويحْرِصُ عليه فأحلَّ الله البيعَ ليشتريَ الإنسانُ ما يرغَبُ فيه ممَّا في يد الغير ويدفَعَ الثَّمنَ عوَضاً، فمن خالفَ وأخذَ مالَ الغيرْ بطريقٍ غيرِ مشروعٍ دخلَ النار، كما قال الواحدُ القهار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)﴾ [النساء]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا(١٠)﴾ [النساء]،

ولابُدَّ في البيْع والشِّراء من النُّصْح والصِّدق فمنَ خالَف فقد تبرَّأ منه النبيَّ ﷺ حيث قال: "مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا"(١)،

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا"(٢).

كذلك النِّكاحُ والطلاقُ لابُّد أَنْ يكونَ وفْقَ شريعة الله، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً(٢٢)﴾ [النساء]،

ويقول النبيُّ ﷺ في نوع من أنواع النكاح: "**لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ**"(٣).

والمُحَلِّل هو الذي يتزوَّج المطلَّقة ثلاثاً مُدَّةً ثم يطلِّقها لتَحلَّ لمُطَلِّقها الأوَّل، وهذان الرَّجلانِ ملْعُونان على لسانِ محمدٍ ﷺ فلا يحلُّ هذا النِّكاح، فلابُدَّ أَنْ يكون نِكَاحُنا وطلاقُنا وِفْقَ شَرْع الله يقول الله تعالى: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٢٩)﴾ [البقرة]،

---

(١) م(١٠١/٩٩/١)، ت(١٣٢٩/٣٨٩/٣).

(٢) متفق عليه: خ(٤١١٠/٣٢٨/٩)، م(١٥٣٢/١١٦٤/٣).

(٣) حسن: [ص.جه:١٥٧٢]، جه(١٩٣٦/٦٢٣/١)، ك(١٩٨/٢)، هق(٢٠٨/٧).

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا(١)﴾ [الطلاق].

فيا عبادَ الله ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ(٢٤)﴾ [الأنفال]، وهو يخاطب أحياءً، ويقولُ لهم استجيبوا لما يُحْيِيكم فتبيَّن أَنَّ الحياةَ التي يدْعُوهم إليها غيرُ الحياة التي يَحْيَونْها، وأَنَّ المرادَ بها الحياةُ الطيِّبةُ التي يكرمهم بها نتيجةَ استجابتهم له تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٧)﴾ [النحل]،

فالحياةُ الطيِّبة والسَّعادة والهناءُ في الاستجابةِ لله ولرسولِه وفي الالتزامِ بشرع الله والدخول في السلم كافة .

والبؤس والشَّقاء في الإعراض عن ذِكْر الله والتَّفريق في دين الله بيْن العقيدة والمُعاملة قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى(١٢٧)﴾ [طه].

* * *

قائمة المراجع

القرآن الكريم

١- اقتضاء العلم العمل / الخطيب البغدادى . ط دار الأرقم – الكويت .

٢- أحكام الجنائز / الألبانى . ط المكتب الإسلامى ١٩٨٦ .

٣- أحكام القرآن / ابن العربى . ط دار الفكر / بيروت .

٤- أحكام القرآن / الجصّاص . ط دار الفكر / بيروت .

٥- أصول الفقه / عبد الوهاب خلاف . ط مكتبة الدعوة الاسلامية . شباب الأزهر .

٦- إحياء علوم الدّين / الغزالي . ط دار الفكر / بيروت

٧- إعلام الموقعين / ابن القيم . ط دار الجيل / بيروت

٨- إغاثة اللهفان / ابن القيم . ط دار المعرفة / بيروت

٩- آداب الزفاف / الألباني . ط المكتبة الإسلامية ١٤٠٩

١٠- الأدب النبوي/ محمد عبد العزيز الخولي . ط دار القلم / بيروت .

١١- الأذكار / النووي . مكتبة مصطفى البابى الحلبي / مصر .

١٢- الإيمان / ابن تيمية . ط المكتب الإسلامي / بيروت / ١٣٩٩هـ .

١٣- البحر المحيط / أبو حيان الأندلسى . ط دار الفكر / بيروت .

١٤- البداية والنهاية / ابن كثير . ط . دار الفكر/ بيروت .

١٥- البرهان في علوم القرآن / محمد بن عبد الله الزركشي . ط . دار المعرفة بيروت .

١٦- تحريم آلات الطرب / الألبانى / ط . مكتبة الدليل .

١٧- تربية الأولاد فى الإسلام / عبد الله علوان / ط . دار السلام – حلب١٤٠١ .

١٨- تفسير القرآن العظيم / ابن كثير . ط دار المعرفة ١٩٨٣ .
١٩- تلبيس إبليس / ابن الجوزى . ط دار الفكر / بيروت .
٢٠- تهذيب مدارج السالكين / ابن القيم / ط . وزارة العدل الشؤون الاسلامية والأوقاف / الإمارات .
٢١- تيسير الكريم المنان / السعدي . ط الرئاسة العامة بالسعودية ١٤٠٤
٢٢- تيسير مصطلح الحديث / الطحان / ط مكتبة المعارف . الرياض
٢٣- التاريخ الإسلامي / د. أحمد شلبي . مكتبة النهضة المصرية .
٢٤- جامع الأصول / ابن الأثير . ط دار الفكر ١٤٠٣ هـ .
٢٥- جامع البيان / الطبرى ط دار الفكر ١٤٠٥ هـ .
٢٦- جامع العلوم والحكم / ابن رجب الحنبلي . ط دار الفكر .
٢٧- الجامع لأحكام القرآن / القرطبي . ط دار الكتب المصرية .
٢٨- الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع . الخطيب البغدادي . ط . مكتبة المعارف ١٤٠٣ .
٢٩- الجهاد . د. أحمد الحوفي . المجلس الأعلي للشئون الإسلامية .
٣٠- الجواب الكافي / ابن القيم . ط دار الكتب العلمية .
٣١- الحرب والسلام في الإسلام فى ضوء سورة محمد عليه السلام . رسالة ماجستير للمؤلف . مكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة .
٣٢- الدّر المنثور / السيوطي . ط دار الفكر .
٣٣- روح المعاني / الآلوسي .
٣٤- روائع البيان في تفسير آيات الأحكام. الصابوني .
٣٥- الرحيق المحتوم / المباركفوري .
٣٦- الرسالة الخالدة / عبد الرحمن عزام ط . وزارة التربية الأردن .
٣٧- الرياض النضرة / السعدي . ط الرئاسة العامة بالسعودية .

٣٨- زاد المعاد / ابن القيم . ط مؤسسة الرسالة ١٤٠٦ .
٣٩- سنن ابن ماجه .... دار الفكر ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ .
٤٠- سنن أبى داود (عون المعبود) دار الفكر - ط ٣ ١٣٩٩ هـ .
٤١- سنن البيهقى ... دار المعرفة .
٤٢- سنن الترمذى ... دار الفكر ط ٢ - ١٤٠٣ هـ .
٤٣- سنن الدارقطنى ... دار المحاسن للطباعة - القاهرة .
٤٤- سنن الدارمى ... حديث أكاديمى - باكستان ١٤٠٤ هـ .
٤٥- سنن النسائى ... دار الفكر .
٤٦- السلسلة الصحيحة ... الألبانى - المكتب الإسلامى - بيروت - ط ٤ - ١٤٠٥ هـ .
٤٧- السيرة النبوية ، ابن هشام ، دار إحياء التراث العربى .
٤٨- شرح الطحاوية ... ابن أبى العز (تعليق الألبانى) - المكتب الاسلامى بيروت ط ٦ - ١٤٠٠ هـ .
٤٩- شرح معانى الآثار. الطحاوى . دار الكتب العلمية- بيروت- ١٣٩٩هـ.
٥٠- صحيح ابن خزيمة ... الألبانى - المكتب الإسلامى - بيروت ط ١ - ١٣٩٥ هـ .
٥١- صحيح البخارى (فتح البارى) ... دارالمعرفة بيروت ط ٥ - ١٤٠٥هـ
٥٢- صحيح الجامع الصغير... الألبانى- المكتب الإسلامى- ط٣ - ١٣٨٨هـ
٥٣- صحيح الأدب المفرد ... الألبانى - دار الصديق- ط ٢- ١٤١٥ هـ
٥٤- صحيح سنن ابن ماجة ... الألبانى - مكتب التربية العربى لدول الخليج ط ٢ - ١٤٠٧ هـ .
٥٥- صحيح سنن أبى داود ... الألبانى - مكتب التربية العربى لدول الخليج ط٢ / ١٤٠٩ هـ .

٥٦- صحيح سنن الترمذى ... الألبانى – مكتبة المعارف – الرياض ط ٢ – ١٤٢٠ هـ .
٥٧- صحيح سنن النسائى ... الألبانى – مكتبة المعارف الرياض ط ٢ ١٤١٩هـ
٥٨- صحيح مسلم ... دار الفكر .
٥٩- صحيح مسلم بشرح النووي ... دار إحياء التراث العربى _ بيروت ط ٢ – ١٣٥٢ هـ .
٦٠- صفة صلاة النبي ﷺ / الألباني / ط مكتبة المعارف الرياض .
٦١- طريق الهجرتين . لابن القيم . المطبعة السلفية ط ٢ – ١٣٩٤ هـ .
٦٢- عارضة الأحوذي / ابن العربي . ط دار الكتب العلمية ١٤١٨ ز
٦٣- العقيدة الطحاوية (بتعليق الألبانى). المكتب الإسلامى ط١– ١٣٩٨هـ.
٦٤- فتح القدير / الشوكاني . ط دار الفكر .
٦٥- فتح المجيد / آل الشيخ . ط مؤسسة قرطبة .
٦٦- فضائل القرآن / ابن كثير . ط مكتبة ابن تيمية / القاهرة ١٤١٦.
٦٧- فقه السنة . سيد سابق – دار الفكر ١٩٧٧ م .
٦٨- فقه السيرة / الغزالي ط. دار القلم .
٦٩- في ظلال القرآن ... سيد قطب
٧٠- الفلسفة / د. عبد الحليم محمود . ط أنصار السنة .
٧١- الفوائد / ابن القيم . ط دار الكتب العلمية / بيروت .
٧٢- كشف الأستار عن زوائد البزار ... الهيثمى – مؤسسة الرسالة ط ٢ – ١٤٠٤ هـ .
٧٣- الكشاف . الزمخشري . ط دار المعرفة .
٧٤- لسان العرب ... دار صابر – بيروت .

٧٥- مجتمعنا المعاصر / محمد إبراهيم شقرة / ط المكتبة الإسلامية / الأردن
٧٦- مجموع فتاوى ابن تيميه ... جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم/ الحرمين
٧٧- محاسن التأويل ... القاسمى - دار الفكر ط ٢ - ١٣٩٨ هـ .
٧٨- مختصر تفسير المنار ... رشيد رضا - المكتب الإسلامى ط٢ - ١٤٠٤هـ .
٧٩- مختصر منهاج القاصدين... المقدسى- مكتبة دار البيان دمشق١٣٩٨هـ
٨٠- مستدرك الحاكم ... دار الكتب العلمية .
٨١- مسند أحمد (الفتح الربانى) .. البنا - دار الشهاب بالقاهرة .
٨٢- مصنف ابن أبى شيبة ... الدار السلفية - الهند - ١٩٩٩ هـ .
٨٣- مصنف عبد الرزاق ... المكتب الإسلامى ط ٢- ١٤٠٣ هـ .
٨٤- معالم التنزيل ... البغوى - دار الفكر ١٤٠٥ هـ ..
٨٥- مفاتيح الغيب ... الرازى - دار الفكر ط ٣ - ١٤٠٥ هـ ..
٨٦- مناهل العرفان فى علوم القرآن / محمد عبد العظيم الزرقاني . ط دار إحياء التراث العربى .
٨٧- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان... الهيثمى-دار الكتب العلمية- بيروت
٨٨- موارد الظمآن لدروس الزمان ... عبد العزيز السلمان - شركة الراجحى ط ٢ - ١٤٠٣ .
٨٩- المجتمع الرباني/ محمد إبراهيم شقرة. ط المكتبة الإسلامية / الأردن.
٩٠- المحلى . ابن حزم . ط دار الآفاق الجديدة / بيروت .
٩١- المعجم الأوسط ...الطبرانى- دار الحديث القاهرة ط ١- ١٤١٧ هـ
٩٢- المعجم الصغير ... الطبرانى -المكتب الإسلامى ط ٢- ١٤٠٥ هـ
٩٣- المعجم الكبير ... الطبرانى - مكتبة ابن تيمية القاهرة ..
٩٤- المفردات فى غريب القرآن/الراغب الأصفهاني.ط دار المعرفة/بيروت.

٩٥- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم/القرطبي . دار ابن كثير/دمشق .

٩٦- المغنى . ابن قدامة . الرئاسة العامة بالسعودية .

٩٧- الوسطية في القرآن الكريم. د. على محمد الصلابي. مكتبة الصحابة / الإمارات .

٩٨- نضرة النعيم – دار الوسيلة – جدة – ثغر ط ١ – ١٤١٨ هـ .

* * *

الفهـــــرس

الموضــــوع رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــوع رقم الصفحة

الموضـــوع | رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــوع	رقم الصفحة

* * *

شرح الرموز المستخدمة في التخريج والتحقيق

الرمز	الشـــرح	الرمز	الشـــرح
بز	البزاز	ص.خد	صحيح الأدب المفرد
ت	ترمذى	ص. د	صحيح أبى داود
جه	ابن ماجه	ص.نس	صحيح النسائى
حب	ابن حبان	طب	الطبرانى في الكبير
حم	مسند أحمد (الفتح الربانى)	طح	الطحاوى شرح معانى الآثار
خ	البخارى (فتح البارى)	طس	الطبرانى في الأوسط
خز	صحيح ابن خزيمة	طص	الطبرانى في الصغير
د	أبو داود (عون المعبود)	قط	الدارقطني
س.ص	السلسلة الصحيحة	كم (ك)	الحاكم
ش	مصنف ابن أبى شيبة	م	مسلم
ص.ت	صحيح الترمذى	مى	الدارمى
ص.جه	صحيح ابن ماجه	نس(ن)	النسائى
		هق	البيهقى